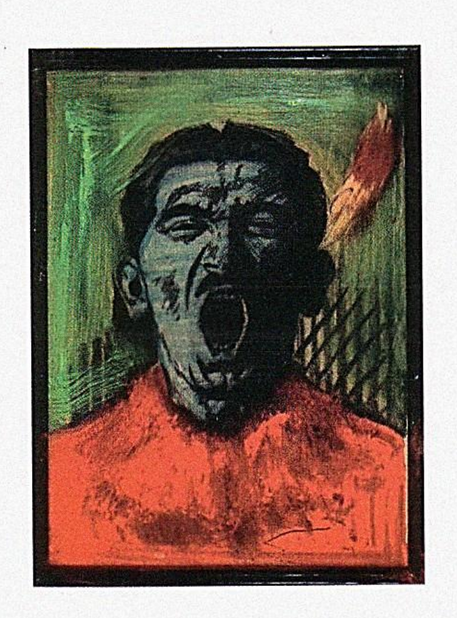
NIETZSCHE

فريدريك نيتشه

إرادة القوة

محاولة لقلب كل القيم



ترجمة وتقديم : محمد الناجي

أفريقيا الشرق

هذا الكتاب ترجمة عن النص الأصلي :
La volonté de puissance
Essai d'une transmutation de toutes les valeurs
de **Friedrich Nietsche**
L G F Livre de Poche (1991)

المؤلف : نيتشه

ترجمة : محمد الناجي

عنوان الكتاب : **إرادة القوة**

رقم الإيداع القانوني : 0349/2009

ردمك : 7-627-25-9981-978

أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر ، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 0522 - 13 98 25 0522 - الفاكس : 20 29 25 0522 - 80 00 44 0522
مكتب التصفيف التقني : الهاتف : 54 / 53 67 29 0522 - الفاكس : 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني : E-Mail : africorient@yahoo.fr

فريدريك نيتشه

إرادة القوة

محاولة لقلب كل القيم

ترجمة وتقديم : محمد الناجي

أفريقيا الشرق

الإهداء

إلى كل من يحمل في نفسه ذرة من نور يسعى بها إلى تبديد الظلمات التي تزحف علينا.

محمد الناجي ، من مواليد 1963 ببني سادن ، ضاحية فاس ، مجاز في اللغة الإنجليزية وآدابها .
صدرت له الترجمات التالية :

- العلم المرح ، أفريقيا الشرق 1993 ، (ترجمة مشتركة)
- أفول الأصنام ، أفريقيا الشرق 1996 ، (ترجمة مشتركة)
- إنسان مفرط في إنسانيته ، الجزء الأول ، أفريقيا الشرق 1998 .
- إنسان مفرط في إنسانيته ، الجزء الثاني ، أفريقيا الشرق 2001 .
- هكذا تكلم زرادشت ، أفريقيا الشرق 2006 .
- جينيالوجيا الأخلاق ، أفريقيا الشرق 2006 .
- الفلسفة في العصر التراجيدي عند الإغريق ، أفريقيا الشرق 2009 .
- ميلاد التراجيديا ، أفريقيا الشرق 2011 .
- إرادة القوة ، أفريقيا الشرق 2011 .

ولدى الناشر قيد الطبع :

- الفجر
- هذا هو الإنسان
- كتاب «Easy English» .
- صدرت له كذلك ، مع حسان بورقية ، ترجمة لرواية محمد نيد علي : «قطع مختارة (غراميات متعلم جزار)» عن دار الفنك . (رشحت لنيل جائزة الأطلس الكبير للترجمة سنة 2010) .

مقدمة المترجم

يسعدني اليوم أن أقدم القارئ العربي هذا الكتاب الهام في إطار مشروع ترجمة الأعمال الكاملة للفيلسوف الكبير فردريك نيتشه. إنه كتاب جمع نيتشه مادته كلها قبل أن يباغته الجنون الناتج عن مرض الزهري الفتاك، وأشرفت أخته إليزابيت على نشره مباشرة بعد وفاته، وذلك سنة 1900، وقام هنري ألبير بترجمته سنة 1903. لاقى الكتاب غداة صدوره نجاحا كبيرا، وأصبح مرجعا أساسيا لفهم فلسفة نيتشه وما قامت عليه من أفكار كالعدمية، والعودة الأبدية، والإنسان الراقي، ونقد الدين والأخلاق والسياسة والانحطاط.... سعى فيلسوفنا من وراء هذه الأفكار إلى إعادة بناء الأسس القيمية والأخلاقية والفكرية التي تقوم عليها الإنسانية في أوربا بوجه خاص. لذلك وجه نقده لكل ما يعرقل تمتع الإنسان بإنسانيته، وحريته وقوته وحياته على الأرض، ليس مجرد التمتع بالشهوات الحسية الرخيصة كما قد يتصور بعض المرضى، بل بمعرفة الإنسان لنفسه وترويضه الإيجابي لقوى الطبيعة، وبناءه لمجتمع سليم معافى يعج بالأقوياء الأصحاء - ليس بدنيا فحسب - الذين سيقودون الأحرار، وليس المرضى والعبيد أو القطيع، إلى حياة تكون جديرة بأن نحياها.

لما قررت ترجمة هذا الكتاب وجدت نفسي أمام عنوان يحتمل معنيين: إرادة القوة، وإرادة السلطة. وكان علي أن أختار عن اقتناع وأبرر اختياري.. رغم كون كلمة macht الألمانية تعني القوة والسلطة فالأمر الذي يرومه نيتشه ليس السلطة بكل تأكيد، فذلك تضييق لنطاق فلسفته وانحراف بها عن مسارها. القوة أكبر من السلطة، وليس كل ذي سلطة قويا بالمعنى الفلسفي الذي يقصده نيتشه. القوة أصل، والسلطة

نتيجة.. تتجلى القوة لدى الإنسان في الاستقلالية والإبداع، والتحكم في النفس، والالتزام بالفضيلة، ومغالبة الظروف، وقهر الصعاب، والسمو بنفسه، أو الرقي بها (لهذا أترجم ubermensch أو surhomme أو supermen بالإنسان الراقي وليس بالإنسان الأعلى أو السوبرمان، فالراقي قوي ومتحضر) نحو القمم التي تجعل من الإنسان سيد نفسه وسيد الأرض.

يقاس تقدم الأمم بالرقي الفكري الذي تحققه وليس بالمنجزات المادية على الأرض فقط. ولا يجادل اثنان في كون أمتنا لاتزال تتخبط في ظلمات التخلف، على مستوى العقل والسلوك والفكر، ومما يزيد طينها بلة تسلط التطرف على جسدها ينهشه كالسرطان، والحكومات تتفرج، أو تهرع في أفضل الأحوال إلى الإجراءات الأمنية، مستبعدة مقارعة الفكر بالفكر والحجة بالحجة للحد من هاته الأرضة الخطيرة؛ وتشتت جماهيرها بين فضائيات تنحو هذا المنحى، وأخرى تبث الفكر الخرافي، وثالثة ترى في العري والغناء المبتذل والرقص الخليع فنا يهذب النفوس ويسمو بها. إلى أين ؟ إلى قمة هاوية ما لها من قرار ولاشك. ما أحوج هاته الأمة المجيد ماضيها إلى قادة عظماء أقوياء، في الفكر والدين والسياسة، يعيدون تصحيح مسارها ويمضون بها نحو ما هي جديرة به ـ وهو أمر لن يتم بين عشية وضحاها بل يمتد على مدى عدة أجيال، ويتطلب بالفعل إرادة قوية لا تنثني ولا تلين ـ.

توطئة إجمالية

1

تقتضي منا الأشياء العظيمة الصمت حيالها، أو الحديث عنها بتعظيم: أي بتهكم وبراءة.

2

ما أرويه لكم هنا هو تاريخ القرنين الآتيين. أصف ما سيأتي، ما لن يأتي مخالفا لما أقوله: إنه تنامي العدمية. يمكننا منذ الآن أن نروي صفحة التاريخ هذه: ذلك أن الحتمية ماضية في إنجاز عملها في هاته الحالة. لقد أصبح هذا المستقبل يخاطبنا بلسان علاماته وتباشيره العديدة، والقدر المحتوم يعلن عن نفسه في كل مكان؛ وكل الأسماع مرهفة لسماع موسيقى المستقبل هذه. حضارتنا الأوربية بأكملها تهتز منذ أمد طويل تحت ضغط يصل حد التعذيب، وغم يكبر من عقد لآخر، وكأنها تريد أن تتولد عنها كارثة: قلقة وعنيفة وجموحة، أشبه ما تكون بنهر يريد بلوغ مصبه، لم تعد تفكر، بل أصبحت تخشى التفكير.

3

وعكس ذلك، فالذي يتكلم ها هنا لم يفعل شيئا إلى حد الآن سوى التفكير والإستغراق في التأمل: بصفته فيلسوفا ومتوحدا بالفطرة، فقد وجد مصلحته في الحياة بعيدا، على الهامش، وجدها في الصبر، وفي التأجيل والتأخير، مثل مفكر جسور وجريء غالبا ما تاه في متاهات العقل، مثل طائر نبوئي ينظر إلى الوراء حين يحكي

عن المستقبل، أول عدمي كامل في أوربا، ولكنه قد تجاوز العدمية، فقد عاشها — وإنه ليراها وراءه، وأسفل منه، وبعيدا عنه.

4

إذ لا ينبغي أن نخطئ في فهم معنى العنوان الذي يريد أن يتخذه لنفسه إنجيل المستقبل. « إرادة القوة. محاولة لقلب كل القيم» — تحمل هذه الصيغة في طياتها حركة مضادة، للمبدأ وللمهمة، حركة ستعوض هذه العدمية الكاملة، في أي مستقبل كان، ولكنها تقر بحتميتها، المنطقية والنفسية، ولا يمكنها بتاتا أن تحدث إلا بعدها ومن خلالها. فما الذي يجعل الآن العدمية حتمية ؟ لأن قيمنا ذاتها، التي سادت حتى الآن، تستخلص آخر استنتاجاتها من خلال العدمية، لأن العدمية هي آخر مآل منطقي لقيمنا الكبرى ولمثلنا الأعلى، لأنه علينا أولا أن نجتاز العدمية لكي ندرك القيمة الحقيقية لهاته الـ «قيم» التي سادت فيما مضى... مهما تكن هاته الحركة فإننا سنحتاج يوما إلى قيم جديدة.

الكتاب الأول

العدمية الأوربية

العدمية الأوربية

1
تصميم

لقد حصل التناقض بين العالم الذي نبجله والعالم االذي نعيشه، الذي نشكله نحن. ولا يبقى أمامنا سوى أمرين، إما القضاء على تبجيلنا، وإما القضاء على أنفسنا بأنفسنا. وهذه الحالة الأخيرة هي العدمية.

1- العدمية المتنامية، نظرية وممارسة. التحويل الفاسد لها (التشاؤم، بمختلف أشكاله: إنه تمهيد لها، وإن كان غير ذي جدوى).

2- المسيحية الرازحة تحت عبء أخلاقها. «الرب هو الحقيقة» ، «الرب هو المحبة»، «الرب العادل». — الحدث الكبير — «مات الإله» الذي تم استشعاره خفية.

3- الأخلاق، وقد جُردت من العقاب، لم تعد قادرة على الوقوف. في نهاية المطاف يتم التخلي عن التفسير الأخلاقي — (ولكن الإحساس مايزال مشبعا ببقايا التقييمات المسيحية —).

4- إن ما ارتكزت عليه القيمة حتى الان هي الأحكام الأخلاقية، وخاصة قيمة فلسفة (« إرادة الحقيقة» —). (والمثل الأعلى الشعبي الذي يشكله «الحكيم» و«النبي» و «القديس» قد أصبح مهجورا.)

5- الإتجاهات العدمية في العلوم الطبيعية) («شيء مناف للعقل»)، العلية، والإوالية. الخضوع للقوانين فاصل ترفيهي، وفُضلة من الفضلات.

6- نفس الشيء يقال عن السياسة: لا وجود فيها لإيمان المرء بحقه، أعني البراءة، ما يسود فيها هو الكذب، والعبودية للّحظة.

7- كذلك عن الإقتصاد السياسي: القضاء على العبودية، غياب طبقة مخلّصة، غياب المبرر، — مجيء الفوضوي. «التربية»؟

8 - كذلك عن التاريخ: القدرية، الداروينية، ولقد فشلت آخر محاولة لإعطائها تفسيرا معقولا وربانيا. العاطفية أمام الماضي، لن يطبق الناس سيرة حياة شخص ما !

9- كذلك عن الفن: الرومانسية وصدمتها المعاكسة (الإشمئزاز من المثل الأعلى الرومانسي ومن كذبه). فهو أخلاقي، وله معنى حقيقة كبيرة، ولكنه متشائم. ال«فنانون» الأقحاح (اللامبالون بالموضوع).(نفسية المعرف ونفسية الطُّهري[1] شكلان من أشكال الرومانسية النفسية: وكذلك نقيضهما، أي محاولة النظر إلى «الإنسان» من زاوية فنية محضة — هنا أيضا لا يتم التجرؤ على القيام بتقييم مضاد!)

10- نظام الطموحات الإنسانية الأوربي كله واع بمنافاته للعقل، بل بكونه «لا أخلاقيا». احتمال ظهور بوذية جديدة. الخطر الكبير. — «ما هي العلاقة بين الحقيقة والحب والعدل والعالم الحقيقي؟» لا علاقة بينهم البتة ! —

I

العدمية

2

أ) العدمية، شرط طبيعي. — العدمية: غياب الهدف، الجواب على السؤال «لماذا؟» — ما معنى العدمية ؟ أن تنخفض قيمة القيم السامية.

قد تكون علامة قوة، وربما تكون قوة العقل قد تنامت إلى حد تبدو معه الغايات التي أراد العقل بلوغها حتى الآن («القناعات» «أركان العقيدة الدينية») قذرة (— : لأن العقيدة تعبر عموما عن ضرورة شروط الوجود، عن الخضوع لسلطة نظام أشياء يجعل كائنا ما ينمو ويزدهر، ويكسبه القوة...)؛ وقد تكون علامة قوة غير كافية لاتخاذ هدف، أو شرط وجود، أو عقيدة.

تبلغ ذروة قوتها النسبية حين تصير قوة تدمير عاتية: أي عدمية فعالة. وقد يكون نقيضها هو العدمية المتعبة التي لم تعد تهاجم: وأشهر أشكالها هي البوذية، التي هي عدمية سلبية، وفيها علامات ضعف؛ قد تصير فعالية العقل متعَبة ومستنزفة إلى حد تبدو معه الغايات والقيم التي تم امتداحها حتى الآن قذرة وتفقد حظوتها، ويتفكك ائتلاف القيم والغايات (الذي ترتكز عليه كل ثقافة متينة) بحيث تدخل مختلف القيم في حرب ضد بعضها: انحلال ...؛ عندها يأتي في المقام الأول كل ما يخفف الألم، أو يشفي، أو يهدىء، أو يقوي، متخذا أقنعة مختلفة، دينية أو أخلاقية، سياسية أو جمالية، إلخ.

تشكل العدمية حالة مرضية وسيطة (— المرضية هنا هي التعميم الكبير، هي الخلاصة التي لا ينتج عنها أي معنى—) : إما أن القوى المنتجة لم تصر بعد قوية بما فيه الكفاية،— وإما أن الانحطاط لازال يتردد ولم يبتكر وسائله بعد.

ب) شرط هذه الفرضية.— أنه ليست هناك حقيقة ؛ أنه ليس هناك وضع مطلق للأشياء، ليس هناك «واقع مطلق».— وما هذا نفسه إلا عدمية، وعدمية في أقصى صورها. إنها تجعل قيمة الأشياء في كون أية حقيقة لا تطابق، ولم تطابق، هذه القيم، وكونها مجرد علامة على قوة محددي القيم، وتيسير من أجل الحياة.

3

السؤال الذي تطرحه العدمية «ما جدوى ذلك؟» ينبني على العرف السائد حتى الآن، والذي بفضله تبدو الغاية محددة ومعطاة ومفروضة من الخارج — أي من طرف سلطة فوق إنسانية. ولما تخلى الناس عن الإيمان بهاته السلطة بحثوا، حسب ما جرى به عرف قديم، عن سلطة أخرى تعرف كيف تتكلم لغة مطلقة وتفرض غايات ومهام. فسلطة الضمير تعتبر الآن تعويضا عن السلطة الشخصية (كلما تحررت الأخلاق من اللاهوت كلما أصبحت قهرية). أو سلطة العقل. أو الغريزة الاجتماعية (القطيع). أو التاريخ بروحه المتأصلة، الذي يمكننا الخضوع له، والذي يتضمن هدفه فيه ؛ يريد الناس أن يتجنبوا الإرادة، إرادة غاية ما، والمجازفة التي قد يقومون بها حين يتخذون لأنفسهم غاية ما ؛ يريدون التملص من المسؤولية (— وقد يقبلون القدرية). وفي نهاية المطاف: السعادة، وبقليل من النفاق، سعادة العامة.

يقولون لأنفسهم :

1- ليست الغاية المحددة ضرورية :

2- ويستحيل التنبؤ بهذه الغاية.

الآن وقد أصبحت الإرادة ضرورية في أقوى تجلياتها نجدها أشد ما تكون ضعفا وجبنا. يجب اتخاذ الحذر الشديد من القوة المنظمة للإرادة الجماعية.

[إنها مرحلة تتداعى فيها التقييمات «الحدسية» تترى، في المقام الأول، وكأنه بفضلها يمكننا أن نسير في وجهة يحرمنا منها ما عداها.

«ما جدوى ذلك؟» — بهذا نتطلب جوابا 1) من الضمير، 2) من غريزة السعادة، 3) من «الغريزة الاجتماعية» (القطيع)، من العقل («العقل»)، — شريطة أن لا نرغم على الإرادة، على تحديد علية ما لأنفسنا.

ثم القدرية : «لا يوجد جواب»، ولكننا «نسير إلى وجهة ما»، «من المستحيل إرادة غاية ما»، — سواء بالخضوع ... أو بالثورة ... لا أدرية 2 بخصوص الغاية.

ثم النفي الذي يتم اعتباره تفسيرا للحياة؛ والحياة التي يتم اعتبارها شيئا يتم تصوره دون معنى وينتهي بالزوال.]

4

السمة الرئيسية للعصور الحديثة: لقد فقد الإنسان، في نظر نفسه، قدرا كبيرا من كرامته. لطالما كان هو مركز الوجود وبطله التراجيدي؛ ثم حاول جاهدا أن يثبت على الأقل قرابته مع جزء الوجود الحاسم الذي يملك قيمته كإنسان — مثلما يفعل كل الفلاسفة الماورائيين، الذي يحاولون الحفاظ على كرامة الإنسان، مع اعتقادهم بأن القيم الأخلاقية قيم أصيلة. والذي تخلى عن الإيمان بالله يتمسك بكثير من الصرامة بالإيمان بالأخلاق.

5

نقد العدمية

ظهرت العدمية، في بادىء الأمر، باعتبارها شرطا نفسيا، حين أجهدنا أنفسنا بإضفائنا على كل ما يحدث «معنى» ليس منه في شيء : بحيث أن الباحث ينتهي به الأمر إلى فقدان شجاعته في النهاية. بهذا تكون العدمية هي معرفة التبذير الطويل الأمد للقوة، هي الألم المعنوي الذي تسببه «دون جدوى» هذه، هي اللايقين، هي قلة الفرص المتاحة لاستعادة القوة بأي شكل كان، للاطمئنان على أي شيء كان — هي

خجل المرء من نفسه، وكأنه قد خدع نفسه ردحا طويلا من الزمن... كان من الممكن أن يكون هذا المعنى هو «اكتمال» قانون أخلاقي سام في كل ما حدث، هو العالم الأخلاقي: أو تزايد الحب والإنسجام في علاقات المخلوقات ببعضها ؛ أو التحقق الجزئي لشرط سعادة شاملة ؛ أو حتى بدء المسير نحو عدم كوني — فالغاية، أيا كانت، تكفي لإضفاء المعنى. كل هذه التصورات تشترك في كونها تريد بلوغ شيء ما باتباع نفس السيرورة: — ويتبين لنا الآن أنه لم يتم تحقيق أو بلوغ أي شيء بواسطة هذه «الصيرورة»... إذن فسبب العدمية هي خيبة الأمل في وجود هدف مزعوم للصيرورة : وخيبة الأمل هذه ترتبط إما بهدف محدد، وإما بإدراك أن كل الفرضيات التي وضعت حتى الآن بخصوص الغاية غير كافية مقارنة مع «التطور بأكمله» (— بحيث لم يعد الإنسان يظهر بمظهر المتعاون، ولا حتى بمظهر مركز الصيرورة).

ظهرت العدمية، ثانية، باعتبارها شرطا نفسيا، حين تم اعتبار كل ما يحدث صادرا عن كائن كلي، ويحدث بشكل ممنهج وخاضع لنظام، بحيث يجعل هذه النفس التواقة للاحترام والإعجاب تسبح في فكرة هيمنة وتحكم علويين (— وإن كانت هذه النفس نفس منطقي فإن الحقيقة المطلقة وتسلسل العواقب سيكفيان لإحداث المصالحة...). إنه شكل من أشكال الوحدة، شكل من «وحدة الوجود»: وكنتيجة لهذا الإعتقاد يشعر الإنسان باتحاد كبير مع كائن كلي جد علوي وبتبعية كبيرة له، يشعر بنوع من الألوهية ... «مصلحة الكائن الكلي تقتضي إهمال الفرد لنفسه»... والحالة أنه لا وجود لمثل هذا الكائن الكلي ! الحقيقة هي أن الإنسان قد فقد الإيمان بقيمته، ولا يشعر بها مادام الكائن الكلي العزيز غير كامن وراء تصرفاته، وهو مايؤدي بنا إلى القول بأنه قد ابتكر هذا الكائن الكلي ليضفي المصداقية على قيمته هو.

للعدمية ، باعتبارها شرطا نفسيا، شكلا ثالثا وأخيرا. بما أن الصيرورة لا يمكن أن يتحقق بواسطتها أي شيء، وبما أن هذه الصيرورة لا تتحكم فيها وحدة عظيمة يمكن للفرد أن يتلاشى فيها كما في عنصر رفيع القيمة، فإنه يبقى لدينا مهرب آخر هو إدانة عالم الصيرورة هذا، لكونه وهما، وابتكار عالم يوجد وراءه، عالم سيكون هو العالم —

الحقيقة. لكن بمجرد ما يبدأ الإنسان يفطن لكون هذا العالم لم يُشَيَّد إلا تلبية لحاجيات نفسية، وأنه لا حق له فيه، يبدأ شكل جديد من العدمية في الظهور، شكل يعتنق نفي وجود عالم ماورائي، ويحرم على نفسه الإيمان بعالم — حقيقة. بوقوفنا عند زاوية الرؤية هذه نقبل بكون حقيقة الصيرورة هي الحقيقة الوحيدة، ونحرم على أنفسنا كل سبيل ملتوية تؤدي إلى الما وراء وإلى آلهة مزيفة — ولكننا لا نطيق هذا العالم، وإن كنا لا نريد نفيه ...

فما الذي حدث إجمالا ؟ لقد توصلنا إلى الشعور باللاقيمة، ولكننا أدركنا أنه لا يمكننا تفسير الطابع العام للوجود بفكرة «الغاية»، ولا بفكرة «الوحدة»، ولا بفكرة «الحقيقة». كل هذا لا يؤدي إلى تحقيق أي شيء؛ فالوحدة التي تحدث في خضم تعدد الأحداثِ لا وجود لها: وطابع الوجود ليس «حقيقيا»، بل هو مزيف ... ، مؤكد أنه لم يعد هناك سبب معقول يجعلنا نقنع أنفسنا بوجود عالم — حقيقة... باختصار، إن مقولات: «السبب الغائي»، و «الوحدة» و «الكينونة»، التي أضفينا بها قيمة على هذا العالم، قد سحبناها نحن — فأصبح العالم منذ ذلك الحين يبدو وكأنه بلا قيمة.

* * *

إذا سلمنا بكوننا قد عرفنا كيف لم يعد ممكنا تفسير العالم بهاته المقولات الثلاث وبكون العالم أصبح يبدو لنا، بعد هذا البحث، بلا قيمة، فإنه يجب علينا أن نتساءل عن سبب إيماننا بهاته المقولات الثلاث.

— لنر إن كان من الممكن تجريدها من المصداقية ! فحين نحط من قيمة هاته المقولات سوف لن تعود البرهنة على استحالة تطبيقها على العالم سببا كافيا للحط من قيمة هذا العالم.

— النتيجة: الإيمان بمقولات العقل هي علة العدمية، — لقد قسنا قيمة العالم حسب مقولات تتعلق بعالم صوري محض.

— الخلاصة : كل القيم التي حاولنا من خلالها حتى الآن أن نجعل العالم ذا قدْر في نظرنا، والتي بواسطتها نقصنا من قيمته حين تعذر تطبيقها، هي كلها، من وجهة

نظر فلسفية، نتائج بعض منظورات المنفعة التي وضعت لتحافظ على المجالات التي يهيمن عليها الإنسان وتُوسعها: ولكنها قد سقطت بشكل خاطئ على جوهر الأشياء. إن سذاجة الإنسان المتسمة بالغلو هي التي تجعله دائما يعتبر نفسه هو معنى الأشياء ومعيارها.

6

مسألة أساسية. — بأي معنى تكون العدمية الكاملة هي النتيجة الحتمية للمثل الأعلى الحالي.

— العدمية غير التامة وأشكالها: هي ما نعيشه الآن.

— محاولات تفادي العدمية، دون قلب قيمها، تؤدي إلى العكس، وتوصل المسألة إلى حالة حادة.

7

كل تقييم أخلاقي محض (كالتقييم البوذي مثلا) يؤدي إلى العدمية: ولابد من انتظار حلولها بأوربا ! نظن أنه بوسعنا تفادي ذلك باتباع أخلاقية ليست لها خلفية أخلاقية: ولكن هذا يفتح الطريق حتما للعدمية. فالإكراه الذي يجبرنا، نحن، على اعتبار أنفسنا مُحدِّدين للقيم، لا وجود له في الدين.

8

ليس هناك شيء الأخطر من موضوع رغبة مضاد لجوهر الحياة. الخلاصة العدمية (الإيمان باللاقيمة) هي نتيجة للتقييم الأخلاقي: — لقد فقدنا الشعور بالأنانية (ولكننا مع ذلك فهمنا أنه لاوجود لعمل غير أناني)؛ وفقدنا الرغبة في الحتمية (ولكننا مع ذلك عرفنا استحالة وجود حرية الإختيار ووجود «حرية معقولة)». يتبين لنا أننا لا نستطيع بلوغ المنطقة التي وضعنا فيها قيمنا — ، لكن المنطقة الأخرى، أي تلك التي نعيش فيها، لم تزدد قيمتها بسبب هذا: بل على العكس، إننا نشعر بالضجر، ذلك لأننا فقدنا حافزنا الأساسي. «دون جدوى، حتى الآن!»

9

العدمية الجذرية هي القناعة بالنقص الفظيع في صلابة الحياة، حين يتعلق الأمر بالقيم الراقية التي نعترف بها ؛ ينضاف إلى ذلك معرفة أنه لاحق لنا كلية في تحديد ما وراء ما أو تحديد «ذاتية» الأشياء.

هذه المعرفة هي نتاج «العقل الصادق» الذي ترعرع فينا: وهي كذلك نتيجة الإيمان بالأخلاق. هذا هو التناقض: كلما آمنا بالأخلاق كلما كان ذلك إدانة للحياة.

— منطق التشاؤم حين يبلغ أقاصي العدمية: ما هي العلة الفاعلة؟ — مفهوم النقص في القيمة، النقص في المعنى: كيف تتواجد وراء كل القيم الراقية الأخرى.

— النتيجة: التقييمات الأخلاقية هي إدانة ونفي، والأخلاق تجرنا بعيدا عن إرادة الحياة...

مسألة: ولكن ما هي الأخلاق ؟

10

العدمية الأوربية

ما هي المزايا التي كانت تمنحها فرضية الأخلاق المسيحية؟

1- تضفي على الإنسان قيمة مطلقة، وهي قيمة تتعارض مع صغره ووجوده العرضي في نهر الصيرورة والزوال ؛

2- تخدم المدافعين عن الرب، بحيث أنها تمنح العالم، رغم البؤس والشر، طابع الكمال — بما في ذلك «الحرية» التي نتحدث عنها كثيرا — ، بحيث يبدو الشر طافحا بالمعنى ؛

3- تقر بامتلاك الإنسان معرفة خاصة بشأن القيم المطلقة وتمنحه بذلك، بالنسبة للأهم، معرفة تفي بالمرام ؛

4 - تجنب الإنسان احتقاره لنفسه، كإنسان، والوقوف في وجه الحياة، واليأس من المعرفة: إنها وسيلة للبقاء.

كخلاصة نقول: لقد كانت الأخلاق هي الترياق المهم ضد العدمية العملية والنظرية.

* * *

ومن ضمن القوى التي عملت الأخلاق على تنميتها نجد الحقيقة: وهي تنتهي بالانقلاب ضد الأخلاق، إنها تكتشف غائيتها واعتبارها المبني على المنفعة، وها هو الآن ذكاء هاته الكذبة التي تم تجسيدها أمدا طويلا، والتي يئسنا من التخلص منها، ها هو يعمل كمحفز لنا. نلاحظ في نفوسنا رغبات، غرسها فينا التفسير الأخلاقي منذ أمد طويل، تبدو في حينها من متطلبات اللاحقيقة: وهذه الرغبات، التي تبدو القيمة مرتبطة بها، هي التي تجعلنا نتحمل الحياة. إننا لم نعد نحترم ما نعرفه ولم نعد نجرؤ على احترام الشيء الذي قد نوهم به أنفسنا: — ومن هذا التناقض تتولد عملية التحلل.

* * *

إننا لم نعد في حاجة إلى ترياق ضد العدمية الأولى: ففي أوربا لم تعد الحياة غير يقينية وخطرة وغير ذات معنى إلى هذا الحد. ذلك أنه لم يعد من الضروري الآن رفع قيمة الإنسان وقيمة الشر، إلخ، إلى درجة هائلة، فنحن نتحمل التقليل الكبير من هذه القيمة، ونقر بنصيب اللامعنى والمخاطرة: والقوة التي بلغها الإنسان أصبحت تسمح بالحط من قيمة الوسائل التأديبية التي جعل منها التفسير الأخلاقي نقطة قوته. «الرب» فرضية توجد في الطرف الأقصى.

* * *

غير أن المواقع القصوى لا يتم تغييرها بمواقع أكثر اعتدالا، بل بأخرى قصوى مثلها، ولكن بالمقلوب. وهكذا يصير الإيمان باللاأخلاقية المطلقة للطبيعة، وغياب الغاية والمعنى، شغفا ضروريا من الناحية النفسية حين لا يعود الإيمان بالله وبنظام أخلاقي بالأساس مطاقا. إن ظهور العدمية الآن لا يعزى إلى كون التقزز من الحياة أصبح أشد مما كان في السابق، بل إلى كوننا أصبحنا، بصفة عامة، نرتاب في «المدلول» الذي قد يكون للشر، أو حتى للحياة.

لقد تم تفويض تفسير واحد فقط: وبما أنه كان يعتبر هو التفسير الأوحد فلربما بدا أنه ليس للحياة أي مدلول وأن كل شيء دون جدوى.

* * *

بقي علينا أن نبرهن بأن «دون جدوى» هذه هي طابع عدميتنا الحالية. إن ارتياب تقييماتنا السابقة يزداد إلى أن يجرؤ على طرح هذا السؤال: «أليست كل «القيم» وسائل إغراء، لإطالة مدة المهزلة، ولكن دون أن تقترب النهاية؟» هذه المدة، التي ب «دون جدوى»، ودون غاية أو سبب معقول، تصيبنا بالشلل، خاصة حين ندرك بأننا قد خُدعنا، دون أن تكون لنا القدرة على الحيلولة دون الانخداع.

* * *

لنتصور هذه الفكرة في أشد أشكالها فظاعة: الحياة كما هي، دون دلالة أو غاية، ولكنها تعود باستمرار بشكل لا مناص منه، دون الانتهاء إلى العدم: «العودة الأبدية».

أقصى أشكال العدمية: العدم («اللامعنى») الأبدي!

الشكل الأوربي من البوذية: طاقة المعرفة والقوة وقد أجبرت على اعتناق مثل هذا الإيمان. إنها أشد الفرضيات الممكنة علمية. إننا ننكر العلل الغائية: فلو كانت للوجود غاية تسير نحوها لتم بلوغ هذه الغاية.

* * *

مفهوم أن ما نرمي إليه هنا يناقض وحدة الوجود: لأن إثبات أن «كل شيء كامل ورباني وأزلي» يدفع كذلك إلى الإقرار ب «العودة الأبدية». سؤال: هل الأخلاق هي التي جعلت هذا الموقف الإثباتي والمقر بوحدة الوجود مستحيلا ؟ إجمالا، وحده الرب الأخلاقي من تم تجاوزه. هل يكون لتصور إله «ماوراء الخير والشر» معنى ؟ هل يمكن تخيل وحدة وجود تأخذ هذا المنحى؟ هل نلغي فكرة الغاية في السيرورة ونثبت هذه

السيرورة مع ذلك؟ — كانت الحالة ستكون هي هذه لو أنه تم، في كل لحظة من دائرة السيرورة، بلوغ شيء ما — وأن يكون ما يتم بلوغه هو نفسه دائما. لقد كان لسبينوزا مثل هذا الموقف الإثباتي، بحيث أن لكل لحظة، في رأيه، حتمية منطقية: وبواسطة غريزتها المنطقية الأساسية تنتصر على بنية العالم هذه.

* * *

ولكن حالة سبينوزا ليست سوى حالة خاصة. فالطبع الأساسي، الذي يشكل أساس كل الوقائع، ويتجلى فيها كلها، كلما اعتبره فرد ما هو سمته الأساسية كلما دفعه للقبول الظافر لكل لحظة من لحظات الحياة الكونية. وسيكون من المهم أن يُوَلد هذا الطبع الأساسي لدى ذات الفرد شعورا باللذة، وأن يجده جيدا وثمينا.

* * *

لقد حفظت الأخلاق من اليأس ومن الإرتماء بين أحضان العدم الناس والطبقات الذين تعرضوا للعنف والإضطهاد من طرف أناس آخرين: ذلك أن مصدر مرارة اليأس من الحياة ليس هو العجز أمام الطبيعة بل العجز أمام الناس. لقد اعتبرت الأخلاق الرجال المتسلطين والعنيفين، و «السادة عموما»، أعداء يجب حماية الإنسان البسيط من بطشهم، أي تشجيعه وتقويته قبل كل شيء. وبالتالي علمت الأخلاق الناس أن يبغضوا ويحتقروا ما يشكل الطبع الأساسي للمهيمنين: أي إرادة القوة لديهم. وإلغاء هذه الأخلاق وإنكارها وتفكيكها يعني إبداء شعور معاكس نحو تلك الغريزة المبغوضة وإعطائها قيمة معاكسة كذلك. فلو أن المضطهد، الذي يعاني، فقد الإيمان بحقه في احتقار إرادة القوة لوجد نفسه يائسا. ولكي يكون الأمر كذلك يجب أن يكون هذا الطبع أساسيا في الحياة وأن نستطيع تبيان أن «إرادة القوة» هذه كانت مخفاة داخل الإرادة الأخلاقية، وأن هذا البغض وهذا الاحتقار هما من تجلياتها. آنذاك سيتنبه المضطهَد إلى أنه يقف على قدم المساواة مع مضطهده، وأنه لا يفوقه بأي امتياز، وليس في حركية أعلى منه.

على العكس تماما! ليس هناك في الحياة ما يمكن أن تكون له قيمة عدا درجة القوة — وذلك طبعا بشرط أن تكون الحياة نفسها هي إرادة القوة. كانت الأخلاق تحمي المحرومين من السقوط في العدمية، لأنها تضفي على كل واحد منهم قيمة لاحد لها، قيمة ما ورائية، بوضعه في مقام لا يتناسب مع القوة الأرضية، مع تراتبية العالم: كانت تعلم الناس الخضوع، والتواضع، إلخ. إذا افترضنا أن الإيمان بهذه الأخلاق قد تم القضاء عليه، فسينتج عن ذلك حرمان المحرومين من مواساة هذه الأخلاق لهم — وسيهلكون.

* * *

يظهر ميل البعض إلى الذهاب إلى حتفهم وكأنه إرادة الزوال، كأنه اختيار غريزي لما هو مدمِّر بالضرورة. أعراض هذا التدمير الذاتي لدى المحرومين هي تشريحهم لأنفسهم وهم أحياء، تسميمهم لأنفسهم، السكْر، الرومانسية، وفي المقام الأول إجبار فطرتهم لهم على القيام بأعمال يجعلون بها من الأقوياء أعداءهم الألداء (— جاعلين منهم جلادين، إن شئتم القول)، إرادة التدمير باعتبارها إرادة غريزة أكثر عمقا، غريزة التدمير الذاتي، إرادة العدم.

* * *

العدمية عرض يدل على أن المحرومين لم تعد لهم مواساة: أنهم يدمرون لكي يتم تدميرهم، أنه لم يعد لديهم، بعد أن انفصلوا عن الأخلاق، أي سبب يدفعهم إلى «الاستسلام»، — أنهم يتبنون المبدأ النقيض ويريدون أيضا أن تكون القوة بجانبهم، وذلك بإرغام الأقوياء على أن يكونوا جلاديهم. هذا هو الشكل الأوربي للبوذية، النفي الفعال، الذي جعل الحياة بأكملها تفقد «المعنى».

لايجب الإعتقاد بأن «الشدة» قد صارت أعظم: بل العكس! لقد كان «الرب، والأخلاق، والخضوع» علاجات لدرجات جد متدنية من البؤس: والعدمية الفعّالة تظهر في شروط أفضل نسبيا. فاعتبار الأخلاق قد تم تجاوزها يعني امتلاك قدر معين

من الثقافة الفكرية، وهذه بدورها تعد سعادة نسبية. ومما يميز مستوى هؤلاء العدميين المتدني جدا كذلك نوع من الضجر الفكري الذي دفع به صراع طويل بين الآراء الفلسفية إلى حد الشك اليائس في كل فلسفة. لنتفكر في الشروط التي في ظلها ظهر بوذا على مسرح الأحداث. وعقيدة العودة الأبدية قد تعيد طرح بعض الفرضيات العلمية (مثل التي تتضمنها عقيدة بوذا، مثل فكرة السببية، إلخ).

* * *

ماذا تعني كلمة «محروم» الآن؟ يجب النظرَ إلى هذه المسألة من وجهة نظر فسلجية بالدرجة الأولى وليس من وجهة نظر سياسية. يشكل نوع الرجال الموبوئين في أوربا (في كل الطبقات) أرضية هذه العدمية: إنه يعتبر الإيمان بالعودة الأبدية لعنة، — فالمرء حين يكون مجنونا لا يتورع عن القيام بأي شيء. إنه يود أن يَطْمِس، ليس فقط بشكل سلبي، بل أن يدفع إلى طمس كل ما ليس له غاية أو معنى. وإن كان هذا لديه مجرد تشنج واندفاع أعمى أمام اليقين بأن كل هذا موجود منذ الأزل — حتى لحظة العدمية والتدمير هاته. وقيمة مثل هذه الأزمة تكمن في كونها تظهر، وتجمع العناصر المتشابهة وتجعلها تدمر بعضها، وتحدد للرجال ذوي الأفكار المتعارضة مهام مشتركة — مسلطة الضوء على الضعفاء والمترددين من بينهم، ومثيرة بذلك تراتبية في القوى من الناحية الصحية؛ وتعترف بأولي الأمر وبالخاضعين للأمر كما هم. وهذا بالطبع بعيدا عن كل المواثيق الاجتماعية السائدة.

من هم الذين سيبينون عن قوتهم في هاته الأزمة؟ إنهم المعتدلون، الذين ليسوا في حاجة إلى عقائد متطرفة، أولئك الذين لا يسلمون بالمخاطرة وباللامعنى فقط، بل يحبون جزءا كبيرا منهما. الذين يستطيعون التفكير من جراء ذلك أنهم مستضعفون أو ضعفاء: هم الأوفر صحة، الذين يكونون في مستوى المصيبة الكبيرة وبالتالي لا يخشون المصائب، — رجال متيقنون من قوتهم ويشكلون القوة التي بلغها الإنسان، مفتخرين بذلك عن وعي.

كيف سيفكر هؤلاء الرجال في مسألة العودة الأبدية ؟

11

القيم الراقية التي وجب على الإنسان أن يعيش في خدمتها، خاصة حين تضع عليه أياديها الثقيلة: هذه القيم الإجتماعية، ومن أجل تقويتها، وكأنها أوامر الرب، قد تم رفعها فوق الناس، ك «حقائق»، كما لو كانت هي العالم «الحقيقي»، هي الأمل في عالم آت. الآن وقد بدا لنا بوضوح أصل هذه القيم الحقيرة فإن العالم يبدو بسبب ذلك حقيرا، يبدو وكأنه قد فقد «معنا»ه . . . ولكنها ليست سوى مرحلة انتقالية.

12

وجهة نظر أساسية: — يجب أن لا نرى أن مهمةالنوع الراقي تنحصر في قيادة النوع الأدنى (مثلما فعل كونت —)، بل يجب أن نعتبر النوع الأدنى قاعدة يمكن للنوع الراقي أن يقوم عليها بمهمته — قاعدة ضرورية لنموه.

الشروط التي تمكن نوعا قويا ونبيلا من البقاء (فيما يتعلق بالنظام الفكري) هي نقيضة الشروط التي تحكم «جمهور الصناع»، البقالين على طريقة سبنسر.

لو أن ما يسمح به للأقوياء المنتجين لجعل وجودهم ممكنا — التسلية، المغامرات، الكفر، بل حتى الدعارة، — قد سمح به لمتوسطي القووة لكان فيه هلاكهم حتما — وهذا هو ما يحدث بالفعل. وما يبلغ به هذا الصنف من الرجال الكمال هو: النشاط، والقاعدة، والاعتدال، و«القناعات»، باختصار نقول، إنها «فضائل القطيع».

أسباب العدمية:

1) النوع الراقي غير موجود، أي النوع الذي يمكن إنتاجه وقوته اللذان لا ينضب لهما معين من الحفاظ على الإيمان بالإنسان. (لنتفكر في ما ندين به لنابليون: بكل أسمى الآمال تقريبا في هذا القرن.)

2) النوع الأدنى، — «قطيع»، «جماهير»، «مجتمع» — ينسى التواضع ويضخم رغبانه إلى أن يجعل منها قيما كونية وماورائية. بهذا تصبح الحياة مبتذلة: ذلك أن الجماهير حين

تحكم فإنها تضطهد الرجال الأفذاذ، وهذا يجعلهم يفقدون الإيمان بأنفسهم ويدفعهم إلى العدمية.

كل المحاولات التي تمت لتصور نماذج راقية باءت بالفشل («الرومانسية»؛ الفنان؛ الفيلسوف ؛ — ضد محاولة كارلايل إضفاء قيم أخلاقية راقية عليهم).

والنتيجة كانت هي مقاومة النماذج الراقية.

مهانة ولا يقين كل النماذج الراقية. الصراع ضد العبقرية («الشعر الشعبي»، إلخ.). الشفقة على العامة وعلى الذين يعانون، كمعيار للسمو بالروح.

إن ما ينقص هو الفيلسوف، هو من يترجم الفعل، وليس فقط من يحول ذلك الفعل إلى شعر.

13

بأي معنى تستمر عدمية شوبنهاور في كونها نتيجة نفس المثل الأعلى الذي أوجدته المسيحية. — لقد كانت درجة اليقين كبيرة مقارنة مع أسمى الرغبات، ومقارنة مع القيم الراقية والكمال العظيم، بحيث أن الفلاسفة ارتكزوا عليها كما يرتكزون على يقين مطلق أو على يقين قبلي: مع وجود الرب على قمتها كحقيقة مسلم بها. «المساواة مع الرب»، «الحلول في الرب» — تلك كانت، طيلة آلاف السنين، الرغبة الأكثر سذاجة واقتناعا (— ولكن الشيء الذي يُقنع لا يعني بذلك أنه حقيقي: بل هو مقنع فقط. ملاحظة موجهة للحمير.)

نسينا أن نعزو لهذا التحديد للمثل العليا واقعا شخصيا: لقد أصبحنا ملحدين. ولكن هل تخلينا بذلك عن المثل الأعلى؟ — لازال آخر الميتافزيقيين يبحثون في الملحد عن «الواقع» الحقيقي، عن «الشيء في ذاته»، الذي يعتبر الباقي كله مقارنة معه مجرد مظهر. إنهم يرفعون إلى مقام العقيدة كون عالم المظاهر الذي هو عالمنا لا يمكن أن يكون «حقيقيا» مادام لا يعبر بوضوح عن هذا المثل الأعلى— بل أنه لا يمكن أن يرتقي إلى العالم الماورائي الذي يعتبرونه علة. من المستحيل أن يكون اللامشروط،

باعتباره يمثل هذا الكمال الراقي، علة كل ما هو مشروط. وقد وجد شوبنهاور، الذي كان يود أن يكون الأمر خلاف ذلك، نفسه مرغما على تصور هذا الكنه الماورائي كنقيض للمثل الأعلى، كـ «إرادة خبيثة وعمياء»: وبالتالي قد يكون هذا الكنه «هو ما يظهر»، هو ما يتجلى في عالم المظاهر. ولكنه بهذا لم يتخل عن مطلقية المثال ...

(أما كانط فقد بدا وكأنه في حاجة إلى فرضية «الحرية المعقولة» ليحرر صاحب الكمال من مسؤوليته عن الشروط التي تحكم هذا العالم، باختصار، لتعليل الشر: منطق مشين لدى فيلسوف ...)

الأخلاق كتقييم راق. — إما أن يكون عالمنا هذا قد خلقه إله واتخذه وسيلة للتعبير عن نفسه: إذن يجب أن يكون على قدر كبير من الكمال (خلاصة ليبنتز...) — ولم يكن يشك في معرفة ما ينتمي لميدان الكمال — ، وإذن فالشرك لا يمكن إلا أن يكون ظاهرا (نجد لدى سبينوزا فكرة الخير والشر بشكل جوهري أكثر) أو يجب إسقاطه من غاية الرب السامية (ربما كنتيجة لمحاباة الإله الخاصة التي تمكن المرء من الإختيار بين الخير والشر: إنها ميزة عدم التحول إلى إنسان آلي؛ مع تحمل تبعات الوقوع في الخطأ أو إساءة الإختيار... مثلما حدث لِسَمْبْلِسْيُوس في تعليقه على إبِكْتيت).

وإما أن يكون عالمنا ناقصا، ويكون الشر والخطأ حقيقيين، ومحددين ومطلقين، وملازمين لوجودهما؛ وبذلك يستحيل أن يكون هو العالم — الحقيقة: والمعرفة مجرد سبيل للوصول إلى نفيه، وإذن فهو خطأ يمكننا الإعتراف به على أنه كذلك. هذا هو رأي شوبنهاور المرتكز على فرضيات كانط. وباسكال أكثر يأسا: لقد أدرك أن معرفته قد تكون فاسدة هي بدورها ومزيفة، — وأن الوحي ضروري لفهم العالم، ولو بشكل سلبي ...

14

القضايا التي يجب أن نعزوها إلى ظهور التشاؤم:

1- الافتراء على الغرائز الحيوية الأكثر قوة وإنتاجا حتى الآن، بحيث أن لعنة أصبحت جاثمة على الحياة؛

2- شجاعة الإنسان المتزايدة وريبته الجريئة انقلبتا ضد الحياة حين أدركتا أن هاته الغرائز لا يمكن أن تنفصل عنها ؛

3- وحدهم الضعفاء الذين لا يشعرون بهذا الصراع يزدهرون. أما الصنف الراقي فيفشل ويجعل الناس ينفرون منه باعتباره نتاجا للانحطاط، — ومن جهة أخرى يغتاظون من الصنف الضعيف الذي يريد أن يعتبر نفسه هو الغاية وهو المعنى (—لم يعد بإمكان أحد الإجابة على السؤال لماذا ؟—)؛

4- الغبن، وملكة المعاناة، والقلق، والعجلة، والتجمهر في تزايد مستمر، — وتفعيل هذه الحركة، أي ما نسميه ال«حضارة»، يصير أسهل فأسهل، والفرد ييأس ويستسلم، أمام هذه الآليات.

15

تطور التشاؤم إلى العدمية.— تشويه القيم. تجميدها. القيم المعزولة والمؤمثلة، عوض أن تقود الفعل وتهيمن عليه، تعارض الفعل الذي تستهجنه.

التناقضات عوض المراتب والأنظمة الطبيعية. بغض للتراتبية. توافق التناقضات عصر الدهماء لأن فهمها يتم بسهولة أكثر.

العالم المستهجن يواجه عالما مصطنعا. «عالما —حقيقة»، هو وحده من له قيمة.— ولكننا في نهاية المطاف نكتشف المواد التي بني بها «العالم —الحقيقة»، وندرك أنه لم يتبق إلا العالم المستهجن، ونسجل له تحريرنا من هذا الوهم.

حينها نجد أنفسنا أمام العدمية: لقد حافظنا فقط على القيم التي تصدر الأحكام — لاغير !

يتولد عن هذا مشكل القوة والضعف:

1- الضعفاء يتحطمون فيها،

2- الأقوياء يدمرون ما لا يتحطم،

3- الأكثر قوة يتجاوزون القيم التي تصدر الأحكام. كل هذا مجتمعا يخلق العصر التراجيدي.

16

نقد التشاؤم. «غلبة الألم على المتعة» أو العكس (مذهب المتعة) : هاتان العقيدتان من علامات العدمية.

لأنه في كلتا الحالتين لا يتم تحديدمعنى غائي غير مظاهر المتعة أو الكدر.

ولكن هذا الكلام هو كلام صنف من الرجال لم تعد لهم الشجاعة لكي يحددوا لأنفسهم إرادة أو غاية أو معنى: — فبالنسبة لصنف الرجال الأصحاء لا تقاس قيمة الحياة بمقياس هذه الأمور الثانوية. وبإمكاننا أن نتخيل بسهولة ألما مفرطا يثير مع ذلك رغبة في الحياة وإثباتا لها، وذلك مقابل ضرورة هذا الإفراط.

«لا تستحق الحياة عناء أن نحياها» ؛ «الاستسلام» ؛ «جدوى الدموع؟» — هذا حجاج واه وعاطفي : «مِسخ مرح أفضل من إنسان عاطفي ممل.»

تشاؤم الحيويين: «ما جدوى ذلك» بعد صراع مرير، بل حتى بعد النصر. أن يوجد شيء أهم بكثير من معرفة ما إن كنا بخير أم لا : تلك هي الغريزة الأساسية لدى كل الأقوياء — وبالتالي معرفة ما إن كان آخرون غيرنا بخير أم لا. هذه الغريزة تخبرهم أن لنا هدفا لا نتردد من أجل بلوغه في تقديم قرابين إنسانية، ومواجهة كل الأخطار، وتحمل أسوأ الأمور: إنه العشق الكبير. لأن ال«ذات» ليست سوى وهم؛ والأنا الذي نتحدث عنه حين نستنكر الأنانية لا وجود له على الإطلاق.

17

الفيلسوف العدمي مقتنع بأن كل ما يحدث لا معنى له وبأنه يحدث دون جدوى؛ ولكنه لا يجب أن يكون هناك وجود عديم الجدوى أو خلو من المعنى. فأين يبحث عن الأسباب التي تدفعه إلى إبداء هذه المعارضة؟ أين يبحث عن هذا «المعنى» وهذا «المعيار»؟ — يريد العدمي إجمالا أن يقول أن النظرة إلى مثل هذا الوجود الفارغ والعديم الجدوى لاترضي الفيلسوف، بل تخلق لديه انطباعا بالفراغ والخراب. ومثل هذه الملاحظة تناقض حساسية الفيلسوف الدقيقة لدينا. وهو ما يعني خلوصنا إلى هذا التقييم غير المعقول: لكي يكون للوجود الحق الكامل في البقاء فإنه على طبعه أن يُرضي الفيلسوف...

أصبح من اليسير الآن إدراك أن المتعة والكدر، في ميدان الحوادث، لا يمكن النظر إليهما إلا كوسائل : علينا أن نتساءل عما إذا كان بإمكاننا، بصفة عامة، أن نرى ال«معنى» وال«غاية»، وما إن كانت مسألة غياب المعنى أو عكس ذلك مستعصية الحل بالنسبة لنا.—

18

من أجل تاريخ للعدمية الأوربية

المرحلة المظلمة، جرت فيها محاولات شتى للمحافظة على القديم ولعدم ترك الجديد يفلت.

مرحلة الوضوح: تم إدراك أن القديم والجديد نقيضان أساسيان: فقد تولدت القيم القديمة عن الحياة الهابطة، والقيم الجديدة عن الحياة الصاعدة— . من المفهوم أن المثل الأعلى القديم نقيض الحياة (جاء نتيجة الانحطاط، وهم يحتم الإنحطاط، وإن كان مزينا ببهارج الأخلاق). إننا نفهم الأمور القديمة، وقوتنا أبعد من أن تكون كافية من أجل الأمور الجديدة.

مرحلة الأهواء الثلاثة الكبيرة: الاحتقار، والشفقة، والتدمير.

مرحلة الكارثة: ظهور عقيدة تغربل الناس... , تدفع الضعفاء إلى اتخاذ القرارات، وكذلك الأقوياء —

19

مذكرات العدمي.— الذعر عند اكتشاف «الباطل».

فراغ ؛ توقف الفكر ؛ تعلق الأهواء الكبيرة بمواضيع تافهة: — المتفرجان على هذه النزوات العبثية هما المحاسن والمساوئ: — يجب أن يفكر المرء في نفسه بسخرية وبرودة.— النزوات القوية تبدو مغرية وكاذبة: وكأنه علينا أن نؤمن بموضوعها. لم تعد القوة الكبرى تدري من تخدم. هي ذي الوسائل متوفرة، ولكن ليست هناك غاية.— والإلحاد يعتبر غيابا للمثل الأعلى.

مرحلة النفي العاشق: فيه يتم إفراغ الرغبة في الإثبات والعشق التي تمت مراكمتها أمدا طويلا ...

مرحلة الازدراء، حتى للنفي ... حتى للشك ... حتى للسخرية ... بل حتى للإزدراء...

الكارثة: أليس الكذب شيئا ربانيا ؟ ألا تكمن قيمة الأشياء كلها في كونها باطلة؟... ألا يجب الإيمان بالله، ليس لأنه حق، بل لأنه باطل . . . ؟ أليس اليأس سوى نتيجة للإيمان بالحقيقة الإلهية؟ ألا يَحُلُّ الكذب والتزييف محل المعنى الباطل الذي ينتج عنه قيمة ومعنى ؟

20

ليست العدمية مجرد تأمل في «دون جدوى» هذه. وليست فقط عادة الإيمان بأن كل شيء يستحق الزوال: إننا نشارك فيها بالفعل، وندمر ... وهذا غير معقول، إن شئنا القول: ولكن العدمية لا تؤمن بضرورة أن تكون منطقية :: إنه شرط الإرادات والعقول القوية: فبالنسبة لها يستحيل الوقوف عند نفي «الحكم»: النفي الفاعل متأصل في طبعهم. والتدمير بالحكم يأتي في المرتبة الثانية بعد التدمير باليد.

21

العدمي الكامل.— عين العدمي تؤمثل القبح، إنه غير وفي لما يحتفظ به في ذاكرته —: إنه يسمح لذكرياته بالتساقط هي وأوراقها ؛ ولايقيها من الاصفرار الباهت الذي يصبغ به الضعف الأشياء الغابرة والماضية. وما لا يفعله في حق نفسه لا يفعله في حق ماضي الإنسان كله،—إنه يدع هذا الماضي يتفكك.

22

من أجل خَلق العدمي.— لا تأتينا شجاعة اعترافنا لأنفسنا بما نعرفه حقا إلا متأخرة جدا. فأنا لم أعترف لنفسي بأني كنت عدميا في جوهري إلا منذ وقت قليل:

والعزم أو الفتور اللذان طبعا قراري بالمضي قدما، كعدمي، قد خدعاني بشأن هذا الواقع الأساسي. فحين نمضي إلى غاية ما فإنه يبدو مستحيلا أن يكون «انعدام الغاية بامتياز» ركنا من أركان الإيمان.

23

القيم وتغييرات القيم تتناسب مع تزايد قوة الذي يحدد القيم. درجة الجحود وقدرة «الحرية» المعطاة للعقل هما اللذان يتجلى فيهما تزايد القوة.

ال«عدمية»، التي هي المثل الأعلى لأكبر قوة يمتلكها العقل، وللحياة الفياضة: مُدَمِّرة جزئيا، وساخرة جزئيا.

24

فما هو الإيمان ؟ كيف يظهر؟ يعتبر كل إيمان شيئا ما حقا. أقصى أشكال العدمية هي إدراك أن الإيمان واليقين كليهما باطلان بالضرورة: لأنه لاوجود البتة لعالم — حقيقة. إذن فهو انعكاس، رأيناه في الأفق، لعالم أصله فينا نحن (ذلك أننا نشعر باستمرار بحاجة إلى عالم أضيق، مصغر ومختصر.)

— إدراك أن درجة القوة هي التي تمكننا من الإعتراف لأنفسنا بالظاهر، بضرورة الكذب، دون أن تتسبب في هلاكنا.

بهذا المعنى قد تكون العدمية نفيا لعالم حقيقي، لوجود، ولذكاء رباني.

II
نقد المعاصرة

25

النهضة والإصلاح . — ما الذي تبرهن عليه النهضة؟ أن حكم «الفرد» له حدود. الإسراف البالغ، غياب إمكانية التجميع والرسملة، ويلي ذلك الاستنزاف التدريجي. إنها مراحل يتم فيها تبذير كل شيء، حتى القوة التي يجب أن تستغل في التجميع والرسملة ومراكمة الثروات... حتى خصوم هذه الحركة مرغمون على تبذير غير معقول لقواهم ؛ هم أيضا يستنزفون أنفسهم في الحين ويرهقونها، ثم يصبحون فارغين.

نملك في الإصلاح نظيرا متفككا ورعاعيا للنهضة الإيضالية، حركة تولدت عن دوافع مماثلة، مع فرق واحد هو اضطرار هاته الحركة، في الشمال الذي ظل متأخرا وعاميا، إلى ارتداء قناع ديني، — ذلك أن فكرة وجود كائن علوي لم تنفصل بعد عن فكررة الحياة الدينية.

من خلال الإصلاح يريد الفرد أن ينال الحرية أيضا ؛ وما عبارة «كل واحد كاهن نفسه» إلا واحدة من عبارات الفسق. الواقع هو أن كلمة — «الحرية الإنجيلية» — وحدها كانت كافية لكي تتخلص من قيودها كل الغرائز التي كان لها سبب يجعلها تبقى خفية وتندفع كالكلاب المسعورة، كما وجدت الشراهة القوية الشجاعة على إبراز نفسها فجأة، وقد بدا كل شيء مبررا ...كان الناس يتجنبون إدراك الحرية التي يفكرون فيها، كانوا يتعامون أمام أنفسهم... ولكن غض الطرف وترطيب الشفاه بخطب حماسية لم يكن

يمنعهم من مد أيديهم لأخذ كل متاح، وجعل البطن هو رب «الإنجيل الحر»، وإطلاق العنان لغرائز الإنتقام والحقد لتشفي غليلها في اندفاع شره...

دام هذا زمنا معينا : ثم تلاه الإرهاق، مثلما حدث في جنوب أوربا، وحتى وهم مرهقون كانوا عبارة عن صنف رعاعي، عن تسارع شمولي إلى العبودية ... ثم جاء قرن ألمانيا الفاحش ...

26

القرون الثلاثة. —يمكن التعبير عن حساسيتها المختلفة أفضل ما يمكن كالتالي:

الأرستقراطية: ديكارت، سيادة العقل، دليل على سيادة الإرادة؛

النسوية: روسو، سيادة العاطفة، دليل على سيادة الحواس، كاذبة (النسوية) ؛

الحيوانية: شوبنهاور، سيادة الشهوات، دليل على سيادة الغرائز الحيوانية، حقيقية أكثر، ولكنها أكثر غموضا.

القرن السابع عشر أرستقراطي، إنه ينسق، وهو مترفع عن كل ما هو حيواني، وصارم مع أمور القلب، وخال من العاطفية، «غير ألماني»، «مزعج»؛ خصم لما هو هزلي وطبيعي؛ يملك عقلا معمما وسيدا حين يتعلق الأمر بالماضي، ذلك أنه يؤمن بنفسه. يملك في عمقه قدرا كبيرا من الحيوان الضاري ويمارس الزهد ليظل سيدا. إنه قرن قوة الإرادة وكذلك قرن الأهواء العنيفة.

القرن الثامن عشر تسوده المرأة، إنه متحمس، روحي وسطحي، مع شيء من العقل في خدمة الطموحات والقلب، إنه فاجر في الاستمتاع بكل ما هو فكري، ملغما كل السلطات، طافح بالنشوة والهدوء، واضح، إنساني واجتماعي، مزيف في نظر نفسه، وغد إلى حد كبير في الحقيقة...

القرن التاسع عشر أكثر حيوانية، وعامية، وقبحا، وواقعية، وسوقية، وبسبب هذا فهو «أفضل»، وأكثر «استقامة»، وخضوعا للواقع، أيا كان هذا الواقع، وحقيقي أكثر؛ ولكنه ضعيف الإرادة، وحزين ومتطلب بشكل غامض، وقدري. لا يخاف، ولا يبجل ال«عقل» ولا ال«قلب» ؛ وجد مقتنع بهيمنة الشهوات (يقول شوبنهاور «إرادة»،

وليس هناك ما يميز الفلسفة أكثر من غياب الإرادة). الأخلاق نفسها تُختزل في غريزة («الشفقة»).

أوغست كونت امتداد للقرن الثامن عشر (سيادة القلب على االعقل، حسوية في نظرية المعرفة، وتمجيد الغيرية).

سيادة العلم إلى هذا الحد تبين أن القرن التاسع عشر قد أفلت من هيمنة المثال. وغياب الحاجات والرغبات نوعا ما يجعل الفضول والدقة العلميين ممكننين بالنسبة لنا، — هذا النوع من الفضيلة خاص بنا ...

الرومانسية نوع من ردة فعل القرن الثامن عشر، هي رغبة راكمها في طريقه لتمجيد الأسلوب الرفيع — والحقيقة هي أن في هذا قدرا كبيرا من التصنع وخداع النفي: كانوا يريدون تجسيد الطبيعة العنيفة، العشق الكبير.

يبحث القرن التاسع عشر غريزيا عن نظريات تبرر خضوعه القدري لسيادة الأحداث، والنجاح الذي أحرزه هيجل ضد ال«عاطفية» والمثالية الرومانسية يدين به لما هو قدري في محيط فكره وفي إيمانه بالعقل الأعلى الذي يقف في جانب من يحقق النصر، ولتأييده ل«الدولة» الحقيقية (عوض «الإنسانية»، إلخ.(. نحن بالنسبة لشوبنهاور حيوانات، أو، في أفضل الأحوال، شيء يفني نفسه بنفسه. إنه تفوق الجبرية، الإنحراف الجينالوجي للالتزامات، التي كانت فيما مضى تعتبر مطلقة، عقيدة الوسط والتكيف، اختزال الإرادة في حركات لا إرادية، نفي كون الإرادة هي «العلة الفاعلة»؛ إنه في الأخير — عقيقة حقيقية جديدة: لا نرى في كل مكان إلا قليلا من الإرادة بحيث أن هذا الإسم أصبح شاغرا ليصلح إطلاقه على شيء جديد. نظريات أخرى: نظرية الموضوعية، والملاحظة، المستقلة عن ال«إرادة»، باعتبارها السبيل الوحيد المؤدي إلى الحقيقة، وكذلك إلى الجمال (— وكذلك الإيمان بالعبقرية للحصول على الحق في الخضوع) ؛ — الإوالية، صلابة السيرورة الإوالية التي يمكن تحديدها؛ «الطبيعة» المزعومة، إقصاء الذات التي تختار وتحكم وتؤول، المرفوعة إلى مقام العلة.

كانط، ب «عقله العملي»، وبتعصبه الأخلاقي، ينتمي كلية إلى القرن الثامن عشر؛ إنه يتواجد خارج حركة التاريخ ؛ لا خبرة له بتاتا بوقائع عصره، كالثورة مثلا:

لم تؤثر فيه الفلسفة اليونانية ؛ إنه أحد شواذ فكرة الواجب، حسوي ذو ميل خفي نحو العادات الوثوقية القبيحة.

تعتبر العودة إلى كانط في قرننا عودة إلى القرن الثامن عشر: نريد أن يكون لنا من جديد الحق في المثل الأعلى القديم، في التمجيد القديم، — لهذا أصبحت الضرورة تستوجب وجود نظرية للمعرفة «ترسم الحدود»، أي تمكننا، عندما نريد، من تحديد ما وراء للعقل ...

ليس فكر هيجل بعيدا عن فكر غوته: يكفينا أن نصغي لما يقوله غوته عن سبينوزا. إنها الرغبة في تأليه الكون والحياة، لنجد في التأمل والدراسة السعادة والهناء؛ يبحث هيجل عن العقل في كل مكان،-فللعقل يمكن أن نخضع ونستسلم. ولدى غوته نجد قدرية تكاد تكون مرحة ومغترة بنفسها، قدرية لا تثور ولا تستكين، تسعى لأن تجعل من نفسها كلا، مع شعورها بأن الكل وحده يقدم حلا لكل شيء، ويبرر كل الأشياء ويجعلها تبدو حسنة.

27

القرن السابع عشر يعاني من الإنسانية وكأنها جملة من التناقضات («ركام التناقضات» الذي نشكله نحن) ؛ يسعى إلى اكتشاف الإنسان، وتنظيمه، ومعرفة أشكاله: بينما القرن الثامن عشر يسعى إلى نسيان ما نعرفه عن طبيعة الإنسان، وذلك ليكيفه مع طوباه. «سطحي، وديع، وإنساني» — إنه يتحمس ل «الإنسان». —

يسعى القرن السابع عشر إلى محو آثار الفرد ليبدو عمله أشبه ما يكون بالحياة. أما القرن الثامن عشر فيسعى إلى الإهتمام بالمؤلف من خلال عمله. يبحث القرن السابع عشر في الفن عن الفن، عن جزء من الحضارة ؛ أما الثامن عشر فيستخدم الفن للقيام بالدعاية السياسية، لصالح الإصلاحات الإجتماعية.

الـ «طوبى»، «الإنسان المثال»، تأليه الطبيعة، غرور إظهار المرء نفسه على مسرح الأحداث، التبعية للدعاية الإجتماعية، الشعوذة، — هذا ما تركه لنا القرن الثامن عشر.

أسلوب القرن السابع عشر نقي ودقيق وحر.

الفرد القوي الذي يكتفي بنفسه أو الذي يجهد نفسه بحماسة أمام الرب — وهذا الإزعاج المعاصر، هذا الكاتب المتطفل — متعارضان. «الظهور أمام الملأ» — ياله من فعل يتناقض مع علماء بور روايال! [3]

لقد كان لألفييري Alfieri [4] ذوق جعله يحب الأسلوب الرفيع.

كره الهزلي، وكره قلة الكرامة، وغياب معنى الطبيعة، كل هذه من سمات القرن التاسع عشر.

28

ضد روسو. — لم يعد الإنسان، مع الأسف شريرا بما فيه الكفاية؛ وخصوم روسو الذين يقولون «الإنسان حيوان مفترس» ليسوا على حق مع الأسف. ليس الفساد هو اللعنة التي تصيب الإنسان، بل الضعف والأخلاقية. في المحيط الذي كان روسو يقاومه بمزيد من الضراوة نجد الصننف الأقوى نسبيا والحسن المظهر (— الصنف الذي لايزال يملك الأهواء الكبيرة غير المحطّمة: إرادة القوة، إرادة التمتع، إرادة وسلطة القيادة). يجب مقارنة إنسان القرن الثامن عشر بإنسان عصر النهضة (وكذلك بإنسان القرن السابع عشر في فرنسا) لكي نفهم بأي شيء يتعلق الأمر: روسو علامة على احتقار المرء لذاته وللغرور الهائج — وهما مؤشران على غياب الإرادة المهيمنة: إنه يفسر الأمور أخلاقيا ويبحث عن سبب حالته البئيسة كرجل حقود بين صفوف الطبقات المهيمنة.

29

روسو: القاعدة المبنية على العاطفة، الطبيعة كمصدر للعدالة، إثبات أن الإنسان يتسلق مدراج الكمال كلما اقترب من الطبيعة (وحسب ڤولتير، كلما ابتعد عنها). نفس العصور ينظر إليها أحدهما على أنها عصور تقدم الإنسانية، والآخر على أنها عصور تفاقم الظلم وعدم المساواة.

ڤولتير، بعد أن فهم الإنسانية بمعنى عصر النهضة، وكذلك الفضيلة (باعتبارها «ثقافة راقية»)، قاوم من أجل قضية «الشرفاء» و «الرفقة الطيبة»، من أجل قضية الذوق والعلم والفنون، وحتى من أجل قضية التقدم والحضارة.

احتدم الصراع حوالي سنة 1760م، بين المواطن الجُنيڤي من جهة وسيد فيرني (ferney) من جهة أخرى. وابتداء من تلك اللحظة فقط أصبح ڤولتير رجل قرنه، الفيلسوف الذي يمثل التسامح والكفر (ذلك أنه لم يكن حتى تلك اللحظة سوى مثقف مُدَّع). فقد دفعت به غيرته من نجاح روسو وبغضُه لذلك النجاح إلى الأمام، نحو «الأعالي».

ڤولتير، بالنسبة لل«أوغاد»، إله مثيب ومنتقم.

نقد وجهتي نظرهما في علاقتهما بقيمة الحضارة. أجمل ما هنالك لدى ڤولتير هو ابتكاره الخاص بالمجتمع: ليست هناك غاية أسمى من الحفاظ عليه وتطويره نحو الكمال؛ هنا بالضبط تكمن الأمانة في مراقبة العادات الإجتماعية؛ الفضيلة هي الخضوع لبعض «الأحكام المسبقة» الضرورية، من أجل المحافظة على ال«مجتمع». كان ڤولتير مبشرا بالثقافة، أرستقراطيا، وممثلا للطبقات الظافرة والمهيمنة وتقييماتها. أما روسو فقد ظل عاميا، حتى كأديب، لقد كان هذا شيئا غريبا؛ احتقاره الوقح لكل ما سواه هو.

الجانب المرضي في روسو هو الذي تم تقليده أكثر مما سواه. (لقد كان للورد بايرون طبع مماثل، فهو كذلك يتسامى بشكل مصطنع إلى حالات سامية، إلى الغضب الحقود؛ ولكنه أدرك لاحقا، في البندقية، حين استعاد توازنه، أن ما يواسي المرء، ويرد إليه عافيته ... هي اللامبالاة.)

روسو فخور بنفسه كما هو، رغم أصله، ولكنه يخرج عن أطواره حين يذكره أحد بذلك ...

لا شك أن روسو كان يشكو من اضطرابات في الدماغ، وأن ڤولتير كان يتمتع بصحة ورقة غير مألوفتين. حقد المريض، فترات جنونه هي أيضا فترات ارتيابه وبغضه للبشر.

دفاع روسو عن العناية الإلهية (مقابل تشاؤم ڤولتير) : لقد كان في حاجة إلى الله ليستطيع كره المجتمع والحضارة ؛ لا بد أن كل شيء حسن في ذاته، لأن الله هو من خلقه ؛ وحده الإنسان من أفسد الإنسان. «الإنسان الصالح»، باعتباره ابن الطبيعة، كان تخيلا محضا، ولكنه مع عقيدة أبوة الرب أصبح محتملا ، بل له مرتكز ينبني عليه.

الرومانسية على طريقة روسو: العشق، ال«طبيعة»، إغراء الجنون، حقد الرعاع المزعوم أنه محب للعدل، غرورا الضعيف الذي لا معنى له.

30

ضد روسو. — الحالة البدائية للطبيعة مرعبة، الإنسان حيوان ضارٍ، وحضارتنا تفوق خارق على طبع هذا الحيوان الضاري ؛ — هذه الخلاصة هي التي خرج بها ڤولتير. لقد كان يشعر بتلطيفات التحضر وتهذيباته ومتعه الفكرية ؛ كان يحتقر العقل الضيق الأفق، حتى وإن كان تحت ستار الفضيلة.

وكذلك غياب الرقة، حتى لدى الزهاد والرهبان.

كان روسو يبدو منشغلا بالخبث الأخلاقي لدى الإنسان ؛ بكلمتي «ظالم» و «قاس» نثير غرائز المضطهدين، الذين غالبا ما يكونون تحت طائلة المنع وزوال الحظوة: بحيث أن الضمير ينصحهم بعدم التذبذب في الثورة. يبحث هؤلاء المحرّرون في المقام الأول عن شيء واحد: أن يمنحوا حزبهم قوة التعبير والمواقف العظيمة مواقف الرجال الراقين.

31

أوج الثقافة وأوج الحضارة مفترقان: لا يجب أن نغفل عن التضاد الكبير الموجود بين الثقافة والحضارة. فقد كانت أعظم لحظات الثقافة دائما، من الناحية الأخلاقية، عهود فساد ؛ بينما كانت عصور التدجين الإرادي والقسري للإنسان («حضارة») فترات التعصب ضد المثقفين وضد الجريئين. تريد الحضارة شيئا غير الذي تريده الثقافة: ربما تكون أهدافهما متعارضة ...

32

المسائل غير المحلولة التي أطرحها: مسألة الحضارة، الصراع بين روسو وفولتير حوالي 1760م. أن يصير الإنسان عميقا أكثر، و «لا أخلاقيا» أكثر، وقويا أكثر، وواثقا من نفسه أكثر، — وبنفس القدر، «طبيعيا» أكثر: هذا هو التقدم. — وبما يشبه تقسيم العمل تنفصل حينها الطبقات التي صارت شريرة أكثر عن الطبقات الملطّفة والمروَّضة: بحيث أن الأعمال الاجتماعية لا تتم ملاحظتها من أول نظرة. من البأس وضبط النفس وإغراء الأقوياء أن تملك هاته الطبقات القوية فن إظهار خبثها الشديد وكأنه شيء راق. فبمجرد ما يكون هناك «تقدم» يتم تأويل العناصر المعزَّزة بإعطائها معنى «الخير».

33

في أي شيء كانت القرون المسيحية، بتشاؤمها، أقوى من القرن الثامن عشر. — في تقديمها نفس التفسير للمرحلة التراجيدية التي عرفتها اليونان.

القرن التاسع عشر مقابل القرن الثامن عشر. في أي شيء كان وارثه، —وفي أي شيء أبدى تراجعا (: إنه محروم أكثر منه من ال«عقل» ومن الذوق)، — وفي أي شيء بدا متقدما (: إنه أكثر منه ظلمة وواقعية وقوة).

34

يجعل كانط شكوكية الأنجليز في نظرية المعرفة ممكنة بالنسبة للألمان:

أولا بترغيب حاجات الألمان الأخلاقية والدينية فيها: تماما مثلما استخدم الأكاديميون الجدد، ولذات السبب، الشكوكية كتمهيد للأفلاطونية (انظر القديس أوغسطين) ؛ ومثلما استخدم باسكال الشكوكية الأخلاقية ليثير الحاجة إلى الإيمان و «يبرر»ه.

ثانيا، خلطها بالزخارف المدرسية (scolastiques) ليجعلها مقبولة لدى هيأة الألمان العلمية (لأن لوك وهيوم كانا واضحين ومشرقين، أي، حسب التقييمات المطابقة للفطرة الألمانية، «سطحيين جدا» —).

كانط: معرفته بالناس ضئيلة وهو ضعيف كعالم نفس؛ يرتكب أخطاء فادحة بشأن القيم التاريخية الكبرى (الثورة الفرنسية) ؛ ومتعصب للأخلاق على طريقة روسو؛ يجري في باطنه تيار من القيم المسيحية؛ وُثوقي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ولكنه يتحمل هذا الميل على مضض، إلى حد أنه يود اضطهاده، ولكنه سرعان ما يمل حتى من الشكوكية؛ بما أنه لم يتأثر بالذوق العالمي (cosmopolite) ولا بالجمال القديم... فإنه أصبح مبطئا للحركة ووسيطا. ليس فيه شيء أصلي (— إنه يتوسط ويعمل كصلة وصل، كصلة ليبنتز بين الإوالية والروحانية، وصلة غوته بين ذوق القرن الثامن عشر و «الحس التاريخي» — الذي هو بالأساس إحساس بالأشياء الغريبة الدخيلة — وصلة الموسيقى الألمانية بين الموسيقى الفرنسية والإيطالية، وصلة شارلمان بين الإمبراطورية الرومانية والنزعة القومية، — إنه مبطئ للحركة بامتياز).

35

ميزة العبقرية القومية مقارنة مع ما هو أجنبي ومقتبس. — تصير العبقرية الأنجليزية كل ما تتلقاه فظا أكثر وطبيعيا أكثر والعبقرية الفرنسية تذيبه، وتبسطه، وتمنطقه، وتهيئه. والعبقرية الألمانية تعقده، وتُبلغه، وتشوشه، وتؤوله أخلاقيا.

أما العبقرية الإيطالية فهي أفضل من استخدمت ما اقتبسته استخداما حرا ودقيقا، لقد أضافت إليه أضعاف أضعاف ما أخذت منه، وذلك لكونها هي العبقرية الأكثر غنى، العبقرية التي تملك أكثر من سواها ما تعطيه.

36

يجب أن تعاد للرجال شجاعة غرائزهم الطبيعية

يجب محاربة النظرة السيئة التي كونوها عن أنفسهم (ليس كأفراد، وإنما كأناس طبيعيين ...) —

يجب أن نفرغ الأشياء من تناقضاتها، وذلك بعد أن ندرك أننا نحن من وصمها بها. —

يجب أن نلغي من الوجود كل خصوصية اجتماعية في الطبع (الذنب، العقوبة، العدالة، الإستقامة، الحرية، الحب، إلخ ...). —

تقدم نحو ال«طبيعة» : إن ما يتم استخدامه في كل القضايا السياسية، وفي علاقات الأحزاب ببعضها، حتى في الأحزاب المركنتيلية5، وبين العمال والمقاولين، هي القوة.-علينا أن نتساءل في البداية «عما نستطيعه» وبعد ذلك فقط نتساءل عما يجب علينا.

إن الاستمرار في نفخ أبواق المسيحية في أمور السياسة الكبرى (مثلا في بيانات النصر أو في الخطب الإمبراطورية الموجهة إلى الشعب) هو من الأشياء التي بدأت تصير بغيضة أكثر فأكثر، لأنه مناف للذوق.

تقدم القرن التاسع عشر على الثامن عشر (— الحقيقة أننا، نحن الأوربيون الصالحون، نوجد في حرب مع القرن الثامن عشر—):

1-«العودة إلى الطبيعة»، مع إعطائها، وبحزم، معنى مخالفا للذي أعطاه لها روسو، بعيدا عن القصيدة الغزلية الرعوية والأوبرا ؛ [6]

2-قرن مضاد للمثالية بحزم أكثر، وموضوعي، وجريء ومثابر، ومتزن، وحذر بخصوص التغيرات المفاجئة، ومضاد للثورة ؛

3-قرن يضع بحزم صحة الجسم قبل صحة «الروح»: معتبرا هذه الأخيرة حالة تنتج عن الأولى، ومعتبرا الأولى هي شرط وجود صحة الروح.

37

المحاولتان الكبيرتان اللتان تم القيام بهما لتجاوز القرن الثامن عشر:

نابليون ببعثه الجديد للإنسان والجندي والصراع الكبير من أجل القوة — متصورا أوربا كوحدة سياسية ؛

غوته، بتصوره لثقافة أوربية تشكل الإرث الكلي لما بلغته الإنسانية حتى ذلك الحين.

الثقافة الألمانية في هذا القرن تبعث على الريبة — ففي الموسيقى ينقصها ذلك العنصر الكامل الذي يخلص ويربط، ذلك العنصر الذي يسمى غوته. —

38

«بدون الإيمان المسيحي، يقول باسكال، ستجد نفسك، أمام نفسك، كما الطبيعة والتاريخ، مسخا وسديما» لقد حققنا هذه النبوءة: وذلك بعد أن قام القرن الثامن عشر، الضعيف والطموح، بتجميل الإنسان وعقلنته.

شوبنهاور وباسكال. — من ناحية أساسية، شوبنهاور هو أول من يعيد تناول حركة باسكال: مسخ وسديم، وبالتالي شيء يجب نفيه ... التاريخ، والطبيعة، والإنسان نفسه!

«عجزنا عن معرفة الحقيقة هو نتيجة لفسادنا، لتحللنا الأخلاقي،» — هكذا يتكلم باسكال. وهذا هو، في الحقيقة، نفس ما يقوله شوبنهاور. «كلما كان فساد العقل كبيرا كلما كانت عقيدة العفو ضرورية» —أو، لكي نتكلم لغة شوبنهاور، النفي.

39

شوبنهاور كطحنة ثانية (حالة ما قبل الثورة): — الرحمة، والشبقية، والفن، وضعف الإرادة، وكاثوليكية الرغبات الروحية — هذا في الواقع هو القرن الثامن عشر الصالح.

يعتبر شوبنهاور خطأ الإرادة الأساسي نموذجيا (وكأن أهم ما في الإرادة هي الشهوة والغريزة والرغبة): وهذا يقلل من قيمة الإرادة إلى حد تشويهها. وكذلك كره الإرادة ؛ إنها محاولة للنظر إلى عدم الإرادة، لدى «الذات التي لا غاية لها ولا قصد» (في «الذات الخالصة، التي لا إرادة لها»)، على أنه شيء سام، على أنه هو الشيء الأسمى في ذاته، هو الشيء الأهم، وذلك علامة على التعب، أو على ضعف الإرادة: لأن الإرادة هي ما تعتبره الشهوة سيدا يحدد لها المسار والإيقاع.

40

قضية القرن التاسع عشر.— معرفة ما إن كان جانبه القوي وجانبه الضعيف في وفاق؟ ما إن كان من طينة متجانسة؟ ما إن كان تنوع وتناقضات مثله الأعلى محدودين بغاية أسمى. بما أنه هو شيء سام؟ — لأن التطور، بهذا القدر، تحت ضغط

توتر شديد، قد يكون تهييئا سلفا لبلوغ العظمة. وقد يكون عدم الرضى والعدمية علامتين إيجابيتين.

41

نقد الإنسان المعاصر. لقد تم إفساد «الإنسان الصالح» وغوايته من طرف المؤسسات الخبيثة (الطغاة والكهنة) ؛ — العقل منصبا كسلطة ؛ التاريخ يتجاوز الأخطاء ؛ اعتبار المستقبل تقدما؛ — الدولة المسيحية («رب الجيوش») ؛ الغريزة الجنسية المسيحية (أو الزواج، بمعنى آخر) ؛ — سيادة «العدالة» (عبادة ال«إنسانية»)؛ — الـ «حرية».

الموقف الرومانسي للإنسان المعاصر : الإنسان النبيل (بايرون، فيكتور هيجو، جورج صاند) ؛ — السخط النبيل؛ — التقديس من خلال العشق (باعتباره هو «الطبيعة» الحقة)؛ الوقوف إلى جانب المضطهدين والمحرومين ؛ وهو شعار المؤرخين والروائيين ؛ رواقيو الواجب ؛ اعتبار «الترفع» فنا ومعرفة ؛ اعتبار الغيرية شكلا كاذبا من أشكال الأنانية (النفعية)، الأنانية العاطفية.

كل هذا تفوح منه رائحة القرن الثامن عشر. ولكنه قرن كانت له مزايا لم تورث: اللامبالاة والصدق، والأناقة، والوضوح الفكري: — لقد تغير شكل العقل ؛ والمتعة التي كانت تمنحها دقة الفكر ووضوحه قد تركت مكانها للمتعة التي مصدرها الألوان، والإنسجام، والجماهير، والواقع، إلخ. الشهوانية في أمور العقل. باختصار نقول بأن القرن الثامن عشر هو قرن روسو.

42

عدم انضباط العقل المعاصر وتصنعاته الأخلاقية .—كلمات الزينة هي: التسامح (هو «عدم القدرة على قول نعم أو لا») ؛ قوة التعاطف (—ثلثها لا مبالاة، وثلثها فضول، وثلثها حساسية مرضية) ؛ الموضوعية (—ضعف الشخصية، وقلة الإرادة، والعجز عن «الحب») ؛ ال«حرية» كتحرر من القاعدة (الرومانسية)؛ ال«حقيقة» مقابل الكذب والتزييف (الطبيعة) ؛ «العقلية العلمية» (الوثيقة الإنسانية:

أي الرواية المسلسلة والإضافة —عوض التركيب) ؛ ال«عشق» عوض الفساد والشبق؛ ال«عمق» عوض الفوضى وخليط الرموز.

العلاج من المعاصرة والعراقيل المناسبة لها:

1 - الخدمة العسكرية الإجبارية، مع حروب حقيقية تضع حدا لكل مزاح ؛

2 - الضيق (étroitesse) القومي (الذي يُبَسط ويركز) ؛

3- تغذية أفضل (اللحم) ؛

4 - فضاء أرحب وشقق صحية ؛

5- هيمنة الفسلجة على اللاهوت الأخلاق والإقتصاد والسياسة ؛

6 - الصرامة العسكرية في المطالبة بال«واجبات» وفي ممارستها (لم نعد نثني على...)

43

لا تنخدعوا بالمظاهر: فهذه الإنسانية ليس كل همها هو بلوغ «النتيجة»، إنها تعطي ضمانات أخرى على البقاء، وسرعتها بطيئة، ولكن إيقاعها غني. فالصحة ماضية نحو الأفضل، والشروط الحقيقية لقوة الجسم تتم معرفتها وإيجادها شيئا فشيئا. و«الزهد» يصبح موضع سخرية. أصبحت الإنسانية تخشى التطرف، وتثق نوعا ما في «الطريق المستقيم»، ولا تقوم بأي تمجيد، وتبدي رغبة مؤقتة في التعود على قيم أضيق (مثل «الوطن» و«العِلم»، إلخ.).

غير أن الصورة في مجملها تبقى غامضة—فكما قد يكون هذا حركة تصاعدية للحياة قدد يكون حركة تنازلية لها.

44

المعاصرة منظوروا إليها من حيث التغذية والهضم. —

أصبحت الحساسية أشد تهيجا (—وتحت بهارج الأخلاق: تزايد الشفقة-) ؛ والانطباعات المتنافرة أكثر انتشارا من ذي قبل :— عالمية اللغات والآداب والجرائد

والأشكال والأذواق المختلفة، بل والمناظر. منظر هذه الوفرة هو في حد ذاته ثروة ؛ الانطباعات تنمحي؛ نمتنع تلقائيا عن ابتلاع شيء ما ؛ ولا ندعه يخلق لدينا انطباعا قويا، نمتنع عن «هضم» شيء ما ؛ —وهو ما ينتج عنه إضعاف للقدرة على الهضم. يحدث نوع من التمثل لهذا الكم الهائل من الإنطباعات ؛ ينسى الإنسان أن يقوم برد الفعل ؛ لا يستجيب إلا للانطباعات الخارجية. يبدد قواه إما في التمثل، وإما في الدفاع، وإما في الرد. إضعاف كبير للتلقائية: — المؤرخ، والناقد، والمحلل، والمفسر، والملاحظ، والجامع، والقارىء، -كلهم مواهب ارتكاسية، — كلهم ينتمون للعلم.

يقوم بتهييء متصنع بطبعه ليجعل منه «مرآة» ؛ هناك لديه اهتمام، ولكنه اهتمام بالقشرة فقط ؛ مبدئيا هناك برودة، وتوازن، وحرارة محفوظة في درجة أقل، مباشرة تحت القشرة الرقيقة، هناك حيث يوجد الدفء، والهيجان، وال«عاصفة»، وحركة الأمواج.

هناك تعارض بين الحركية الخارجية وبين نوع من البطء، أي التعب الشديد.

45

الإجهاد والفضول والشفقة —هذه هي نقائصنا المعاصرة.

46

لماذا يصير كل شيء متصنَّعا. — تنقص الإنسانية المعاصرة دقة الغريزة (وهي نتيجة ممارسة طويلة لنفس النشاط من طرف نفس الصنف من الرجال) ؛ وما العجز عن إنجاز شيء كامل (parfait) إلا نتيجة لذلك : —لا يتدارك الفرد أبدا تأديب المدرسة.

ما يوجد الأخلاق أو القانون هي الغريزة الكبيرة التي تجعلها التلقائية وحدها ممكنة لبلوغ الكمال في الحياة والعمل ...

وها نحن اليوم قد بلغنا عكس ذلك، بل لقد أردنا بلوغه-الوعي في أقصى حدوده، والنفاذ إلى قلب الإنسان والتاريخ: —وبهذا نكون قد ذهبنا أبعد ما يكون في الرقي بالكينونة وبالفعل والإرادة نحو الكمال: برغبتنا في المعرفة ذاتها،—وهي علامات على انحطاط رائع. إننا نطمح لعكس ما تريده الأعراق القوية والطباع النشيطة -الفهمُ غايةً ...

يعتبر كونُ العلم ممكنا، مثلما هو ممارس الآن، دليلا على كون كل الغرائز الأساسية، غرائز الدفاع عن الحياة والحفاظ عليها، لم تعد تعمل. إننا لم نعد نجمع، بل نبذر رؤوس أموال أسلافنا، حتى في طريقة بحثنا عن المعرفة. —

47

الشيء المنهك اليوم غاية الإنهاك هو الميل الفطري للتراث وإرادته: كل المؤسسات التي يعزى قيامها في الأصل إلى هذا الميل تناقض ذوق العقل المعاصر...كل ما نفعله، وكل ما نفكر فيه يسعى إلى خلع معنى التراث هذا من جذوره. نعتبر التراث قدرا محتوما: ندرسه، ونعترف به (على شكل «إرث»-)، لا نريده. تمثُّل إرادة ممتدة على مدى أزمنة طويلة، اختيار الشروط والتقييمات التي تمكننا من التصرف بالمستقبل على مدى قرون كاملة—هذا شيء مضاد للمعاصرة بشكل كبير جدا. ومن هذا نستنتج أن المبادئ المفسدة للتنظيم هي طابع عصرنا.

48

خاصية ال«معاصرة».—تطوير مبالغ فيه للأشكال الوسيطة ؛ سقم النماذج ؛ انقطاع التقاليد، والمدارس ؛ هيمنة الغرائز (هيمنة مهيأة بشكل فلسفي: أصبحت للعقل الباطن قيمة أكبر) بعد ما تم إضعاف الإرادة، إرادة الهدف والوسائل...

49

تفوق التجار والأجانب، حتى في المجال الفكري: المعنى بالأدب، و ال«وكيل»، والمؤرخ (كمازج بين الماضي والحاضر)، الدخيل والمتغرب، الوسطاء بين العلوم الطبيعية والفلسفة، أشباه علماء اللاهوت.

50

التوتر ينتقد: تظهر المتناقضات وتتمكن من التفوق.—انحسار البروتستانية: المعتبرة نظريا وتاريخيا كتدبير مؤقت. الهيمنة الفعلية للكاثوليكية؛ اضمحلال

البروتستانتية بحيث أن الحركات المضادة لها لم تعد تعتبر مضادة (مثل بارسيفال ريشارڤاغنر). العقلانية الراقية في فرنسا كاثوليكية بالفطرة ؛ لقد أدرك بسمارك أنه ليست هناك بروتستانتية.

51

البروتستانتية. هذا الشكل من الإنحطاط، المزعجة والمنحرفة فكريا، والتي عرفت المسيحية كيف تحافظ عليها حتى الآن، وذلك لكي تحافظ على نفسها في الشمال الضعيف، هي شيء ناقص ومعقد يكن تقديرا للمعرفة، والدليل على ذلك جمعه بين تجارب مختلفة الدرجات والأصول.

52

انظروا ما فعله العقل الألماني بالمسيحية ! —ولنكتف هنا بالبروتستانتية، فكم من الجعَّة هناك في المسيحية البروتستانتية! هل يمكن أن نتصور إيمانا مسيحيا أبله ومنخورا وكسولا أكثر من الذي نجده لدى بروتستانتي من الوسط الألماني ؟... هذه مسيحية متواضعة قد أسميها طبا تجانسيا مسيحيا 7 ! لقد ذكر لي أحدهم أنه لا تزال هناك اليوم بروتستانتية متغطرسة، هي بروتستانتية الواعظين المدرسين والمضاربين المعادين للسامية: ولكن لا أحد تجرأ على ادعاء أن «مفكرا» ما «يحوم» حول هذه المياه... هذا مجرد شكل لا يليق بالدين المسيحي، وليس شكلا معقولا أبدا.

53

بكلمة اعتباطية تم اختيارها عن طريق الصدفة، كلمة «التشاؤم»، مارسنا تعسفا صار ينتشر كالعدوى: وفي خضمه نسينا المشكل الذي نعيشه، المشكل الذي هو نحن. لا يتعلق الأمر بمعرفة من هو على حق،—يجب أن نتساءل عن المرتبة التي يجب وضعنا فيها، هل ضمن المذمومين والأجساد المنحطة.

لقد جعلنا طريقتين في التفكير تتواجهان، وكأنه عليهما أن تتصارعا من أجل الحقيقة: بينما هما ليستا سوى عرضية لشروط خاصة، أما الصراع الذي تخوضانه فلا

يدل إلا على وجود مشكل أساسي يخص الحياة —وليس إطلاقا على وجود مشكل يخص الفلاسفة. أين موضعنا ؟—

54

أعراض التشاؤم الأساسية. — العشاءات لدى مانيي؛ التشاؤم الروسي (تولستوي، دوستويفسكي)؛ التشاؤم الجمالي، الفن للفن، ال«وصف» (التشاؤم الرومانسي والمضاد للرومانسية) ؛ التشاؤم في نظرية المعرفة (شوبنهاور، الظواهرية)[8] ؛ التشاؤم الفوضوي؛ «ديانة الرحمة»، التهيؤ للبوذية ؛ تشاؤم الثقافة (حب الدخيل، والعالمية)؛ التشاؤم الأخلاقي: أنا نفسي.

التسليات التي تخلصنا مؤقتا من التشاؤم : —الحروب الكبرى، التنظيمات العسكرية الكبرى، القومية، المنافسة الصناعية؛ العلم؛ المتعة.

55

لقد حاولنا بشكل مشين أن نرى في ڤاغنرو وشوبنهاور آثار اختلالات عقلية: وسنقوم بدراسة مهمة للغاية محددين بطريقة علمية نوع الانحطاط الذي يمثلانه.

56

ننظر إلى التزييف المعاصر في الفنون على أنه ضروري، أي على أنه مطابق للحاجيات الحميمية للروح المعاصرة.

يجب ملء ثغرات الموهبة، بل ثغرات التربية، والتراث، والتهذيب.

أولا: بالبحث عن جمهور ضعيف ذوقه الفني، ومثالي في حبه (—وسرعان ما يجثو على ركبتيه أمام الشخص ...) وهكذا نستفيد من المعتقدات الخرافية لقرننا، ومن الإيمان بالعبقرية ....

ثانيا: بإلقاء خطب مستفيظة على الغرائز الغامضة التي هي غرائز المستائين، والطموحين، وغير الواعين بعصر ديمقراطي : أهمية الموقف.

ثالثا : بنقل طرق فن ما إلى فن آخر، ومزج مقاصد فن ما بمقاصد المعرفة، أو بمقاصد الكنيسة، أو حتى بقضايا الأعراف (القومية)، أو الفلسفة —ودق جميع الأجراس في وقت واحد فنبعث الشعور الغامض بأننا إله.

رابعا: بمجاملة النساء، ومنحرفي المزاج، والمتمردين، بإدخالنا حتى في الفن فائضا من المخدرات ومعجون الأفيون. بدغدغةالأدباء وقراء الشعر والقصص القديمة.

57

«التقوية» المزيفة: 1) في الرومانسية: هذا الاعتصار المسترسل ليس علامة قوة، بل دليل فقر ؛

2) الموسيقى التصويرية، التي يسمونها تراجيدية، مرحة في المقام الأول (وكذلك الصناعية [9] الفظة وطريقة رصف الوقائع والمقاطع في الرواية الطبيعية)؛ [10]

3) الهوى مسألة تخص الأعصاب والنفوس المنهكة، تماما كالمتعة التي نجدها في قمم الجبال الشامخة، وفي الصحاري، وفي العواصف، وفي العربدة والرعب —في كل ما هو هائل وكثيف (لدى المؤرخين مثلا) ؛ هناك بالفعل تقديس لفجور الإحساس (فما الذي يدفع العصور القوية إلى البحث في الفن عن تلبية حاجة معاكسة —الحاجة إلى شيء يوجد ما وراء الأهواء ؟)

58

اعتبار الفن المعاصر فنا للطغيان.— منطق الرسوم الأولية الفظ والمجلو للعيان؛ الموضوع الذي يتم تبسيطه حتى ليصبح صيغة، الصيغة تستبد. داخل الرسم الذي تحده خطوط ترى تعددا همجيا، وكثافة مرهقة تشوش الحواس ؛ وخشونة الألوان، والمادة، والرغبات. أمثلة: زولا، ڤاغنر، وفي المجال الفكري طين (Taine). إنه إذن فن المنطق، والكثافة، والخشونة ...

59

عن موسيقانا العصرية. — إفلاس اللحن يشبه إفلاس ال«فكرة»، والجدل، والحرية داخل الحركة الفكرية،-بطء وتورم يتطوران نحو محاولات جديدة ومبادئ جديدة ؛ — وفي النهاية لا يحصل الموسيقي إلا على مبادئ موهبته الخاصة، مبادئ الجانب المحدود في الموهبة الخاصة.

«الموسيقى الدرامية» لا معنى لها ! إنها بكل بساطة موسيقى رديئة... لا يكون ال«إحساس» و «الهوى» سوى نوافل حين لا نعود قادرين من على بلوغ العقلانية الراقية والسعادة التي تنجم عنها (لدى ڤولتير مثلا). من الناحية التقنية، يعد التعبير عن ال«إحساس» و الـ «هوى» شيئا بالغ السهولة-يكفي للقيام بذلك فنانون رديئون. النزوع إلى المأساة لدى فنان ما يدل على تمكنه من الوسائل الظاهرة والوسائل الحقيقية. هناك فن الرسم الدرامي، والشعر الدرامي، إلخ.

60

التمييز بين ال«جمهور» و ال«نادي» -: بالنسبة للأول، يجب على المرء أن يكون مشعوذا، وفي الثاني يريد المرء أن يكون بارعا لا غير! ولقد تجاوز عباقرة القرن هذا التمييز وتفوقوا في كلا المجالين ؛ فشعوذة ريشار ڤاغنر وڤكتور هيجو الفائقة، إضافة إلى براعتهما الحقيقية، مكنتهما من إرضاء أرفع الأذواق في ميدان الفن. ولهذا لم يبلغا قدرا كبيرا من العظمة: إنهما يملكان منظورا متحولا، تارة يوجهونه نحو الرغبات الفظة، وتارة نحو الرغبات الرقيقة.

61

إذا كنا نعني بالعبقرية، لدى فنان ما، الحرية الكبيرة في إطار القانون، والمرح الرباني، والطيش في مواجهة أصعب الأمور، فإن أوفنباخ يملك أكثر من ريشارڤاغنر الحق في أن ندعوه «عبقريا». ڤاغنر بطيء وكثيف : إنه أشد ما يكون جهلا بلحظات الكمال الطائشة، كتلك التي يبلغها أوفنباخ المهرج خمس أو ست مرات في كل أعماله الهزلية تقريبا. ولكن ربما يجب علينا أن نعني بالعبقرية شيئا آخر. —

62

أميز الشجاعة أمام الأشخاص، والشجاعة أمام الأشياء، والشجاعة أمام الورق. هذه الأخيرة كانت مثلا هي شجاعة دافيد شتراوس. أميز كذلك الشجاعة أمام الحضور، والشجاعة بعيدا عن الأنظار ؛ فشجاعة المسيحي، أو المؤمن عموما، لا يمكن أن تكون بعيدا عن الأنظار ؛ —لأن ذلك يكفي لإذلاله. أميز أخيرا الشجاعة الجبلية والشجاعة الناجمة عن الخوف من الخوف: حالة خاصة من حالات هذا الصنف الأخيرة هي الشجاعة الأخلاقية. يجب أن نضيف إليها كذلك الشجاعة التي دافعها اليأس.

ڤاغنر كان يمتلك هذه الشجاعة. فقد كان وضعه الموسيقي يبعث على اليأس. ينقصه الشيئان اللذان يؤهلان الموسيقي: الطبع والثقافة، أي أن يكون مرصودا للموسيقى ويتلقى تربية وتهذيبا موسيقيين. لقد كانت له الشجاعة: فقد جعل من هذا النقص مبدأ —ابتكر صنفا موسيقيا خاصا به. «الموسيقى الدرامية، مثلما ابتكرها، هي الموسيقى التي كان قادرا على تأليفها ... وتصوره لها يقيده.

ولقد أسأنا فهمه ! —هل أسأنا فهمه؟... وخمسة أسداس الفنانين المعاصرين هم في وضعه. ڤاغنر هو منقذهم: وخمسة أسداس، فضلا عن ذلك، هو «أصغر عدد». كلما ظهرت الطبيعة قاسية، وتركت التربية للصدفة، وتحولت إلى مجرد محاولة، وإلى ولع بالفنون، إلا واتجه الفنان غريزيا، ماذا أقول ؟ بحماس إلى ڤاغر: «نصف مجذوب، ونصف منهار»، كما يقول الشاعر.

63

تنقصنا في الموسيقى تلك المالية التي ستفرض على الموسيقيين قواعد وتخلف لديهم وعيا ؛ وينقصنا، نتيجة لذلك، صراع حقيقي من أجل «المبادئ»، لأننا، كموسيقيين، لا نعبأ بالتذبذب الذي أظهره هربرت (Herbert) في هذا الميدان، ومثله شوبنهاور. وينجم عن هذا صعوبة كبيرة: لم نعد قادرين على تبرير أفكار «المثل» و«التمكن» و«الإتقان»-إننا نخبط خبط عشواء، بغريزة حب وإعجاب قديمين، في ميدان

الأخلاق، ونكاد نكون مستعدين للإعتقاد بأن «ما يعجبنا هو الحسن» ... ومما يثير ريبتي سماعي قول الناس في كل مكان، وببراءة، أن بتهوڤن «كلاسيكي»: سأدافع بقوة عن كوننا نعني بكلمة كلاسيكي، في فنون أخرى، عكس ما يمثله بتهوڤن. ولكن حين أرى تفكك أسلوب ڤاغنر الواضح للعيان، وهو ما يسمونه أسلوبه الدراما، يتم تقديمه بإجلال على أنه هو «النموذج» و«التمكن» و «التقدم»، فإن جزعي يبلغ مداه. الأسلوب الدرامي في الموسيقى، مثلما يفهمه ڤاغنر، هو التخلي عن كل الأساليب، بحجة أن هناك ما هو أهم ألف مرة من الموسيقى، ألا وهي المأساةالدراما يعرف ڤاغنر كيف يرسم، ويستخدم الموسيقى، ليس ليقدم لنا موسيقى، بل ليؤيد مواقفه، إنه شاعر: وأخيرا استنجد ب «المشاعر الجميلة» وب «الأفكار السامية»، كسائر الفنانين المسرحيين .— بكل هذا كسب النساء في صفه، وكذلك الذين يريدون تربية عقولهم: وما علاقة هؤلاء بالموسيقى ؟ كل هؤلاء لا وعي لهم بالفن ؛ ولا يتألمون حين تداس كل مزايا الفن الأساسية بالأرجل ويتم احتقارها لصالح المقاصد الثانوية (مثل خادمة للدراما). ما جدوى توسيع مجال طرق التعبير إن فقد الذي يعبر، أي الفن نفسه، القاعدة التي يسير على ضوئها ؛ روعة التصوير، وقوة الأصوات، ورمزية الرنين، والإيقاع، والألوان في تناسقها وتنافرها، والدلالة الإيحائية للموسيقى، والشبقية التي جعلها ڤاغتر تسود الموسيقى —كل هذا عرفه ڤاغنر في الموسيقى، بحث عنه فيها، وأخرجه منها، لكي يطوره. وقد فعل ڤكتور هيجو شيئا شبيها بهذا بالنسبة للغة: وها هو التساؤل يطرح الآن في فرنسا عما إذا كانت تقوية الشبقية في اللغة قد حطت من قيمة العقل والعقلانية والتقيد الشديد بقواعد اللغة ؟ في فرنسا أصبح الشعراء فنانين تشكيليين، وفي ألمانيا أصبح الموسيقيون ممثلين هزليين ومخربشين-أليس هذا من علامات الانحطاط ؟

64

هناك اليوم تشاؤم الموسيقي، حتى في صفوف غير الموسيقيين. من منا لم ير يوما في حياته ويلعن ذلك الشاب البئيس الذي يعذب آلة بيانه، حتى أنها تطلق صرخة يأس،

الذي يدفع أمامه بيديه حمأ التناغم الرمادي والأسمر؟ . . . مثل هذه الأشياء تدل على تشاؤم المرء... ولكن هل تكفي لتكسبه أذنا موسيقية ؟ لا أظن ذلك. الڤاغنيري الأصيل ليس موسيقيا ؛ إنه يستسلم للقوى الأولية للموسيقى، تقريبا كما تستسلم المرأة لإرادة مُنَوِّمها — ولكي يبلغ به الأمر هذا الحد يجب ألا يكون قد دفعه إلى الحذر وعي صارم ومفيد في تقديم صورة للموسيقيين والعازفين. قلت «تقريبا كما» —: ولكن ربما تعلق الأمر هنا بشيء أكثر من مجرد صورة. لننظر إلى الوسائل التي يفضل ڤاغنر استخدامها ليحدث تأثيرا (—وهي وسائل هو من ابتكر أغلبها)؛ إنها تشبه بشكل غريب تلك الوسائل التي يستخدمها المنوم لإحداث تأثيراته (—اختيار االحركة، ولون الفرقة الموسيقية، الهروب أمام منطق النظام وتربيعه، ما في «لحنه اللامتناهي» من قافز وزاحف وغريب ومنوم). —والحالة التي تترك فيها قطعته Lohengrin المستمع، والمستمعة أكثر منه، هل تختلف في شيء عن نشوة السرنمة؟-بعد استماعي لهذه المقدمة سمعت امرأة إيطالية تصيح، بنظرتها النشوانية الجميلة، وهو شيء يبرع فيه ڤاغنر: «كأنني نمت على إيقاع هذه الموسيقى الشجية!»—

65

الـ «موسيقى والأسلوب الرفيع». —لا تقاس عظمة الفنان بال«أحاسيس» التي يثيرها: لا يعتقد هذا إلا النساء الضعيفات. وإنما بحسب درجات ارتقائه نحو الأسلوب الرفيع. يشترك هذا الأسلوب مع العشق الكبير في عدم السعي إلى إثارة الإعجاب؛ وفي كونه ينسى أن يقنع نفسه ؛ ويقود ؛ ويريد . . . التحكم في السديم الذي هو نحن؛ إرغام هذا السديم على أن يتخذ شكلا، أن يصبح منطقيا، وبسيطا، وغير ملتبس، ورياضيات، وقانونا — هذا هو الطموح الكبير.-حين نملكه فإننا نَصُدُّ ؛ لا يعود أي شيء يحفز مثل هؤلاء المستبدين على أن يحبوا، —تمتد حولهم صحراء، وصمت، وخوف شبيه بالخوف الذي نشعر به أمام انتهاك صارخ للحرمات . . . كل الفنون تعرف هؤلاء الطموحين إلى الأسلوب الرفيع: فلماذا يغيبون في الموسيقى ؟

لم يقم أي موسيقي بعمل مثل الذي قام به ذلك المهندس المعماري الذي شيد قصر Pitti... هنا يجب البحث عن مسألة. هل تنتمي الموسيقى، ربما، إلى ثقافة لم يعد

فيها لسيادة المستبدين مكان ؟ هل تكون فكرة الأسلوب الرفيع نفسها مناقضة لروح الموسيقى، —للمرأة التي في الموسيقى ؟...

ألامس هنا مسألة جوهرية: في أي مجال تندرج موسيقانا بأكملها؟ عصور الذوق الكلاسيكي لم تعرف شيئا يشبهها: فقد ازدهرت بعد انحطاط عالم النهضة، بعد أن غادرت ال«حرية» التقاليد وروح الناس: —هل من سماتها أن تكون مضادة للنهضة؟ هل هي أخت الأسلوب المحاري، الذي عاصرته ولاشك ؟ ألا تكون الموسيقى المعاصرة قد دخلت عهد الانحطاط ؟ ...

لقد وضعت أصبعي فيما مضى على االمسألة التالية: أليست موسيقانا أشبه ما تكون بشيء مضاد للنهضة في الفن ؟

أليست لها صلة قرابة بالأسلوب المحاري ؟ ألم تظهر في خضم المعارضة للذوق الكلاسيكي، بحيث أنها تحرم كل طموح إلى الكلاسيكية؟ ...

والجواب على مسألة القيمة هذه التي لها أهمية كبيرة لم يكن ليصبح مريبا لو قدرنا حق قدره كون الموسيقى قد بلغت في الرومانسية أقصى نضجها ومداها، —مرة أخرى، كحركة ارتكاسية ضد الكلاسيكية ...

موزار - روح رقيقة وعاشقة، ولكنها تنتمي كلية إلى القرن الثامن عشر حتى في جديتها ... بتهوڤن —أول أكبر رومانسي ... بالمعنى الفرنسي لكلمة رومانسي ... كلاهما خصمان بالفطرة للذوق الكلاسيكي، للأسلوب الصارم، —حتى لا نتحدث هنا عن الأسلوب «الرفيع».

66

لماذا بلغت الموسيقى الألمانية ذروتها في عصر الرومانسية الألمانية ؟ لماذا ينقصنا غوته في الموسيقى الألمانية ؟ وفي المقابل، كم يذكرنا بتهوڤن بشيلر، أو ب «طِيكْلاَ» تحديدا ؟

هناك في شومان شيء من إيشندورف، من أوهلاند، من هاين، من هوفمان، من تيك (Tieck). وفي ريشار ڤاغنر شيء من فرايشفتز، من هوفمان، من كريم، من

الأسطورة الرومانسية، من الكاثوليكية الصوفية، من الغريزة، من الرمزية، من «سفجور الشهوة» (غاية روسو). فمقطوعة الهولندي الطائر تفوح منها رائحة فرنسا حيث كان الوسيم الغامض هو نموذج المغوي.

يلخص ڤاغنر الرومانسية، الألمانية منها والفرنسية، باعتباره يقدس الموسيقى، والرومانسية التي أحدثت ثورة في الشكل.—

67

في الحقيقة، موسيقى ڤاغنر هي أيضا أدب، مثلها مثل الرومانسية الفرنسية: سحر الدخيل (لغات أجنبية، تقاليد، غراميات) لإغراء المتسكعين المرهفي الحس. الافتتان بدخول بلد بعيد وشاسع الأطراف، غريب وماقبل تاريخي، منافذه تفتحها الكتب، وهو ما يصبغ الأفق كله بألوان وإمكانيات جديدة. استشعار عوالم بعيدة وغير مطروقة ؛ ازدراء الشوارع ... لأن القومية، وهو أمر لا يجب أن نخطىء بشأنه، ليست إلا شكلا من أشكال حب الدخيل.—يروي الموسيقيون الرومانسيون ما فعلته بهم الكتب الرومانسية: يودون أن يعيشوا أمورا غريبة، غراميات على طريقة فلورنسا أو البندقية : ولكنهم في النهاية يقنعون فقط بصور ذلك ... المهم هو أنها طريقة لإثارة شهية جديدة، ورغبة في المحاكاة، في إعادة الخلق ثانية، في ارتداء القناع، في تنكر الروح... ما الفن الرومانسي إلا وسيلة مؤقتة نعيش بها «واقعا» لم نستطع أن نعيشه...

محاولة القيام بشيء جديد : الثورة، نابليون.—نابليون، عشق إمكانيات جديدة للروح، جعل فضاء الروح أوسع ...

استنزاف الإرادة ؛ فجور كبير، رغبة في اكتشاف أحاسيس جديدة، أو إعادة خلقها، والحلم بها ... نتيجة الأشياء المتتالية التي عشناها : التعطش الشديد للأحاسيس المفرطة ... الآداب الأجنبية تقدم أقوى التوابل ...

68

إغريق وينكلمان وغوته، شرقيات ڤكتور هيجو، شخصيات إدّا edda في أعمال ڤاغنر، أنجليز القرن الثالث عشر في أعمال والترسكوت — سنكتشف المهزلة كلها يوما ! لقد كان كل هذا ، من الناحية التاريخية، خاطئا بشكل فاق كل تصور، ولكنه — معاصر وحقيقي!

69

إذا قيمنا ريشار ڤاغنر فقط من حيث القيمة التي يشكلها بالنسبة لألمانيا ولثقافتها فإنه يظل مشكلة كبيرة، وربما كارثة ألمانية، وعلى كل حال فهو قدر محتوم: ولكن ما أهمية ذلك ؟ أليس يعني أكثر من مجرد حدث ألماني ؟ يبدو لي أنه قد ينتمي إلى أي بلد أكثر من انتمائه لألمانيا، لا شيء فيها مهيء لمجيئه، والنموذج الذي يمثله غريب عن الوسط الألماني تماما، إنه يشغل فيه مكانه فريدة، وهو غير مفهوم فيه، ولا يمكن فهمه. ولكن الناس يحترسون من الإعتراف بذلك: بالنسبة لهذا الأمر هم طيبون جدا وشديدو العناد، هم جد ألمانيين. «لأنني أعتقد أنه من غير المعقول فعل ذلك»: هكذا أراد العقل الألماني. في هاته الحالة، كما في حالات أخرى كثيرة، يكتفي هذا العقل، وهو ينتظر، باعتقاد كل ما أراد ريشارڤاغنر أن يعتقده الناس بشأنه. لقد كان العقل الألماني دائما، في أمور علم النفس، قليل الدقة وبعد النظر. واليوم وهو واقع تحت الضغط الكبير للقومية المتطرفة والإعجاب بالذات، نراه يصير ثخينا وفظا: فأنّى له أن يكون في مستوى مشكلة ڤاغنر ؟—

70

استقصاء شامل: الطبع الغامض لعالمنا المعاصر. — الأعراض المتماثلة هي التي قد تؤول على أنها أعراض الانحطاط وأعراض القوة. وعلامات القوة، علامات التحرر الذي تم بلوغه، باسم التقدير العاطفي الموروث (الحطام الذي نسخر منه) قد يساء تأويلها على أنها علامات ضعف. باختصار، ليس الإحساس، كإحساس قيمة، في مستوى العصر.

بشكل عام: إحساس القيمة يكون دائما متأخرا، إنه يعبر عن نمو مرحلة سابقة وشروط المحافظة عليها: إنه يحارب شروطا جديدة للحياة، وهذه الشروط ليست هي التي أنتجته، لذلك تجده حتما يسيء التأويل: إنه يضع العراقيل، ويثير الريبة بخصوص كل ما هو جديد ...

71

استقصاء شامل: كل نمو كبير يأتي معه بالتفتت والاضمحلال: تظهر المعاناة وأعراض الانحطاط في العصور التي تخطو خطوة كبيرة نحو الأمام؛ فكل حركة خصبة وقوية من حركات الإنسانية أوجدت في ذات الوقت حركة عدمية. في بعض الحالات، قد يكون ازدهار أقصى أشكال التشاؤم في العالم، والعدمية الحقة، علامة نمو حاسم وبالغ الأهمية، علامة الدخول في شروط جديدة للحياة، وهذا ما فهمته.

III

نظرية الانحطاط

72

فكرة «الانحطاط». — ليس في الردة والتحلل والفضالة ما يمكن إدانته في نفس: فما هي إلا نتائج ضرورية تنتج عن الحياة، عن النماء الحيوي. فظاهرة الانحطاط ضرورية مثلها مثل ازدهار الحياة وتقدمها: ولانملك وسيلة للقضاء على هذه الظاهرة. بل عكس ذلك، فالعقل يقضي بأن نترك لها حقوقها. إنه لشيء مخجل لكل منظري الاشتراكية أن يقروا بإمكانية وجود ظروف وتركيبات اجتماعية لاتنمو فيها الرذيلة، والمرض، والجريمة، والبغاء، والبؤس ... فهذا يعني القضاء على الحياة ... فليس المجتمع حرافي أن يبقى شابا. حتى في زمن أجمل ازدهار يعيشه فإنه يخلف فضلات وبقايا. كلما تقدم بقوة وجرأة، كلما كثرت فيه خيبات الأمل والتشوهات، وكلما اقترب من السقوط ... لانقضي على الشيخوخة، ولاعلى المرض، ولاعلى الرذيلة بالمؤسسات.

الانحلال: المبدأ الأول: ما تم حتى الآن اعتباره هو سبب الانحلال هو في الحقيقة نتيجته.

كذلك: كل ماتم اعتباره علاجا للانحلال لم يكن إلا علاجا مؤقتا لبعض آثار هذا الانحلال.

الانحطاط وعواقبه: الرذيلة — الفجور؛ المرض — الحالة المرضية؛ الجريمة — الإجرام؛ العزوبة — العقم؛ الهستيرية — ضعف الإرادة؛ إدمان الكحول؛ التشاؤم؛ الفوضوية.

73

فكرة أساسية حول طبيعة الانحطاط: ما تم اعتبره حتى الآن سببا بل نتيجة. وهذا يغير منظور المسألة الأخلاقية كلها.

يبدو الصراع الأخلاقي ضد الرذيلة والترف والجريمة، بل حتى ضد المرض، شيئا ساذجا وزائدا عن الحاجة: — ليس هناك «إصلاح» (الندم).

الانحطاط نفسه ليس يجب محاربته: إنه ضروري جدا ولايخلو منه عصر أو شعب. ما يجب محاربته أشد ما تكون المحاربة هي جلب العدوى إلى بقية الأعضاء السليمة في الجسم.

هل هذا هو ما نفعله؟ إننا العكس تماما. هذا بالضبط هو المنحى الذي تبذل فيه الإنسانية مجهوداتها.

- أية علاقة تربط بهذه المسألة الأحيائية الأساسية ما اعتبرناه حتى الآن قيما راقية؟ الفلسفة، والدين، والفن، إلخ.

74

من أجل فكرة الانحطاط:

1 - يكمن أصل التشاؤم في الانحطاط: وكذلك فجور العقل.

2 - الانحطاط أصل فساد الأخلاق (ضعف الإرادة، الحاجة إلى محفزات قوية).

3 - وسائل العلاج النفسية والأخلاقية لاتغير من سير الإنحطاط، لاتعرقله، إنها مساوية للصفر من الناحية الأحيائية.

- [توضيح عدم نجاعة «ردود الفعل» المتصنعة هذه، إنها أشكال من التحذير الذي يتم استخدامه ضد بعض العواقب الوخيمة؛ إنها لاتتمكن من القضاء على العنصر المريض؛ إنها غالبا ما تكون عبارة عن محاولات بطولية للقضاء على إنسان الانحطاط، للقضاء على الحد الأدنى من إضراره.

4 - ليست العدمية سبب الانحطاط بل هي منطقه.

5 - ما ال «خير» وال «شر» إلا نموذجين من الانحطاط.

6 - المسألة الاجتماعية نتيجة من نتائج الانحطاط.

7 - تدل الأمراض، وخاصة الأمراض العصبية والعقلية، على غياب قوة الطبع النشيط الدفاعية؛ نفس الشيء يقال عن الحساسية، بحيث أن المتعة والكدر يصبحان مشكلتين من الطراز الأول.

75

أنواع الانحطاط الرئيسية :

1 - نختار، ونحن ننوي اختيار العلاج، ما يقوم بتسريع عملية الإنهاك؛ — إنها حالة المسيحية (لنختار أهم حالة لظلال الفطرة)؛ — إنها حالة «التقدم». —

2- نفقد قوة مقاومة الإثارة، — نستسلم للصدفة: نضخم الأحداث حتى تتخذ شكلا مهول ... إلغاء ل «الشخصية» وانحلال للإرادة؛ — هنا يجب أن نذكر صنفا من الأخلاق بكامله، أخلاق الإيثار، التي لاتفتأ تتحدث عن الرحمة؛ أهم شيء فيها هو ضعف الشخصية، بحيث تتأثر بأكملها وتهتز دون توقف، مثل حبل مشدود ... وحساسية مفرطة ...

3- نخلط بين العلة والمعلول: لانقصد الانحطاط بمعناه الأحيائي بل ننظر إلى نتائجه على أنها هي السبب الحقيقي للمشكل؛ هنا يجب أن نذكر الأخلاق الدينية كلها ...

4- نرغب في وضع لا معاناة فيه: فالحياة تعتبر أصل المعاناة كلها، نقوم بتقييم الحالات اللاشعورية (النوم والإغماء) لنعطيها قيمة أسمى من قيمة الحالات الشعورية؛ ومن هنا جاءت طريقة ...

76

إن ما يتم انتقاله وراثيا ليس هو المرض، بل الحالة المرضية؛ العجز عن مقاومة خطر الهجرات الضارة، قوة المقاومة المحطمة، إلخ؛ ولنعبر عن ذلك من ناحية أخلاقية نقول: الخضوع والتواضع أمام العدو.

لقد تساءلت مع نفسي عما إذا لم يكن ممكنا مقارنة كل هذه القيم الراقية في الفلسفة والأخلاق والدين، مثلما عرفها الناس حتى الآن، مع قيم الضعفاء والمعتوهين والمنهكين عصبيا: فهم جميعا يعانون من نفس الأمراض، إذا نظرنا إليها في حالتها الهينة ...

تكمن قيمة الحالات المرضية في كونها ترينا تحت العدسة المكبرة بعض الأوضاع التي، وإن كانت عادية، تصعب رؤيتها بالعين المجردة ...

ليس هناك فرق جوهري بين الصحة والمرض، مثلما كان يتخيله الطب القديم، ومثلما لايزال اليوم يؤمن به بعض الأطباء الممارسين.

يجب ألا نجعل منهما علتين أو جوهرين مختلفين يتنازعان الجسد الحي ويجعلان منه حلبة صراع، هذه سخافات وثرثرة لم تعد تصلح لشيء. الحقيقة أن ما يفرق بين هاتين الطريقتين في الحياة هي فروق في الدرجات فقط: إن ما يشكل الحالة المرضية هي المبالغة في الظواهر الطبيعية وعدم تناسبها، وعدم تناغمها (كلود برنار).

كما يمكن اعتبار الشر مبالغة وتنافرا وعدم تناسب، كذلك يمكن اعتبار الخير حاميا من أخطار المبالغة والتنافر وعدم التناسب. اعتبار الضعف الوراثي هو الإحساس المهيمن: هو علة القيم الراقية.

— اعتبار الضعف مهمة: ضعف الرغبات، ضعف الإحساس بالمتعة وبالكدر، ضعف إرادة القوة، ضعف الشعور بالأنفة، ضعف الرغبة في تنمية الممتلكات؛ اعتبار الضعف إذلالا؛ اعتبار الضعف إيمانا؛ اعتبار الضعف نفورا وخجلا من كل ما هو طبيعي، ونفيا للحياة، مرضا وضعفا معتادين ... الضعف الذي يتخلى عن الانتقام، عن المقاومة، عن العداوة والغضب.

الاحتقار في المعاملة: لانريد أن نحارب الضعف بواسطة التقوية، ولكن بنوع من التبرير والتفسير الأخلاقي، أي بالتأويل ...

— هناك حالتان شديدتا الاختلاف نخلط بينهما: مثلا راحة القوة التي تقتضي في المقام الأول الامتناع عن رد الفعل (مثال الآلهة التي لايثيرها أي شيء)، — وراحة الإنهاك، الصلابة التي تبلغ حد الخَدَر. كل طرائق الفلسفة الزهدية تطمح لبلوغ

هاته الحالة الأخيرة، ولكنها في الواقع تقصد الأولى ... كذلك أنها تطلق على الحالة التي تبلغها أوصافا تدعو إلى الإعتقاد بأن ما تم بلوغه هو حالة ربانية.

77

أخطر سوء تفاهم. — هناك فكرة لاتقبل الإلتباس، وليس فيها ما يدعو إليه: إنها فكرة الإنهاك. ولكن الإنهاك قد يكون مكتسبا؛ وقد ينتقل وراثيا، — وهو في كلتا الحالتين يغير شكل الأشياء وقيمتها ...

عكس الذي يبدع من كماله هو، هذا الكمال الذي يمثله ويشعر به، وبشكل لاشعوري يمنح الأشياء جزءا منه ليراها في المستقبل أكثر كمالا وقوة وغنى؛ عكس الذي يستطيع العطاء على أية حال، — نجد المنهك يُصَغِّر ويشوه كل ما يراه، إنه يفقر القيمة: إنه مضر ...

ورغم ذلك يبدو أنه لايمكن احتقار المنهك: فالتاريخ يقدم لنا الحقيقة المرة على أنه كان دائما يتم الخلط بين المنهكين وبين الكاملين — وبين هؤلاء وبين الأشد إضرارا.

الفقير من حيث الحيوية، الضعيف، يفقر الحياة أكثر: والغني بالحيوية، القوي، يغنيها. الأول يعيش طفيليا على الثاني: وهذا الأخير يعطي ويجزل العطاء ... فكيف يكون الخلط بينهما ممكنا ؟ ... (حين يقتضي الانحطاط تفريغا فكريا أو عصبيا مفرطا)، فإنه يتم الخلط بينه وبين الغني ... إنه يثير الريبة ... إجلال الأحمق هو دائما إجلال للغني بالحيوية، للقوي. لقد تم اعتبار المتعصب، والمحسوس، والمتدين المريض بالصرع، وكل غريبي الأطوار كنماذج راقية من القوة: كربانيين.

كأن ذلك الشكل من القوة الذي يثير الخوف يعتبر ربانيا: وقد كان ذلك هو منطق السلطة؛ لقد أراد الناس أن يروا فيه تأويلا للحكمة، كانوا يسمعون صوت الحكمة، يبحثون عنها ... من هذا الانطباع تولدت تقريبا في كل مكان إرادة «التأليه»، أي الرغبة في انحطاط نموذجي يخص العقل والجسد والأعصاب محاولة للعثور على الطريق الموصلة إلى ذلك العالم العلوي. إمراض المرء لنفسه، إدخاله لها عالم الحمق: إثارة أعراض الاختلال — يعني أنه يصير أقوى، وأكثر إنسانية ورعبا وحكمة. كان الناس يعتقدون

أنهم بذلك يصيرون أغنياء بالقوة إلى حد يمكنهم معه التنازل عن شيء منها. لقد كانت العبادة، حيثما كانت، متلازمة مع البحث عمن يمكنه التنازل عن شيء ما.

ما يضللنا هنا هي تجربة النشوة. فهي ترفع الإحساس بالقوة إلى أسمى الدرجات، وبالتالي، إذا حكمنا بسذاجة، ترفع القوة ذاتها. وفي هذه الدرجة الأسمى من القوة يجب أن يتواجد الأكثر نشوة، أي المنتشي. (هناك مصدران للنشوة: الإمتلاء الحيوي الكبير والتغذية المرضية للدماغ).

78

حين ترتبط المتعة والكدر بالإحساس بالقوة فإنه يجب على الحياة أن تشكل زيادة في القوة حتى يحس الشعور بالفارق «الزائد» ... لَوْ حافظنا على مستوى محدد من القوة فلن يتم قياس المتعة إلا من خلال الإنخفاضات التي يعرفها ذلك المستوى، من خلال حالات الكدر، — وليس من خلال حالات المتعة ... إرادة الزيادة هي جوهر الفرح: يجب أن تكبر القوة ليحس الشعور بالفارق ...

حين يكون هناك انحطاط، فإنه ابتداء من نقطة معينة يحس الشعور بالفارق المعاكس، أي بالنقصان: فذكرى أهم لحظات الماضي تقلل من أحاسيس المتعة الحالية، — فالمقارنة هي التي تضعف المتعة الآن.

من أجل «صحة» الضعفاء. — كل ما يتم فعله في حالة الضعف يفشل. المغزى: لايجب فعل أي شيء. وأسوأ ما هنالك هو أن القدرة على تعليق الفعل، على عدم رد الفعل، تصاب بشكل خطير تحت تأثير الضعف: هو أنه لايتم رد الفعل بسرعة وبشكل أعمى إلا حين يجب ألا يكون هناك رد فعل البتة ...

تتأكد قوة إنسان ما حين يؤجل رد الفعل ويؤخره: وهكذا يصير ضعف الصمود من مميزاته، كما تميز الضعف ضرورة رد الفعل؛ وفجأة «الفعل» لايمكن تعطيلها ... الإرادة ضعيفة، وما يجب فعله لتجنب ارتكاب الحماقات هو امتلاك إرادة قوية وعدم فعل أي شيء ... إنه تناقض. نوع من التدمير الذاتي: لقد تم فهم غزيرة البقاء... الضعيف يلحق الضرر بنفسه ... إنه نموذج الانحطاط.

هنـاك، في الـواقـع، بـحـثٌ هـام عـن الـمـمـارسـات الـتـي يمـكـنـهـا أن تـؤدي إلى اللاإنفعالية.

الغريزة ماضية في طريقها الصحيح، إذ تقول أن عدم فعل أي شيء أفضل من فعل شيء ما ...

كل ممارسات الهيأت الدينية، والفلاسفة المتوحدين، والزهاد، هي من وحي تقييم عادل لهذا العالم مفاده أن صنفا من الرجال ينفع نفسه أكثر حين يمتنع عن الفعل قدر ما يستطيع.

— الوسائل التي تيسر ذلك: الخضوع التام، النشاط الآلي، تقديم تعويض للناس والأشياء، وهو يتطلب قرارا وفعلا عاجلين.

79

«الحواس» و «الأهواء». غرور الحواس والرغبات والأهواء، حين يكبر إلى حد يَنصح معه صاحبه بالإبتعاد عنها، يكون قد صار علامة ضعف: فالوسائل القصوى تميز دائما أوضاعا غير عادية. الشيء الذي ينقص هنا، أو بالأحرى الذي يتفتت، هي القوة الضرورية لعرقلة نزوة ما: حين نشعر غريزيا بأنه علينا اتباع الهوى، أي بواجب القيام برد فعل، فإنه يجدر بنا أن نتجنب فرص وقوع ذلك («الإغراءات»).

لاتكون «نزوة الحواس» إغراء إلا حين يتعلق الأمر بأشخاص يسهل تحريك النظام ثقيلا ومتينا، فإن تحريك وظائفه يتطلب حثا قويا.

إننا لا نعترض على الفجور إلا بالنسبة لمن لاحق له فيه، ولقد ذُمت الأهواء كلها تقريبا بسبب أولئك الذين لم يكونوا أقوياء كفاية ليغيروا مجراها لصالحهم.

يجب أن نتفق لنؤكد أنه يمكننا أن نعترض على الهوى بما نعترض به على المرض: ورغم هذا — فإننا لن نستطيع الاستغناء لا عن المرض ولا عن الهوى. لقد كنا في حاجة إلى ما هو غير عادي، إننا نصدم الحياة صدمة رائعة بهذه الأمراض الرئيسية ...

وبالتفصيل نميز: 1- الهوى المهيمن، الذي يجر معه الصحة الجيدة في أفضل حالاتها: هنا يتم بشكل جيد جمع الأنظمة الداخلية تحت نظام واحد يخدم موضوعا واحدا، — وهذا، تقريبا، هو تعريف الصحة!

2- تقابل الأهواء، معارضتها لبعضها، تعدد «النفوس في جوف واحد»: هذا شيء غير صحي ومُضْنٍ بسبب دمارها داخليا، يفتح المجال للتخمين ويفاقم التضاد والفوضى داخل النفس ذاتها: — إلا إذا استطاع أحد الأهواء أن يمسك بزمام السيادة. عودة الصحة.

3- التزامن، دون أن تكون هناك معارضة وانحياز؛ هذا التزامن غالبا ما يكون مرحليا، ولذلك فبمجرد ما يعيد النظام يصبح صحيا ...

في هذا الصنف يدخل الرجال المهمون، الحريات؛ فهم ليسوا في تناقض مع أنفسهم، إنهم سعداء وواثقون من أنفسهم، ولكنهملا يتطورون، حالاتهم المعنوية تتواجد جنبا إلى جنب، وإن كان الفرق بينها شاسعا. إنهم يتغيرون، ولايتطورون نحو الصيرورة ...

80

ضعف الإرادة: هذا شعار قد يضللنا. لأنه ليست هناك إرادة، وبالتالي لاوجود لإرادة قوية أو ضعيفة. تعدد الغرائز وتفككها. وغياب نظام يجمع شملها، يؤدي إلى «ضعف الإرادة»؛ أما تنظيم هذه الغرائز تحت سيادة غريزة واحدة فيؤدي إلى «إرادة قوية»؛ — في الحالة الأولى نجد التأرجح وعدم التوازن؛ وفي الحالة الثانية نجد الدقة ووضوح التوجه.

81

يمكن اختزال فكرة «الإنسان القوي» و «الإنسان الضعيف» كالتالي: في الحالة الأولى يتم انتقال قدر كبير من القوة وراثيا — حينها يكون الإنسان كلا واحدا، وفي الحالة الثانية يتم انتقال كمية أصغر — (إرث غير كاف، أو تبذير للإرث). قد يكون الضعف ظاهرة أولية: «كمية صغيرة جدا»؛ أو ظاهرة نهائية: وحينها لاتعود هناك قوة.

نقطة التفاضل هي حيث يوجد قدر كبير من القوة، حيث توجد قوة يمكن إنفاقها. فالطبقة الشعبية، باعتبارها تجمع كل الضعفاء، يكون رد فعلها بطيئا؛ إنها تدافع عن

نفسها ضد كثير من الأمور التي لا تملك القوة لمواجهتها، ولا تستطيع الإستفادة منها؛ إنها لاتبدع، ولا تمضي قدما.

هذا ما يجب أن نعارض به النظرية التي تنفي الفرد القوي وتتصور أن «الطبقة الشعبية تكفي». إنه نفس الفرق الفاصل بين السلالات: قد تجد أربعة أو خمسة أجيال نفسها ما بين الرجال النشيطين والطبقة الشعبية ... إنه مجرد فرق زمني. توجد قيم الضعفاء في المقدمة، لأن الأقوياء استولوا عليها ليحكموا بها ...

82

الإنهاك المكتسب وليس الموروث: 1) نقص التغذية الذي يحصل في الغالب نتيجة جهل الطريقة الواجب اتباعها في التغذية، مثلا لدى العلماء؛ 2) الشبقية المبكرة: كارثة خاصة لدى الشباب الفرنسي (البارزيين في الدرجة الأولى) : الذي يخرج من الثانوية فاسدا مُلَوَّثاً ليدخل عالم الناس — والذي لا يستطيع التخلص من ميوله الحقيرة، فيصبح ساخرا من نفسه ومحتقرا لها — وللمحكومين بالأشغال الشاقة المهذبين (— ويشكل هذا، في الحالات الكثيرة الوقوع، علامة انحطاط العرق والعائلة، مثل كل طيش بلغ أقصاه: وكذلك العدوى التي تنتقل من الوسط إلى الفرد —، فترك الفرد للوسط يُحدد له هويته هو كذلك من علامات الانحطاط — ؛ 3) الإدمان على الكحول، الإعتماد على العادة لا على الغريزة، التقليد البليد، التمثل المغرور أو الضعف أمام نظام مهيمن. — كم يبدو اليهودي نعمة حين يعيش المرء وسط الألمان! انظروا إلى هذه الغباوة، الرأس مغطى بالقنب، والعين زرقاء: البلادة بادية على المحيى، وفي الكلمات والمواقف؛ يتمطى بتوان، لايشعر الألماني بالحاجة إلى الراحة نتيجة التعب بعد العمل، بل نتيجة التهيج الكريه والتهيج المفرط الناتجين عن تناول الخمور ...

83

نقد الكلمات الرنانة. — أنا مفعم بالشك والسخرية تجاه ما يسمى ب «المثل الأعلى»: فتشاؤمي يكمن في اعترافي بكون «الأحاسيس السامية» مصدر تعاسة، أي مصدر التقليل من شأن الإنسان والحط من قيمته.

نخطئ حين ننتظر من المثل الأعلى «تقدما»: ففي كل مرة ينتصر فيها المثال يكون انتصاره حركة رجعية.

المسيحية، الثورة، إلغاء العبودية، المساواة في الحقوق، حب البشر، حب السلم، العدالة، الحقيقة: كل هاته الكلمات الربانية لاقيمة لها إلا في الصراع، لتستخدم كرايات؛ لا كحقائق، بل ككلمات استعراضية للدلالة على شيء آخر تماما (بل وعلى عكسها هي!).

84

إذا كنا «متقززين» فليس من الحياة: بل فقط لأننا فتحنا عيوننا على كل أنواع «الرغبات». نتأمل في غضب ساخر ما يسمونه «المثل الأعلى»؛ نزدري أنفسنا لأننا لا نستطيع أن نقمع في كل حين ذلك الإغراء الذي يسمى «المثالية». العادة السيئة أقوى من غضب المتقزز.

85

لنفهم: — أن كل أنواع الانحطاط وانحراف الطبع قد ساهمت باستمرار في إيجاد التقييمات العامة : أن الانحطاط قد ساد التقييمات المهيمنة : أنه لايجب علينا فقط محاربة الأوضاع التي وجد عليها حتى الآن، قد انتقل وراثيا وظل، بالتالي، على قيد الحياة. الضلال الشامل الذي تعيش فيه الإنسانية التي تحيد عن غرائزها الأساسية، والانحطاط العام للتقييمات هم أهم مشكلة، هو اللغز الحقيقي الذي يطلب «الحيوان الإنسان» من الفيلسوف فكه.

86

يسعدني، بعد ما قضيت آلاف السنين في الضلال والإلتباس، أن أجد الطريق المؤدية إلى نعم ولا.

أعلمكم أن تقولوا لا لكل ما يُضعف — لكل ما ينْهك.

أعلمكم أن تقولوا نعم لكل ما يقوي، لكل ما يُراكم القوى، لكل ما يبرز الإحساس بالقوة.

حتى الآن لم يتم تعليم الناس لا هذا ولا ذاك: بل تم تعليمهم الفضيلة، والإستقامة، والرحمة، بل حتى جحود الحياة.

وهذه هي قيم المنهكين.

لقد دفعني تفكير طويل بشأن فزيولوجية الإنهاك إلى طرح السؤال التالي: إلى أي مدى نفذت أحكام المنهكين في عالم القيم ؟ وقد كانت النتيجة التي توصلت إليها مفاجئة للغاية، حتى بالنسبة لي، أنا الذي أَلِفت عوالم أجنبية كثيرة:

وجدت أنه يمكن إرجاع أصل كل الأحكام الراقية، كل الأحكام التي سادت الإنسانية، الإنسانية المُدَجَّنة على الأقل، إلى أحكام المهنكين.

وراء أكثر الأسماء قداسة وجدت أشد الميول تدميرا؛ لقد أطلقوا اسم الرب على ما يضعف، على ما يعلم الضعف، على ما يصيب بعدوى الضعف ... وجدت أن «الإنسان الصالح» إثبات ذاتي للانحطاط.

وتلك الفضيلة التي كان شوبنهاور يقول عنها أنها هي الفضيلة السامية والوحيدة، أنها هي أصل كل القيم: تلك الرحمة، لقد أدركت أنها أخطر من كل الرذائل. العرقلة المبدئية للإختيار داخل النوع، تطهير هذا النوع من كل الفضلات — هذا هو ما تمت تسميته حتى الآن فضيلة بامتياز ... يجب أن نبجل القدر: القدر الذي يقول للضعفاء «زولوا» ... لقد أطلقوا اسم الرب على مقاومة القدر، — على إفناء الإنسانية وإفسادها ... لايجب التلفظ باسم الرب عبثا ...

العرق فاسد — لم تفسده رذائله، بل جهله: لقد فسد لأنه لم ينظر إلى الإنهاك على أنه إنهاك: الغموض الفزيولوجي هو أصل كل شر ...

الفضيلة أكبر سوء تفاهم لدينا ...

مسألة: كيف استطاع المنهكون أن يصوغوا من القيم قوانين ؟ بتعبير آخر: كيف توصل من هم في المؤخرة إلى اكتساب القوة ؟

... كيف تم قلب غريزة الحيوان الإنسان رأسا على عقب ؟ ...

الكتاب الثاني

نقد القيم الراقية

I

الدين كتعبير عن الانحطاط

1 - تأملات عامة:

87

عن أصل الدين. — مثلما يتصور العامي اليوم أن غضبه هو سبب نزقه، والعقل علة فكره، والروح علة إحساسه، باختصار، مثلما نسلم، بلا روية، بمجموعة من الجواهر النفسية على أنها علل — كذلك قام الإنسان، على مستوى اجتماعي ساذج، بتفسير هذه الظواهر بواسطة جواهر شخصية. الحالات النفسية التي كانت تبدو غريبة ومضنية وأخاذة كان يعتبرها وساوس وأعمال سحر أحدثتها قوة غامضة يملكها شخص ما. بهذه الطريقة يرجع المسيحي، هذا الإنسان الأكثر سذاجة وتخلفا، يرجع الأمل، والطمأنينة، والإحساس ب «خلاص»، إلى إلهام نفسي من الرب. بما أنه هو الإنسان الأكثر معاناة وعرضة للقلق فإن الطمأنينة والسعادة والاستسلام يبدون له شيئا غريبا لا يجب إعطاء تفسير له. من بين الأعراف الذكية و القوية، التي تتمتع بحيوية كبيرة، نجد أن المرضى بالصرع هم الذين يولدون في الغالب القناعة بأن هناك قوة غريبة تعمل في خفاء؛ وكل أشكال الإخضاع التي تكون من نفس النوع، مثل الإكراه الذي نلاحظه لدى المتحمس، والشاعر والمجرم الكبير، في عواطف مثل الحب والكره، تدفع إلى اختلاف قوى خارقة، نجسد حالة نفسية ما في شخخص واحد فقط ثم نزعم، حين تعترينا هذه الحالة، أن ذلك من فعل هذا الشخص، بعبارة أخرى: في تكوينهم النفسي للرب يقوم الناس بتجسيد حالة معينة تكتسي صفة العلة لتكون معلولا لشيء ما.

ولكن المنطق النفسي يقول ما يلي: حين يداهم الإحساس بالقوة المرء فجأة فيستولي عليه ويُخضعه — وهو ما يحدث في كل العواطف الكبرى — فإنه يثير نوعا من الشك في قدرة الإنسان: فلا يجرؤ الإنسان على تصور أنه هو سبب ذلك الإحساس — ويتخيل شخصية أقوى، معبودا، يحل محله، في هذه الحالة.

إذن فأصل الدين هو أحاسيس القوة الخارقة التي تفاجئ الإنسان بطبعها الغريب؛ ومثل مريض يشعر بتثاقل غريب في أحد أعضائه فيستنتج من ذلك أن شخصا آخر راقد عليه، كذلك الإنسان المتدين ينفصل إلى عدة أشخاص. الدين حالة من «تغير الشخصية»، شعور الإنسان بالخوف والرعب أمام نفسه ... وفي نفس الوقت شعور رائع بالسعادة والتفوق ... لدى المرضى، مجرد الشعور بالصحة يكفي للإيمان بالله، بتأثير الله.

حالات القوة تشعر الإنسان أنه مستقل عن السبب، أنه غير مسؤول: إنها تأتينا دون أن نرغب فيها، إذن لسنا نحن من يحدثها ... الإرادة غير المتحررة (أي الشعور بحدوث تغير فينا، دون أن نكون قد أردنا ذلك) تقتضي وجود إرادة أجنبية.

لم يجرؤ الإنسان على أن ينسب لنفسه كل اللحظات المدهشة والمهمة في حياته، لقد تصور أن هذه اللحظات كانت «سلبية»، وأنه قاسى منها وكان «خاضعا» لها ... الدين نتاج الشك في وحدة الفرد ... مثلما اعتبر الإنسان كل ما هو كبير وقوي شيئا خارقا وغريبا، كذلك غبن هذا الإنسان نفسه، لقد قسم الوجهين إلى منطقتين مختلفتين تماما، الواحدة رحيمة وضعيفة، والأخرى قوية ومدهشة، مطلقا على الأولى اسم «إنسان» وعلى الثانية اسم «إله».

ولقد استمر على هذا المنوال، فخلال مرحلة المزاج الأخلاقي لم يعتبر أوضاعه الأخلاقية الرائعة «مرادة» من طرفه، أو «عملا من صنيع الفرد». المسيحي هو الآخر يُحل محل نفسه وهمين، الأول بئيس وضعيف يسميه الإنسان، والآخر فوطبيعي يسميه الرب (المنقذ، المخلص) ... لقد انتقص الدين من شأن المفهوم «إنسان»: وأكبر نتيجة لذلك هو كون كل ما هو طيب، وكبير، وحقيقي، يظل فوبشريا ولا يتم نيله إلا بفضل الله.

لم يكن الإنسان يعرف نفسه من الناحية الفزيولوجية على طول السلسلة الممتدة عبر آلاف السنين: ولازال لا يعرف نفسه اليوم. فمعرفة أننا نملك جهازا عصبيا مثلا (— وليس «روحا» —)، تبقى امتيازا يحظى به المتعلمون فقط. ولكن الإنسان، بخصوص هذا الأمر، لا يكتفي بعدم المعرفة. يجب أن تكون إنسانياً جدا لكي تقول «هذا شيء لا أعرفه» لكي تنسجم مع الجهل.

مثلا إذا كان الإنسان يعاني، أو كان مبتهجا، فإنه لا يشك في اكتشاف سبب ذلك إذا ما بحث عنه ... ويبدأ في البحث ... والحقيقة أنه لا يستطيع العثور على ذلك السبب، لأنه لا يخطر على باله المكان الذي يجب عليه أن يبحث فيه ... فماذا يحدث حينها ؟ يعتبر إحدى نتائج حالته سببا لهذه الحالة: مثلا، إذا نجح عمل قام به بابتهاج (قام به لأن الإبتهاج يشجعه على القيام به)، فإنه يعتبر العمل هو سبب ذلك الإبتهاج ... والحقيقة هي أن النجاح هنا يتوقف على نفس ما يتوقف عليه الإبتهاج، على التنظيم الموفَّق للقوى والأنظمة الفزيولوجية.

يشعر الإنسان أن صحته ليست على ما يرام: وبالتالي يغرق في هموم ووساوس لاحد لها، ويوجه انتقادات لا تحصى لنفسه ... يعتقد أن حالته السيئة من آثار وساوسه، و «ذنوبه» و «انتقاده لنفسه» ...

ولكنه في نهاية الأمر يستعيد عافيته، وغالبا ما يتم ذلك بعد حالة من الوهن والإنهاك الشديد. «كيف أصبحت حرا ومخَلصا ؟ إنها معجزة، وحده الرب من يكون قد فعل هذا.»

— الخلاصة: « لقد غفر لي ذنوبي» ...

يمكن أن نستنتج من ذلك الممارسة التالية: لإثارة الإحساس بالذنب، للإعداد للتوبة، يجب وضع الجسم في حالة مرضية وعصبية، والطريقة لبلوغ ذلك معروفة. إننا لانرتاب في منطق الواقع كما ينبغي: نحن في حاجة إلى تفسير ديني للتقشف، الذي يبدو وكأنه هو الغاية بامتياز، بينما هو ليس سوى وسيلة لجعل التوبة، التي هي عسر

هضم مرضي، ممكنة («الفكرة المتسلطة»، فكرة الذنب، تنويم الدجاجة بذلك الخيط الذي هو «الذنب»).

المعاملة السيئة للجسد تهيء الأرضية الضرورية لسلسلة من «الإحساسات بالذنب»، أي لمعاناة عامة تريد منا أن نجد لها تفسيرا ... كما يمكننا أن نستنتج من ذلك طريقة «الخلاص»: لقد كان سبب فساد الإحساس هي الصلوات، والحركات، والمواقف، والأيمان، — ونتج عن ذلك الإنهاك، وفي أغلب الحالات تحمله الناس وكابدوه، أو أتاهُمْ على شكل صرع. ووراء حالة السرنمة الشديد: يبدو ظاهر الشفاء —، وبلغة الدين، «الخلاص».

89

كبار ماجني المثل الأعلى، وقد يسو الشبقية، المشوهة وغير المفهومة، وحواريو ال «حب» النموذجيون (مثل يسوع الناصري، والقديس فرانسوداسيز (d'assise) والقديس فرانسوا دوبول (de Paule)، هؤلاء هم الذين تضِل لديهم الغريزة الجنسية، التي تحتقر ذاتها، طريقها عن جهل، إلى أن تجد نفسها مجبرة على إشباع نفسها بواسطة الأشباح: «الرب» و «الإنسان» ، «الطبيعة». وليس هذا الإشباع ظاهريا فقط، بل إنه يتم فعلا لدى شاطحي الحلول الصوفي، وإن كان ذلك يتم دون إرادتهم أو «فهم» هم، وتصاحب أعراض الإشباع الجنسي الفزيولوجية، بشكل مادي وملموس ومطابق للطبيعة.

90

فيما مضى كانت هاته الحالات المرضية — التي هي آثار الإنهاك الفيزيولوجي —، لأنها كانت تعج بأشياء فجائية ومرعبة وغامضة ولا يحصرها عد —، تعتبر أهم من الحالات الصحية وآثارها. كان الناس يخافون: فيسلمون بأن هناك عالما علويا. لقد عزوا سبب وجود هذه العوالم الثانوية إلى الظل والحلم، إلى النوم والليل، إلى المخاوف التي تثيرها الطبيعة.

يجب قبل كل شيء أن ننظر من هاته الزاوية إلى أعراض الإنهاك الفزيولوجي. الديانات القديمة تفرض على المؤمنين بها نظاما ما يؤدي إلى حالة الإنهاك، الكفيلة بإثارة تلك الأشياء في الوعي ... يعتقدون أنهم قد ولجوا منطقة علوية تتوقف فيها معرفة أي شيء. — مظهر قوة علوية.

91

النوع كنتيجة للإنهاك. الإنهاك كنتيجة لكل تهيج شديد ... الحاجة إلى النوم، وكذلك تقديس فكرة النوم وإجلالها أمر تعرفه كل الديانات والفلسفات المتشائمة. الإنهاك في هذه الحالة هو إنهاك للعرق؛ ليس النوم من الناحية النفسية سوى دليل على حاجة شديدة وماسة إلى الراحة ... وعمليا فالموت هنا هو المغوي، تحت غطاء أخيه النوم ...

92

قد نعتبر التمرن المسيحي على التوبة والخلاص جنونا دائريا تمت إثارته بشكل اعتباطي: وبطبيعة الحال لا يمكن إثارة هذا الجنون إلا لدى أفراد مرصودين مسبقا، من بين أصحاب الحالات المرضية.

93

يعتبر العجز عن إنهاء حدث ما مؤشرا على الانحطاط. إعادة فتح جروح قديمة باستمرار، مثلما يفعل المسيحي، الانغماس في احتقار النفس وفي التوبة، هذا مرض إضافي لن ينجم عنه أبدا «خلاص الروح»، وإنما فقط مرض آخر ...

ليست «شروط الخلاص» هذه، لدى المسيحي، سوى تغيرات حالة مرضية واحدة، — وتفسيرا لأزمة ما تفسيرا خاصا تم تحديده، ليس من طرف العلم، بل من طرف الوهم الديني.

حين يكون الإنسان مريضا فإن الطيبة نفسها تتخذ طابعا مرضيا ... ونحن نعد اليوم جزءا كبير من الوسائل التي استخدمتها المسيحية ضمن أشكال الهستيريا والظواهر التي تتخذ شكل الصرع.

يجب أن نعيد إقامة معالجة الروح بأكملها على أساس فزيولوجي: فال «ندم» يشكل عائقا أمام الشفاء، — يجب السعي إلى قلب كل شيء بأعمال جديدة لنتخلص، بأسرع ما يمكن، من الونى الذي ينتج عن تعذيب النفس ... يجب أن تفقد الإعتبار تلك التمارين النفسية التي كانت توصي باستعمالها الكنيسة والطوائف الدينية، وذلك باعتبارها مضرة بالصحة ... فالمريض لايشفى بالصلوات والتعزيم على

الأرواح الشريرة: وحالات «الطمأنينة» التي تحصل بفعل ذلك أبعد من أن توحي بالثقة من وجهة النظر النفسية.

نكون في صحة جيدة حين نسخر من الجدية والحماس اللذين صاحبا انبهارنا بحدث من أحداث حياتنا، حين يجعلنا الندم نشعر بشيء شبيه باندهاش الكلب حين يعض حجرا، حين نخجل من التوبة.

الطريقة التي تم اتباعها حتى الآن، وإن كانت نفسية ودينية محضة، ترمي فقط إلى تغيير الأعراض: إنها تعتبر أن الرجل قد يتعافى حين ينحني أمام الصليب، ويقسم أنه سيصير إنسانا صالحا ... ومع ذلك فالمجرم الذي يتمسك بمصيره بجدية كئيبة، والذي لاينكر فعلته بعد وقوعها، يتمتع بصحة روحية أفضل ... المجرمون الذين عاش معهم دستويفسكي في المنفى كانوا كلهم رجالا غير مروَّضين، أليسوا هم أفضل مائة مرة من مسيحي «محطم» القلب ؟

94

ضد التوبة. — لاأحب جبن المرء أمام فعلته؛ لايجب عليه أن يستسلم بنفسه تحت ضغط خجل أو حزن غير منتظرين. وعوض ذلك سيكون الافتخار الشديد أفضل ... ثم ما فائدة ذلك في نهاية المطاف ؟ فالتوبة من فعل ما لايعني إصلاحه، كما أن «المغفرة» و «التكفير» لايمحوانه. يجب أن يكون المرء لاهوتيا ليؤمن بالقوة التي تدمر الذنب: أما نحن اللاأخلاقيون فإننا نفضل عدم الإيمان بال «ذنب». إننا نعتقد أن الأعمال كلها، أيا كان نوعها، متساوية القيمة في أصولها؛ وأن الأفعال التي ترتكب ضدنا قد تكون، بذلك، مفيدة من الناحية الاقتصادية، ومرغوبا فيها للصالح العام. في بعض الحالات الخاصة، قد نعترف لأنفسنا أنه كان من الممكن تجنيبنا القيام بفعل ما — فالظروف وحدها هي التي هيأتنا للقيام به.

من منا لن يكون الآن، لو أهلته الظروف لذلك، قد ارتقى كل درجات سلم الجريمة؟ ... لذلك لا يجب أبدا أن نقول: «ما كان علي أن أفعل كذا»، بل فقط: «غريب ألا أكون قد قمت بهذا الفعل مرارا وتكرارا ! في النهاية، قليلة جدا هي الأفعال النموذجية التي تقدم صورة مصغرة وحقيقية عن الفرد؛ وإذا اعتبرنا كون

غالبية الناس قليلا ما يشكلون فرديات، فسنلاحظ أنه نادرا ما يشكل فعل خاص طبع إنسان ما. نرى أعمالا لاتمليها الظروف، وتبقى أعمالا سطحية، حركات لاإرادية ناتجة عن تفريغ سُخط ما : تحدث قبل أن نشعر بها في عمق كياننا، قبل أن نسأله عن ذلك. ما هو الشيء الفردي في غضب أو حركة أو طعنة بالسكين ؟ غالبا ما يصاحب الفعل نوع من الخَدَر والإكراه، بحيث يبدو المجرم وكأنه مخلوب اللب بتذكره للفعل وبشعوره أنه ليس صفة للفعل الذي ارتكبه. هذا التشوش الفكري، هذا النوع من الإنبهار، هو ما يجب محاربته قبل كل شيء. إذا قارنا عملا ما، مهما يكن نوعه، وما لم يتكرر، بكل ما فعلناه، فإنه يساوي صفر ويمكننا حذفه من الحساب العام دون أن يتأثر بذلك. الفائدة الظالمة التي قد يجنيها المجتمع من مراقبة حياتنا كلها، من منظور واحد فقط، وكأن هدفه هو إبراز فعل خاص، لايجب أن تنتقل عدواها إلى المجرم نفسه: ولكن هذا، مع الأسف، هو ما يحدث تقريبا دائما. ومرد هذا إلى كون كل فعل تتلوه نتائج غير مألوفة، مصحوبة باضطرابات في المخ، مهما تكن طبيعة هذه النتائج، حسنة أو وخيمة. انظروا إلى محب حصل على وعد، وإلى شاعر يصفق له الجمهور في المسرح: إنهما لايتميزان في شيء من حيث الخدر الفكري، عن الفوضوي الذي تفاجئه الشرطة في منزله. هناك أعمال مشينة لاتليق بنا، أعمال لو أعطيناها قيمة نموذجية لخفضتنا إلى نوع أدنى. و ما يجب علينا تفاديه بالضبط هو خطأ اعتبارنا لها نموذجية. وهناك، في المقابل، صنف من الأعمال التي لسنا جديرين بها؛ استثناءات مصدرها إحساس خاص بالسعادة الغامرة والصحة الجيدة؛ إنها أعلى موجات مدنا التي دفعتها عاصفة، دفعتها الصدفة، ذات مرة إلى هذا العلو؛ هذه الأعمال، هذه «المآثر» ليست نموذجية هي الأخرى. لايجب أبدا تقييم فنان ما حسب حجم أعماله.

95

الخدعة الشاملة في ما يسمى بالإصلاح الأخلاقي. — لانعتقد أن إنسانا قد يتحول إلى إنسان آخر، مالم يكن هو ذلك الإنسان الآخر: أعني ما لم يكن، مثلما هو شائع، يضم فيه العديد من الأفراد، أو على الأقل من براعم الأفراد. في هاته الحالة ننجح في إبراز دور آخر إلى الواجهة، في إبعاد «الإنسان القديم» ... وبذلك يتغير المظهر

ولايتغير الكائن. تأكيد أن شخصا ما يجب أن يكف عن القيام بأفعال معينة هو بكل بساطة تأكيد التعسف الذي يسمح بتأويلات متنوعة. صحيح أن مايهم في نظر المجتمع هو أن يمتنع هذا الشخص عن القيام بتلك الأفعال: ولهذا الغرض يبعده عن الظروف التي قد تدفعه إلى القيام بها : وقد يكون هذا أمرا أكثر حكمة من محاولة المستحيل، أي إرادة القضاء على ميله للقيام بهذا الفعل أو ذاك. أما الكنيسة، — وهي في هذا لم تفعل شيئا سوى الحلول محل الفلسفة القديمة والأخذ بها — وانطلاقا من تقدير آخر للقيم، من أجل إنقاذ «الروح»، من أجل «خلاص» ها، فقد آمنت بالقوة التكفيرية للعقاب من جهة، وبالقوة الماحية للمغفرة من جهة أخرى. وهذا الإيمان هو وهم من أوهام الحكم المسبق الديني — فالعقاب لايُصلح أبدا، والمغفرة لاتستطيع المحو؛ فما قد تم فعله لايمكن أن يصير «غير معقول». ونسيان الشخص لشيء ما لايعني أن ذلك الشيء غير موجود ... يخلف الفعل نتائجه في الإنسان وخارج الإنسان، ولايغير من الأمر شيئا أن نعتبره معاقبا عنه، «مكفرا عنه»، «مغفورا»، «ممحوا»، أو أن تمنح الكنيسة للمذنب ترقية لتجعل منه أحد قديسيها. الكنيسة تؤمن بأمور لاوجود لها، ب «أرواح»؛ تؤمن بتأثيرات لا تحدث هي التأثيرات الربانية؛ تؤمن بظروف لاتتحقق، بالذنب، بخلاص البشر، بخلاص الروح: إنها تتوقف في كل مكان عند السطح، عند الإشارات، عند المواقف، وعند الكلمات، وتؤولها تأويلا تعسفيا. إنها تملك منهجا عقلانيا في التزوير النفسي.

96

الشعوذة الأخلاقية في المسيحية. الرحمة والإحتقار يتتابعان في تنوع سريع، وأحيانا أشعر بالنقمة على هذا كما على مظهر جريمة بشعة. لقد أصبح الخطأ هنا واجبا — فضيلة، — والإحتقار مساعدة؛ وغريزة التدمير ممنهجة تحت اسم «خلاص البشر»: هنا كل عملية تصير جرحا، استئصالا للأعضاء التي تعتبر طاقتها هي شرط استعادة الصحة. في أفضل الحالات لاتتم معالجة أي شيء ويتم الاكتفاء بتحويل مجموع أعراض مرض ما إلى مجموعة أخرى. وينظر إلى هذا الجنون الخطير، إلى نظام تدنيس الحياة وإخصائها، على أنه مقدس، وواقعي؛ وحياة المرء في خدمته، كونه أداة

فن العلاج هذا، كونه كاهنا، كل هذا يرفع مقامه، يجعله مبجلا، يجعله مقدسا، بل ومنيعا. المعبود وحده قد يكون صاحب هذا الفن الراقي في العلاج : لايمكن فهم الخلاص إلا كوحي، كنعمة، كهدية غير مستحقة، من عند الخالق.

الاقتراح الأول: النظر إلى صحة الروح على أنها مرض، بحذر...

الاقتراح الثاني: النظر إلى الشروط الضرورية لحياة قوية ومزدهرة، وإلى الطموحات والأهواء القوية على أنها معارضة لحياة قوية ومزدهرة.

الاقتراح الثالث: كل ما يهدد الإنسان بخطر ما، بكل ما يمكن أن يستولي عليه ويدمره، فهو خبيث ومذموم — ويجب انتزاعه وجذوره من الروح.

الاقتراح الرابع: الإنسان الذي لم يعد مؤذيا لنفسه ولا لغيره، الضعيف، والمسحوق بالتواضع والخضوع، الواعي بضعفه، ال «مذنب»، — هذا هو النموذج المرغوب فيه، وهو الذي يتم التوصل إلى إنتاجه من خلال جراحة بسيطة للروح ...

97

يريد الكاهن أن يجعل من نفسه النموذج الراقي للإنسانية. يريد الهيمنة— على الذين يملكون القوة، ليكون حصنا منيعا —، ليكون هو القوة الأكبر داخل الجماعة، تلك القوة التي يستحيل تعويضها أو اعتبارها دونية.

الوسيلة: هو وحده يمتلك العلم، هو وحده يمتلك الفضيلة؛ هو وحده يوجد فوق الملك المطلق؛ هو وحده الرب نوعا ما، وإلى المعبود هو راجع؛ هو وحده الوسيط بين الرب والآخرين؛ والرب يعاقب كل من ألحق أذى بالكاهن، كل من عارضه بفكره.

الوسيلة : الحقيقة موجودة. وليست هناك إلا طريقة واحدة لبلوغها: هي أن تكون كاهنا. كل شيء حسن مثل النظام والتقليد، يعود إلى حكمة الكهان. الكتاب المقدس من عملهم أيضا. ليس هناك مصدر آخر للخير غير الكاهن. وكل جلالة أو سمو هو مخالف، من حيث الدرجة، لجلالة الكاهن وسموه، مثلا جلالة الملك.

النتيجة: إذا كان للكاهن أن يكون هو النموذج الراقي لامناص، فيجب أن ينطوي التدرج المؤدي إلى فضائله على تدرج القيم الإنسانية. التأمل، تحول المادة إلى

طاقة، اللاحيوية، اللاإنفعالية، انعدام الهوى، التبجيل؛ — عكس هذا هو ما يمثله نوع الرجال الأدنى.

لقد لقن الكاهن الناس نوعا من الأخلاق التي تسمح باعتباره النموذج الراقي. هو الذي يصنع النموذج المعاكس: طبقة المنبوذين (Tchandala). استخدام كل الوسائل لجعل هذا النموذج محتقرا هو الذي يبرز نظام الطبقات. خوف الكاهن من الشهوانية يدل على أن نظام الطبقات (أي ال «نظام» بشكل عام) سيكون مهددا من طرفها تهديدا خطيرا ... كل «نزعة مستقلة» تغير قانون الزواج نقطة نقطة.

98

نقد الكذب المقدس. — الكذب من أجل تحقيق أهداف خيرية جائز، هذه واحدة من نظريات الكهنة، — وهذا البحث يظهر مدى ممارستهم لها.

ولكن الفلاسفة كذلك، بمجرد ما عزموا على توليهم توجيه الناس، وبخلفية فكرية كهنوتية، احتفظوا لأنفسهم مباشرة بالحق في الكذب: وعلى رأسهم أفلاطون. وأعظم كذب على الإطلاق هو ذلك الكذب المزدوج الذي طوره فلاسفة الفيدانتا الذين هم الفلاسفة الأريون بامتياز: نظامين، متناقضين في كل النقط الأساسية، ولكن واحدهما يمكن أن يخدم الأخر ويعوضه ويكمله، كلما تعلق الأمر بغايات تربوية.

فكذب مبدأ يجب أن يخلق وضعا يجعل حقيقة الأخر معقولة ... إلى أي مدى يذهب كذب الكهان والفلاسفة المقبول ؟ — يجب أن نتساءل هنا عن الفرضيات التي يقدمونها من أجل التربية، وعن المبادئ التي عليهم ابتكارها للإستجابة لهذه الفرضيات ؟

أولا: يجب أن تكون لهم القوة والسلطة — والمصداقية المطلقة.

ثانيا: عليهم أن يعرفوا مسار الطبيعة، بحيث تتطرق قوانينهم لكل ما يمس الفرد.

ثالثا: يجب أن تكون لهم معرفة واسعة جدا، بحيث أن مراقبتها تصب على مرؤوسيهم: يجب أن يعتبروا الإجراءات العقابية هي الماوراء، هي «ما بعد الموت»، وأن يعرفوا، كما ينبغي، طرق فتح طريق الخلاص.

يجب أن يُبْعدوا فكرة السير الطبيعي للأمور، ولكن، وبما أنهم حكماء ونبهاء، فإنه يمكنهم الوعد بجملة أحداث طبيعية يتعلق وقوعها بالصلوات أو بالالتزام الدقيق

بقوانينهم. — ويمكنهم كذلك أن يأمروا بمجموعة من الأشياء المعقولة تماما، — غير أنه، ورغم كونه مسموحا لهم بأن يُرجعوا أصل حكمتهم إلى التجربة والتجريبية، فلابد لهم أن يصفوا حكمتهم هذه بكونها نتيجة وحي، وثمرة «طقوس التوبة الشاقة».

مبدئيا إذن يرتبط الكذب المقدس: بغاية الفعل (— الغاية الطبيعية، أي العقل، يتم إخفاؤها: والغاية الأخلاقية، أي إنجاز قانون ما، أو القيام بخدمة ربانية، تبدو كهدف—): نتيجة الفعل (— النتيجة الطبيعية — يتم اعتبارها فوطبيعية، ولكي يتصرفوا بثقة أكبر، فإنهم يؤملون الناس نتائج لايمكن التحكم فيها وفوطبيعية.

بهذه الطريقة يتم خلق فكرة الخير والشر، التي تبدو منفصلة عن التصورات الطبيعية : «نافع« و «ضار» و«مسرّع» و«ومضعف» للحياة، — ونظر التحليل حياة أخرى فإن هذه الفكرة قد تكون في تناقض مباشرة مع التصور الطبيعي للخير والشر.

وأخيرا يتم خلق «الضمير» بالطريقة الأتية: هناك صوت داخلي لايقيس قيمة الفعل، بل يحكم على الفعل من حيث قصده، ومن حيث مطابقة هذا القصد لل «قانون».

لقد خلق الكذب المقدس إلها يثيب ويعاقب، ويعترف بقانون الكهنة ويرسلهم إلى الناس كناطقين باسمه متمتعين بالصلاحية المطلقة؛ — ما وراء الحياة حيث تظهر آلة العقاب الكبيرة عاملة، — لهذه الغاية يتم تصور خلود الروح؛ — ضمير الإنسان، باعتباره هو معرفة مصطلحي الخير والشر الجامدين، حين يدعو للإلتزام بالتعاليم الكنسية، فإنه يتصور أن الإله نفسه هو الذي يتكلم. الكذب المقدس هو كذلك الأخلاق، بما هي نفي للسير الطبيعي للأمور، حاصرة لكل ما يجري في ضرورات أخلاقية، في آثار أخلاقية (أي فكرة العقاب والثواب)، الأخلاق التي تطوق العالم، القوة الوحيدة، التي تقوم بكل تغيير؛ وهي الحقيقة التي يتم اعتبارها شيئا مسلما به، وحياة مطابقة لعقيدة الكهنة، هي شرط كل خلاص وسعادة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

كخلاصة: ما ثمن الإصلاح الأخلاقي ؟ — تعطيل العقل. جعل كل الدوافع تنبع من الخوف والأمل (العقاب والأجرة)؛ التبعية لوصاية كهنوتية، لدقة استمارة

تزعم أنها تعبر عن إرادة ربانية؛ بث «ضمير» يضع عِلما مزيفا محل البحث والمحاولة: وكأن ما يجب علينا فعله أو عدم فعله قد تم تحديده مسبقا، إنه إخصاء للعقل الذي يبحث عن التقدم ويطمح إليه؛ — كخلاصة: إنه أخطر تشويه للإنسان، ويزعمون أنهم قد جعلوا منه «إنسانا صالحا».

لقد تم، بشكل تعسفي، تحويل العقل، وكل ما ورثناه من حكمة، ودقة، وتوقع، وكذلك شروط القانون الكهنوتي، إلى مجرد عمل آلي: لقد أصبح الإمتثال للقوانين هو الهدف، هو الهدف الأسمى، ولم تعد الحياة تعرف أي مشكل؛— لقد دنست فكرة العقاب تصورنا للعالم؛ — لقد تم تحويل فكرة الحياة نفسها؛ ولإظهار الحياة الكهنوتية بمظهر النقيض المتطرف للكمال نجعل منها افتراء على الحياة وتحقيرا لها؛ — يمثل مفهوم «الرب» البغض الشديد للحياة، يمثل انتقاد الحياة واحتقارها؛ — والحقيقة قد صارت في الأذهان كذبة كهنوتية، والطموح إلى الحقيقة دراسة للكتاب المقدس، وسيلة ليصبح المرء عالما باللاهوت ...

2- نقد المسيحية

أ- تاريخ المسيحية

99

لقد برع رجال الدين اليهود في تقديم كل ما أكَّدُوا أنه تعاليم الإله، وأنه خضوع لأمر رباني ... وكذلك في تقديم كل ما يخدم بقاء إسرائيل وتيسير الوجود لها (كوفرة الأعمال، والختان، والتضحية كمحور يقوم عليه الوعي القومي)، ليس باعتباره عملا من أعمال الطبيعة، بل من أعمال «الله». — ولازالوا مستمرين في هاته العملية، داخل اليهودية نفسها، وحين لايشعرون بضرورة «الأعمال» (كحصن ضد الخارج)، فإنهم يبتكرون رجالا كهنوتيين يتصرفون ك «نبلاء» مقابل الأرستقراطيين؛ إكليروس الروح الذين لاينتمون لطبقات معينة ويتصرفون بتلقائية نوعا ما، ولكي يتميزوا كثيرا عن نقيضهم تجدهم يولون أهمية للعواطف لا لل «أعمال»...

كان الأمر، في الحقيقة، يتعلق بحمل صنف معين من الرجال إلى الصدارة مرة أخرى: لقد كان ذلك أشبه ما يكون بثورة شعبية وسط شعب من رجال الدين، — حركة تقوية نابعة من الأسفل (المذنبون، والمَكَّاسون، والنساء، والمرضى)، يسوع الناصري هي كلمة السر التي تجمعهم. ولكي يستطيعوا الإيمان بأنفسهم فإنهم يحتاجون إلى تجل لاهوتي؛ يحتاجون إلى «ابن الرب» لا غير، ليثقوا بأنفسهم. ومثلما حرف الأحبار تاريخ إسرائيل كله فقد تم الإقدام على ننفس المحاولة هذه المرة لتحريف وتغيير تاريخ الإنسانية كله، وذلك بغرض إظهار المسيحية كحدث رئيسي. لم تكن هذه الحركة لتتنظم إلا على أرض اليهودية التي من سماتها الأساسية الخلط بين الخطأ والمصيبة وتحويل كل خطأ إلى إثم في حق الله: ولقد أخذت المسيحية كل هذا مضاعفا.

100

المؤمنون واعون بالدين الكبير الذي عليهم نحو المسيحية، ومن ذلك يستنبط أن دائنتهم جليلة القدر. وهذه الخلاصة خاطئة، ولكنها هي الخلاصة النموذجية التي يخرج بها كل الذين يجلون الأشياء المقدسة. من وجهة نظر موضوعية يمكن، أولا، أن يخطئوا بخصوص قيمة ما يدينون به للمسيحية: فالقناعات لاتدل على أي شيء يكون في صالح الشيء الذي نحن مقتنعون به، — وفي حالة الأديان فإنها قد تحثنا بالأحرى على الارتياب في ذلك الشيء ... ثانيا، قد يتعذر عليهم أن ينسبوا ما يعتقدون أنهم يدينون به للمسيحية إلى مؤسسها، بل ينسب، على العكس، إلى المنتوج المكتمل، إلى الكل، إلى الكنيسة، إلخ. لفكرة ال «مؤسس» معاني جد متعددة بحيث يمكن أن تقابل السبب العرضي لحركة ما: لقد ضخموا شخص المؤسس بالقدر الذي كبرت به الكنيسة؛ وهذا الإجلال يسمح لنا باستنتاج أن هذا المؤسس كان في مرحلة ما مشتبها به وغامضا، — خاصة في البداية ... لنتفكر في الحرية التي يتناول بها القديس بولس مسألة يسوع الشخصية ! إنه يكاد يذهب إلى حد إخفائه —: المسيح بالنسبة إليه شخص مات وتمت رؤيته بعد موته، شخص أسلمه اليهود للموت ... ما المسيح بالنسبة للقديس بولس إلا دافع: والموسيقى يؤلفها هو نفسه ...

101

لقد فعل المسيحيون هم كذلك مثل اليهود، لقد أجروا على لسان ربهم، ليرصعوا بها حياته، تلك العقيدة التي يعتبرونها، حسب ما تمليه عواطفهم، شرط وجود وتجديدا. كما نسبوا إليه حكمة الأمثال — : باختصار، لقد أظهروا حياتهم المليئة بالمعاناة على أنها خضوع وطاعة، وهو ما يجعلها مقدسة لتخدم دعايتهم. يمكننا أن نرى ماذا يحدث لدى القديس بولس: شيء قليل فقط. أما البقية، فهي تطوير خاص لصنف معين من القديسين، حسب ما كانوا يعتبرونه مقدسا.

عقيدة المعجزة، بما فيها البعث، هي نتيجة تمجيد الجماعة لربها، مانحة إياه كل ما تستطيع، ولكن بدرجة أعلى (أو بالأحرى بخصم ما تمنحه إياه من قوتها هي).

102

لا زالت المسيحية ممكنة في أي وقت ... فهي ليست مرتبطة بأي ركن من الأركان الوقحة التي تزينت باسم المسيحية، وليست في حاجة إلى تلك الأركان: الرب الشخصي، والخطيئة، والخلود، وخلاص البشر، والإيمان؛ يجب الإستغناء مطلقا عن الميتافزيقا، وكذلك عن الزهد و «العلم الطبيعي» المسيحي ... فالذي سيقول اليوم: «لاأريد أن أكون جنديا»، «لا أهتم بالمحاكم»، «لا أطلب مساعدة الشرطة»، «لاأريد القيام بأي شيء يعكر طمأنينة نفسي: وإن كان لابد أن أعاني من ذلك، فلن يحافظ على طمأنينتي شيء أفضل من المعاناة». — فهو مسيحي.

ما العقيدة المسيحية التي تحدد لنا ما يجب أن نؤمن به، ما ال «حقيقة» المسيحية كلها، إلا كذبة، إنها نقيض ما أرادته الحركة المسيحية في بدايتها.

ما تراه الكنيسة مسيحيا هو المضاد للنصرانية بالدرجة الأولى: الأشياء والأشخاص عوض الرموز؛ التاريخ بدل الوقائع الخالدة؛ الصيغ والطقوس وأركان العقيدة عوض ممارسة الحياة.

الشيء المسيحي هو اللامبالاة التامة بأركان العقيدة، وبالعبادة، وبالرهبان، وبالكنيسة وباللاهوت.

ليست ممارسة الشعائر المسيحية شيئا وهميا، مثلها في ذلك مثل ممارسة البوذية: إنها مجرد وسيلة لتحقيق السعادة ...

103

يضع المسيح الحياة الحقيقية، الحياة حسب الحقيقة، في مقابل الحياة العادية: أبعد شيء منه هو حماقة «القديس بطرس الخالد»، حماقة الخلود الشخصي. ما يحاربه المسيح هو ما يَدَّعونه بخصوص «الشخص»: هل يمكن أن يكون قد أراد بالتحديد أن يجعل الشخص خالدا ؟

كما يحارب التراتبية داخل الجماعة: إنه لايعد بثواب متناسب مع العمل؛ هل يمكن أن يَكون قد تحدث عن العقاب والثواب في العالم الآخر!

104

لقد أدى مؤسس المسيحية ثمنا غاليا مقابل إلحاحه على مخاطبة الشرائح الدنيا من المجتمع اليهودي و من الأذكياء فيه، لقد تلقوه حسب قدرتهم على الفهم ... إنه لشيء مخجل حقا أن يتم اختلاق تاريخ الخلاص، والرب الشخصي، والمنقذ الشخصي، والخلود الشخصي، ويتم الحفاظ على حقارة ال «شخص» وال «تاريخ» في عقيدة تنفي واقعية كل ما هو شخصي وتاريخي ...

أسطورة الخلاص عوض «الآن وإلى الأبد» الرمزي، عوض «هنا وفي كل مكان» الرمزي، المعجزة عوض الرمز النفسي.

105

المسيحية الأصلية هي إلغاء الدولة : فهي تحرم أداء القسم، والخدمة المدنية، والمحاكم، والدفاع عن النفس وعن الجماعة، وتمحو الفرق بين المواطنين والأجانب، وكذلك إقامة الطبقات.

مثل المسيح: لايقاوم الذين يقترفون الشر، ولا يدافع عن نفسه؛ بل يفعل أكثر من ذلك: «يدير الخد الأيسر». (على السؤال: «هل أنت هو المسيح ؟» يجيب: «سترون ابن الإنسان جالسا إلى يمين القوة آتيا على سحب السماء [كذا].» يحرم على تلاميذه أن يدافعوا عنه؛ يبين أنه قد يحصل على مساعدة، ولكنه لايريد ذلك .

المسيحية هي كذلك إلغاء للمجتمع: إنها تفضل كل ما يزدريه المجتمع، تنمو في صفوف الحقيرين والمذمومين، والبُرص من كل صنف، وجباة المكوس، والبغايا، والدهماء الجهولة (ال «مذنبون») ؟ وتحتقر الأغنياء، والعلماء، والنبلاء، والفضلاء، والناس «المهذَّبي السلوك».

106

المشكلة النفسية في المسيحية. ـــ القوى الفاعلة هي دائما: الحقد، والفتنة الشعبية، وثورة المحرومين. (الأمر على خلاف هذافي البوذية: فهذه الديانة لم تنبثق عن حركة الحقد. إنها تقاوم هذه الحركة لأن الحقد سيؤدي إلى الفعل».

حزب السلام هذا يدرك بأن التخلي عن العداوة، في الفكر وفي الفعل، هو علامة متميزة وشرط بقاء. هنا تكمن الصعوبة النفسية التي حالت دون فهم المسيحية: الغريزة التي تخلقها المسيحية ترغم صاحبها مبدئيا على مقاومة هذه الديانة. ولاتملك حركة الثورة هذه حظا في النجاح إلا بوصفها حزبا للسلام والبراءة: يجب أن تنتصر بليونتها البالغة، بحِلمها وسماحتها، وغريزتها فطنة لهذا، ـــ واجتياز هذه العقبة يقتضي الإنكار، وذم الغريزة التي تتمظهر من خلالها، والعمل باستمرار أمام الكل، بالقول والفعل، على نشر نقيض هذه الغريزة.

107

«المثل الأعلى المسيحي»: تم إخراجه بحيلة يهودية. وإليكم غرائزه النفسية الأساسية: الثورة على القوى الروحية المهيمنة.

محاولة خلق فضائل تجعل سعادة الوضيعين ممكنة، وهو المثل الأعلى الذي يحكم كل القيم، ـــ محاولة تسمية هذا المثال إلها : إنها غريزة البقاء لدى الطبقات الأقل حياة.

الإمتناع التام عن الحرب، عدم المقاومة الذي يبرز هذا المثل الأعلى، ـــ وكذلك الطاعة؛

حب الناس بعضهم البعض، كنتيجة لحب الإله. معارضة الخطيئة، والإحتفاظ بعلاج أخير يكون دائما جاهزا ...

حيلة: إنكار كل الدوافع الطبيعية والإلقاء بها في العالم الروحي الماورائي ... استغلال الفضيلة والإجلال اللذين توحي بهما ليتم اتخاذهما وسيلة للاستعمال الشخصي: عدم السماح لغير المسيحيين باعتناقها.

108

الشباب المزعوم. ـــ نخطئ حين نحلم، في حالة المسيحية، بشعب ساذج وشاب يتميز عن ثقافة قديمة؛ تقول الأسطورة أن المسيحية ترعرعت وتجذرت وسط طبقات الشعب الدنيا بحيث عاد نبع الحياة الكبير إلى التدفق من جديد. إننا لا نفهم شيئا في علم نفس المسيحية إذا اعتبرناها تمظهرا لشباب شعب حديث ولانبعاث عرق، على العكس، إن الأمر يتعلق هنا بشكل نموذجي من الانحطاط: الوهن الأخلاقي والهستيريا في أوساط مزيج من السكان المرضى، المستسلمين للضجر دون هدف. هذا المجتمع الغريب الذي تجمع حول سيد الإغراء الشعبي هذا قد يظهر بمظهر لائق في رواية روسية حيث تلتقي كل الأمراض العصبية ... انعدام المهمة، التفكير الغريزي بأن كل شيء يوجد قاب قوسين أو أدنى من نهايته، بالبطالة اللذيذة.

إحساس الغريزة اليهودية القوي واليقيني بمستقبلها، وإرادتها البشعة للحياة بشدة، يأتيانها من طبقتها الحاكمة؛ أما الطبقات التي تثيرها المسيحية الشابة فأفضل ما يميزها هو وهن الغرائز. فمن ناحية، تشعر بأن السيل قد بلغ الزبى ومن ناحية أخرى تشعر بالرضا، في بيتها، في ذاتها، ولذاتها.

109

تجمع هذه الديانة العدمية من العصور القديمة، لاستعمالها الخاص، كل عناصر الانحطاط وماشابهها ـــ أي:

أ) طائفة الضعفاء والذين لاحق لهم (حثالة العالم القديم: ما رفضه هذا العالم بحدة كبيرة ...)؛

ب) طائفة المرضى بالأخلاق، طائفة المعادين للوثنية؛

ج) طائفة الذين ملوا السياسة واللامبالين (الرومان الضجرون ...) طائفة الذين جردوا من جنسيتهم واحتفظوا في قلبهم بفراغ؛

د) طائفة الذين شبعوا من أنفسهم، ـــ السعيدون بالمشاركة في مؤامرة خفية. ـــ

110

الحياة اليهودية المسيحية: هنا لم ينتصر الحقد. عمليات الاضطهاد الأولى التي دفعت العواطف إلى الظهور ـــ الحب الشديد والكره الشديد بسواء.

حين يرى المرء أحب الناس إليه تتم التضحية بهم بسبب إيمانهم فإنه يصبح عدوانيا؛ المسيحية مدينة بانتصارها للذين اضطهدوا.

ليس الزهد في المسيحية شيئا خاصا بها: وهذا ما أساء شوبنهاور فهمه. فالزهد ينفذ إلى داخل المسيحية في كل مكان وجد فيه قبل مجيئها.

المسيحية السوداوية الطبع. نجد عذاب الضمير وآلامه في أرض خاصة، تلك التي نمت فيها القيم المسيحية: ولكنهما لا يشكلان المسيحية الحقيقية. لقد امتصت المسيحية كل الأمراض الموجودة في المجالات المريضة: ويمكننا، على أكثر تقدير، أن نؤاخذها على عجزها عن حماية نفسها من أية عدوى. ولكن هذا بالضبط هو جوهرها: المسيحية شكل من أشكال الانحطاط.

111

وثني ـــ مسيحي. ـــ وثنيٌّ هو إثبات كل ما هو طبيعي، براءة الطبع، والبساطة. ومسيحيٌّ نفي كل ما هو طبيعي، والإغتياظ من الطبيعة، ومعاكسة الطبيعة.

بِطرون (Pétrone)، مثلا، «بريء»: وبالمقارنة مع هذا الرجل السعيد نجد المسيحي قد فقد براءته إلى الأبد. ولكن بما أن حالة المسيحية لا يمكن أن تكون إلا حالة طبيعية، في نهاية المطاف، دون أن يكون لها الحق في اعتبار نفسها كذلك، فإن «مسيحي» تصير في نهاية الأمر مرادفة لتحريف التأويل المسيحي المرفوع إلى مقام المبدأ.

112

الجهل بأمور علم النفس. ـــ ليس للمسيحي جهاز عصبي ـــ : احتقار الجسد والطريقة التعسفية في إسكات متطلباته، وما تم اكتشافه بخصوصه؛ افتراض أن هذا مطابق لطبيعة الإنسان الراقية، وأن الروح ستستفيد من ذلك حتما ـــ ؛ التحويل المنهجي لكل ملكات الجسد إلى قيم أخلاقية؛ تكييف الأخلاق للمرض نفسه، وتصوره كعقوبة مثلا، كابتلاء، بل كشرط للخلاص؛ إذا مرض المرء بلغ من الكمال أكثر مما يبلغه وهو يتمتع بصحة جيدة (ـــ فكرة باسكال)؛ وفي بعض الحالات يكون واجبا على المرء أن يُمْرِض نفسه طوعا.

113

كانوا يحتقرون الجسد: لم يكونوا يأخذونه بعين الإعتبار، بل كانوا ينظرون إليه كعدو. وغرابتهم تكمن في اعتقادهم أنه بإمكان المرء أن يحمل «روحا طيبة» في جسدِ مسخ، جسد يبدو كجثة ... ولكي يقنعوا الآخرين بهذا كان لزاما عليهم أن يقدموا فكرة «الروح الطيبة» بشكل آخر، تحويل القيمة الطبيعية إلى أن يصير ممكنا اعتبار شخص شاحب، وسقيم، ومتحمس إلى حد الحماقة، هو موضوع الكمال، اعتباره «إنجيليا»، ومخلوقا ممجَّدا، وإنسانا راقيا.

114

الواقع الذي اتخذته المسيحية أساسا لها هي تلك العائلات اليهودية المتفرقة، بحرارتها وحنانها، بمسارعتها إلى النجدة، وهي مسارعة غير مألوفة في الإمبراطورية الرومانية ولربما أسيء فهمها، بعادتها في نصرة بعضها، وافتخارها سرا بكونها تشكل «الشعب المختار»، افتخار يتنكر في زي التواضع، إنكارها الحميم الخالي من الغيرة لكل ما هو في الأعلى ويملك المجد والقوة. وتتجلى عبقرية القديس بولس في إدراكه أن في هذا تكمن القوة، وأن هذه الحالة يمكن نقلها إلى الوثنيين كذلك، وأنها ستكون فاتنة ومعدية. استخدام كنز الطاقة الكامنة، كنز السعادة الحكيمة، بغرض إقامة «كنيسة يهودية» لحرية الاعتراف»، استخدام التجربة اليهودية، التمكن من المحافظة

على الجماعة كلها تحت الهيمنة الأجنبية، استخدام الدعاية اليهودية كذلك ـــ هذا ما خمنه القديس بولس على أنه هو مهمته. وحدث أن كان تواجده مع رجال الطبقة الدنيا المهمشين والذين لايهتمون بالسياسة مطلقا، المؤهلين للبقاء والامتداد في عدد معين من الفضائل المكتسبة التي تعبر عن المعنى الوحيد للفضيلة («وهي وسائل للإبقاء على صنف خاص من الرجال وتمجيدهم»).

من الجماعات اليهودية الصغيرة نبعت الدعوة إلى المحبة: إن روحا مضطرمة بالعشق تنام هنا تحت رماد التواضع والبؤس: وما هي بإغريقية ولاهندوسية ولاجرمانية. القصيدة التي نظمها القديس بولس يجد فيها الحب لاتمت إلى المسيحية بصلة، إنها الإنبثاق اليهودي لتلك الشعلة الخالدة السامية.

إذا كانت المسيحية قد فعلت شيئا أساسيا من الناحية النفسية، فهو رفعها درجة هِمَّة الروح لدى تلك الأجناس الباردة والنبيلة التي كانت تقاوم بين الشعوب؛ واكتشافها أن الحياة البئيسة جدا يمكن أن تصير غنية وذات قيمة كبيرة من خلال رفع درجة همتها ...

بديهي أن مثل هذه النقلة لايمكن القيام بها لدى الطبقات المهيمنة: فاليهود والنصارى يواجهونها بعاداتهم السيئة، ـــ قوة الروح وشغفها مرفوقين بعادات سيئة يثيران الابتعاد وما يشبه النفور (ـــ أجد هذه العادات السيئة حين أقرأ العهد الجديد). يجب أن يكون المرء ذا قرابة، من خلال الوضاعة و البؤس، مع الطبقة الدنيا التي تتحدث هنا ليشعر بالانجذاب نحوها.

الزاوية التي ننظر منها إلى العهد الجديد (مثل طاسيت Tacite) هي حجر المحك لمعرفة الذوق الكلاسيكي لكل واحد؛ فالذي لايشعر بالغيظ، بما يشبه قذارة العبادة، بشيء يجعله يسحب يده وكأنه يتحاشى تلويثها: فهو لايفقه معنى ما هو كلاسيكي. يجب النظر إلى «الصليب» مثلما فعل غوته.

رد فعل الطبقات الدنيا. ـــ يمنح الحب المرء شعورا بقوة كبيرة. يجب أن تفهموا بأنه ليس الإنسان بشكل عام هو الذي يتحدث كما يلي بل فقط صنفا معينا من الناس:

«إننا ربانيون في الحب، إننا نصير «أبناء الرب»، الرب يحبنا ولا يتطلب منا شيئا غير المحبة». وهو ما يعني أن الأخلاق، والطاعة، والفعل، لاتولد هذا الشعور بالقوة الذي تولده المحبة. — فبدافع المحبة لانفعل شيئا قبيحا، بل نفعل أكثر مما قد نفعله بدافع الطاعة والفضيلة.

هنا نجد أن سعادة القطيع، وإحساس الجماعة، كبيرا كان أم صغيرا، والشعور الحي بالوحدة، يطابقون مجموع المشاعر الحيوية. المساعدة، والحراسة، ونفع الآخرين، هذا يثير باستمرار لدى المرء شعورا بالقوة؛ النجاح البين، والتعبير عن السرور يدلان على الشعور بالقوة؛ والشهامة حاضرة بدورها، يشعر بها المرء وسط الجماعة، وباعتباره بيتا للرب، وعضوا ممن «تم اصطفاؤهم».

لقد تعرض الإنسان لتحول في الشخصية: هذه المرة أطلق على شعوره بالمحبة اسم الرب. يجب أن نتصور يقظة مثل هذا الشعور؛ إنه نوع من الافتتان، خطاب غريب، «إنجيل». الشيء الجديد في هذا هو الذي حال دون نسبة الإنسان للمحبة إلى نفسه : — لقد ظن أن الرب يمشي أمامه وأنه أصبح حيا في قلبه. «يأتي الرب إلى الناس»، «قريب» يتحول، يصير ربا (وإن كان شعور المحبة الذي يتعلق به قليلا. يسوع هو القريب، بمجرد ما يحوله الفكر إلى معبود، إلى العلة التي ينتج عنها الشعور بالقوة.

116

ما لا أحبه لدى يسوع الناصري أو لدى حواريه بولس هو كونهما حشوا رؤوس العوام بأشياء كثيرة، وهو ما قد يوحي بأن فضائل هؤلاء المتواضعة لها شيء من الأهمية. ولقد أدينا ثمن ذلك غاليا، فقد تسببوا في هبوط المزايا الثمينة للفضيلة والإنسان، لقد حرضوا شعور الإنسان بالذنب وشعوره بالكرامة ضد بعضهما، لقد حولوا عن مجراها الميول إلى الشجاعة، وإلى السخاء، وإلى الإقدام، الميول المفرطة لدى الأقوياء ، إلى حد تدمير الإنسان لنفسه ...

117

فضائل القطيع الحقيرة هذه لاتؤدي مطلقا إلى «الحياة الأبدية»: قد يكون من اللباقة أن يعرضها المرء في الوقت الذي يعرض فيه نفسه، ولكن هذا المشهد يبقى مع ذلك، بالنسبة لمن ظل متنبها، أكثر المشاهد إثارة للسخرية. لايستحق المرء أي امتياز، لا على الأرض، ولا في السماء، حين يذهب بوداعته، وداعة الحمل، إلى حد الكمال؛ إنه يظل مع ذلك، في أفضل الأحوال، مجرد حمل صغير، بقرنين، ليس أكثر — إذا سلمنا أنه لم يقتله الغرور ولم يثر فضيحة بمواقفه التي هي مواقف القاضي.

يالبشاعة الألوان الزاهية التي تنير الفضائل الحقيرة هنا — كما لو كانت انعكاسا لمزايا ربانية !

والغاية الطبيعية، أي فائدة كل الفضائل، يتم إخفاؤها بشكل ممنهج؛ إنها لاتكون ذات قيمة إلى إذا ارتبطت بأمر إلهي، بنموذج رباني، بالخيرات الروحية للعالم الماورائي. (رائع هذا! وكأن الأمر يتعلق ب «خلاص الروح»: ولكن ذلك لم يكن إلا وسيلة «للخروج من الورطة» بأكبر قدر ممكن من المشاعر الجميلة).

118

لقد كان هذا أشأم جنون عظمة عرفته الأرض حتى الآن: إذا بدأت هذه المسوخ الصغيرة الكاذبة، هؤلاء اللئام، في الاستحواذ على كلمات «الرب»، و « يوم الحساب» و «الحقيقة»، و «الحب»، و «الحكمة»، و «روح القدس»، ويستخدمونها ليتحصنوا ضد «العالم»، إذا بدأ هذا الصنف من الرجال في قلب القيم حسب ما يراه، وكأنه يحق لهم هم أن يكونوا معنى وملح ومعيار ووزن البقية من الرجال: فيجب أن نبني لهم مارستانات ولا نقوم بأي شيء آخر. لقد كان اضطهادهم خطأ فادحا ارتكبه الأقدمون: لأن ذلك يعني أخذهم مأخذ الجد، يعني إضفاء الجدية عليهم.

إن ما جعل هذه النكبة ممكنة هو وجود شكل مماثل من جنون العظمة على الأرض، إنه جنون العظمة اليهودي (حين انفتحت الهاوية التي تفصل اليهود عن اليهود المسيحيين وجد هؤلاء الأخيرون أنفسهم مجبرين على استخدام وسيلة البقاء

التي ابتكرتها الغريزة اليهودية، المزايدة للمرة الأخير ة ـــ)؛ وما جعلها ممكنة أيضا هي فلسفة الأخلاق الإغريقية التي فعلت كل ما بوسعها لتهيء التعصب الأخلاقي وتجعله مقبولا، حتى وسط الإغريق والرومان ... أفلاطون، وسيط الهلاك الكبير، الذي كان أول من رفض فهم الطبيعة في الأخلاق، والذي جرد آلهة الإغريق من قيمتها بفكرته عن «الخير»، الذي أصابته عدوى التدين المتصنع عند اليهود (ـــ في مصر؟).

119

لايهم أن يكون الشيء حقيقيا، شريطة أن يكون له تأثيرات ـــ : هذا غياب تام للنزاهة الفكرية. حين يتعلق الأمر برفع درجة النشاط تكون كل الوسائل جيدة، كالكذب، والافتراء، والتكييف الشديد الوقاحة ـــ إلى أن يتربى لدى المرء ال «إيمان» ـــ .

نحن هنا أمام مدرسة حقيقية لتعليم الناس وسائل الإغراء التي تؤدي إلى الإيمان: الاحتقار المنهجي للمجالات التي قد تأتي منها المناقضة (ـــ مجال العقل، مجال الفلسفة والحكمة، مجال الحذر)؛ إطراء العقيدة بوقاحة وتمجيدها، مع الاستعانة المستمرة بالرب الذي أوحاها، ـــ الحواري لايعني شيئا، ـــ ليس ثمة شيء يمكن انتقاده، يكفي أن تؤمن وتقبل؛ بفضل الرب ومنته جاءتنا عقيدة الخلاص هذه؛ وعلينا أن نتلقاها بالعرفان الكبير والخضوع التام.

يتم الاعتماد باستمرار على الحقد الذي يشعر به أفراد الطبقات الدنيا نحو كل ما هو مبجل: يتم إغراؤهم بعقيدة تقدم إليهم على أنها نقيض حكمة الناس وقوتهم. هذه العقيدة ستنفع المكابدين والمحرومين في كل صنف؛ إنها تعد المتواضعين والخاضعين بالخلاص، وبالغُنم والامتياز؛ إنها تحمس الأدمغة التافهة لتحشوها بغرور أحمق، كما لو كانت هي، أي العقيدة، معنى الأرض وملحها.

كل هذا، حتى نكرر قول ذلك، لايمكن ازدراؤه كثيرا: إننا نُوفر على أنفسنا نقد العقيدة؛ يكفي أن نرى الوسائل التي تستخدمها لندرك أية مسألة نواجه. لقد تطابقت مع الفضيلة، واستحوذت، بشكل مخجل، على قوة الفضيلة الفاتنة من أجل

استخدامها الشخصي ... لقد تطابقت مع إغراء المناقضة، مع الحاجة إلى الفلفل الأسود واللامعنى التي هي من خاصيات الحضارات القديمة، لقد شوشت وأغاظت، لقد حرضت على الاضطهاد وعلى المعاملة السيئة. ـــ

نفس الدناءة الرزينة هي التي استخدمها الأحبار اليهود ليرسخوا سلطتهم وينشئوا بذلك الكنيسة اليهودية ...

يجب التمييز بين : 1) حرارة الهوى التي هي ال «محبة» (المرتكزة على خلفية من الشبقية المضطرمة)؛ 2) والغياب التام للتمييز في المسيحية : ـــ المبالغة المستمرة، الإطناب : ـــ غياب العقلانية الهادئة والسخرية؛ ـــ وجود شيء مضاد للعسكر في كل الغرائز؛ ـــ حكم الراهب المسبق بشأن الأنفة الرجولية، بشأن الشبقية، والعلم، والفنون.

120

الوضع النفسي لديهم، هو الجهل والغَمارة (inculture)، الجهل الذي أنساهم الحياء: لنتصور أولئك القديسين عديمي الحياء وسط أثينا!

غريزة اليهودي التي تجعله يعتبر نفسه «مختارا»: يطالب اليهود بأن تكون كل الفضائل، ليس أكثر، لهم، ويعتبرون بقية الناس نقيضا لهم؛ وهذا دليل قوي على سوقية الروح؛

تنقصهم الغايات الحقيقية، والمهام الحقيقية، التي تتطلب فضائل أخرى غير التظاهر بالتقوى، ـــ وقد أعفتهم الدولة من القيام بهذا العمل: ومع ذلك فقد تظاهر هذا الشعب بعدم حاجته إلى الدولة.

«إن لم تصيروا كالأطفال ـــ» ما أبعدنا الآن عن هذه السذاجة النفسية!

121

لنقرأ مرة أخرى العهد الجديد ككتاب للإغراء: فضيلة تستأثر بها فكرة استمالة الرأي العام من خلالها ـــ وهذه الفضيلة هي أشد الفضائل وضاعة، ولا يرضى

بها إلا مثل القطيع الأعلى وحده (بما في ذلك راعي هذا القطيع ــ): إنها فضيلة تافهة وحنون، ومحسنة، ومسعفة ومتحمسة بسرور، لاتبدو عليها مظاهر الادعاء، ــ إنها فضيلة تتحاشى «عالم الناس». الزهو الأخرق الذي يتصور أن مصير الناس يدور حوله، بحيث أن الجماعة، من جهة، تمثل ما هو صحيح، وعالم الناس، من جهة أخرى، يمثل ما هو خطأ، ما هو ملعون ويمكن لعنه على الدوام.

البغض غير المعقول لكل من بيده زمام السلطة، ولكن دون الاهتمام بها! نوع من الانفصال الداخلي الذي يبقي، في الخارج، على الأمور كما كانت فيما مضى (الرق والعبودية؛ معرفة اتخاذ كل شيء وسيلة لخدمة الرب والفضيلة).

122

مهما يكن التواضع الذي يبديه المرء في طموحه إلى نقاء فكري فإنه لايملك، حين يدخل في اتصال مباشر مع العهد الجديد، إلا أن يشعر بما يشبه ضيقا يستعصي التعبير عن: لأن الوقاحة الجامحة التي يبديها قليلو الأهلية بإرادتهم الإدلاء بدلوهم في المسائل الكبيرة، وطمعهم في الانتصاب كقضاة في هذه المسائل، تفوق كل الحدود. لقد جرى الكلام فيه باستخفاف وقح عن المسائل المنيعة جدا (الحياة، والعالم، والرب، والغاية من الحياة) وكأنها ليست مسائل، بل أشياء بسيطة لايجهلها هؤلاء اللئام!

123

ما أقل أهمية الموضوع! العقل هو الذي يبعث فيه الحياة. هناك جو خانق وموبوء في ثرثرتهم المحموحة حول «الخلاص»، و «المحبة» و «الغبطة» و «الإيمان» و «الحقيقة» و «الحياة الأبدية»! لنأخذ، مقابل ذلك، كتابا وثنيا بحق، ككتاب بطرون (Pétrone) مثلا، حيث لايفعل ولايقال ولايراد ولا يُحترم إلا ما هو خطيئة، بل خطيئة مميتة، حسب التقدير المسيحي والمتزمت. ومع ذلك، فياله من شعور بالسعادة في جوه الصافي، وروحانيته العالية، ومشيته السريعة، وفائض قوته المحرَّر والواثق من المستقبل! ليس هناك في العهد الجديد ولو شيء واحد مضحك: وهذا يكفي لدحض كتاب ...

124

محاربة النبلاء والأقوياء التي تتم في العهد الجديد هي حرب شبيهة بحرب الثعلب وبنفس وسائلها: دائما تلك العذوبة المسيحية، والإنكار المطلق، مع احتفاظها بالحيلة.

125

ليس هناك شيء أقل براءة من العهد الجديد. ونحن نعرف الأرض التي نما فيها. هذا الشعب ذو الإرادة القوية في إثبات نفسه والذي، حين فقد كل سند طبيعي، نظرا لكونه قد حُرم منذ أمد طويل من حقه في الوجود، عرف كيف يفرض نفسه بالارتكاز على فرضيات منافية للطبيعة وخيالية مسميا نفسه الشعب المختار، جماعة القديسين، الشعب الموعود، ال «كَنيسة» : لقد مارس هذا الشعب خدعة التقوى بمهارة فائقة، بقدر من «راحة الضمير» لايدفعنا إلى اتخاذ الحيطة والحذر حين يبشر بالأخلاق. إذا ظهر اليهود وكأنهم البراءة عينها فلأن خطرا داهما يتهددهم: يجب أن نتسم دائما بالقليل [كذا] من العقل، ومن الريبة والخبث حين نقرأ العهد الجديد.

الناس الذين من أصل وضيع، من الأوباش أويكادون، المكابدون، ليس فقط من بين أفراد المجتمع الصالح، بل كذلك من أفراد المجتمع المحترم، الناس الذين كبروا بعيدا حتى عن رائحة الثقافة، دون تهذيب، جاهلين، لايظنون أن الأمور الفكرية قد تخلق وعيا، باختصار ـــ اليهود: ما كرون بالفطرة، ويملكون كل الأفكار الخرافية، إنهم لايعرفون كيف يمنحون أنفسهم امتيازا، أو إغراء.

126

في العهد الجديد، وخاصة في الأناجيل، لاأسمع لغة «ربانية»: أرى فيه بالأحرى شكلا غير مباشر من الغيظ الخفي الموجود في الافتراء والتدمير ـــ الشكل الأقل ولاء من أشكال البغض. فيه جهل بمزايا الطبع الراقي. فيه مغالاة وقحة في طيبة القلب؛ كنز الأمثال مستغل فيه ومفروض؛ هل كان من الضروري جعل الرب يأتي ليقول لهؤلاء الجناة ... إلخ. ـــ

ليس هناك شيء أكثر سوقية من ذلك الصراع ضد الفريسيين بمساعدة حيلة الأخلاق اللامعقولة وغير القابلة للممارسة؛ وقد كانت استعراضات القوة هاته تمتع الشعب. الاتهام بالـ «نفاق» الصادر عن هذا الفم! إنه لشيء مألوف نعت الخصوم بهذه الصفة ـــ وهذه الطريقة الماكرة تكشف الطبع النبيل أو بالأحرى انعدامه ...

127

الإزدراء الكبير الذي كان يعامل به المسيحي في العالم القديم، ذلك العالم النبيل والمهذب، هو من نوع النفور الفطري الذي يبديه الناس اليوم من اليهودي: إنه كره الطبقات الحرة والواعية بنفسها للذين يتسللون ويقرنون الحركات الخجولة والخرقاء بكفاءة غير معقولة.

العهد الجديد إنجيل صنف من الرجال لا نبل فيهم. وزعمه احتواء فضائل أكثر مما يحتويه سواه، زعمه الاشتمال على كل القيم، شيء مغيظ، ـــ حتى في وقتنا الحاضر.

128

إن ما تقوم به المسيحية هو استئناف الصراع الذي كان من قبل ضد المثل الأعلى الكلاسيكي، ضد الدين النبيل.

والواقع أن هذا التحول ليس سوى تكيف مع حاجيات ومستوى ذكاء طبقة المتدينين في ذلك الوقت: تلك الطبقة التي كانت تؤمن بإيزيس، ومتراس، وديونيزوس، و «الأم الكبيرة» وتتطلب من الدين أن يكون: 1) أصل العالم الماورائي، 2) استشباح الضحية الدامي (السر الخفي)، 3) العمل المخَلص، والأسطورة المقدَّسة، 4) الزهد، إنكار الدنيا، «التطهير الخرافي»، 5) التراتبية كشكل من أشكال الجماعة. باختصار، إن المسيحية تتكيف مع نقيض الوثنية الذي كان موجودا وقد شرع في الإنتشار في كل مكان، مع تلك العبادات التي حاربها أبيقور ...

وتحديدا مع ديانة الطبقة الدنيا، طبقة النساء، والعبيد، والطبقات الشعبية غير النبيلة.

مواضيع سوء التفاهم هي إذن كالتالي:

1 - الخلود الشخصي؛

2- العالم الآخر المزعوم؛

3- عبثية مفهوم العقاب والتفكير الذي يشغل مركز التفسير المقدَّم عن العالم؛

4- عوض تأليه الإنسان يتم تجريده من طابعه الرباني، يتم حفر هاوية عميقة وحدها المعجزة ووهن الاحتقار الكبير للنفس يستطيعان اجتيازها؛

5- حلول عالم من الخيالات الفاسدة والأهواء المَرَضية محل الشعائر البسيطة والمفعمة بالحب، محل سعادة بوذية ممكنة التحقق على الأرض؛

6- هيأة دينية، مع الإكليروس، واللاهوت، والعبادات، والقرابين المقدسة: باختصار، كل ما حاربه يسوع الناصري.

7- المعجزة في كل مكان وفي كل شيء، الخرافة؛ بينما الذي يميز اليهودية والمسيحية الأصلية هو النفور من المعجزة، وعقلانية نسبية.

129

المسيحية. ـــ مجهود بسيط نحو حركة السلم البوذي، نابع من المكمن الحقيقي للحقد... ولكن القديس بولس غير مجراه وجعل منه عقيدة السر الوثني الخفي، القابلة للانسجام في نهاية المطاف مع تنظيم الدولة كله ... القيام بالحرب، الإدانة، التعذيب، التآمر، الكره.

يرتكز القديس بولس على الحاجة إلى سر خفي لدى الطبقات الشعبية الكبيرة الثائرة دينيا: إنه يبحث عن ضحية، عن عرض أشباح دام يمكن أن يدخل في صراع مع صور الديانات السرية: الرب المطلوب، كأس الدم، الاتحاد الرمزي مع «الضحية».

إنه يبحث عن استمرار الحياة بعد الموت (الحياة السعيدة للروح الفردية التي كفرت عن ذنوبها) الذي يربطه بعلاقة السببية مع تلك الضحية، من خلال البعث (حسب مثال ديونيزوس، وميرتا، وآوزيريس).

يجب أن يضع في المقام الأول فكرة الخطأ والخطيئة، وليس ممارسة جديدة (مثلما بينها يسوع نفسه وعلمها للناس)، بل عبادة جديدة، وإيمانا جديدا، واعتقادا في تحول إعجازي (ال «خلاص» بالايمان).

لقد أدرك حاجة العالم الوثني الكبيرة، ومن الوقائع البسيطة لحياة المسيح وموته أعطى صورة تعسفية تماما، مضخما كل شيء من جديد، ومحولا مركز الجاذبية في كل مكان... لقد ألغى المسيحية الأصلية من حيث المبدأ ...

لقد أدت المؤامرة التي تمت ضد الكهنة وعلم اللاهوت، بفضل القديس بولس، إلى ظهور إكليروس جديد وعلم لاهوت جديد — إلى ظهور فئة حاكمة، وكذلك الكنيسة.

لقد أدى المساس بالأهمية المبالغ فيها التي كانت تعطى لل «شخص» إلى الايمان ب «الشخصية الخالدة» (إلى هم «الخلاص الأبدي» ...)، إذن إلى مبالغة متناقضة بشأن الأنانية الشخصية.

وهذا هو المضحك في الأمر، إضحاكا مأساويا: لقد أقام القديس بولس من جديد ما ألغاه المسيح بحياته وأعطاه أبعادا هائلة. وأخيرا، لما تمت إقامة صرح الكنيسة وافقت حتى على وجود الدولة.

130

لقد أصبحت المسيحية مخالفة تماما لما أتى به وأراده مؤسسها. إنها حركة كبيرة مضادة لوثنية العصر القديم، تم تحديدها باستعمال حياة وعقيدة و «كلمات» مؤسس المسيحية. وبتأويلها تأويلا تعسفيا، حسب ترسيمة الحاجيات المختلفة، تمت ترجمتها إلى لغات كل الديانات الخفية الموجودة من قبل. إنها تنام للتشاؤم (— بينما يسوع كان يريد جلب سلام وسعادة الحِملان): وهذا التشاؤم هو تشاؤم الضعفاء والمهزومين والمضطهدين، وكذلك الذين يعانون.

أعداؤها الألداء هم: 1) قوة الطبع، العقل والذوق؛ ال «دنيا»؛ 2) ال «سعادة» الكلاسيكية، الاستخفاف والشكوكية المتميزين، الأنفة الصلبة، الفخور الغريب

الأطوار وزهد الحكيم الفاتر، الموقف المهذب والكلام والشكل المنمقين على طريقة الإغريق. أعداؤها الألداء هم الرومان، مثلهم في ذلك مثل الإغريق.

محاولة المضاد للوثنية العثور على أسس فلسفية تجعله مقبولا: فقد هداه، ذكاؤه إلى التقرب من الوجوه الغامضة في الثقافة القديمة، وبالدرجة الأولى لاكتشاف أفلاطون، هذا المضاد للهلينيين، هذا السامي بالفطرة ... وكذلك الرواقية التي هي أساسا من عمل الساميين. (ــــ الـ «كرامة» في شكلها الصارم، باعتبارها قانونا، والفضيلة باعتبارها عظمة ومسؤولية وأسمى سيادة للشخصية ــــ كل هذا سامي. الرواقي قائد عربي مدثر بالبهارج والتصورات الإغريقية.)

131

ليس هناك رب مات من أجل خطايانا؛ ليس هناك خلاص بالإيمان؛ ولابعث بعد الموت ــــ هذه هي العملات المزورة للمسيحية الحقة وتلك الأدمغة التعيسة المغامرة مسؤولة عن هذا الخداع. الحياة التي يجب أن تتخذ مثلا يُحتذى قوامها الحب والتواضع؛ وفي فيض قلبها لاتطرد أصغر الكائنات، إنها تتخلى، وبشكل حازم، عن المطالبة بحقها، عن الدفاع عن نفسها، وعن الانتصار إذا كان يعني النصر الشخصي؛ تؤمن بالغبطة هنا على الأرض، رغم البؤس والصراع والموت، متسامحة وترفض الغضب والاحتقار؛ لاتريد جزاء؛ لاتعاهد أي أحد؛ عفوية في جانبها الأكثر روحانية وفكرية؛ حياة فخورة وتملك إرادة الحياة الفقيرة والحقيرة.

بعد أن انتزعت من الكنيسة كل الشعائر المسيحية، حين قبلت أن تحيا داخل الدولة، هذا النوع من الحياة الذي قاومه يسوع وأدانه، وجدت نفسها مرغمة على وضوع معنى المسيحية في شيء آخر: في الإيمان بأشياء لاتصدق، بطقوس الصلوات والعبادات والأعياد، إلخ. لقد تم تسليط الأضواء على فكرة «الخطيئة»، و «المغفرة»، و «العقاب»، و «الثواب»، على كل ما لم يكن له أي دور وكان شبه مستبعد من المسيحية الأولى.

فوضى عارمة من الفلسفة اليهودية ومن اليهودية؛ الزهد؛ أحكام لاتنقطع وإدانات؛ التراتبية، إلخ.

132

تاريخ المسيحية. ـــ تغير الوسط باستمرار: وبهذا تحول العقيدة المسيحية توازنها باستمرار ... تفضيل المتواضعين والعامة ... تطوير الرأفة ... بالتدريج يعود المسيحي ليتبنى ما جحده في البداية (ـــ مستمرا في جحوده). يصبح المسيحي مواطنا، وجنديا، وقاضيا، وعاملا، وتاجرا، وعالما، وعالم لاهوت، وكاهنا، وفيلسوفا، ومهندسا زراعيا، وفنانا، ووطنيا، وسياسيا، و «أميرا» ...، إنه يعود ليقوم بكل الأعمال التي نبذها من قبل (ـــ الدفاع عن النفس، الحكم على أمثاله، العقاب، القسم، التمييز بين شعب وآخر، الاغتياب، والغضب ...). وفي النهاية تصير حياة المسيحي كلها تلك الحياة التي أوصى المسيح بوجوب هجرها. الذي أوجد الكنيسة هو انتصار المسيح الدجال، كما أوجد الدولة المعاصرة، والقومية المعاصرة.

133

ديانة عدمية، ظهرت وسط شعب منهك وعفّى عليه الزمن، وصمدت في وجه كل غرائز هذا الشعب العنيفة ـــ يتم نقلها شيئا فشيئا إلى وسط آخر، لتنفذ في النهاية إلى شعوب شابة لم تعش بعد حياتها ـــ كم هذا غريب! سعادة الأفول والمساء، سعادة الرعاة يوعظ بها الهمج، يوعظ بها الجرمانيون! كم تطلب الأمر أولا جعلها همجية وجرمانية! لأولئك الذين حلموا بمثوى الشهداء (Walhall)[11] ! لأولئك الذين يجدون سعادتهم في الحرب! ـــ ها هي قد صارت ديانة تتجاوز القومية، ويتم التبشير بها وسط السديم حيث لاوجود لأية أقوام!

ب- المثل الأعلى المسيحي

134

الحركتان العدميتان الكبيرتان: أ) البوذية، ب) المسيحية. الآن فقط تحققت لهاته الأخيرة الأوضاع الثقافية التي يمكن أن تحقق فيها غايتها الأصلية ـــ المستوى الذي يجب وضعها فيه ـــ الذي يمكن أن تظهر فيه خالصة ...

ميزتنا اليوم هي كوننا نعيش في عصر المقارنة، بوسعنا مراجعة الحساب، مثلما لم يتم ذلك من قبل: نحن على العموم ضمير التاريخ ... نستمتع بطريقة مخالفة، ونعاني بطريقة مخالفة: نشاطنا الغريزي هو مقارنة تعددية مخالفة للمألوف .... نفهم كل شيء، ونعيش كل شيء، لم يعد فينا شعور بالعداوة ... سواء كان هذا ميزتنا أو لا فإن فضولنا المستعجل والشبه عاشق يمضي بكل جرأة نحو الأمور الخطيرة ...

«كل شيء جيد» ــــ يشق علينا أن نكون سلبيين. نتألم حين يحدث أن نصير أغبياء فنقف ضد أمر ما ... إجمالا، نحن العلماء هم من نستجيب اليوم بشكل أفضل لعقيدة المسيح.

135

جوهر المسيحية والبوذية. ــــ تشترك الديانتين في: محاربة العداوة ــــ هذه المشاعر التي تعتبر مصدر الشر. باعتبار ال «سعادة» لاتكون إلا شأنا داخليا.

ــــ اللامبالاة بمظهر السعادة الاحتفالي.

ــــ البوذية: الرغبة في مفارقة الحياة: الوضوح الفلسفي الصادر عن درجة عالية من الروحانية، وسط الطبقات الراقية.

ــــ المسيحية : الحقيقة أنها تريد نفس الشيء (ــــ الكنيسة اليهودية تمثل إحدى ظواهر انحطاط الحياة)، ولكن طبقا لغَمارة شديدة، جاهلة لموضوع رغباتها؛ متوقفة عند «الخلاص»، باعتباره أسمى غاية ...

لم تعد غرائز الحياة القوية تعتبر جديرة بتوليد الفرحة، بل بخلق المعاناة:

بالنسبة للبوذي، نظرا لكون هذه الغرائز تدفع إلى الفعل (ولكن الفعل ينظر إليه على أنه يولد الكدر ...)؛ بالنسبة للمسيحي، باعتبارها تخلق العداوة والتعارض (ولكن الكره والإساءة للآخرين ينظر إليهما على أنهما يولدان المتعة، ويزعج «طمأنينة الروح».

136

عصرنا ناضج بمعنى من المعاني (أي منحط)، مثل عصر بوذا ... هذا هو ما يجعل المسيحية ممكنة الوجود دون أركان غير معقولة ...

المسيحية والبوذية هما ديانتا الإنحطاط: ماوراء الثقافة، والفلسفة، والفن، والدولة.

137

بوذا ضد الـ «مصلوب». في خضم الحركة العدمية يمكننا التمييز بوضوح بين التيار المسيحي والتيار البوذي. الحركة البوذية تعبر عن مساء جميل، عن رقة يوم وشيكة شمسه على الأفول، ـــ إنه العرفان لكل ما مضى، دون نسيان الأشياء التي طواها الغياب: المرارة والخيبة والحقد؛ وفي الأخير: الحب الروحي الكبير؛ وقد خلفت وراء ظهرها رقة التناقض الفلسفي، فهي تستريح منها كذلك: ولكنها تقتبس منها الإشعاع الفكري وحمرة الغروب. (ـــ أصلها نجده لدى الطبقات الراقية ـــ.) الحركة المسيحية حركة انحطاط، تتكون من كل أنواع البقايا والفضلات: إنها لاتعبر عن انحطاط عرق ما، بل هي، منذ البداية، تكتل من العناصر المرضية التي تتجاذب وتبحث عن بعضها ... لذلك ليست قومية، ولاتتوجه لعرق معين، فهي تخاطب المحرومين حيثما وجدوا، لها قدر من الحقد على كل ما هو مؤات، وتقف ضد كل مهيمن، إنها في حاجة إلى شعار يعبر عن لعنتها للذين ولدوا صالحين وللمهيمنين ... كما أنها تعارض كل الحركات الفكرية، وكل الفلسفات؛ وتنحاز إلى جانب البلداء وتلعن العقل. إنها ممتلئة بالحقد على الموهوبين، والعلماء المستقلين فكريا: لأنها تحزر لديهم الصحة القوية، والسيادة.

138

كيف تتصرف ديانة آرية، مثبِتة، انتجتها طبقة مهيمنة شريعة مانو.

كيف تتصرف ديانة سامية، مثبِتة، أنتجتها طبقة مهيمنة: شريعة محمد، والعهد القديم، في أجزائه القديمة. كيف تتصرف ديانة سامية، نافية، أنتجتها طبقة مضطهَدة: العهد الجديد (حسب الأفكار الهندوآرية، ديانة المنبوذين).

كيف تتصرف ديانة آريه، نافية، ظهرت بين الطبقات المهيمنة: البوذية.

إنه لأمر طبيعي ألا تكون هناك ديانة للعرق الآري المضطهَد: لأن ذلك سيشكل تناقضا: فعرق السادة إما إن يكون في القمة وإما أن يهلك.

139

نتحدث اليوم كثيرا عن العقل السامي في العهد الجديد: ولكن الذي ننعته بهاته الصفة ليس سوى عقل الكاهن، ـــ ونجد هذا النوع من «السامية»، أعني عقل الكاهن، أسوأ ما يكون في القانون الآري الذي أنتجه أنقى عرق، في شريعة مانو.

تطور الدولة الكهنوتية اليهودية ليس أصيلا: لقد عرف اليهود هذا النموذج في بابل، فترسيمته آرية إذن. وإذا تمكن فيما بعد من السيادة في أوربا من جديد، تحت هيمنة الدم الجرماني، فإن ذلك مطابق لروح العرق المهيمن: إنها تأسلية[12] كبيرة. لقد كان العصر الوسيط الجرماني يرمي إلى إعادة إقامة النظام الآري للطبقات.

ومن جهة أخرى استلهمت المحمدية المسيحية:

استعملت «الماوراء» وسيلة للعقاب.

لقد دفع نموذج النظام الجماعي الثابت، الذي يوجد على رأسه الكهنة ـــ وهو أقدم ما أنتجته الثقافة الأسيوية في ميدان التنظيم ـــ دفع حتما إلى التأمل والتقليد، إلى كل الآراء ـــ ذلك هو أفلاطون، والمصريون في المقام الأول.

140

أ. بقدر ما تبدو المسيحية اليوم ضرورية، بقدر ما يبدو الإنسان فظا وقاتلا ...

ب. من وجهات نظر أخرى، ليست المسيحية مضرة فقط، بل شديدة الخطورة، ولكنها جذابة ومغرية، لأنها تناسب الطبع المرضي لفئات بأكملها، ولأشخاص عديدين من الإنسانية الحالية ... هؤلاء الأشخاص يتبعون ميلهم باستسلامهم للطموح المسيحي ـــ إنهم المنحطون من كل الأصناف.

يجب هنا أن نميز بدقة بين أوب. في الحالة أ، المسيحية علاج، أو على الأقل وسيلة إكراه (ـــ حتى بجعلها المرء مريضا، عند الاقتضاء: وهو ما قد يفيد في تحطيم الهمجية والشراسة).

في الحالة ب، هي نفسها علامة المرض، إنها تُفاقم الانحطاط: هي هنا تقاوم نظامَ علاج مُقَوّ، إنها تمثل بذلك غريزة المريض المقاومة لما هو صحي لها. ـــ

141

خلق الله الإنسان السعيد، العاطل، البريء والخالد: وحياتنا الدنيا حياة باطلة، ومنحطة، ومدنسة بالخطايا، وتكفير ... المقاومة والعمل والمعاناة والموت يعتبرون معارضين للحياة، شيئا غير طبيعي، شيئا لاينبغي أن يدوم، ويجب أن نجد له علاجا، بل نملك له علاجا! ...

لقد وجدت الإنسانية نفسها منذ آدم إلى الآن في أوضاع غير عادية: الرب نفسه ضحى بابنه للتكفير عن خطايا آدم، وذلك حتى يتم وضع حد لهذه الأوضاع غير العادية على الأرض: الخاصية الطبيعية للحياة لعنة؛ والمسيح يعيد وضع من يؤمن به في أوضاع عادية: يجعله سعيدا، وعاطلا وبريئا. ـــ والحالة أن الأرض لم تصبح خصبة إلا بالعمل؛ والنساء لا يلدن دون آلام، والمرض لم يختف من الوجود؛ والمؤمنون والكافرون كلا هما يوجدون في حالة سيئة. ولكن الإنسان قد تم تخليصه من الموت ومن الخطيئة ـــ وهي أمور تؤكدها الكنيسة بقطيعة لاتدع مجالا للتثبت منها. « طاهر من الخطايا» ـــ ليس نتيجة عمل شخصي، وليس إثر مقاومة شرسة أبداها، بل بفعل التوبة ـــ وبالتالي يصير كاملا، فرد وسيا...

ومع ذلك فالحياة الحقيقية ليست سوى اعتقاد (أي وهما وحماقة). الحياة الحقيقية التي هي صراع ومقاومة، المليئة بالأنوار والظلمات، ليست سوى حياة قبيحة وباطلة: مهمة المرء في الحياة هي الحصول على الخلاص من طرف الابن.

«الإنسان البريء، العاطل، الخالد، والسعيد» ـــ علينا قبل أي شيء انتقاد هذا التصور الذي هو موضوع « الرغبات الكبرى». لماذا يعتبر العناء، والعمل، والموت، والألم (والمعرفة، حتى نتكلم لغة المسيحيين) معارضين لـ «الرغبات الكبرى» ؟ـــ المفاهيم المسيحية البليدة مفاهيم الـ «خلاص» والـ «براءة»، والـ «خلود»...

142

يتميز الإنسان الراقي عن الإنسان الأدنى بإقدامه وتحديه للمصيبة : إنه لمن علامات الانحطاط أن يتم اعتبار التقييمات التي تخص السعادة هي الأسمى (—— الإنهاك الفزيولوجي، وافتقار الإرادة ——). المسيحية بمنظورها للـ «غبطة» هي الأفق النموذجي لصنف من الرجال المرضى والمنهكين. تريد القوة وهي في كمالها أن تبدع، وتعاني، ثم تختفي : وهي تعتبر الخلاص بالتقوى لدى المسيحيين موسيقى رديئة والحركات الكهنوتية تزعجها.

143

لقد وضحنا المثل الأعلى المسيحي من جديد : وبقي علينا تحديد قيمته :

1) ما هي القيم التي ينكرها المثل الأعلى المسيحي ؟ وما هو مضمون المثل الأعلى المضاد ؟—— الأنفة، المسافة ، المسؤولية الكبرى، الحيوية المفرطة، الحيوانية الرائعة، الغرائز المحاربة والفاتحة، تمجيد الهوى، والانتقام، والمكر، والغضب، والشهوة، وروح المغامرة، والمعرفة —— إنه ينكر المثل الأعلى النبيل : الجمال، والحكمة، والقوة، والجلال، والطبع الخطير لدى الإنسان : الإنسان الذي يحدد أهدافا، إنسان المستقبل (—— تبدو المسيحية هنا وكأنها نتيجة لليهودية.——).

2) هل هو ممكن التحقيق ؟—— أجل ، ولكنه يخضع لظروف حرجة، مثله مثل المثل الأعلى الهندوسي. فكلاهما يهملان العمل.—— إنه يضع المرء جانبا، خارج الشعب، والدولة، وطائفة المثقفين، والقضاء، إنه يرفض التعليم، والمعرفة، والتربية، والعادات الحسنة، والصناعة، والتجارة... ويتملص من كل ما يشكل قيمة الإنسان ومنفعته —— ويخدع الإنسان بخاصية المشاعر. هو لاسياسي، مضاد للقومية، وليس شرسا، ولا مدافعا —— ولايمكن أن يوجد إلا وسط تنظيم سياسي واجتماعي موطد الأركان، تنظيم يدع هذه الطفيليات المقدسة تتكاثر على حساب المجتمع.

3) ويبقى مجرد نتيجة لإرادة السعادة—— لا غير ! تعتبر «الغبطة الأبدية» شيئا يبرهن عن ذاته بذاته، شيئا لايحتاج إلى تبرير، —— وكل ما تبقى (طريقة عيش المرء وتركه الغير ليعيش) ما هو إلا وسيلة لبلوغ هذا الهدف...

وهذا تفكير بئيس : فخشية الألم، والدنس ، والهلاك، أسباب كافية لفشل كل شيء. هذه الطريقة البئيسة في التفكير علامة دالة على عرق منهك ؛ لا ننخذعن بشأن هذا. (« عليكم أن تصيروا مثل الأطفال.» ــــ رجل من هذا الصنف : فرانسوا داسيز، المصاب بالعصاب، وبالصرع، المستبصر، مثل يسوع.)

144

لنر ما يفعله « المسيحي الحقيقي» بكل ما تحرمه عليه غريزته: ــــ إنه يثير الشبهات حول كل ما هو جميل، وغني، وفخور، حول كل ما يلمع، وكل ما هو قوي، وحول الوعي بالذات، والمعرفة، ويمرغ كل ذلك في الوحل ــــ باختصار، يفعل ذلك بالثقافة كلها : غرضه هو أن يسلبها راحة ضميرها ....

145

المسيحية ممكنة الوجود على حياة خاصة : إنها تفترض وجود جماعة صغيرة ومحدودة ولا تهتم بالسياسة مطلقا، ــــ إنها حياة تخص الاجتماعات السرية قصد التعبد. في مقابل ذلك تبدو «الدولة المسيحية» و « السياسة المسيحية» مثل كذبة وقحة، وكذلك السلوك المسيحي للجيش الذي سينتهى به الأمر إلى اعتبار «رب الجيوش» هو القائد الأعلى للقوات المسلحة. حتى البابوية لم تكن قادرة يوما على ممارسة سياسة مسيحية... ؛ وحين يمارس المصلحون السياسة، كما فعل لوثر، فإننا نعرف أنهم يمارسونها حسب نموذج ماكيافيل،، تماما مثل الطغاة والأخلاقيين.

146

الـ « إيمان» أو الـ «أعمال» ؟ ــــ إن انتهاء الـ « أعمال» وعادة إنجاز أعمال محددة، إلى توليد تقييم خاص، ثم إحساس في نهاية المطاف، لهو شيء طبيعي مثلما هو غير طبيعي أن نرى «تقييمات» تصدر عنها «أعمال» (œuvres) . يجب أن نتدرب، لا على تقوية الإحساس بالقيمة، بل على الفعل ؛ علينا أولا أن نستطيع فعل شيء ما ... انفعالية لوثر المسيحية. الإيمان قنطرة للحمير. الحقيقة هي اقتناع لوثر وأمثاله بعجزهم عن القيام بالأعمال المسيحية؛ هناك واقع شخصي تخفيه ريبة شديدة بشأن

السلوك، هو معرفة ما إن كانت مختلف طرق الفعل، في عموميتها، إثما وعملا من أعمال الشيطان: حتى إن قيمة الحياة تم اختزالها في بعض حالات الخضوع المكثفة (الصلاة، إراقة الدم، إلخ.) وفي نهاية الأمر نجد أن لوثر على حق : الغرائز التي تبدو في طريقة عيش المصلحين هي من أشد الغرائز شراسة. لم يكونوا يطيقون حياتهم إلا حين يولون الظهر لأنفسهم، لينغمسوا في عكسهم، ليتعاطوا للوهم (الـ « إيمان»).

147

ما مارس المسيحيون الأعمال التي أوصاهم بها المسيح أبدا، والخرافة والوقحة التي تتحدث عن « التبرير بالإيمان» ودلالته الكبيرة والوحيدة ليست سوى نتيجة قلة الشجاعة والإرادة في المطالبة بالأعمال التي كان المسيح يطلب القيام بها.

يتصرف البوذي بخلاف غير البوذي ؛ بينما المسيحي يتصرف كسائر الناس ومسيحيته مسيحية الحفلات والحالات المعنوية..

مسيحيتنا، في أوربا كاذبة حتى النخاع بحيث نستحق فعلا احتقار العرب والهندوس والصينيين لنا... لنستمع إلى خطب رجل الدولة الأول في ألمانيا حول ما شغل أوربا طيلة أربعين سنة.

148

الشيء المثير للسخرية في الحضارة الأوربية هو كون أصحابها يعتبرون الشيء الفلاني هو الصحيح ويفعلون شيئا آخر. مثلا، ماجدوى فن الحياة وماجدوى النقد إذا كان التفسير الكنسي للإنجيل، البروتستانتي والكاثوليكي على السواء، يتم الإبقاء عليه من قبل وكذلك من بعد.

149

إننا لانفطن كثيرا إلى همجية الأفكار التي نعيش بها نحن الأوربيون اليوم. ألا يزال مقبولا اليوم كذلك أن نؤمن بأن «خلاص الروح» يتوقف على كتاب ! ... وقد قيل لي أن الناس مازالوا اليوم يؤمنون بذلك.

ما جدوى التربية العلمية، ونقد النصوص، وتفسير النصوص القديمة إذا كانت هذه السخافة، كتفسير الإنجيل الذي تتمسك به الكنيسة، لم تجعل الوجوه تحمر خجلا بعد ؟

150

قمة العقل الكاذب لدى الإنسان، في الأمور النفسية، هي أن يتصور كائنا على أنه هو البداية، هو الكائن « في ذاته»، طبقا لما يبدو له عرضا، حسب مقياسه الصغير، طبيبا، وحكيما، وقويا، وثمينا ويلغي السببية التي بفضلها توجد فقط طيبة عادية وحكمة عادية، وقوة عادية، والتي بفضلها فقط يكون لهن شيء من القيمة. باختصار، أن يعتبر عناصر من أصل متأخر ومشروط وكأنها وجدت تلقائيا « في ذاتها»، عناصر قد تكون أصل متأخر ومشروط وكأنها وجدت تلقائيا « في ذاتها»، عناصر قد تكون أصل كل تكوُّن، وهي أبعد من أن تكون قد تكونت ببطء... لننطلق من التجربة التي لدينا عن كل حالة سما فيها رجل فوق المقياس الإنساني، وسنرى أن كل درجة عالية من القوة تعني التحرر من الخير والشر، وكذلك من «الصحيح» و« الخطأ»، ولا يمكنها أخذ ما تتطلبه الطيبة بعين الاعتبار : نفس الشيء ينطبق على درجة عالية من الحكمة —— تلغى فيها الحكمة، والعدالة، والفضيلة، وتذبذبات أخرى من التقييمات الشعبية. وأخيرا، أليس واضحا أن كل درجة عالية من الطيبة تفترض مقدما نوعا من قصر النظر ومن الإكراه الفكريين، وكذلك عدم القدرة على التمييز، على مدى زمن طويل، بين الصحيح والخطأ وبين النافع والضار ؟ حتى لانقول أي شيء عن كون درجة عالية من القوة، إذا ملكتها طيبة عليا، ستكون لها أوخم العواقب («القضاء على الشر»).

يكفي أن نرى الميول التي يلهمها « رب الطيبة» المؤمنين به : إنهم يدمرون الإنسانية لصالح «الطيبين». — وعمليا ، عند التكون الحقيقي للعالم، ظهر هذا الرب نفسه كرب حسير النظر بشكل كبير، كرب عاجز ومتشيطن : من هنا يمكننا استخلاص قيمة تصوره.

ليس للمعرفة والحكمة قيمة في ذاتهما؛ مثلهما مثل الطيبة : يجب دائما أن نعرف الهدف الذي في سبيله تكتسب هذه المزايا قيمة أو تفقدها. —— بمقدورنا أن

نتصور هدفا يظهر المعرفة القصوى كلا قيمة (لو أن الوهم الأقصى، مثلا، كان أحد شروط نمو الحياة؛ وكذلك لو كانت الطيبة الكبيرة)... لقد ثبت أن الـ »حقيقة» على الطريقة المسيحية، والـ طيبة» والـ «قداسة» والـ« ألوهية» شكلت حتى الآن أخطارا كبيرة على حياتنا الإنسانية، إذا نظرنا إلى هذه الحياة كما هي، —— والإنسانية مهددة الآن أيضا بخطر الهلاك بسبب مثل أعلى مضاد الحياة.

151

بمنح المسيحية الأولوية لعقيدة النزاهة والمحبة تكون قد ابتعدت عن رفع مصلحة الجنس البشري فوق مصلحة الفرد. وفعلها التاريخي الحقيقي، فعلها القاتل، هو، على العكس، تمجيدها للأنانية، دفعها للأنانية الفردية إلى أقصاها (ـ إلى أقصى الأخلاقية الشخصية). بفضل المسيحية حظي الفرد بأهمية كبيرة، ونال قيمة مطلقة، بحيث لم يعد بالإمكان التضحية به : ولكن بقاء النوع البشري لايمكن أن يتم إلا من خلال التضحية برجاله... أمام الرب يتساوى كل الـ « ناس» : وهذا التقييم هو أخطر كل التقييمات الممكنة. إذا ساوينا بين الأفراد فإننا نضع النوع البشري في خطر، ونشجع ممارسة ستؤدي إلى تدمير هذا النوع ؛ المسيحية نقيض مبدأ الإنتخاب الطبيعي. فالمنحط والمريض (« المسيحي») تكون لهما نفس القيمة التي للمتمتع بصحة جيدة («الوثني»)، بل قيمة أكبر، حسب الحكم الذي أصدره باسكال على الصحة والمرض. وهذا يقف عائقا أمام السير الطبيعي للتطور ويجعل من مخالفة الطبيعة قانونا... المناداة بهذه المحبة الشاملة للإنسانية تعني ، عند الممارسة، تفضيل المرضى، والفاشلين، والمنحطين : وبالفعل، لقد أهانت وأضعفت القوة، والمسؤولية، والواجب السامي الذي هو التضحية بالرجال. حسب ترسيمة التقييم المسيحية فإنه لم يتبق سوى تضحية المرء بذاته : ولكن هذه البقية من التضحية التي قبلتها المسيحية، بل وتنصح بها، ليس لها، من وجهة نظر النظام العام، أي معنى. فازدهار النوع البشري لا يبالي بتضحية فرد ما بنفسه (—— سواء على طريقة الرهبان أو الزهاد، أو بمساعدة الصليب، أو المحرقة والمشنقة، بصفته «شهيد» الخطأ). بالنسبة للنوع يجب أن يهلك الفاشل والضعيف والمنحط : ولكن هؤلاء هم من تناديهم المسيحية باعتبارهم قوة محافظة،، مقوية بهذا تلك الغريزة القوية لدى الضعفاء، غريزة مراعاة بعضهم، والإبقاء على بعضهم، والدعم المتبادل. ما ذا تكون الـ « فضيلة» والـ «

إحسان» في المسيحية إن لم تكونا هما هذا الإبقاء، هذا الاتحاد بين الضعفاء، وهذه الإعاقة للتطور ؟ ما ذا يكون الإيثار المسيحي إن لم يكن هو أنانية الضعفاء الجماعية التي تخمن بأنه إن سهروا على بعضهم فإن بقاء كل واحد منهم سيكون أطول ؟... إذا لم نعتبر هذه العقلية قمة اللا أخلاقية، ومؤامرة ضد الحياة، فإننا سنكون من حثالة هؤلاء المرضى وتكون لنا غرائزهم...المحبة الحقيقية للنوع البشري تقتضي التضحية لصالح هذا النوع، ـــ وهي صعبة، لأن مهرها هو الانتصار على الذات، ولأنها تحتاج إلى التضحية الإنسانية. وهذه الإنسانية الزائفة التي اسمها المسيحية تريد الوصول إلى عدم التضحية بأي إنسان...

152

الشيء الذي سيكون مفيدا جدا ويجب تشجيعه كثيرا هو عدمية الفعل بكل نتائجها. ـــ كما أفهم كل ظواهر المسيحية والتشاؤم أعبر عنها : « نحن ناضجون لكي نزول ؛ إنه لشيء معقول بالنسبة لنا أن نزول». لغة الـ «عقل» هذه هي، في هذه الحالة، لغة الطبيعة الانتخابية.

ومقابل ذلك فالشيء الذي يستحق الإدانة الشديدة هو المسَكن الجبان الذي تقدمه ديانه كالمسيحية : مُسَكن الكنيسة بالتحديد التي تحمي الفاشلين والمرضى وتحثهم على التناسل عوض أن تشجعهم على الموت وقتل أنفسهم.

مسألة : أية وسائل يجب أن نستعملها لنصوغ شكلا صارما من العدمية الكبرى يكون معديا، شكلا يدعو إلى الموت الطوعي ويمارسه بدقة علمية (ـــ ولن يكتفي بترك المخلوقات الضعيفة تعيش خاملة في سبيل حياة أخروية كاذبة ـــ) ؟

إننا نلوم المسيحية على كونها، من خلال فكرة الخلود الشخصي، قد حطت من قيمة هذه الحركة العدمية، المطهرة والعظيمة، مثلما كانت في طريقها إلى التكون على الأرجح : وكذلك بالأمل في البعث : باختصار، على كونها حالت دائما دون القيام بفعل العدمية، الذي هو الإنتحار... لقد عوضته بالانتحار البطيء، ثم بحياة بئيسة، ولكن دائمة، ثم بحياة عادية، بورجوازية ومتواضعة، إلخ.

المسيحية تحريف لأخلاق القطيع، تحت سيطرة الضلال الطوعي وسوء التفاهم التام. الديمقراطة شكل طبيعي من أشكالها، شكل أقل خداعا منها.

إنه لأمر واقع كون المضطهدين، والسفلة، وجمهور العبيد وأشباه العبيد، يريدون امتلاك القوة.

الدرجة الأولى : يتحررون ، — يتحررون ، في الخيال أولا، يتعرفون على بعضهم البعض، ثم يفرضون أنفسهم.

الدرجة الثانية: يدخلون في صراع، يريدون أن يتم الاعتراف بهم؛ يريدون المساواة في الحقوق، « العدالة».

الدرجة الثالثة : يلحون في طلب الامتيازات (— يجذبون ممثلي القوة إلى جانبهم).

الدرجة الرابعة : يريدون السلطة لهم وحدهم، وإنهم يملكونها...

هناك في المسيحية ثلاثة عناصر يجب تمييزها : أ) المضطهدون من كل صنف، ب) البلداء من كل صنف، ج) المتشائمون والمرضى من كل صنف. بواسطة الصنف الأول تحارب المسيحية طبقة النبلاء السياسية ومثلها الأعلى؛ وبواسطة العنصر الثاني تحارب الذين يشكلون الاستثناء وأصحاب الامتياز من كل صنف (سواء من الناحية الأخلاقية أو الجسدية —) ؛ وبواسطة العنصر الثالث تحارب الغريزة الطبيعية لدى الأصحاء والسعداء.

حين تنتصر المسيحية فإنها تبرز العنصر الثاني، لأنها آنذاك تكون قد كسبت في صفها الأصحاء والسعداء (الذين تستخدمهم محاربين للدفاع عن قضيتها)، وكذلك الأقوياء (الذين يهمهم كثيرا أن يسيطروا على الجماهير)، — ومنذ ذلك الحين تصبح غريزة القطيع، والإنسان العادي، الأثير من جميع جوانبه، هما اللذان يحرزان على الموافقة السامية للمسيحية. وفي نهاية المطاف يعي هذا الإنسان العادي ذاته (— يجد الشجاعة ليعترف—) إلى درجة أنه يعترف لنفسه بالقوة في ميدان السياسة...

الديمقراطية هي المسيحية وقد أصبحت طبيعية : إنها شكل من « العودة إلى الطبيعة» ، تتم إثارته حين يصير ممكنا تجاوز « مخالفة الطبيعة» الشديدة بواسطة التقييم المضاد.—— النتيجة : يبدأ المثل الأعلى الأرستقراطي حينها في فقدان طابعه الطبيعي («الإنسان الراقي»، و« النبيل »، و« الفنان»، و«الشهوة»، و«المعرفة»؛ الرومانسية باعتبارها عبادة الاستثناء، العبقرية، إلخ.).

154

الإنجيل : الإخبار بأن باب السعادة مفتوح للوضيعين وللفقراء.—— بأنه يكفي لذلك الانفصال عن المؤسسات، وعن التراث، والتحرر من وصاية الطبقات الراقية : بهذا المعنى يكون تنامي المسيحية هو المذهب الاشتراكي بامتياز.

الملكية والتملك، الوطن، الوضع والمرتبة الاجتماعية، المحاكم، الشرطة، الحكومة، الكنيسة، التعليم، الفن، والنظام العسكري : هذه كلها عوائق في طريق السعادة، كلها أخطاء ومكائد، كلها أعمال الشيطان التي تتوعد المسيحية بالعقاب عليها—— وكلها من مميزات المذهب الاشتراكي.

في خلفية هذا الطفح هناك كم هائل من النفور المركز من الـ «سعادة»، والشعور بالسعادة الناجم عن الإحساس بالتحرر من ذلك الاضطهاد الطويل الأمد... (وهذا في عمومه دليل على أن الطبقات الدنيا قد عوملت بإنسانية بقدر كبير، وأنها بدأت، مع مرور الوقت، تتذوق السعادة المحرمة عليها ... ليس الجوع هو من يثير الثورات، بل كون شهية الشعب تزداد حين يأكل...)

155

حين يصير الـ « سادة» بدورهم مسيحيين. من خصوصية غزيرة الجماعة أن الأوضاع والطموحات التي تدين لها ببقائها لها قيمة في ذاتها، وأن تحط مثلا من شأن الطاعة، والدعم المتبادل، والاعتبارات، والرزانة، والرحمة، —— وبالتالي من شأن كل ما يوجد في طريقها وقد يناقضها.

ومن خصوصية غريزة السادة (سواء كانو أفرادا أو طبقات) أن يصفحوا ويميزوا الفضائل التي تجعل رعاياهم طبيعيين وخاضعين (ـــ الأوضاع والمشاعر التي قد تكون شديدة البعد عن تلك التي يتم الاقرار بها).

تتفق غريزة القطيع وغريزة السيادة، في الحياة، على امتداح سلسلة من المزايا والأوضاع، ـــ ولكن لسببين مختلفين : فالأولى تتصرف بدافع الأنانية المباشرة، والثانية بدافع الأنانية غير المباشرة.

الخضوع لمسيحية عرق السادة هو بالأساس نتيجة القناعة بأن المسيحية هي ديانة القطيع التي تعلم الطاعة : باختصار، أن السيطرة على المسيحيين أسهل من السيطرة على غير المسيحيين. بهذا الإخبار ينصح البابا اليوم إمبراطور الصين بالدعاية للمسيحية.

يجب أن نضيف إلى ذلك أن قوة الإغراء في المثل الأعلى المسيحي ربما تؤثر أكثر في الذين يحبون المخاطرة، والمغامرة والتناقضات، الذين يحبون كل ما فيه مجازفة، ولكنه يمكنهم من بلوغ أقصى درجات الشعور بالقوة. لنتخيل القديسة طيريزا وسط بطولية إخوانها :ـــ تبدو المسيحية كتجميد للإرادة، لقوة الإرادة، كدونكيشوتية البطولية...

156

لقد اقترب الوقت الذي سنؤدي فيه الثمن غاليا عن كوننا كنا مسيحيين طيلة ألفي سنة : لقد بدأنا نفقد نقطة الارتكاز التي كانت تمكننا من العيش ،ـــ صرنا لانعرف إلى أين يجب علينا أن نسير. إننا نسارع فجأة إلى التقييمات المضادة، مع هذا القدر من الطاقة التي ولدها في الإنسان ذلك التقدير المبالغ فيه للإنسان.

الآن كل شيء باطل، كليا، في كل مكان نجد «كلمات»، خلط ملط، ضعيفة أو متحمسة :

أ - محاولة لإيجاد حل أرضي، ولكن بنفس معنى النصر المبين الذي تحققه الحقيقة، والمحبة والعدالة (الاشتراكية : « المساواة الفردية»)..

ب - السعي للحفاظ على المثل الأعلى الأخلاقي (مع الإبقاء على السيادة التي كانت للإيثار، لنكران الذات، ولنفي الإرادة).

ج - بل السعي للإبقاء على الماوراء : ولو كشيء مجهول ومضاد للمنطق؛ ويتم تفسيره بطريقة تمكن من استخلاص عزاء ما ورائي منه بالطريقة القديمة.

د - محاولة قراءة السلوك الرباني المنتمي للماضي في مايحدث الآن، هذا التوجيه الذي يثبت، ويعاقب ويربي، ويؤدي إلى نظام أفضل للأشياء.

هـ - لازال هناك إيمان بالخير والشر : بحيث تعتبر المهمة هي انتصار الخير والقضاء على الشر (ـــ هذا شيء أنجليزي : الحالة النموذجية لهذا العقل المسطح التي يجسدها جون ستيوات ميل)؛

و - احتقار ما هو «طبيعي»، احتقار الرغبة والـ « أنا» : محاولة لتفسير العقلانية في أعلى مراتبها والفن الرفيع على أنهما نتيجة للتخلي عن الشخصيةة، على أنهما ترفُّع.

ز - السماح للكنيسة بحشر أنفها في كل الأحداث الهامة، في كل الوقائع الرئيسية للحياة الشخصية، لكي تكرسها وتمنحها معنى أسمى : لاتزال لدينا « الدولة المسيحية»، و« الزواج المسيحي».

157

للتأمل : بأية صفة يستمر في الوجود هذا الإيمان المشؤوم بالعناية الإلهية، هذا الإيمان المنتمي للماضي والذي يشل اليد والعقل ؛ بأية صفة لازالت قائمة تلك الأفكار والتفسيرات المسيحية متخذة أسماء « الطبيعة» و« التقدم»، و«الإتقان»، و«الداروينية»، متخذة شكل الخرافة القائلة بوجود رابط مابين السعادة والفضيلة، وبين التعاسة والذنب. هذه الثقة العمياء في سير الأمور، الـ «حياة»، و « الغريزة الحيوية»، هذا الخضوع الجريء الذي يتصور أنه يكفي أن يقوم شخص واحد بواجبه ليكون كل شيء على مايرام ـــ كل هذا سيكون بلا معنى إذا لم نقر بأن الأمور تسير بنحو جيد. حتى القدرية نفسها، الشكل الحالي لحساسيتنا الفلسفية، ليست سوى نتيجة لذلك الإيمان الطويل الأمد بإرادة الله، نتيجة لاشعورية : وكأن الأمر لايتوقف علينا ليكون كل شيء على مايرام (ـــ كما لو كان من حقنا أن نترك الأمور تمضي كما تمضي : لكون الفرد مجرد شكل من أشكال الواقع المطلق ـــ).

158

أشكال خفية من المثل الأعلى المسيحي.ـــــ ما الفكرة الرخوة والحقيرة التي اختلقها المتحمسون للطبيعة، فكرة الـ « طبيعة» (ـــــ بعيدا عن كل الغرائز المؤيدة لما هو بشع، وشرس، وبذيء حتى في الـ « مظاهر» الأكثر «جمالا»)، ما هي إلا محاولة لفك رموز هذه « الإنسانية» المسيحية ـــــ الأخلاقية في الطبيعة ؛ ـــــ وتصور روسو، كما لو كانت الـ «طبيعة» والحرية، والطيبة، والبراءة والإنصاف، والعدالة متطابقةـــــ هو في حقيقة الأمر أخلاق مسيحية. ـــــ وأخذ مقاطع من أعمال الشعراء للتأكد من افتتانهم بالجبال الشامخات مثلا، إلخـــــ وما ذا كانت تمثله بالنسبة لغوته، ـــــ ولماذا كان يجل سبينوزا ـــــ. هو جهل مطبق بدوافع هذه الأخلاق...

فكرة الـ «إنسان» الرخوة والحقيرة، على طريقة كونت، وستيوارت ميل، التي تتحول عند الحاجة إلى موضوع للعبادة... هي الأخلاق المسيحية تحت اسم جديد... لدى المفكر الحر، لدى غويو مثلا.

فكرة الـ «فن» الرخوة والحقيرة، منظورا إليها من وجهة نظر الرحمة بكل الذين يعانون، بكل المحرومين (وهذا هو حال التاريخ كذلك عند تييري) : إنه المثل الأعلى الأخلاقي المسيحي مرة أخرى.

وإن شئنا الحديث عن المثل الأعلى الاشتراكي، فماذا يكون إن لم يكن تفسيرا بليدا وغير دقيق للمثل الأعلى الأخلاقي المسيحي ؟

159

حال الفساد. ـــــ يجب أن ندرك العلاقة الحميمية بين كل أشكال الفساد، وألا ننسى الفساد المسيحي (باسكال نموذج هذا الفساد) ؛ وكذلك فساد الاشتراكية ـــــ الشيوعية (وهو من نتائج الفساد المسيحي؛ـــــ أرفع تصور للمجتمع لدى الاشتراكيين هو، من وجهة النظر العلمية، الأحط في تراتبية المجتمعات)؛ وفساد

الـ « ماوراء» : وكأنه خارج العالم الحقيقي، عالم الصيرورة، هناك عالم آخر، عالم الكينونة.

لايمكن أن تكون هناك معاهدة بهذا الشأن : هنا يجب الاستئصال، والتدمير، والمحاربة، ـــ يجب اقتلاع المعيار المسيحي العدمي من كل مكان ومحاربته وراء كل الأقنعة ... مثلا، في علم الاجتماع الحالي، في الموسيقى الحالية، في التشاؤم الحالي (ـــ فكل هذه أشكال من المثال المسيحي ـــ).

فإما أنه شيء صحيح، وإما شيء آخر : صحيح، يعني : يسمو بالنوع البشري...

الكاهن، وقس الأرواح، شكلان قبيحان من أشكال الوجود. لقد كان التعليم حتى الآن في ضيق، دون توجُّه ودن نقطة ارتكاز، وملطخا بالتناقضات فيما يخص القيم.

160

ما أفسدته الكنيسة بمغالاتها في استعماله :

1) **الزهد** : بالكاد نجد الشجاعة لإظهار فائدته الطبيعية، وضرورته في خدمة تربية الإرادة. مُرَبونا البلداء الذين يعتبرون العقل « الخادم النافع للدولة» كترسيمة منظمة، يعتقدون أنهم يحلون المشكل بالـ « تعليم» الذي هو ترويض العقل ؛ إنهم لايعلمون أن هناك ما هو أهم من هذا ـــ تربية قوة الإرادة؛ نضم الاختبارات لكل شيء إلا الأهم : وهو معرفة ما إن كان بمقدورنا أن نريد، وأن نعطي وعدا : ينهي الشاب تعليمه دون أن يكون لديه ولو شك واحد، أو فُضول واحد بخصوص المسائل الراقية في تقييم طبيعته:

2) **الصوم** : يُنصح به غاية النصح، ـــ وكذلك كطريقة للمحافظة على الاستعداد الكامل للاستمتاع بالطيبات كلها (كالإمساك عن القراءة مثلا، والتوقف عن سماع الموسيقى، والكف عن أن تكون محبوبا؛ يجب كذلك أن يصوم المرء أياما عن فضائله) :

3) **الـ«رهبانية»** : الانعزال / المؤقت، مع الامتناع الصارم عن الاتصال بالآخرين: هي طريقة للتأمل العميق والعودة إلى الذات، لاتريد تجنب الـ « إغراءات»، بل الـ «

تأثيرات» الخارجية؛ هي خروج طوعي من الدائرة، من الوسط، تَنَحَّ، بعيدا عن استبداد الإثارة الذي يحكم علينا بألا ننفق قوانا إلا في رد الفعل، ولايسمح لهذه القوى بالتراكم حتى تصير نشاطا تلقائيا (انظروا عن كثب إلى علمائنا : إنهم لايفكرون إلا من خلال ردود الأفعال، أي أنهم يجب أن يقرأوا قبل أن يفكروا) ؛

4) **الأعياد** : لابد أن يكون المرء فظا غليظ القلب حتى لايشعر بوجود المسيحيين وقيمهم على أنه اضطهاد، ذلك أن كل مظاهر الاحتفال تزول إذا حضروا. يجب أن نفهم المقصود من العيد : الأنفة، والاندفاع، والحيوية المفرطة، احتقار الجدية والعقل البورجوازي : إثبات رائع للذات بفضل الإمتلاء والكمال الحيواني، هذه أحوال لايستطيع المسيحي أن يقبلها قبولا مطلقا. العيد هو الوثنية بامتياز.

5) إحباط المرء أمام طبيعته : التقنع الأخلاقي. —— عدم حاجة المرء إلى صيغة أخلاقية للموافقة على أحد أهوائه تعطيه المقياس الذي به يعرف، في قرارة نفسه، إلى أي حد يمكنه أن يقبل على الحياة، —— إلى أي حد يلزمه اللجوء إلى الأخلاق...

6) الموت.

161

إننا لن نغفر للمسيحية أبدا كونها أفسدت رجالا مثل باسكال. يجب أن نشن حربا شعواء على إرادة المسيحية بإلحاح شديد تحطيم النفوس الأكثر قوة ونبلا. أن لايغمض لنا جفن قبل أن يتم تدمير شيء واحد تدميرا تاما : المثل الأعلى الذي ابتكرته المسيحية للإنسان، مزاعم المسيحية بخصوص الإنسان، ما تبيحه وماترفضه لهذا الإنسان، البقية اللامعقولة من الأكذوبة المسيحية، تشابك الأفكار والمبادئ اللاهوتية، كل هذا لايعنينا في شيء ولو كا ن لامعقولا أضعافا مضاعفة لما حركنا أصبعا واحدا لنعارضه. ونحن إنما نحارب ذلك المثل الأعلى الذي، بواسطة جماله المرضي وإغرائه الأنثوي، وبفصاحته الخفية الثالبة، يبتسم لكل الجبناء، لغرور النفس الضجرة —— وللأقوياء ساعة ضجرهم كذلك —— ، وكأن كل ما قد يبدو، في مثل هذه اللحظات، نافعا أكثر ومرغوبا أكثر، الثقة، والبساطة، والتواضع، والصبر، ومحبة

الناس، ونكران الذات والخضوع لإرادة الله، والتخلي نوعا ما عن الأنا، كأن كل هذا شيء نافع ومرغوب في ذاته : وكأن ذلك السّقط الحقير، ذلك الحيوان المتوسط الفاضل، خروف القطيع، الذي يجرؤ على تسمية نفسه إنسانا، أراد ليس فقط أن يحتل مرتبة قبل صنف الرجال الأقوياء، الخبثاء ، الشرهين، الشامخين ، الأسخياء، وبذلك فهم معرضون للخطر ألف مرة، بل أن يقدم للإنسان المثل الأعلى المطلق، والهدف، والمعيار، وموضوع أسمى رغبة. لقد كانت إقامة هذا المثال حتى الآن أكثر الإغراءات التي تعرض لها الإنسان إقلاقا : لأنها كانت تهدد بالقضاء على الاستثناءات الناجحة، على الضربة الموفقة في خلق النوع البشري، على تلك الفرديات القوية، التي تحقق فيها إرادة القوة وإرادة تطوير النوع الإنساني خطوة إلى الأمام. وكان لامناص من أن تعرقل تقييمات هذا المثال نمو هؤلاء الرجال المتجاوزين للإنسان في جذوره. لأن هؤلاء الرجال يقبلون عن طيب خاطر، بسبب متطلباتهم ومهامهم العليا، حياة فيها مخاطرة (من الناحية الاقتصادية سأقول : الزيادة في تكاليف المقاولة مع احتمال كبير بعدم تحقيق النجاح). ما الذي نحاربه في المسيحية ؟— رغبتها في تحطيم الأقوياء، وتثبيط همتهم، واستغلال ساعات ضيقهم وضجرهم، وتحويل يقينهم المتعاظم إلى قلق وعذاب للضمير؛ براعتها في جعل الغرائز النبيلة مسمومة ومريضة، إلى أن تنقلب ضدها قواها وإرادتها للقوة — إلى أن يهلك الأقوياء من فرط احتقارهم لذاتهم وبسبب المعاملة القاسية التي يفرضونها على أنفسهم : هذه الطريقة البشعة في الهلاك التي يقدم لنا باسكال أشهر مثال لها.

162

كانت المسيحية دائما عرضة لانتقاد خجول، بل وخاطئ. مالم نعتبر الأخلاق المسيحية مؤامرة جوهرية ضد الحياة، فإن مهمة المدافعين عنها ستظل سهلة. وستظل مسألة «حقيقة» المسيحية — سواء بالنسبة لوجود إلهها أو للصحة التاريخية لأسطورتها الأصلية — حتى لانقول شيئا عن علم الفلك والعلم المسيحيين— مسألة ثانوية ما لم نطرح للنقاش قيمة الأخلاق المسيحية. هل للأخلاق المسيحية

قيمة، أم أنها شيء مخجل ومدنّس، رغم هالة القداسة التي يكتسيها فن الإغراء فيها؟ هناك مَعْلَمَات مختلفة بالنسبة لمسألة الحقيقة ؛ ويمكن للمؤمنين، في نهاية المطاف، أن يستخدموا منطق الكفار ليعطوا لأنفسهم الحق في إثبات بعض الأشياء—— أشياء يزعمون أنه لايمكن دحضها، لأنهم يعتقدون أنها تتجاوز طرق الدحض (—— هذا التجاوز للعقبة يسمى، مثلا، بالنقد الكانطي).

163

إنني أعتبر المسيحية أشأم كذب في الإغراء عرفته الأرض حتى اليوم، أعتبرها أكبر كذبة زنديقة : أتبين أغصان مثلها الأعلى وبراعمه الأخيرة تحت كل التقنعات الأخرى، وأرفض كل تسوية معه،، وكل المواقف المزيفة، —— وألزم نفسي بالدخول معه في حرب.

اعتبار أخلاقية العوام مقياسا لكل شيء : هذا أبشع انحطاط قدمته لنا الحضارة حتى الآن. ولايزال هذا المثال معلقا فوق رأس الإنسانية، تحت اسم «الرب» !!

164

ماكنت مسيحيا في حياتي ولولحظة : اعتبر كل مارأيته يسمى مسيحية غموضا في الكلمات جديرا بالاحتقار، وجبنا حقيقيا أمام القوى السائدة فضلا عن ذلك.

إدعاء المسيحية مع القبول بالخدمة العسكرية الإجبارية، والتصويت في الانتخابات، وحضارة الجرائد —— والتحدث في خضم هذا كله عن الـ « خطيئة»، والـ « خلاص»، والـ « ماوراء»، والـ « موت على الصليب» —— : كيف يكون العيش ممكنا وسط كل هذه التشوشات.

165

المسيحية.—— الذي يحتفظ اليوم بلبس في علاقته مع المسيحية فلن أمد له آخر أصبع من أصابعي العشرة. ليس هاهنا إلا ولاء واحد : أن نقول لا في الإرادة وفي

الفعل ... من بمقدوره أن يريني شيئا تم دحضه، شيئا حكم عليه نهائيا بلا استئناف، من طرف كل المشاعر ذات القيم الراقية، مثل المسيحية ؟ لقد أدركنا فيها الإغراء كإغراء وأدركنا الخطر الكبير، والطريق نحو العدم، التي عرفت كيف تظهر نفسها على أنها هي الطريق نحو المعبود، أدركنا أن هذه « القيم الخالدة» هي قيم افتراء—— فأي شيء آخر سيكون موضوع افتخارنا، أي شيء آخر سيميزنا أمام عشرين قرنا ؟

166

قلب المراتب . —— في وسطنا، يتحول المزيّفون الأتقياء إلى طبقة للمنبوذين—— يحلون محل الأطباء الأجانب، والمشعوذين، ومزيفي النقود، والمشعبذين : نعتبرهم هم المفسدين للإرادة، هم المفترين الذين يريدون الانتقام من الحياة، هم المتمردين بين منكودي الحظ في الحياة. وطبقة الخدم، طبقة السودار، جعلناها هي طبقتنا المتوسطة، هي «الشعب» لدينا، الطبقة التي بيدها زمام القرارات السياسية.

وفي مقابل ذلك، تتصدر الزعامة تلك الطبقة التي كانت هي طبقة المنبوذين فيما مضى : في المقام الأول هناك المُجَدِّفون، واللاأخلاقيون، والأحرار من كل صنف، والفنانون، واليهود، ولاعبو الخفة، —— الواقع أنها هي الطبقة المذمومة أكثر في المجتمع—— : لقد ارتقينا إلى مهن شريفة، بل أكثر من ذلك، نحن هم من يحدد الشرف على الأرض، وكذلك الـ «نبل»... نحن اليوم هم محامو الحياة.

لقد ألصقنا فكرة المنبوذين بالكهنة، أنبياء الماوراء وكل ما له صلة بهم، أي المجتمع المسيحي، دون أن نستثني من لهم نفس الأصل، أعني المتشائمين، والعدميين، وررمانسيي التقوى، والمجرمين، والفساق، —— كل المحيط الذي تم فيه تصور فكرة « الرب» كمخلص.

نحن فخورون بكوننا لم نعد في حاجة لأن نكون كذابين، ومفترين يثيرون الريبة حول الحياة...

II
الأخلاق كتعبير عن الانحطاط

167

نحن الشماليون (مقدمة)

أ

إن كنا، نحن الشماليين، فلاسفة،، فإني أرى أننا فلاسفة بطريقة مخالفة لما كما عليه في الماضي. لسنا أخلاقيين... إننا لانصدق مانسمعه حين نسمع رجالات الماضي يتحدثون. «هذه هي طريق السعادة !» بصيغة التعجب هذه يتسارعون إلينا، حاملين وصفة جاهزة في اليد، والفم الكهنوتي يفيض عذوبة. « ولكن فيم تهمنا السعادة؟» نجيبهم باندهاش. « هذه هي السعادة ! يعود ليقول هؤلاء القديسون الصيَّاحون المليئون

حيوية : وهذه هي الفضيلة، الطريق الجديدة إلى السعادة !» ... ولكن، من فضلكم أيها السادة، هل تظنون أننا نهتم بفضيلتكم ! لماذا إذن نتحنى ونبتعد، نحن، لماذا نصير فلاسفة، ووحيدي القرن، ودببة المغارات، وأشباحا ؟ أليس لكي نتخلص من الفضيلة ومن السعادة ؟ نحن بطبعنا سعداء جدا، وفضلاء للغاية، بحيث لانرى هناك إغراء صغيرا في كوننا نصير فلاسفة ؛ أي لا أخلاقيين ومغامرين... المتاهة تثير لدينا فضولا خاصا، ولهذا نحرص على التعرف على السيد المينوتور الذي تحكى عنه أشياء خطيرة. ما أهمية طريقكم الصاعدة، وحبلكم الذي يساعد على الخروج ! الذي يساعد على بلوغ السعادة والفضيلة ! على الوصول إليكم، أخشى أن يكون الأمر كذلك ... أتريدون إنقاذنا بحبلكم ؟ ونحن نرجوكم بإلحاح أن تشنقوا أنفسكم به ! ...

ب

ماجدوى هذا في نهاية المطاف ! ما من طريقة أخرى لإعادة السعادة إلى الفلسفة: يجب أولا شنق الأخلاقيين. مادام هؤلاء يتحدثون عن السعادة والفضيلة فإن أقصى مايفعلونه هو الدفع بالنساء العجائز إلى الفلسفة. انظروا إلى وجوه هؤلاء الحكماء المشاهير، مثلما وُجدوا منذ آلاف السنين ، إنهم كلهم عجائز، نساء بدأن يشخن، أمهات، حتى نتكلم مثل فاوست. «الأمهات ! يثرن القشعريرة ! » —— إننا نجعل من الفلسفة خطرا، نغير فكرتها، نُعلم الفلسفة على أنها مبدأ يشكل خطرا على الحياة : فكيف نستطيع أن نساعدها ؟ الإنسانية ترى قيمة الفكرة في ما تكلفها إياه. إذا لم يتورع أي أحد عن ارتكاب مذابح من أجل «الرب» و« الوطن» و«الحرية» ، وإذا كان التاريخ هو الغبار الذي يثار حول هذا النوع من التضحية —— ، فكيف ستبرهن فكرة الفلسفة عن سموها على التقييمات الشعبية مثل «الرب» و«الوطن» و«العائلة»، بخلاف كون ثمنها أغلى—— ثمنها مذابح أكبر ؟ ... وقلب كل القيم سيكون له ثمن باهظ ، أعدكم بذلك ...

جـ

البداية مَرِحَة : ومباشرة بعدها أتطرق للأمور بجدية. بهذا الكتاب أعلن الحرب

على الأخلاق، ـــــ وإني أهاجم الأخلاقيين قبل غيرهم. تعرفون مسبقا تلك الكلمة التي هيأتها لهذا الصراع، إنها كلمة لا أخلاقي؛ وتعرفون حتى عبارتي «ماوراء الخير والشر». أحتاج إلى معارضة قوية، وإلى القوة المضيئة التي هي قوة تلك الأفكار المضادة، لأسبر هاوية الحماقة والكذب التي تَسَمَّتْ حتى الآن باسم الأخلاق. القرون والشعوب، الأوائل منها والأواخر، وكذلك الفلاسفة والعجائز ـــــ جديرون ببعضهم البعض في هذا الباب. لقد كان الإنسان حتى الآن كائنا أخلاقيا بامتياز، موضوع فضول لانظير له ـــــ وبما أنه كائن أخلاقي فقد كان أكثر لا معقولية، وكذبا وغرورا، وطيشا، وإضرار بنفسه، مما قد يحلم به أي ثالب للإنسانية. الأخلاق هي أكثر أشكال إرادة الكذب دهاء، هي ساحرة الإنسانية سيرسي : وهذا بالضبط هو ما أفسدها.. ليس الخطأ كخطأ هو الذي يرعبني، وليس «النية الحسنة»، والتهذيب، واللياقة، والشجاعة الفكرية، الذي نعاني منه منذ آلاف السنين : إنه نقص الطبيعي، والواقع المرعب واقع كون مخالفة الطبيعة وقد تم تبجيلها وتشريفها تحت اسم الأخلاق، وظلت معلقة ، كقانون، فوق الإنسانية. كيف يعقل أنه لم يتم تحذير الإنسانية، منذ مدة طويلة، من هذا النوع من الخطأ الشديد الإزعاج والخطورة ؟ـــــ وأن أكون أنا أول من يحذرها ؟

... على أي شيء يدل خطأنا في عدم اتخاذ هذا الإجراء، ليس من طرف فرد أو شعب، بل من طرف الإنسانية ؟ـــــ على كوننا نعلم احتقار الغرائز الدنيا للحياة، وكوننا نرى في ضرورة النمو الحيوي، وفي حب الذات، مبدأ الخبث، وكوننا نرى من حيث المبدأ في الهدف النموذجي تناقض الغرائز، وفي الـ «إيثار»، هو فقدان نقطة الارتكاز، والتجرد من الذاتية، و«محبة القريب» قيمة سامية، بل القيمة بامتياز.

كيف ؟ أتكون الإنسانية نفسها في طريق الانحطاط ؟ هل كانت دائما منحطة ؟ الشيء الأكيد هو أن القيم السليمة التي تم تعليمها لها هي قيم الانحطاط. أخلاق نسيان الذات وأخلاق التقهقر بامتياز.ـــــ ويظل هناك احتمال واحد ممكن، هو كون سادة الإنسانية هم من في طريق الانحطاط وليس الإنسانية ! ... وما أقترحه في الواقع هو ما يلي : لقد كان السادة، قادة الإنسانية، منحطين : ومن ثمة قلب كل القيم وإكسابها معنى عدميا (معنى الـ «ماوراء»...). كانوا يسمون بالأخلاقيين، مهما تكن صفاتهم ومزاياهم،

ربما فلاسفة، أو كهنة، أو أنبياء، أو عرافين، أو قديسين : كلهم كانوا يؤمنون بالأخلاق،، وكانوا متفقين على شيء واحد، ـــ جعل الإنسانية «أفضل»...

د

ماذا كان بإمكان الأخلاقي أن يتطلب من نفسه ؟ وما هيي المهمة التي أحددها لنفسي كغاية في هذا الكتاب ؟ـــ ربما تكون هي أن أجعل الإنسانية «أفضل»، ولكن بمعنى آخر، بمعنى مضاد : أعني تخليصها من الأخلاق، ومن الأخلاقيين خاصة،ـــ أن أجعلها تعي جهلها الخطير...

استرجاع الأنانية الإنسانية ! ...

1 ـ ملاحظات عامة

168

النظرية والتطبيق. ـــ تمييز مشؤوم، وكأنه توجد هناك غريزة المعرفة التي تنقض على الحياة دون تبصر، دون الأخذ بعين الاعتبار مسألتي المنفعة والخطورة : ومنفصلا عن الغريزة يوجد عالم المنافع التطبيقية ...

ضد هذا أسعى لإظهار الغرائز التي كانت هي دوافع أولئك المنظرين الأقحاحـــ كيف أنهم، تحت سيطرة غرائزهم، انقضوا كالقدر المحتوم على شيء كان بالنسبة لهم هو الـ « حقيقة»، بالنسبة لهم فقط. صراع الأنظمة، بما في ذلك صراع اهتمامات نظرية المعرفة، هو صراع بين غرائز محددة (أشكال الحيوية والتقهقر، مختلف الطبقات والأعراف، إلخ.).

يمكن أن نرجع ما نسميه غريزة المعرفة إلى غريزة التمثل والاستعباد. وماتطورت الحواس والذاكرة والنزوات إلا لتخضع لأمر هذه الغريزة. اختزال الظواهر بأسرع مايمكن، الاقتصاد، مراكمة الثروة التي تم اكتسابها في ميدان المعرفة (أي في العالم وقد تمت حيازته وتطويعه)...

الأخلاق علم فريد لأنها شديدة القابلية للممارسة : بحيث أن وجهة نظر المعرفة الخالصة، والنزاهة العلمية يتم التخلي عنهما بمجرد ما تتطلب الأخلاق أجوبتها هي.

تقول الأخلاق : أنا في حاجة إلى أجوبة معينة، ـــ ولتأت الأسباب والحجج والإهتمامات بعد ذلك، أولا تأتي. ـــ

« كيف يجب أن نتصرف ؟ » إذا اعتقدنا أننا نواجه نموذجا في غاية التطور، تعلق به «الأمر» منذ آلاف السنين، وكل شيء فيه أصبح غريزة، ومناسبة، وتلقائية، وحتمية، فإن استعجالية هذا السؤال عن الأخلاق ستبدوا لكم هزلية.

«كيف يجب أن نتصرف ؟» لقد قامت الأخلاق دائما على سوء تفاهم : حقا، لقد أراد نوع تدفعه قدرية حميمة إلى التصرف بهذه الطريقة أن يبرر نفسه بفرض معياره كمعيار عالمي.

«كيف يجب أن نتصرف ؟ »ـــ ليس هذا سببا، بل نتيجة، الأخلاق تتبع والمثل الأعلى يأتي في النهاية.

ـــ ومن جهة أخرى يكشف ظهور الاهتمامات الأخلاقية (أو بصيغة أخرى الوعي بالقيم التي على أساسها يقوم التصرف) عن حالة مرضية : العصور القوية والشعوب التي تفيض نشاطا وقوة لاتفكر في حقوقها، ولا في المبادئ التي تكون وراء تصرفاتها، ولا في الغريزة والعقل. الوعي حين يحدث يكون علامة على أن الأخلاقية الحقيقية، أي اليقين الغريزي في الفعل، تذهب إلى الجحيم. في كل مرة يتم فيها خلق عالم جديد من الوعي يكون الأخلاقيون أمارة خلل وضعف وفوضى.ـــ الكائنات ذات الغريزية القوية تخشى منطق الواجب : نجد من بينها خصوما بيرونيين للجدل وللمعرفة عموما ... يتم دحض فضيلة بواسطة «لأجل».

أطروحة : يظهر الأخلاقيون في العصور التي يكون أمر الأخلاقية فيها قد انتهى.

أطروحة : الأخلاقي عنصر يذوب في الغريزة الأخلاقية مهما يكن النصيب الذي يظن أنه سيحصل عليه عندما يعود لحالته السابقة.

أطروحة : إن مايدفع الأخلاقي فعلا ليست هي الغرائز الأخلاقية، بل غرائز الانحطاط التي تريد، من خلال الأخلاقيين، أن تسود الأخلاق الغريزية لدى الأعراق القوية وفي العصور الفياضة بالقوة والحيوية هي :

1 - غرائز الضعفاء والمحرومين.

2 - غرائز الاستثنائيين ، والمتوحدين، والمهجَّرين من أوطانهم، والأموات جملة وتفصيلا.

3 - غرائز الذين يتألمون باستمرار، المحتاجين إلى تفسير نبيل لحالتهم، والذين عليهم، للقيام بذلك، أن يكونوا عالمين بوظائف الأعضاء شيئا ما.

169

الأخلاق كمحاولة لبث الفخر في الإنسان —— نظرية «حرية الاختيار» مضادة للدين. تريد أن تعطي للإنسان الحق في أن يجعل من نفسه سبب أوضاعه وأفعاله الراقية : إنها شكل من الشعور بالفخر المتنامي.

يشعر الإنسان بقوته، بـ «سعادة» هـ، كما يقال : ومقابل هذه الحالة لابد أن يكون لـ «إرادة» هـ دخل، وإلا فلن تكون إرادته. الفضيلة هي محاولة اعتبار عمل من أعمال الإرادة، حدث في الحاضر أو في الماضي، كسابقة ضرورية لكل شعور بالسعادة يكون ساميا وقويا : إذا كانت إرادة بعض الأفعال دائمة الحضور في الوعي فإنه يمكننا أن نتنبأ بأن شعورا بالقوة سينتج عنها .—— هذه مجرد رؤية نفسية : مع افتراضنا الخاطئ دائما أننا نملك أي شيء، اللهم إلا إذا كان هذا الشيء متخذا شكل إرادة في وعينا. عقيدة المسؤولية كلها مرتبطة بعلم النفس البسيط هذا، أعني الإرادة سبب وأنه علينا أن نعي أننا أبدينا إرادتنا لنستطيع اعتبار أنفسنا سببا.

—— هناك وسيلة أخرى لإنقاذ الإنسان من الانحطاط الذي قد يسببه إلغاء الحالات السامية والقوية، كما لو كان الأمر يتعلق بحالات غريبة، هي نظرية السُّلالة. يمكن على الأقل تفسير هذه الحالات السامية والقوية على أنها تأثير الأسلاف ؛ فبعضنا يتوقف على بعض، مادمنا متكافلين، وإننا نكبُر في أعيننا حين نتصرف حسب قانون معروف.

محاولة العائلات النبيلة التوفيق بين الدين وبين إحساسها بالكرامة.—— نفس الشيء يفعله الشعراء والعرافون؛ يشعرون بالفخر إذا اعتُبروا جديرين بمثل

تلك العلاقات مع الأسلاف، إذا ما اختيروا لربط تلك العلاقات، —— إنهم يولون أهمية لعدم الدخول في الحساب كأفراد، لأن يكونوا لسان حال فقط (هوميروس).

التصنُّع كنتيجة الأخلاق «حرية الاختيار»—— يخطو المرء خطوة إلى الأمام في تطوير الإحساس بالقوة حين يكون هو من يثير حالاته السامية (كماله)، —— وبالتالي يثبت أن له إرادة خاصة به ...

(نقد : كل عمل كامل هو عمل لاشعوري وليس مُرادا ؛ الوعي يعبر عن حالة ذاتية ناقصة ومرضية في الغالب. الكمال الفردي المشروط بالإرادة متخذة شكل الوعي، أو العقل، مع الجدل، هو صورة ساخرة، نوع من مناقضة المرء لذاته ... درجة الوعي تجعل الكمال مستحيلا... هذا واحد من أشكال التصنُّع).

الآن أصبح الإنسان يسيطر بالتدريج على كل حالاته السامية، على كل مشاعر الفخر لديه، ويستأثر بكل أفعاله وأعماله. فيما مضى كان الناس يظنون أنهم يشرفون أنفسهم حين لايعتبرون أنفسهم مسؤولين عن أفعالهم السامية، بل ينسبونها إلى الله. كان إكراه الإرادة يعتبر أنه هو من يُضفيي على فعل ما قيمته السامية : وعندها يعتبر الله هو الفاعل...

—— ثم أتت الحركة المضادة : حركة الأخلاقيين، حاملة نفس الحكم المسبق القائل بأننا لانكون مسؤولين عن شيء إلا إذا أردناه.. يتم تحديد قيمة الإنسان كقيمة أخلاقية : وبالتالي يجب أن تكون قيمته هي العلة الأولى : وبالتالي، يجب أن يكون هناك مبدأ في الإنسان، «حرية اختيار» تكون هي العلة الأولى، باعتباره إرادة، فهو غير مسؤول، —— وبالتالي فهو ليس كفئا أخلاقيا، —— إذا فالفضيلة والرذيلة تلقائيتان وآليتان....

كخلاصة : لكي يكون للإنسان احترام لنفسه يجب أن يكون قادرا كذلك على أن يصير شريرا.

إننا سنثير الشكوك حول إنسان ما إذا بلغنا أنه يحتاج إلى أسباب تجعله يظل مستقيما : ولكن الشيء الأكيد هو أننا سنتجنب معاشرته. في بعض الحالات تورط المرء كلمة «لأن» الصغيرة؛ وأحيانا تكفيه « لأن» واحدة ليبين خطأ آرائه. إذا علمنا، فيما بعد، أن فلان الطامح إلى الفضيلة يحتاج إلى أسباب خبيثة ليظل محترما، فلن يدفعنا ذلك إلى احترامه أكثر. ولكنه يذهب أبعد من ذلك، يأتي إلينا ويقول لنا : «إنك تعكر صفو أخلاقيتي بسوء نيتك أيها الكافر؛ ومادمت لاتؤمن بحججي الرديئة، أعني بالله، بما وراء يكون فيه عقاب، بحرية الاختيار، فإنك تقف حجر عثرة في طريق فضيلتي... المغزى : يجب القضاء على الكفار : فهم يحولون دون تخليق الجماهير.»

نحن اليوم نستقبل بقليل من السخرية كل طموح إلى تحديد وضع الإنسان، ونتمسك بفكرة أننا، رغم كل شيء، لانصير إلا مانحن (رغم كل شيء : أعني التربية، والتعليم، والوسط، والصدفة والحوادث). لهذا تعلمنا، فيما يخص أمور الأخلاق، أن نقلب، بطريقة عجيبة، علاقة السبب بالنتيجة، ـــ ربما لا يوجد هناك مايميزنا بتاتا من حيث الجوهر عن المؤمنين القدماء بالأخلاق. لم نعد مثلا نقول : «إذا تدهورت صحة رجل ما، من حيث وظائف أعضائه، فإن سبب ذلك هو الرذيلة.» كما لم نعد نقول : « الفضيلة تحقق الرفاهية للإنسان، تجلب له طول العمر والسعادة.» رأينا على العكس هو أن الفضيلة والرذيلة ليستا سببين، بل فقط نتيجتين. يصير المرء مستقيما لأنه مستقيم : أي لأنه ولد وهو يملك فطرة طيبة وشروطا مواتية... وإذا ولد المرء فقيرا، من أبوين بذرا كل شيء ولم يجنيا أي شيء، فإنه يكون «غير قابل للإصلاح»، أي مهيأ للسجن مع الأعمال الشاقة ولمستشفى المجانين... لم يعد بإمكاننا اليوم تصور الانحلال الأخلاقي منفصلا عن التدهور الفزيولوجي : فما الأول إلى مجموعة من أعراض الثاني : يكون المرء خبيثا حتما حين يكون مريضا... خبيثا : تعبر هذه الكلمة هنا عن بعض مظاهر العجز المرتبطة فزيولوجيا بنوع الانحلال : كضعف الإرادة، مثلا، أو الريبة أو تعددية « الشخصية»، العجز عن الاستجابة لإثارة ما و«ضبط النفس»، الإكراه أمام أي اقتراح تتقدم به إرادة أجنبية.

ليست الرذيلة سببا؛ الرذيلة نتيجة... الرذيلة تلخص، في حدود اعتباطية، بعض نتائج التدهور الفزيولوجي. ستكون المقولة العامة التي تبشر بها المسيحية —— « الإنسان خبيث» —— مبررة لو كان بوسعنا التسليم بأن النوع المتدهور قد تم اعتباره هو نوع الإنسان الطبيعي. ولكن هذا قد يكون مبالغة. الشيء الأكيد هو أن هذه المقولة يمكن أن يكون لها الحق في كل مكان تزدهر فيه المسيحية وتسود : لأنه بذلك تتم البرهنة على وجود أرضية مريضة، ومجال للتدهور.

171

نقد الإحساس الذاتي بالقيمة. —— الضمير. فيما مضى كان الناس يفكرون هكذا : الضمير يأبى هذا العمل ؛ إذا فهو عمل مشين. والواقع أن الضمير يستهجن عملا ما لأنه مستهجن منذ أمد بعيد. إنه فقط يعيد ما قد قيل : هذا العمل لايخلق قيما. الشيء الذي كان فيما مضى يجعل الناس يصممون على رفض بعض الأعمال لم يكن هو الضمير : بل الحكم (أو الحكم المسبق) المتعلق بالعواقب... موافقة الضمير، والشعور بالسعادة الذي تثيره «طمأنينة النفس»، مثلهما مثل الفرحة التي يشعر بها الفنان أمام عمله، لايبرهنان على شيئ... ليس الانشراح مقياس لتقييم الأمر الذي عنه ينبعث، كما أن الانزعاج لايمكن أن يُستخدم كحجة ضد قيمة شيء ما. لازلنا لانملك من المعرفة ما يكفي لنتمكن من تقييم أعمالنا : ينقصنا لفعل ذلك أن ننظر إليها من زاوية الموضوعية : وحين نرفض عملا ما فإننا سوف لن نكون حكما بل طرفا... المشاعر النبيلة التي تواكب الفعل لاتبرهن على قيمته بتاتا: فرغم جيشان العواطف وسموها قد ينتج الفنان عملا رديئا جدا. من الأفضل القول بأن تلك الاندفاعات خداعة : إنها تحول أنظارنا، وتغير مجرى الحكم النقدي،، وتبعدنا عن أخذ الحذر، وعن الشك في كوننا نرتكب حماقة ... إنها تصيرنا بلداء.

172

لاتزال الفكرة التي مفادها أنه من حق الإنسانية أن تنجز مهمة كبيرة، وأنها تتجه نحو هدف ما، لاتزال هذه الفكرة الغامضة والاعتباطية حديثة جدا. قد تتخلص

منها مجددا قبل أن تصبح «فكرة متسلطة»... هذه الإنسانية لاتشكل مجموعة واحدة : إنها وفرة متلاحمة من الظواهر الحيوية، التصاعدية والتنازلية، —— ليست لها مرحلة الشباب تتبعها مرحلة النضج ثم الشيخوخة. على العكس، فئاتها متمازجة ومتطابقة—— وفيي غضون بضعة آلاف من السنين قد تعرف الإنسانية أنواعا من الناس أكثر شبابا من شباب اليوم—— أما الانحطاط فيلازم كل عصور الإنسانية : كلها نجد فيها فضلات ومواد متحللة : سيرورة الحياة نفسها هي التي تجعل عناصر التقهقر والفضلات تقضي على بعضها البعض..

* * *

لما كان الحكم المسبق المسيحي هو المسيطر، لم يتم طرح هذه المسألة : فقد كان خلاص كل روح على حدة هو الذي يمنح المعنى؛ ولم تكن الزيادة أو النقصان في دوام الإنسانية يدخلان في الحسبان. كان أفضل المسيحيين يودون لو تأتي النهاية بأسرع مايمكن؛ لم يكن هناك أدنى شك بخصوص ما هو ضروري للفرد... كانت المهمة تتجلى في الحاضر بالنسبة لكل فرد، كما يجب أن تتجلى في أي مستقبل بالنسبة لرجال المستقبل : كانت القيمة، والمعنى، ودائرة القيم ثابتة، ومطلقة، وأزلية، متحدة مع الرب... وكل من يحيد عن هذا الصنف الخالد فهو كافر، وشيطاني، ومجرم...

كانت كل روح تجد في نفسها نقطة ارتكاز قيمتها : إما الخلاص أو الهلاك! خلاص الروح الأبدي ! أقصى أشكال الشخصنة... لم يكن يوجد بالنسبة لكل روح إلا كمال واحد ؛ ومثل أعلى واحد؛ وطريق خلاص واحد ... أقصى شكل من أشكال المساواة المرتبط بتكبير بصري لأهميتها تكبيرا مفرطا... الأرواح الشديدة الأهمية وحدها هي التي تدور حول نفسها في ذعر شديد...

* * *

لم يعد أحد يؤمن بهذه المظاهر السخيفة : وقد غربلنا حكمتنا بغربال الاحتقار. رغم هذا فلا يزال الناس يحافظون أشد المحافظة على العادة البصرية التي تقضي

بالبحث عن القيمة في الإنسان من خلال مقارنته مع إنسان مثالي : والحقيقة هي أنهم يحافظون بهذا على منظور الشخصنة وعلى المساواة أمام المثل الأعلى. إجمالا، إنهم يعتقدون أنهم عرفوا الشيء الذي يشكل موضوع أسمى رغبة، مقارنة مع الإنسان المثالي...

وما هذا الاعتقاد إلا نتيجة مكبَّرة للعادات السيئة التي أتى بها المثل الأعلى المسيحي : ذلك أن «طفلا مدللا» هو وحده من يمكنه أن يتصور هذا المثل الأعلى، مثلما يبدو دائما من جديد، عند كل اختبار دقيق. يعتقدون أنهم يعلمون، أولا، أن التقرب من إنسان واحد شيء مرغوب؛ وثانيا النوع الذي ينتمي إليه هذا الإنسان؛ وثالثا أن الإنسان حين يبتعد عن هذا الإنسان يتقهقر، ويصبح عائقا، ويفقد القوة والسلطة... الحلم بالأوضاع التي سيكسب فيها هذا الإنسان الكامل في صفه أكبر عدد من الناس : هذا ما لم يتجاوزه اشتراكيونا أنفسهم، دون أن نتحدث عن السادة النفعيين. —— يبدو أن هدفا يدخل في تطور الإنسان من هنا : الإيمان بالتقدم نحو المثل الأعلى، وهو الشكل الوحيد الذي نتصور عليه اليوم الهدف الذي عرفه الإنسان في تاريخه. كخلاصة : لقد تم تحويل مجيء « ملكوت الرب» إلى المستقبل، وتم وضعه على الأرض، مع إضفاء معنى إنساني عليه، —— والحقيقة هي أن ما تم فعله هو المحافظة على الإيمان بالمثل الأعلى القديم...

173

الإنسان، نوع صغير من الحيوان المتهيج الذي يملك وقتا، لحسن الحظ؛ وهو الحياة على الأرض بصفة عامة : لحظة، حدث، استثناء بلا عاقبة، شيء يظل بلا أهمية بالنسبة للطابع العام للأرض؛ والأرض نفسها، ككل كوكبة نجوم، فجوة بين عدمين، حدث غير مخطط له ، لابرهان عليه، لاتقف وراءه إرادة ولا ضمير؛ بل الضرورة المحضة، الضرورة البليدة... شيء مايثور فينا ضد هاته الطريقة في النظر إلى الأمور؛ أفعى الغرور تقول لنا بأ «كل هذا خاطئ ولاشك: لأنه يسخطنا... ألن يكون كل هذا سوى ظاهر؟ والإنسان، رغم ذلك، حتى نقول ذلك مع كانط، هو ... —— »

174

ضرورة القيم الخاطئة.ـــــ نستطيع أن ندحض حكما ببيان كونه مشروطا: ولكن هذا لايلغي ضرورة إصداره. لايمكن إبادة القيم الخاطئة بالاستدلال: مثلما لايمكن القضاء على نظرة خاطئة في عيني مريض. يجب أن ندرك ضرورة وجودها : إنها نتيجة أسباب لا علاقة لها بتاتا بالبراهين.

175

يجب أن ننظر إلى كل الأشياء التي تراكمت على أنها قد انبثقت عن هذه المثالية الأخلاقية السامية : وكيف أن كل القيم الأخرى تقريبا تبلورت حول هذا المثال.. وهو ما يبين أن هذا المثال كان مرغوبا ردحا طويلا من الزمن وبحماسة شديدة، ـــــ وأن لم يتم بلوغه : وإلا لكان خيب آمال الناس (أي لكان تلاه تقييم أكثر اعتدالا).

اعتبار القديس أقوى أصناف الإنسانية ـــــ : لقد رفعت هذه الفكرة قيمة الكمال الأخلاقي إلى عنان السماء . يجب أن نتخيل المعرفة وهي تجهد نفسها لتبين أن الإنسان الأخلاقي هو الأقوى، والأكثر ربانية.ـــــ كان الانتصار على الحواس، وعلى الشهوات يثير الخوف؛ـــــ كان الشيء المخالف للطبيعة يبدو شيئا فو طبيعيا، آتيا من العالم الماورائي...

176

الرغبة تجعل ما نريد امتلاكه يبدو أكبر مما هو ؛ وتزداد هذه الرغبة بفعل عدم تلبيتها... ـــــ أكبر الأفكار هي تلك التي نتجت عن الرغبات الجامحة الطويلة. نعطي للأشياء دائما قيمة أكبر كلما زادت رغبتنا فيها : لما أصبحت « القيم الأخلاقية» هي القيم السامية أمكننا أن نستنتج من ذلك أن المثل الأعلى الأخلاقي قد تحقق أقل من كل ما سواه (بما أنه كان يعتبر هو ما وراء كل الشرور، ووسيلة الخلاص). بحماسة لا تفتأ تتزايد عانقت الإنسانية السحاب : لقد انتهت إلى تسمية خيبة أملها وعجزها باسم «الرب»...

177

تقول الفرضية الأخلاقية التي كان هدفها هو تبرير الرب :

يجب أن يتم اقتراف الشر طوعا (وذلكي فقط لنعتقد أن الخير كذلك يجب أن يتم طوعا)، ومن جهة أخرى، أن هدف كل شر وكل معاناة هو الخلاص.

لم يكن من الواجب العودة بفكرة «الذنب» إلى العلة الأولى للعالم، أما فكرة «العقاب» فقد اعتبرت نعمة مربية، وبالتالي فعلا صادرا عن رب كريم.

كان للتقييم الأخلاقي السيادة المطلقة على ماعداه. من التقييمات؛ فقد كان الناس على يقين بأن الله لايمكن أن يكون شريرا أو يفعل شيءا مضرا؛ بمعنى أن ما كان يرتبط بكلمة الكمال هو فكرة الكمال الأخلاقي فقط.

178

لدى من تعتبر الأخلاق إرادة للقوة ؟— القاسم المشترك في تاريخ الأخلاق منذ سقراط هي محاولة جعل القيم الأخلاقية تهيمن على كل القيم الأخرى : بحيث تكون ليس فقط أدلاء الحياة وقضاتها، بل كذلك أدلاء وقضاة : 1) المعرفة ، 2) الفنون، 3) الطموحات السياسية والاجتماعية. كانت المهمة الوحيدة هي «أن نصير أفضل»، والباقي كله وسيلة لبلوغ هذا الهدف (أوتشويشا عليه، وعرقلة له، وخطرا عليه : وبالتالي تجب محاربته إلى غاية القضاء عليه ....) — هناك حركة مماثلة في الصين. وأخرى كذلك في الهند.

ماذا تعني لدى القيم الأخلاقية إرادة القوة هذه التي عرفتها الأرض حتى الآن من خلال تطورات هائلة ؟

الجواب : إنها تخفي وراءها ثلاث قوى : 1) غريزة القطيع الموجهة ضد الأقوياء والأحرار : 2) غريزة المعاني والمحروم الموجهة ضد السعداء ؛ 3) غريزة البليد الموجهة ضد الاستثنائيين.— هناك ميزة كبيرة في هذه الحركة مهما يكن قدر القسوة والبطلان والبلادة الذين ساهموا فيها (لأن تاريخ صراع الأخلاق مع غرائز الحياة الأساسية هو في حذ ذاته أكبر لا أخلاقية عرفتها الأرض حتى الآن...)

179

سيادة القيم الأخلاقية. ــــ عاقبة هذه السيادة : فساد علم النفس، إلخ.، والحتمية المرتبطة بها في كل مكان. فما دلالة هذه السيادة ؟ وعلى أي شيء تدل ؟ــــ

تدل على تأكيد أو نفي قاطعين في هذا المجال. لقد تم استخدام كل صيغ الأمر لجعل القيم الأخلاقية تبدو حتمية : لقد تم الأمر بها مدة طويلة: ــــ تبدو غريزيا وكأنها أوامر داخلية ... يتم التعبير عن شروط بقاء المجتمع من خلال كون القيم الأخلاقية تعتبر شيئا لايقبل النقاش. الممارسة : أي توصل المنفعة التي يجلبها التفاهم المتبادل بخصوص القيم السامية إلى نوع من الإقرار هنا. نرى هنا استعمالا لكل الوسائل التي قد تشل الفكر والنقد المتعلقين بهذا المجال : ــــ فما موقف كانط ! دون أن نتحدث عن أولئك القائلين بأنه من الأمور اللاأخلاقية أن نريد القيام بـ «بحوث» في هذا الميدان.

180

كيف يعقل ألا يكون للمرء احترام لنفسه إلا في علاقة مع القيم الأخلاقية، وأن يجعل كل الأشياء تابعة لهاته القيم ويقلل من شأنها، فيما يتعلق بالخير والشر، والإصلاح، وخلاص الروح، إلخ ؟ مثل هنري فردريك أميل. ماذا يعني الطبع الأخلاقي ؟ــــ أقصد من الناحية النفسية والفزيولوجية، لدى باسكال مثلا. يتعلق الأمر إذا بحالة لاتنقص فيها مزايا أخرى كبيرة، وكذلك في حالة شوبنهاور الذي كان يقدر مالايملكه، مالايستطيع أن يملكه ... ــــ أليس نتيجة لعادة التأويل الأخلاقي لأوضاع هي، في الواقع، أوضاع أنتجها الألم والكدر ؟ أليس نوعا خاصا من الإحساس الذي لايفهم سبب الأحاسيس العديدة بالكدر لديه فيظن أنه يجد لها تفسيرا من خلال فرضيات أخلاقية ؟ وبهذه الطريقة يظهر الإحساس بالسعادة والشعور بالقوة دائما من زاوية «راحة الضمير»، مشرقين بقربهما من الرب، وبالشعور بالخلاص !... إذا فصاحب الطبع الأخلاقي له قيمته الحقيقية :

1) سواء بمقارنته نفسه مع الإنسان الفاضل في المجتمع : فهو «شجاع» و«عادل»، ــــ هو حالة عادية تحظى بتقدير كبير : ملكاته ضعيفة، ولكنه في طموحاته شريف،

وصاحب ضمير حي، وحازم، ووقور، وصاحب تجربة ؛ 2) أو باعتقاده أنه يملك تلك القيمة لأنه، بشكل إجمالي، لايستطيع فهم كل تلك الأوضاع بطريقة مخالفة——، إنه يجهل نفسه، لذلك يفسر نفسه بهذه الطريقة.—— الأخلاق هي ترسيمة التفسير الوحيدة التي يمكن للإنسان في مواجهتها أن يطيق نفسه —— نوع من الأنفة ؟ ....

181

التزويرات الكبيرة التي تمت في عهد القيم الأخلاقية :—— 1) في التاريخ (بما فيه السياسة) ؛ في نظرية المعرفة ؛ 3) في الحكم على الفن والفنانين ؛ 4) في تقدير الرجال والأفعال (تقدير الشعوب والأعراق)؛ 5) في علم النفس؛ 6) في إقامة الفلسفات («النظام الأخلاقي» وما شابهه)؛ 7) في علم وظائف الأعضاء مذهب التطور («الاتقان»، تحقيق الاجتماعية»، «الانتقام»).

182

1) تزوير التاريخ، من حيث المبدأ، لجعله يعطي الدليل على التقييم الأخلاقي :

أ) انحطاط الشعب والفساد ؛

ب) ازدهار الشعب والفضيلة ؛

ج) بلوغ الشعب الأوج (« بلوغ ثقافته أوجها»)، نتيجة لسموه الأخلاقي.

2) تزوير، من حيث المبدأ، للعظماء، وللمبدعين الكبار، وللعصور.

يريدون أن يكون الإيمان هو ميزة العظماء : ولكن قلة المراعاة، والشك، والحق في التخلص من إيمان ما، والـ « لاأخلاقية» جزء من العظمة (قيصر، فردريك الكبير، نابليون، وكذلك هوميروس، أريسطوفان، ليوناردو فنتشي، غوته). يتم دائما اعتراض سبيل الشيء الجوهري لديهم، أعني «حرية الاختيار».

183

التزوير العدمي الكبير مع مهارة في سوء استعمال القيم الأخلاقية :

أ) اعتبار الحب تجردا من الشخصية؛ وكذلك الرحمة.

ب) وحده العقل، مجردا من شخصيته («الفيلسوف») يعرف الحقيقة، «الكينونة الحقيقة والجوهر الحقيقي للأشياء».

ج) العبقرية، العظماء عظماء لأنهم لايبحثون عن أنفسهم وعن قضيتهم : تكبر قيمة الإنسان بقدر مايدمر مفسه.

د) الفن، من عمل «الذات الخالصة، والإرادة الحرة»، إنكار للـ « موضوعية».

هـ) السعادة هي هدف الحياة ؛ والفضيلة هي الوسيلة لبلوغه. إدانة شوبنهاور التشاؤمية للحياة هي إدانة لاأخلاقية. إسقاط لمقاييس القطيع على مجال الغيبيات. الـ «فرد» ناقص المعنى، وبالتالي يجب أن نمنحه أصلا في « الشيء في ذاته» (ودلالة لوجوده ك « خطأ») ؛ فما الوالدان إلا «سبب عرضي».

184

الجرائم الكبيرة في علم النفس :

1 ـ تم تزوير الكدر والمصيبة بمزجهما بالجرم (الذنب)، (تم تجريد الألم من براءته) ؛

2 ـ وصمت بالعار كل مشاعر الحبور الشديد (النزق ، الشهوة ، النصر ، الفخر ، الجرأة، المعرفة ، الثقة بالنفس والسعادة في ذاتها)، تمت إثارة الشك فيها، إذ تم اعتبارها ذنبا وإغواء ؛

3 ـ أطلقت أشد الأسماء قداسة على مشاعر الضعف، على الدنيا الحميمة، على قلة الشجاعة الشخصية، لقد ألبسوها بغرابة أكثر الأسماء قداسة ليبشروا الناس بكونها مرغوبة أسمى ماتكون الرغبة :

4 ـ تم تأويل كل ما هو عظيم في الإنسان تأويلا خاطئا، ليقال بأن ذلك نكران للذات وتضحية بالنفس في سبيل شيء آخر، لأجل الأخرين؛ حتى العارف والفنان تم بشكل غادر تقديم تجردهما من الذاتية على أنه هو الدافع إلى المعرفة السامية، وإلى العلم الواسع ؛

5 ـ تم تزوير الحب ليصير هو الزهد (والإيثار)، بينهما هو في الحقيقة أخذ، ولايعطي شيئا من نفسه إلا إذا كان لديه فائض في الشخصية. وحدهم الكاملون

يستطيعون أن يحبوا؛ أما الذين تجردوا من ذاتيتهم، «الموضوعيون» فهم أسوأ المحبين (ـــ اسألوا النساء !) نفس الشيء ينطبق على حب الله أو حب الـ « وطن» : لا بد للمرء أن يستطيع الاعتماد على نفسه كلية. (الأنانية هي تقوية الأنا، والإيثار هو تقوية (اللاأنا)؛

6 - تم اعتبار الحياة عقوبة ، والسعادة إغواء، والهوى شيطانيا؛ والثقة في النفس زندقة.

علم النفس هذا هو علم نفس العرقلة، نوع من التسوير الذي يتم بدافع الخوف؛ فمن جهة، يريد العوام (المحرومون والبلداء) أن يكونوا على حذر من الأقوياء (ـــويقضوا عليهم أثناء تطورهم)، ومن جهة أخرى. يريدون أن يقدسوا فقط تلك الغرائز التي تحقق لهم أفضل ازدهار ويحافظوا عليها مبجلة. قارنوا الكهنوت اليهودي.

185

كيف، تحت ضغط الأخلاق الزهدية التي تقتضي التضحية بالذات، ثم بالضبط نكران مشاعر الحب، والطيبة والرحمة، بل حتى مشاعر العدالة، والكرم، والبطولة : موضوع أساسي.

غنى الشخصية، وكمال الذات، والوفرة والعطاء، والسعادة الفطرية وإثبات الذات هو مايشكل التضحية الكبيرة والحب الكبير: مثل هذه العواطف تصدر عن شخصانية قوية وسامية، بنفس يقين الرغبة في السيادة وفي التطاول، وبنفس اليقين الداخلي بأن لنا الحق على كل الناس. كل المشاعر المعاكسة، حسب المعنى الشائع، هي بالأحرى شعور واحد؛ وإذا لم يحافظ المرء على سجيته، حازما وشجاعا، فإنه لن يجد مايعطيه وسيكون غير ذي جدوى بأن يمديده ليحمي الغير. ويدعمه ...

كيف تم تحويل معنى هذه الغرائز إلى حد اعتبر معه الإنسان كل مايناقض ذاته ثمينا ؟ التضحية بأناه في سبيل أنا أخرى ! تبا لتلك الكذبة النفسية البئيسة التي كانت كلمتها هي العليا في الكنيسة وفي الفلسفة التي تعيث فيها الكنيسة فسادا !

إذا كان الإنسان شديد الميل لاقتراف الذنوب فإنه لايملك إلا أن يكره نفسه. ولن يكون له الحق في أن يشعر تجاه أمثاله من بني البشر بعكس مايشعر به تجاه نفسه: تحتاج محبة الناس إلى تبرير، — وهو ما نجده في كون الرب أمر بهاته المحبة، — ينتج عن ذلك أن كل الغرائز الطبيعية لدى الإنسان (نوازعه نحو الحب، إلخ) تبدو له محرمة في نفسها، وأنه لاحق له فيها، بعدما ما أكرها، إلا بمقتضى طاعته لأمر إلهي. وقد ذهب باسكال، منطقي المسيحية الرائع، إلى هذا الحد ! لنلاحظ مشاعره نحو أخته. « ألا تجعل الغيرَ يحبك»، هذا مابدا له أنه هو المسيحية.

186

مخلفات الحط من قيمة الطبيعة الإنسانية من خلال الاستعلاء الأخلاقي : قيمة الزهد، والإيثار؛ الإيمان بالجزاء في لعبة التقييدات: الإيمان بالـ «طيبة»، بل بالـ «عبقرية» وكأنهما نتيجة الزهد ؛ استمرار تدخل الكنيسة في الحياة المدنية؛ الرغبة في تجاهل التاريخ مهما كان الثمن (كما لو كان عملا تربويا من أجل غايات لاأخلاقية) أو النظر إليه بتشاؤم (هذه العقلية الأخيرة هي نتيجة الحط من قيمة الطبيعة الإنسانية ونتيجة هذا التبرير، هذا الإصرار على عدم الرغبة في رؤية مايراه المتشائم —)...

187

« الأخلاق من أجل الأخلاق». هذه درجة كبيرة في تشويه الأخلاق : إنها تبدو كقيمة أخيرة. في هذه المرحلة تأثر بها الدين : تلك هي حالة اليهودية مثلا. وهناك كذلك مرحلة تنفصل فيها عن الدين من جديد ولايبدو لها أي معبود «أخلاقيا» بما فيه الكفاية : حينها تفضل مثلا أعلى لاشخصيا... وتلك حالة عصرنا.

«الفن للفن» — مبدأ خطير كذلك : إننا بهذا نبث في الأشياء تناقضا خطيرا، — ويؤدي بنا ذلك إلى الافتراء على الواقع («أمثلة» في اتجاه القبح). حين نفصل مثلا أعلى عن الواقع فإننا نحقر هذا الواقع، ونفقره، ونفتري عليه. «الجمال من أجل الجمال»، «الحقيقة من أجل الحقيقة» « الخير من أجل الخير» — هذه ثلاثة أشكال من النظر بعين شريرة إلى الواقع.

ـــ الفن والمعرفة والأخلاق وسائل : عوض أن يروا فيها الرغبة في تكثيف الحياة أكثر ربطوها بمعارضة الحياة، بـ «الرب»، ـــ وكأنما أوحي بها من عالم علوي نستشفها من حين لآخر عبر الرب...

«الجميل والقبيح، « الحقيقي والمزيف»، « الخير والشر» ـــ هذا الفصل وهذه التناقضات تكشف شروط الوجود والتدرج، ليس فقط لدى الإنسان عامة، بل لدى أي مُركب صلب ودائم يريد الانفصال عن خصومه. الحرب التي تنشب من جراء ذلك هي النقطة الأساسية : إنها وسيلة الانفصال التي تزيد من حدة العزلة.

188

تشويه الأخلاق. ـــ يريدون الفصل بين الأفعال وبين الذين يقومون بها : يريدون جعل البغض والاحتقار ينقلبان ضد الـ «خطيئة»؛ يعتقدون أنه توجد أفعال حسنة أو سيئة في ذاتها.

إعادة الـ « طبيعة» : الفعل في ذاته مجرد تماما من أية قيمة : المهم هو أن نعرف من الفاعل.. فنفس « الجريمة» في حالة ما، ميزة كبيرة، وفي حالة أخرى فضيحة. الواقع هو أن أنانية القضاة هي التي تؤول الفعل (أو فاعله) بحسب مايصيبهم منه من منفعة أو ضرر (ـــ من حيث وجود تشابه أو اختلاف بينهم وبينه).

189

كم هو خطأ أن نقول أن قيمة فعل ما تتوقف على ما سبقه في الضمير ! ـــ فبهذا المقياس قيست الأخلاقية، بل والإجرامية...

يجب أن نقيس قيمة فعل ما من خلال عواقبه ـــ يقول النفعيون ـــ : فتقييمه تبعا لأصله تحول دونه استحالة معرفة أصله.

ولكن هل بإمكاننا معرفة عواقبه ؟ على بعد خمس خطوات على أكثر تقدير. من يستطيع أن يقول لنا ما الذي يثيره هذا الفعل، أو ما الذي ينجم عنه، أو أي شيء يثيره ضد نفسه ؟ هل يصلح كمحفز ؟ الشرارة التي تشعل فتيل مادة متفجرة ؟...

النفعيون ساذجون. ولكن، يجب أولا أن نعرف الشيء النافع : هنا أيضا لايرون أكثر من مسافة خمس خطوات ... ليست لهم أية فكرة عن الاقتصاد الكبير الذي لايستطيع الاستغناء عن الشر.

لانعرف أصله، ولانعرف عواقبه : — فهل تبقى بعد هذا من قيمة للفعل ؟

يبقى الفعل نفسه : الظواهر التي تواكبه في الضمير، إقراره أو رفضه بعد القيام به : هل تكمن قيمة الفعل في الظواهر الذاتية التي ترافقه ؟ (— سيكون هذا بمثابة قياس قيمة الموسيقى حسب ما تخلفه في نفوسنا من سرور أو كدر... حسب ما تخلفه في نفس مؤلفها...) جلي إذا أن الفعل ترافقه أحاسيس القيمة، الإحساس بالقوة، بالإكراه، بالعجز، الحرية مثلا، أو الفكر السطحي — ولنطرح السؤال بصيغة أخرى نقول : هل يمكن أن نختزل قيمة فعل ما في قيم فزيولوجية، ومعرفة ما إن كان تعبيرا عن حياة تامة أم حياة معرقلة ؟— فربما يتضمن تعبيرا عن القيمة البيولوجية للحياة...

إذا كنا لانستطيع أن نقدر قيمة الفعل من خلال أصله، ولا من خلال عواقبه، ولا من خلال الظواهر التي ترافقه، فإن قيمته تظل مجهولة...

190

«الإنسان الصالح» كطاغية... — لقد كررت الإنسانية دائما نفس الخطأ : إذ جعلت من وسيلة بلوغ الحياة مقياس الحياة ؛ وعوض أن تجد هذا المقياس في السمو بالحياة نفسها إلى أقصاها في مسألة النمو والاستنزاف، استخدمت وسائل طريقة عيش محددة، مع إقصاء كل أشكال الحياة الأخرى، باختصار، استخدمتها لتنتقد الحياة وتقوم فيها بانتقاء. وهو ما يعني أن الإنسان يجب الوسائل بسبب كونها وسائل، ولكنه ينساها كوسائل : بحيث أنها تصل الآن إلى وعيه كأهداف، كضحال غايات خاصة ... بمعنى أن صنفا معينا من الناس يعتبر شروط وجوده شروطا يجب فرضها قانونيا، يعتبرها هي الـ «حقيقة»، والـ « خير»، والـ «كمال»؛ إنه يستبد... إنه لنوع من الإيمان، ومن الفطرة، ألايفطن صنف من الناس إلى أنه صنف مشروط، وأنه نسبي

مقارنة مع أصناف أخرى. يبدو على الأقل أن أمر صنف من الناس (شعبا أو عرقا) يكون قد قضي حين يصبح هذا الصنف متسامحا ويقبل بحقوق متساوية ولايفكر مطلقا في أن يريد السيادة.

191

إذا فرضنا على أنفسنا بعض التعاليم وحرمنا بعض الأفعال، مرتكزين في ذلك على غريزة الجماعة، فإننا لانحرم، إن كان لدينا شيء من العقل، شكلا من أشكال «الكينونة»، أو « إحساسا»، وإنما فقط تيارا معينا، وممارسة معينةج لهذه «الكينونة»،من هذا «الإحساس». ويأتي إديولوجي الفضيلة، أعني الأخلاقي، ويقول : «الله عليم بذات الصدور ! فما جدوى حرمان أنفسكم من بعض الأعمال : لأن ذلك لن يجعلكم أفضل !» الجواب : سيدي الفاضل ذا الأذنين الطويلتين، إننا لا نريد بتاتا أن نكون أفضل، نحن راضون عن أنفسنا، الشيء الوحيد الذي لانريده هو إيذاء بعضنا البعض، لذلك نحرم بعض الأفعال في بعض الأوضاع، أي بالنسبة لنا، ولكننا لن نمتنع عن القيام بتلك الأعمال إذا كان من ستتم في حقهم خصوما للجماعة، أنت مثلا. إننا نربي أطفالنا على هذه التعاليم، ويشبون على هذه التربية. لو كان الذي يحركنا هو هذا التطرف الذي يرضي الرب وتنصح به غباوتكم المقدسة، لو كان بعقلنا من سوء الخلقة ما يدفعه لإدانة منبع هذه الأعمال، الـ «قلب» والـ «إحساس»، لكان ذلك إدانة لوجودنا وشرطه الأسمى — إنه إحساس، وقلب، وهوى نبجلهم غاية التبجيل. إننا بهذا نتفادى انفجار هذا الإحساس بطريقة غير مناسبة وسعيه إلى إيجاد منافذ له ، —إننا نتصرف بحكمة حين نشرع لأنفسنا هذه القوانين، إننا أخلاقيون، نحن كذلك ... ألا يخطر على بالكم كم يكلفنا ذلك، أية تضحيات، وأي انضباط، وكم من انتصارات على أنفسنا، وكم من القسوة نحتاج ؟ رغباتنا ملتهبة، وتأتي علينا لحظات نود فيها أن نضحي بأنفسنا... ولكن « الرأي العام» يستولي علينا... لاحظوا أن هذا قريب من تعريف الأخلاقية.

192

الطبيعة الأخلاقية : إرجاع القيمة الأخلاقية، الفوطبيعية، المتحررة في الظاهر، إلى «طبيعية» هاالحقيقية : أي إلى اللاأخلاقية الطبيعية، إلى «منفعة» الطبيعية، إلخ. يمكنني أن أنعت اتجاهات هذه الاعتبارات باسم المذهب الطبيعي الأخلاقي : مهمتي هي إرجاع القيم الأخلاقية، المتحررة في الظاهر، والتي فقدت طبيعتها، إلى طبيعتها الحقيقية ـــ أي إلى «لاأخلاقية»ها الطبيعية.

2 ـ كيف تُبسط سيادة الفضيلة

(مقدمة)

193

مثلا الأخلاقي الأعلى. ـــ موضوع هذه المقالة هو السياسة الكبرى التي تنهجها الفضيلة. كتبته لينتفع به الذين يهمم كثيرا أن يتعلموا، ليس كيف يصير المرء فاضلا، وإنما كيف يجعل غيره فاضلا، ـــ كيف يتم بسط سيادة الفضيلة. بل أريد كذلك أن أبين أنه لكي نريد إحداهما ـــ سيادة الفضيلة ـــ فإنه لايحق لنا أن نريد الأخرى؛ وهذا بالضبط هو ما يدفع الناس إلى التخلي عن السعي لأن يصحبوا فضلاء، التضحية كبيرة، ولكن هذا الهدف ربما يستحق تلك التضحية. وربما تضحيات أكبر! ... وقد غامر في ذلك بعض مشاهير الأخلاقيين. لأنهم قد عرفوا واستبقوا الحقيقة التي ستبشر بها هذه المقالة لأول مرة : أي كوننا لانستطيع مطلقا تحقيق سيادة الفضيلة إلا باستخدام نفس الوسائل الضرورية لتحقيق هيمنة ما، ليس من خلال الفضيلة على أية حال ....

موضوع هذه المقالة، مثلما أسفلت، هو سياسة الفضيلة : إنها تحدد مثل هذه السياسة الأعلى، وتصف هذه السياسة، تصف كيف كان عليها أن تكون لو كان لأي شيء أن يكون كاملا على وجه الأوض. والحالة أنه لن يتردد أي فيلسوف في وصف نموذج الكمال في السياسة: إنها المكيافيلية. والمكيافيلية الخالصة، الصافية، الطازجة،

الغضة، في كامل قوتها، في كامل شراستها هي شيء فو إنساني، رباني، ومتعال ؛ لايبلغها الناس أبدا، وإنما بالكاد يلامسونها. وفي هذا النوع من السياسة الضيقة، في سياسة الفضيلة، يبدو أن المثل الأعلى لم يتم تحقيقه يوما ما. إذا سلمنا بأن لنا عيونا تكشف المخبوء فإننا سنكتشف، حتى لدى الأخلاقيين الأكثر تحررا ووعيا (ـــ واسم الأخلاقيين هو الإسم المناسب الذي يجب إطلاقه على سياسيي الأخلاق هؤلاء، وعلى كل مؤسسي قوى أخلاقية جديدة)، أقول أننا سنكشف آثار كونهم هم أيضا قد أدوا ضريبة الضعف الإنساني. كلهم يطمحون للفضيلة، من جهتهم، على الأقل في ساعات تعبهم : وهذا عيب جوهري وأساسي في الأخلاق ـــ الذي من واجبه أن يكون لا أخلاقي الفعل. وحرصه على عدم إظهار أنه كذلك، فتلك مسألة أخرى. أو بالأحرى هي ليست مسألة أخرى : فمثل هذه التضحية بالنفس تشكل من حيث المبدأ (من الناحية الأخلاقية تعتبر رياء) جزءا من قانون الأخلاقي ومن الواجبات التي يفرضها على نفسه : وبدونهما لن يبلغ الكمال أبدا على طريقته.. قانونه هو التحرر من الأخلاق ومن الحقيقة، بسبب هذا الهدف الذي يعوض عن كل تضحية: بسبب سيادة الأخلاق.. يحتاج الأخلاقيون إلى مظهر الفضيلة ومظهر الحقيقة؛ وخطأهم لايبدأ إلا حين يستسلمون للفضيلة، حين يفقدون سيطرتهم عليها، حين يصيرون فاضلين، حين يصيرون حقيقيين.. يجب أن يكون الأخلاقي الكبير، من ضمن مايكونه، ممثلا هزليا كبيرا ؛ الخطر الذي يهدده هو أن يرى رياءه يتحول خفية إلى طبيعة ثانية له، وأن مثله الأعلى هو الفصل بطريقة رائعة بين جوهره وعمله : وكل مايفعله يجب أن يفعله كإنسان فاضل، ـــ كمثل أعلى سام، وبعيد المنال، وكثيرا المتطلبات ! مثل أعلى رباني ! وبالفعل يقال أن الأخلاقي يحاكي هنا نموذجا هو الرب نفسه : الرب الذي هو أكبر لا أخلاقيي العمل على الإطلاق والذي يعرف رغم ذلك كيف يحافظ على نفسه كما هو، ذلك الرب الكريم ...

194

نقد شريعة مانو. يقوم الكتاب كله على الكذب المقدس. أيكون خير الإنسانية هو الذي ألهمه هذا النظام ؟ والرجال الذين كانوا يؤمنون بالجانب المنتفع من كل عمل،

هل كانوا مهتمين أم لا بإنجاح هذا النظام ؟ الرغبة في جعل الإنسانية أفضل ــ من الذي يلهم هذا القصد ؟ ومن أين أخذت فكرة الشيء الأفضل ؟

هناك صنف من الرجال، هم صنف الرجال الكهنوتيين، يشعر بأنه هو النموذج، هو القمة، هو التجسيد السامي للنوع البشري : وبانطلاقه من نفسه يتخيل هذا الصنف فكرة الشيء « الأفضل ». إنه يؤمن بتفوقه، بل يريده بالفعل : سبب الكذب المقدس هو إرادة القوة ...

تحقيق السيادة : لهذه الغاية تجب الهيمنة على الأفكار، هذه الهيمنة التي ترسخ في رجال الكهنوت القوة في أشد أشكالها تطرفا. القوة المبنية على الكذب ــ نظرا لعدم توفرهم عليها بدنيا أو عسكريا ... الكذب المكمل للقوة، ــ هذا تصور جديد للـ «حقيقة».

نخطئ إذا سلمنا بأنه قد حدث هنا تطور لاشعوري وساذج، إنها طريقة لخداع أنفسنا ... ليس المتطرفون هم من ابتكروا أنظمة القمع التي نتخيلها في أدق تفاصيلها... التبصر الهادئ جدا هو الذي كان وراء ذلك؛ نفس التبصر الذي كان لأفلاطون حين تخيل «دولة». ــ « يجب أن نريد الوسائل حين نريد الهدف» ــ كل المشرعين كانوا على بصيرة من اختبار السياسي هذا.

لدينا النموذج القديم الذي هو آري بشكل خاص : بإمكاننا إذا أن نحمل مسؤولية الكذب المنهج الذي لم يسبق له نظير لصنف الرجال الأكثر موهبة وفطنة... لقد تمت محاكاة هذا النموذجي في كل الأماكن تقريبا : لقد أفسد التأثير الآري العالم القديم.

195

الذي يعرف كيف تولد السمعة سيرتاب حتى في السمعة التي تحظى بها الفضيلة.

196

الأخلاق هي أيضا «لا أخلاقية» مثلها مثل سائر الأشياء على سطح الأرض، الأخلاقية نفسها هي نوع من اللا أخلاقية.

العزاء الكبير الذيب نجده في هذه القناعة. يزول التناقض من الأشياء، ويتم إنقاذ الوحدة التي نجدها في كل ما يحدث.

197

بأية وسيلة تكتسب الفضيلة القوة ؟ ــ بنفس الوسائل التي يستعملها حزب سياسي : الافتراء، الريبة، التدمير الخفي للأحزاب التي تعارضه وقد سبقته لامتلاك السلطة، تغيير أسمائها بأسماء أخرى، الاضطهاد والسخرية المنظَّمين. إذن فقط بالوسائل اللاأخلاقية».

كيف تفعل الرغبة مع نفسها لتتحول إلى فضيلة ؟ ــ تغير اسمها ؛ تنكر مقاصدها بشكل منهجي؛ تتدرب على سوء فهم نفسها ؛ تتحالف مع فضائل موجودة ومعترف بها ؛ تظهر عداوة كبيرة لخصوم هذه الفضائل. إنها تسعى، إذا أمكن ذلك، إلى شراء حماية القوى المقدّسة لها ؛ يجب عليها أن تُسكر وتثير الحماس؛ يلزمها رياء المثالية ؛ أن تراهن على حزب، فإما أن تنتصر، وإما أن تهلك ... أن تصبح لا شعورية، وساذجة...

198

الزيف. ــ كل غريزة سيدة تستخدم الغرائز الأخرى كما تستخدم أداة، تجعل منهن بلا طها، وَمُحامِيها : لا تدع أحدا يدعو ها بأسمائها القبيحة : ولاتقبل ثناء آخر، اللهم إلا إذا تم في نفس الوقت الثناء عليها بطريقة غير مباشرة. حول كل غريزة سيدة يتبلور الثناء والعتاب ليصبحا نظاما ثابتا وسمة. ــ وهذا أحد أسباب الزيف.

كل غريزة تطمح إلى السيادة، ولكنها تجد نفسها ماتزال رازحة تحت نيرما، وتحتاج، لكي تتقوى وتدعم إحساسها بالكرامة، إلى استخدام كل الأسماء الجميلة وكل الفضائل المعترف بها : وهو ما يجعلها في الغالب تتجرأ على تقديم نفسها تحت اسم الـ «سيد» الذي تحاربه وتريد التحرر من سيطرته (مثلا، في ظل سيادة القيم المسيحية، الرغبة الجنسية أو الرغبة في القوة). ــ هذا هو السبب الآخر من أسباب الزيف.

في كلتا الحالتين تسودُ سذاجة تامة : لاينفذ الزيف إلى داخل الوعي. إنها لعلامة غريزة محطمة أن يرى الإنسان عنصر التحريض منفصلا عن «المجسّد» له (« القناع») — إنها علامة تناقض داخلي وعائق في طريق النصر.

الشبقية وتقنعاتها : 1) تنكرها في شكل مثالية (« أفلاطون») خاصة بالشباب، خالقة نفس الصورة التي يكبر حجمها والتي تظهر عليها المحبوبة في الحالات الخاصة؛ ترصيع ، وتكبير، وتغيير الهيأة، محيطة كل شيء بهالة اللانهائي. — 2) في ديانة المحبة: «شاب وسيم، امرأة جميلة»، رباني بطريقة ما، خطيب، خطيبة الروح —. 3) في الفن، كقوة «تزيينية» : مثلما يرى الرجل المرأة، ناسبا إليها كل المزايا الموجودة، كذلك شبقية الفنان تجمع في شيء واحد كل ما يبجله ويقدره عاليا — وهكذا يكمل شيئا (يؤمثل» هـ) تستقبل المرأة، وهي واعية بشعور الرجل نحوها، جهوده في الأمثلة بالتزين له، وبالمشية والرقص الجيدين ، بالتعبير عن أفكار دقيقة: كما أنها تلزم الحياة والحشمة والمسافة — مع يقينها الغريزي بأن ذلك سيجعل القدرة على الأمثلة لدى الرجل تزداد. (— مع الدقة المذهلة التي في غريزة المرأة فإن الحياء لايعتبر بتاتا نفاقا واعيا : فالمرأة تحزر أن العفة الساذجة والحقيقية هي التي تغري الرجل أكثر وتدفعه إلى تقديرها عاليا. لذلك نجد المرأة ساذجة بفضل دقة الغريزة التي ترشدها إلى منفعة البراءة. إنها ترغب طوعا في غض الطرف عن نفسها... يصبح التظاهر لاشعوريا هناك حيث يكون له تأثير كبير حين يكون لاشعوريا.

199

المثل الأعلى الذي يريد أن يفرض نفسه أو يحافظ على نفسه يسعى للاعتماد على : أ) أصل مفترض ؛ ب) قرابة مزعومة مع قوى مثالية موجودة من قبل ؛ ج) القشعريرة التي يثيرها الشيء الغريب، وكأن قوة لاتقبل المنازعة هي التي تتكلم ؛ د) الافتراء على المثال الخصم ؛ هـ) المذهب الكاذب الذي يتحدث عن الفائدة التي تجنى منه، مثلا : السعادة، طمأنينة النفس، السلم، أو نيل المساعدة من طرف إله قوي، إلخ. — لأجل علم نفس المثالي : كارلايل، سيلير، ميشلي.

هل بذلك يكون قد تم اتخاذ اجراءات الدفاع والمحافظة التي بواسطتها يحافظ المثل الأعلى على نفسه : هل بذلك يكون قد تم دحضه ؟ ما فعله هو أنه استخدم الوسائل التي تُحيي وتنمي كل ما هو حي، وهي كلها وسائل « لاأخلاقية».

تجربتي : كل القوى والغرائز التي بفضلها توجد الحياة والنمو محملة بلعنة الأخلاق : بما أن الأخلاق نفي للحياة. يجب القضاء على الأخلاق لتخليص الحياة.

200

أ) سبل القوة : تقديم الفضيلة الجديدة حاملة اسم الفضيلة القديمة، — إثارة الـ «اهتمام» بها (تبيان الـ «سعادة» التي تنجم عنها والعكس) ؛ في الافتراء على كل مايبدي مقاومة ؛ — استخدام المزايا والصدف من أجل تمجيدها ؛ — تحويل المناصرين لها إلى متعصبين لها، من خلال القرابين والتمييز : — الرمزية الكبيرة.

ب) القوة المتحققة 1) وسائل إجبار الفضيلة ؛ 2) وسائل إغراء الفضيلة ؛ 3). مراسيم (البلاط) الفضيلة.

201

ربط الرذيلة بشيء شاق جدا بحيث ينتهي بنا الأمر إلى الهروب من الرذيلة لنتخلص من الشيء المرتبط بها. تلك هي حالة طانهاوزر الشهيرة. فطانهاوزر، وقد أسخطته موسيقى ڤاغنر التي أفقدته صبره، لم يطق الرذيلة، حتى لدى السيدة ڤينوس (Madame Vénus) :

وفجأة بدأت تفتنه الفضيلة ؛ بدأت قيمة عذراء تورينج تتزايد، والأخطر من ذلك هو أنه تذوق حتى لحن ڤولفرام إشنباخ... 13

202

مساندوا الفضيلة. — الجشع، والرغبة في الهيمنة، والكسل، والغباوة، والخوف : كلهم يهتمون بقضية الفضيلة، لذلك نجدها راسخة كالطود.

203

نتائج الصراع : الذي يصارع عدوا يحاول، في ذهنه طبعا، أن يحوله إلى نقيضه. يسعى لأن يؤمن بنفسه إلى درجة يستطيع معها أن يملك شجاعة «القضية العادلة» (وكأن له فعلا قضية عادلة) : وكأن خصمه يحارب العقل والذوق والفضيلة... الإيمان الذي هو في حاجة إليه، كأقوى وسيلة دفاع وهجوم على الإطلاق، هو إيمانه بنفسه، ولكنه إيمان أسيء تفسيره فأعطي اسم الايمان بالله. ــ إنه لايتخيل أبدا مزايا النصر وفوائده، بل يتخيل دائما النصر بسبب النصر، متخذا اسم «انتصار الرب» ــ كل جماعة صغيرة (بل وكل فرد) تجد نفسها داخلة في صراع تحاول إقناع نفسها بما يلي: «إلى جانبنا يقف الذوق السليم، والحكم العادل، والفضيلة»... فالصراع يرغم المرء على مثل هذه المبالغة في تقديره لنفسه.

204

يميل كل مجتمع إلى الانتقاص من شأن خصومه حتى يرسم لهم صورة ساخرة ــ في خياله على الأقل ــ ويجوعهم نوعا ما. أحد أمثلة هذه الصورة الساخرة لدينا هو «المجرم». أثناء الحكم الأرستقراطي للإمبراطورية الرومانية كان اليهودي هو تلك الصورة الساخرة. بين الفنانين كان «القاضي في محكمة العمال» والـ «بورجوازي»؛ في صفوف الأتقياء كان الكافر؛ ووسط الأرستقراطيين كان الإنسان العامي. ووسط اللاأخلاقيين يصير الأخلاقي هو تلك الصورة الساخرة : وتلك، بالنسبة لي، مثلا هي حالة أفلاطون.

3 ـ القطيع

205

الأخلاق في تقييم الأعراق والطبقات. ــ إذا اعتبرنا أن الأهواء والغرائز الأساسية تجسد، لدى كل عرق وكل طبقة، بعضا من شروط وجود هذه الأعراق

والطبقات (ـــ أو على الأقل من الأوضاع التي عاشتها أمدا طويلا)، فإن طلبنا منها أن تكون فاضلة معناه أن نطلب منها :

أن تغير طبعها، وتغير سلوكها وتمحو ماضيها؛

أن تكف عن التفاضل فيما بينها؛

أن تسعى إلى التقارب من خلال تشابه حاجياتها وطموحاتها، ـــ بتدقيق أكثر: أن تهلك...

إذا فإرادة أخلاق واحدة معناه استبداد صنف بشري بكامله، الصنف الذي على مقاسه وضعت هذه الأخلاق الفريدة، على حساب الأصناف الأخرى: إنه التدمير أو التنميط لصالح الأخلاق السائدة (إما لكي لايكون هناك خطر عليها، وإما لكي تقوم هي باستغلال ذلك) . « إلغاء العبودية« ـــ هو في ظاهره ضريبة تدفع لـ «كرامة الإنسان»، وفي الواقع تدمير لصنف مختلف تماما (ـــ وبهذا يتم تقويض قيمه وسعادته ـــ).

إننا ننظر إلى مكن القوة لدى عرق أو طبقة خصمين لنا على أنه أسوأ ما فيهما وأكثر شيء شرا : لأن ذلك المكن هو مصدر الأذى بالنسبة لنا (ـــ إننا نفتري على «فضائل» ونغير أسماءها.)

إننا نعتبر إيذاءنا من طرف إنسان ما أو شعب معارضة لنا : ولكن إذا نظرنا إلى ذلك من وجهة نظرهما وجدنا أنهما يحتاجان إلينا، لأننا من أولئك الذين قد يجنوا منهما فائدة ما.

إن ضرورة الـ «أنسنة» (التي تعتقد بسذاجة بالغة أنها تملك صيغة « أي شيء هو إنساني ؟ ») هي رياء يستخدمه صنف معين من الناس ليتمكنوا من الهيمنة: تستخدمه بالتحديد غريزة معينة، هي غريزة القطيع. ـــ «المساواة بين الناس» : هي مايخفيه السعي إلى وضع عدد أكبر من الناس دائما في مستوى واحد باعتبارهم أناسا.

الـ «فائدة» بالنسبة للأخلاق العامة (حيلة : جعل الشهوتين الكبيرتين، الجشع والرغبة في السيادة، حاميتين للفضيلة.)

ماالذي يجعل رجال الأعمال من كل صنف، والناس الذين يسعون وراء الربح بشراهة، وكل من يثق في الناس ويزعم أنه موضع ثقة، في حاجة إلى الدفع بالناس نحو النمطية في الطبع والتقييمات المتماثلة : التجارة الدولية والتبادل بكل أشكاله يرغمان الناس على الفضيلة ويشتريانها بمعنى ما.

وكذلك تفعل الدولة، المجسدة للسيادة بكل أنواعها بواسطة الموظفين والجنود؛ وكذلك العلم، ليتمكن من العمل بأمانة ويدخر قواه. — وكذلك رجال الدين.

إذا فالناس يجعلون الأخلاق العامة تنتصر لأنهم يجنون منها فائدة ما؛ ولكي يضمنوا لها النصر فإنهم يحاربون اللاأخلاقية ويستعملون ضدها العنف — بأي «حق» ؟ بدون أي حق : بل طبقا لما تميله غريزة البقاء. فنفس الطبقات تستخدم اللاأخلاقية حين تكون مفيدة لها.

206

الشروط والرغبات الواجب امتداحها : — هادئ، منصف، قانع، متواضع، محترم، كله مراعاة، شجاع، عفيف، مستقيم، وفي، مؤمن، سوي، واثق، مستسلم، شفوق، مغيث، حي الضمير، بسيط، وديع، عادل، سخي، متسامح، مطيع، نزيه، غير حسود، طيب، ومثابر. —

للتمييز : إلى أي حد هي هذه المزايا مشروطة، كوسائل لبلوغ إرادة وهدف محددين («هدف خبيث» في الغالب)؛ أو كنتائج طبيعية لشغف مهيمن (العقلانية مثلا) ؛ أو كتجسيد لضرورة، أقصد كشروط وجود (مواطن مثلا، أو عبد، أو امرأة، إلخ).

كخلاصة : لاتعتبر كل هذه «حسنة» لذاتها، بل طبقا لمقياس الـ «مجتمع»، مقياس الـ «قطيع»، ، كوسيلة لبلوغ هدفهما، ضرورية للمحافظة عليهما ومساعدتهما على التقدم، وكذلك نتيجة غريزة القطيع الحقيقية لدى الفرد : فهي إذن في خدمة غريزة مختلفة في جوهرها عن شروط الفضيلة هذه. لأن القطيع في علاقته مع العالم الخارجي يكون أنانيا، قاسيا وعدوانيا، وحذرا ومفعما بروح الطغيان. الإنسان «الصالح» هو من يمكن أن نبرز لديه الخصومة : إذ يجب أن يتوفر على المزايا المضادة لمزايا القطيع.

معاداة القطيع للتراتبية : غريزته تهيئه للمساواة (يسوع المسيح). تجاه المنعزلين الأقوياء (السادة) يكون عدوانيا، وظالما، وغير رزين، وغير متحفظ،، وسفيها، وبدون مراعاة، وخسيسا، وكاذبا، ومزيِّفا، وعديم الرحمة، وكتوما، وفضوليا، ومتعطشا للانتقام.

207

تقدر غريزة القطيع الوسط على أنه أسمى وأغلى ماهنالك : المكان الذي تتواجد فيه الأغلبية ؛ وطريقة تواجدها فيه. ومن ثمة تعارض هذه الغريزة كل تراتبية تعتبر رفع الذين في الأسفل إلى الأعلى تخليا عن الأغلبية للنزول إلى الأقلية. والقطيع يعتبر المتفوقين، المتواجدين أسفل منه والمتواجدين أعلى منه على السواء، معارضين له ويشكلون خطرا عليه. والحيل التي يستخدمها مع المتفوقين الذين في الأعلى، الرجال الأقوياء، وذوو السلطة، والحكماء، والحكماء الغزيرو الإنتاج، هي إقناعهم بالقيام بدور الحراس، والرعاة، والقادة ــ الشيء الذي يجعل منهم خدامه الأوائل : وبهذه الطريقة يحول خطرا إلى نعمة. في الوسط ينعدم الخوف ؛ إذ لايتواجد فيه المرء وحده؛ ولا مكان فيه لسوء التفاهم؛ فيه المساواة؛ ولايشعر فيه المرء أن وجوده تأنيب له، بل على أنه هو الوجود الحقيقي؛ فيه يشعر الكل بالرضى. ويتم الحذر من المتفوقين ؛ فهم ينظرون إلى التفوق وكأنه ذنب.

208

نقد فضائل القطيع. ــ الخمول نشيط : 1) في الثقة، لأن الريبة تتطلب حصر الذهن، والملاحظة، والتفكير ؛ ــ 2) في التبجيل، حيث المسافة الفاصلة عن القوة كبيرة والخضوع ضروري : ولكي لايخاف فإنه يحاول أن يحب ، أن يبجل ويؤول اختلافات السلطة باختلاف الفضائل : حتى لاتصبح العلاقات مغيظة ؛ ــ 3) في معنى الحقيقة : ماهو الشيء الحقيقي ؟ يعطي التفسير الذي يتطلب أقل قدر ممكن من المجهود العقلي : والكذب، فضلا عن ذلك، يتطلب حصر الذهن ؛ ــ 4) في التعاطف : التساوي مع الآخرين، محاولة الشعور بنفس الإحساس، قبول إحساس موجود من قبل، يالها من راحة ! إنها لسلبية أمام النشاط الذي يحس

نفسه ويمارس باستمرار حقوقا يختص بها التقييم : هذا النشاط لايترك مجالا للراحة ؛ ــ 5) في هدوء الحكم وعدم انحيازه : يخشى مجهود الانفعال ويفضل أن يظل بعيدا، أن يظل «موضوعيا» ؛ ــ 6) في الوفاء : يفضل الخضوع لقانون موجود على وضع قانون لنفسه، على التأمر على نفسه وعلى الأخرين، إنها خشية القيادة: ــ الخضوع أولى من رد الفعل ؛ ــ 7) في التسامح : الخوف من ممارسة الحق، من إصدار الحكم.

209

كل المؤسسات المدنية مزينة بمظهر خادع، وكأنها من ابتكار الأخلاقية... الزواج مثلا؛ والعمل؛ والوظيفة؛ والوطن؛ والأسرة؛ والنظام؛ والقانون. وبما أنها كلها قد أنشئت من أجل صنف الرجال الضعفاء، لتحميهم من المتفوقين ومن متطلبات التفوق، فلا بد أن نجد كونها كاذبة أمرا طبيعيا.

210

هناك في التفكير المعيب والارتباط كالقن بالتقييم الأخلاقي، بنظرته للنافع والـ «ضار»، جانب إيجابي؛ إنه المنظور الضروري لمجتمع لايستطيع أن يدرك إلا النتائج المباشرة والقريبة. ــ فالدولة والسياسي أصبحا يحتاجان لطريقة في التفكير تكون مفرطة في الأخلاقية: إذ يلزمهم حساب مجموعة من الآثار الشديدة التعقيد. كما يمكننا تخيل اقتصاد عالمي تكون له آفاق بعيدة جدا بحيث تبدو معها كل هذه المتطلبات الخاصة ظالمة واعتباطية.

211

الأخلاق كوسيلة للإغراء ــ « الطبيعة طيبة، لأن الذي أوجدها رب حكيم وطيب، فمن المسؤول عن «فساد الناس إذا» ؟ الطغاة والغاوون، أي الطبقات الحاكمة، ــ يجب القضاء عليها.» هذا هو منطق روسو (وأشبه به منطق باسكال الذي يستخلص من ذلك الخطيئة الأصلية).

كما يشبه كذلك منطق لوثر. ففي كلتا الحالتين هناك بحث عن عذر من أجل طرح حاجة شرهة للحقد على شكل واجب أخلاقي وديني. الحقد على الطبقة الحاكمة يسعى لأن يتقدس...(«إسرائيل مذنبة» : فهي أساس قوة الكهنة).

ويشبهه كذلك منطق القديس بولس. فوسيلة ردود الأفعال هذه هي دائما مصلحة الرب، ومصلحة الحق، ومصلحة الإنسانية، إلخ. فيما يخص حالة المسيح، يبدو ابتهاج الشعب وكأنه سبب صلبه؛ حركة ضد حركة كهنوتية منذ البداية. حتى لدى المعادين للسامية أنفسهم نجد نفس البراعة : إفحام الخصم بالحجج الأخلاقية والاحتفاظ بدور العدالة المنتقمة.

212

«التخليص من كل ذنب»

يتحدثون عن « الظلم الكبير» الذي يتضمنه العقد الإجتماعي : وكأن ولادة هذا في ظروف مواتية، وولادة ذلك في ظروف غير مواتية يعتبر في المقام الأول ظلما؛ أو كذلك كون هذا ولد بمزايا خاصة به، بينما ولد ذاك بمزايا أخرى. والخصم الأكثر صدقا من بين هؤلاء الخصوم يعلن : «نحن، بكل مزايانا المرضية والإجرامية، لسنا سوى نتيجة حتمية للاضهاد العلماني لضعفاء من طرف الأقوياء» إنهم يلومون الطبقات الحاكمة على طبعهم. إنهم يهددون ويغضبون ويلعنون؛ يصبحون أفاضل من فرط السخط، ـــ لايريد المرء منهم أن يصبح شريرا، وغْدا دون جدوى... هذا الموقف، الذي ظهر فقط في هذا العقد الأخير، يسمى تشاؤما، حسب ما قيل لي، تشاؤم السخط. إنهم يطالبون بمحاكمة التاريخ، بتجريده من حتميته، باكتشاف المسؤولية التي تقف وراءه، وفيها سيتم اكتشاف الجناة. لأن الأمر يتعلق فعلا بالحاجة إلى جناة. المحرومون، المنحطون من كل صنف ثائرون على وضعهم ويحتاجون إلى ضحايا تشفي غليلهم للتدمير، وذلك حتى لايدمروا أنفسهم (ـــ وهو ما سيبدو معقولا في ذاته). ولكن يلزمهم ظاهر من الحق، أي نظرية تمكنهم من التخلص من عبء وجودهم،، بما أنهم مكونون بهذا الشكل ، وإلقائه على كبش فداء ما. قد يكون كبش الفداء هذا هو

الرب ـــ وهناك في روسيا كثير من الملحدين بسبب الحقد ـــ ، أو النظام الإجتماعي، أو التربية والتعليم، أو اليهود، أو النبلاء، أو بصفة عامة كل من تفوق بطريقة من الطرق. « جريمة أن يولد المرء في ظروف مواتية : لأنه بذلك يكون قد حرم الآخرين من المزايا، ووضعهم على الهامش، ودفعهم إلى الرذيلة، وحتى إلى العمل»... لا دخل لي في الأمر، أنا بئيس ! ولكن لابد أن يكون لأحد دخل في ذلك، وإلا لما كان الأمر مطاقا !»... باختصار، التشاؤم الناجم عن السخط يختلق المسؤوليات، ليثير في نفسه شعورا مفرحا ـــ الانتقام... «أحلى من العسل» كان يسميه العجوز هوميروس. ـــ

* * *

يعود عدم إسهامنا في هذه النظرية بمزيد من الذكاء، أقصد من الازدراء، إلى هذا الإرث المسيحي الذي يجري في دمنا : بحيث أننا نتساهل مع بعض الأمور فقط لأن في رائحتها شيئا قليلا من رائحة المسيحية... الاشتراكيون يستعينون بالغرائز المسيحية، وهذه هي أدق حكمة لديهم... لقد عودتنا المسيحية على تصور خرافي للـ «روح»، على «الروح الخالدة»، على جوهر الروح الفرد الذي يوجد مستقره الحقيقي في عالم بعيد والذي وقع صدفة، في ظروف معينة، بين الأشياء الأرضية، وتحول إلى «جسد» : ولكن دون أن يؤثر ذلك في كينونته أو يجعله مشروطا. ليست العلاقات الاجتماعية، وعلاقات القرابة والعلاقات التاريخية بالنسبة للروح سوى مناسبات، وربما عوائق ؛ على كل حال، الروح ليست نتاجا لكل هذا. هذه الفكرة تجعل الفرد متعاليا؛ وبارتكازه عليها يمكنه أن يكتسب أهمية بالغة. الحقيقة هي أن المسيحية هي التي حثت الفرد على تنصيب نفسه قاضيا على كل شيء، وجنون العظمة أصبح وكأنه واجب، لأنه يجب على الفرد أن يروج الواجبات أزلية ضد كل ما هو مؤقت ومشروط. ما أهمية الدولة ! ما أهمية المجتمع ؟ ما أهمية القوانين التاريخية ؟ ماأهمية علم وظائف الأعضاء ! الكلمة هنا لشيء يتجاوز الصيرورة، شيء لايتغير عبر التاريخ كله، شيء خالد ورباني : هي الروح.

ـــ هناك فكرة مسيحية أخرى، ليست أقل جنونا، قد ترسخت بعمق وتم تناقلها في جسد المعاصرة : فكرة « مساواة الأرواح أمام الله». هنا ظهر النموذج الأصلي لكل

نظريات الحقوق المتساوية: لقد تم تعليم الإنسانية في البداية أن تَتَهَجَّا بطريقة دينية جملة الإنسانية، ولاحقا تحولت هذه الجملة إلى أخلاق للإنسانية ؛ ولا عجب إن انتهى الأمر بالإنسان إلى أن يأخذ هذه الجملة مأخذ الجد، إلى استعمالها من الناحية العملية... أقصد السياسية، والديمقراطية، والاجتماعية، والتشاؤمية بدافع السخط...

* * *

غريزة الانتقام هي التي كانت تدفع الناس في كل مكان إلى البحث عن المسؤوليات. لقد ملكت غريزة الانتقام هذه زمام الإنسانية، خلال آلاف السنين، إلى حد أنها صارت تحدد الميتافزيقا، وعلم النفس، والعلوم التاريخية، والأخلاق قبل كل شيء. لقد أدخل الفكر الإنساني، في كل الأمور التي تناولها، حشرة الانتقام الضارة. وبواسطتها أمرض هذا الفكر الرب نفسه، وحرم الوجود من براءته : وذلك بإرجاع كل الوقائع إلى الإرادة، إلى مقاصد وأفعال مسؤولة. لقد تم اختلاق مذهب الإرادة أساسا. هذا التزوير المشؤوم في علم النفس كله، من أجل العقاب.

فالفائدة الاجتماعية للعقاب هي التي كانت تضمن لهذه الفكرة كرامتها وقوتها وحقيقتها. يجب البحث عن مؤسس علم النفس هذا — علم نفس الإرادة — وسط الطبقات التي بيدها العقاب، وخاصة في طبقة الكهنة المتواجدين على رأس أقدم الجماعات: فقد كانوا يريدون الاستئثار بحق الانتقام. لهذا الغرض كانوا يتخيلون الإنسان «حرا» : لهذا الغرض كان لابد من تصور كل فعل على أنه مقصود، لأن أصل كل فعل مكانه الوعي. وبهذه المقولات نفسها ندحض علم النفس القديم.

اليوم وقد دخلت أوربا في الحركة المضادة، ونحاول جاهدين، نحن الألسيونيون[14]، أن نستأصل مرة أخرى من العالم فكرة الذنب والعقاب، اليوم ونحن نتجشم عناء كبيرا لنطفئ هذه الفكرة، ونعمل بكل ما أوتينا من جدية على أن نطهر من هذا الدنس علم النفس، والأخلاق، والتاريخ، والطبيعة، والمؤسسات، والعقوبات الاجتماعية، والرب نفسه — فمن هم الذين سنعتبرهم خصومنا الطبيعيين ؟ إنهم حواريو الانتقام، والمتشائمون الساخطون بامتياز، الذين يجعلون مهمتهم هي تقديس قذارتهم بإعطائها

اسم «السخط»... أما نحن الذين نتمنى أن تستعيد الصيرورة براءتها فنريد أن نكون المبشرين بفكرة أنقى: فكرة أنه لا أحد منح للإنسان مزاياه، لا الله، ولا المجتمع، ولا الوالدين، ولا الأجداد، ولا هو نفسه، وأن خطأ وجوده لا يتحمله أي أحد... ليس هناك كائن يمكن تحميله مسؤولية وجود شخص ما، أو كون شخص ما قد خلق بهذه الطريقة أو تلك، أو كون شخص ما ولد في هاته الظروف وفي هذا الوسط. — إنه لعزاء كبير أن نعرف أنه لا وجود لمثل هذا الكائن ... أننا لسنا نتيجة قصد أزلي، نتيجة إرادة، أو رغبة، وأنه لا تتم من خلالنا محاولة تحقيق «المثل الأعلى للكمال» أو «المثل الأعلى للسعادة»، أو «المثل الأعلى للفضيلة». —بل نحن فضلا عن ذلك احتقار للرب، احتقار أصابه منه الخوف (نعرف أن العهد القديم يبدأ بهذه الفكرة). ليس هناك أي مكان أو غاية أو معنى يمكن أن نحمله وجودنا، وجودنا بهذه الطريقة أو تلك. وليس هناك، قبل هذا وذاك، شخص واحد يستطيع أن يبرئنا نحن: إننا لا نستطيع الحكم، أو القياس، أو المقارنة أو حتى إنكار المجموع ! ولم لا ؟ — لخمسة أسباب، يمكن أن يدركها كلها الأذكياء، ولو كان ذكاؤهم ضعيفا: مثلا لأنه لا يوجد شيء خارج الكل... وهذا، مرة أخرى، عزاء كبير، لأنه على براءة ذلك تقوم براءة كل ما هو موجود.

213

فكرة «فعل جدير بالعقاب» تخلق لنا متاعب. لا شيء مما يحدث عموما يمكن أن يكون في ذاته جديرا بالعقاب: لأننا لن نستطيع عزله ؛ فالأشياء كلها مرتبطة بالكل بحيث، لو أردنا إقصاء شيء ما، فسنقصي الكل في نفس الوقت. الفعل الجدير بالعقاب سيكون إذا، لو عممناه، عالما منبوذا...

ثم، في عالم منبوذ سيكون النبذ جديرا بالعقاب هو كذلك ... وعاقبة طريقة التفكير التي ترفض كل شيء ستكون ممارسةً تقبل كل شيء ... إذا كانت الصيرورة حلقة كبيرة، فكل الأشياء ستكون متساوية القيمة، وأزلية، وضرورية كذلك. —في كل الارتباطات المتبادلة بين نعم ولا، بين التفضيل والإقصاء، وبين الحب والكراهية، يتجسد منظور واحد، هو فائدة نماذج محددة من الحياة : كل ما تم التعبير عنه في ذاته كقبول.

214

ضعف حيوان القطيع يوجد أخلاقا مماثلة لتلك التي يوجدها ضعف المنحط: إنهما يتفاهمان، يتحدان (ـــديانات الانحطاط الكبيرة تعول دائما على نجدة القطيع لها). لا تظهر على حيوان القطيع أي من السمات المرضية، بل إن له قيمة لا تقدر بثمن؛ ولكن عجزه عن توجيه نفسه يجعله في حاجة ماسة إلى «راع»، ـــ وهو ما يدركه الكهنة... ليست الدولة حميمية جدا ولا منغلقة جدا: «توجيه الضمائر» يفلت منها. فما هي الأمور التي جعل فيها الكاهن حيوان القطيع مريضا ؟

215

للانحطاط تأثير كبير ولا شعوري على مثل العلم الأعلى: علم الاجتماع يبين لنا هذا الافتراض. ولكننا نؤاخذه على كونه لا يعرف عن تجربة إلا ما ينتج عن تفكك المجتمع، وهو ما يجعله حتما يأخذ غرائز التفكك لديه معيارا للحكم الاجتماعي.

الحياة الهابطة في أوربا الحالية تصوغ من تلك الغرائز مثلها الأعلى الاجتماعي: وهو شبيه غاية ما يكون الشبه بمثال الأعراق القديمة التي خلدت ذكرها في العالمين...

ومن جهة أخرى فإن غريزة القطيع ـــوهي قوة أصبحت لها السيادة الآن ـــ تختلف اختلافا جوهريا عن غريزة المجتمع الأرستقراطي: فعلى قيمة الوحدات تتوقف دلالة الكل... وعلم الاجتماع لدينا لا يعرف غريزة غير غريزة القطيع، أي غريزة الأصفار مجموعة، ـــ هناك حيث لكل صفر «حقوق متساوية» مع الآخرين هناك حيث يُعتبر فضيلة أن تكون صفرا ...

التقييم الذي يتم بواسطته اليوم الحكم على مختلف أشكال المجتمع يتطابق تماما مع التقييم الذي يمنح السلم قيمة أكبر من قيمة الحرب: ومثل هذا الحكم مضاد للحياة، بل هو نتاج الانحطاط في الحياة ... فالحياة نتيجة من نتائج الحرب، والمجتمع نفسه وسيلة للحرب... هربرت سبنسر، باعتباره عالما إحيائيا، منحط، ـــ وهو منحط كذلك كأخلاقي (يرى في انتصار الإيثار شيئا مرغوبا !!).

4 _ الأخلاق باعتبارها مخالفة للطبيعة

216

يجب أن نقدر حجم الخسائر التي تتعرض لها المؤسسات الإنسانية بمجرد ما يتم تحديد دائرة عليا، ربانية وفوأرضية، يكون من واجبها أَوَّلاً إقرار هذه المؤسسات. واعتياد الناس رؤية قيمة المؤسسات في هذا الإقرار فقط (بالنسبة للزواج مثلا) جعلهم يهمشون الكرامة الطبيعية للمؤسسة، بل ينكرونها تماما في بعض الحالات. لقد تم الحكم على الطبيعة بطريقة غير مواتية لما تم تشريف الرب المخالف للطبيعة. وهكذا أصبحت «الطبيعة» مرادفا لـ«حقير» و«خبيث».

حتمية الإيمان بواقعية المزايا الأخلاقية السامية تحت اسم الرب : لقد أدى هذا إلى إنكار كل القيم الحقيقية واعتبارها من حيث المبدأ لاَ قِيَماً. هكذا تربع المضاد للطبيعة على العرض. وبمنطق عنيد تم التوصل بطريقة مطلقة إلى وجوب إنكار الطبيعة.

217

الإحصاء الأخلاقي

القانون، الذي هو صيغة واقعية لبعض شروط بقاء جماعة ما، يحرم بعض الأفعال، التي تتم ممارستها ضد جهة معينة، خاصة حين تكون موجهة ضد الجماعة : إنه لا يحرم الإحساس الذي يلهم هذا الفعل، ـــ لأنه يحتاج إلى هذه الأفعال نفسها حين ترتكب ضد جهة مخالفة، أي ضد أعداء الجماعة. آنذاك يتدخل مثالي الأخلاق ويقول: «الله مطلع على ما في القلوب : الفعل نفسه ليس شيئا ؛ يجب استئصال إحساس العداوة من جذوره...»

يسخر الناس من هذا في الظروف العادية ؛ فقط في الظروف الاستثنائية، حين تعيش جماعة ما بعيده تماما عن الإكراه، حين تحارب من أجل وجودها، يتم الإصغاء لمثل هاته الأشياء. يتخلى الناس عن الإحساس الذي يرون فيه أي نفع لهم.

تلك هي الحالة مثلا عند ظهور بوذا، في مجتمع هادئ جدا ومصاب بإرهاق فكري شديد.

تلك كانت الحالة كذلك في الجماعة المسيحية الأولى (وكذلك في الجماعة اليهودية) التي كان شرط وجودها الأول هو المجتمع اليهودي غير السياسي بالمرة. لم تكن المسيحية لتنمو إلا على أرض اليهودية، أي وسط شعب كان قد تخلى عن حياته السياسية وتعاطى لنوع من الحياة الطفيلية وسط نظام الحكم الروماني. وتخطو المسيحية خطوة أخرى : لقد أصبح للناس الحق في أن «يصيروا ذكوريين» أكثر، — فالظروف تسمح بذلك. يتم إبعاد طبيعة الأخلاق حين يقال : «أحبوا أعداءكم»، لأنه منذ ذلك الحين يُصبح الطبع الذي يأمر بمحبة القريب وكراهية العدو فاقدا لمعناه في القانون (في الغريزة)، يجب آنذاك على محبة القريب أن تجد لنفسها أسسا جديدة (كشكل من محبة الله). حيثما يتم تقديم فكرة الله واستئصال فكرة المنفعة ؛ وحيثما يتم إنكار الأصل الحقيقي لأية أخلاق ؛ فإنه يتم كليا تدمير تبجيل الطبيعة الذي يقتضي الاعتراف بأخلاق طبيعية.

ما سبب جاذبية هذا المثل الأعلى الأبتر ؟ لَماذا لا نشمئز منه، مثلما نشمئز مثلا حين تراودنا فكرة أننا نخصي أنفسنا ؟... الجواب واضح جدا، ليس صوت المخصي هو الذي نشمئز منه، رغم البتر الأليم الذي يكون سببه ؛ على العكس، لقد أصبح هذا الصوت رخيما ... وذلك لأن الفضيلة قد تم استئصال «أعضائها الرجولية» فأصبحت لها نبرة أنثوية لم تكن لها من قبل.

إذا فكرنا، من جهة أخرى، في القسوة الفظيعة، في الأخطار والشكوك التي تواكب وجود الفضائل الرجولية وهُوَ وجود كورسيكي، بل كورسيكي من أيامنا هذه، أو وجود عربي وثني (الذي يشبه في كل خصوصياته وجود الكورسيكيين : وبعض الأناشيد العربية قد يكون نظمها كورسيكيون) — سندرك كيف أن الرجال الأشداء تحديدا هم الذين تفتنهم وَتَرُجُّهُمْ النبرات الشهوانية التي هي نبرات الـ«صلاح» والـ«طهارة» ... حين تكون التراجيديا شائعة فإن النغم الرعوي، ... والقصيدة الغزلية الريفية، ... و«الإنسان الصالح» يكون لهم تأثير.

بهذا نكون قد عرفنا كيف يظهر الـ«مثالي» (ـــ المخصي المثالي) في واقع محدد، وكيف أنه ليس مجرد إنسان غريب الأطوار ... لقد أدرك أن هذا الأمر العنيف الذي يحرم بعض الأفعال، بالنسبة لطريقته في الواقعية، ليس له معنى (لأن الغريزة التي قد تدفعه إلى الفعل قد أضعفتها قلة الممارسة، قلة الإجبار على الممارسة). يصوغ المُخصي مجموعة جديدة من شروط البقاء بالنسبة لصنف معين من الرجال: وهو في هذا واقعي. والوسائل التي تساعده على فرض تشريعه هي نفس وسائل التشريعات القديمة: الاستعانة بكل أشكال السلطة، بـ«الرب»، استخدام فكرة الـ«ذنب» والـ«عقاب»، ـــ وهو ما يعني أنه يستحوذ على كل ما في حوزة المثل الأعلى القديم، ولكنه يضيف إليه تفسير جديدا: الذنب، مثلا، يصير شيئا داخليا (على شكل تأنيب الضمير).

عمليا، يختفي هذا الصنف من الرجال بمجرد ما تزول شروط وجوده ـــ إنه نوع من سعادة قاطن الجزيرة، سعادة الطاهيتي، سعادة مثل تلك التي كان يشعر بها اليهود البسطاء في الأقاليم الرومانية. خصمهم الطبيعي الوحيد هو الأرض التي ظهروا فيها. تلك الأرض التي كان عليهم أن يصارعوها، وأن يطوروا غرائزهم الهجومية والدفاعية؛ خصومهم مناصروا المثل الأعلى القديم (ـــ هذا النوع من العداوة يمثله بشكل رائع القديس بولس فيما يتعلق بالمثل الأعلى اليهودي، ولوثر فيما يتعلق بالمثل الأعلى الكهنوتي والزهدي). أما ألطف شكل من هذه المعارضة فهو ولا شك معارضة البوذيين الأوائل: ربما يكون الشيء الذي كرسوا له أكبر قسط من العمل هو تثبيط مشاعر العداوة وإضعافها. يبدو الصراع ضد الحقد وكأنه هو المهمة الأولى للبوذية: فبهذا وحده يتم ضمان طمأنينة النفس. الاختلاف، ولكن دون ضغينة: هذا يجعلنا نحدس إنسانية ملطَّفة الطباع ومعقَّلة، ـــ نحدس قديسين...»

* * *

مهارة الإخصاء الأخلاقي. ـــ كيف يحارب الإخصاء الأخلاقي الأهواء والتقييمات الأخلاقية؟ ليس بين يديه وسائل عنيفة وجسدية، بإمكانه فقط أن يحارب بالحيلة، بخَلْبِ اللُّب، وبالكذب، باختصار، أن يحارب بالـ«عقل».

الصيغة الأولى : يستولي بشكل عام على الفضيلة لصالح مثله الأعلى ؛ وينكر المثال القديم ويجعل منه معارضا لكل مثل أعلى.

والقيام بهذا يتطلب فنا حقيقيا في الافتراء.

الصيغة الثانية : يأخذ شخصا ويحدده كمعيار عام ؛ ثم يسقط هذا الشخص في الأشياء، ووراء الأشياء، ووراء مصير الأشياء — ويسميه ربا.

الصيغة الثالثة : يعلن أن خصومه هم خصوم الرب ؛ ويختلق لنفسه الحق في إظهار الرحمة، والحق في امتلاك السلطة، والحق في اللعنة والمباركة.

الصيغة الرابعة : يقوم بتحويل مجرى كل ما ينتج عن المعارضة لمثله الأعلى من ألم وأمور مزعجة وفظيعة وقاتلة : — فالألم يأتي فيما بعد، كما يأتي العقاب بعد الذنب، حتى لدى الأنصار (ما لم يكن ذلك ابتلاء، إلخ.).

الصيغة الخامسة : يذهب إلى حد اعتبار الطبيعة معارضة لمثله الأعلى : يزعم أنه دليل على الصبر ونوعٌ من الاستشهاد أن يتحمل المرء الحياة طويلا في الطبيعة ؛ ويجتهد في أن يكون في مظهره ومواقفه ازدراء لـ«الأشياء الطبيعية».

الصيغة السادسة : يتم عرض انتصار المخالف للطبيعة، انتصار الإخصاء المثالي، انتصار عالم الأطهار والصالحين، والأبرياء، في المستقبل على أنه الغاية الأخيرة، والأمل الكبير، و«مجيء ملكوت الرب».

أتمنى أن تستمر السخرية من هذا السمو المصطنع بصنف ضئيل من الرجال، هذا الصنف الذي يجعل من نفسه مقياسا مطلقا لكل الأشياء ؟ ...

218

أصل المثل الأعلى. — فحص التربة التي ينمو عليها.

أ) الانطلاق من الأوضاع «الجمالية»، التي يبدو فيها العالم أكثر امتلاء، واستدارة، وكمالا، — إنه المثل الأعلى الوثني : هنا يسود إثبات الذات، بَدْءاً من المهرج. (يتم التخلي عن شيء من الذات —.) النموذج الأسمى : المثل الأعلى الكلاسيكي —دليل على أن الغرائز الأساسية مزدهرة. نحن من جديد أمام

الأسلوب الراقي : الأسلوب الرفيع. تجسيد «إرادة القوة» نفسها. الغريزة المُهابة كثر تجرؤ على إثبات نفسها.

ب) الانطلاق من أوضاع خاصة يبدو فيها العالم أكثر فراغا، وشحوبا، ورقة، أوضاع تأخذ فيها الـ«روحنة»، وغياب الغرائز دور الكمال، ويتم فيها تفادي كل ما هو شرس، كل ما هو حيواني بشكل مباشر، وقريب جدا منا (ـــ يحسب المرء، ويختار ـــ) : الـ«حكيم» والـ«ملاك» ؛ كهنوتي = بكر = جاهل= الخاصية الفزيولوجية لمثل هؤلاء المثاليين ـــ : المثل الأعلى الفقير الدم. في بعض الظروف، قد يكون هذا المثل الأعلى هو مثل الذين يمثلون المثل الأعلى الأول، المثال الوثني (هكذا يرى غوته في سبينوزا «قديس»هـ.

ج) الانطلاق من الأوضاع التي نتصور فيها العالم على قدر من اللامعقولية، والفقر، والخبث، وتخييب الآمال يتعذر معه أن نضمن فيه مثلا أعلى أو حتى أن نتمناه (ـــ ننفي، وندمر ـــ) : إنه إسقاط المثال على المخالف للطبيعة، على المخالف للوقائع وللمنطق؛ وضع الذي يكون حكمه كالتالي (ـــ «إفقار العالم»، نتيجة المعاناة : صرنا نأخذ ولا نعطي ـــ) سيُسمى المثال المخالف للطبيعة. (المثل الأعلى المسيحي شكل وسيط بين المثالين الثاني والثالث، وهو يسود تارة على شكل هذا وتارة على شكل ذاك.)

المُثل الثلاثة : أ) أو تقوية الحياة (ـــ وثني) ؛ ب) تلطيف الحياة (ـــ فقير الدم)؛ ج) أو نفي الحياة (ـــ مخالف للطبيعة). لا إحساس بالـ«تَأَلُّه» : في الامتلاء في أعظم أشكاله، ـــ في الاختيار الدقيق، ـــ في تدمير وإبادة الحياة ...

219

أ) النموذج المنطقي. هنا نفهم أننا لا نملك حق محاربة أنفسنا : وأنه لا يكفينا أن نقبل الألم الذي ينجم عن تلك الممارسة ؛ وأننا نحيا كلية في خضم الأحاسيس الإيجابية ؛ وأننا نقف إلى جانب خصومنا بالقول والفعل ؛ وأنه من فرط استغلال حالات الهدوء، والمعاملة بالحسنى، والمصالحة، والإغاثة، والإحسان، نفقر التربة المخصصة للحالات الأخرى ... وأننا في حاجة إلى ممارسة مستمرة. ما الذي نبلغه بذلك ؟ ـــ النموذج البوذي، أو البقرة الكاملة.

* * *

لا تتحقق وجهة النظر هذه إلا حين لا يسود أي تعصب أخلاقي، أي حين لا نكره الشر بسبب كونه شرا، بل فقط لكونه يفتح طرقا تجر علينا أضرارا (القلق، العمل، الهموم، التعقيدات، التبعية).

هذه وجهة نظر بوذية ؛ لا كراهية فيها للخطيئة، بل فكرة الـ خطيئة» غائبة عنها تماما.

* * *

ب) النموذج غير المنطقي. محاربة الشر، — الاعتقاد بأن الحرب، بسبب الخير، لا تخلف تلك النتائج الأخلاقية التي تخلفها الحرب عموما ولا تؤثر على الطبع بنفس الطريقة (هذه النتائج هي السبب في كراهية الحرب واعتبارها شرا). والحقيقة أن مثل هذه الحرب ضد الشر تفسد الطبع أكثر مما تفسده العداوة بين شخص وشخص آخر : «الشخص عموما هو الذي يأخذ من جديد، في الخيال على الأقل، مكان الخصم (الشيطان، الأرواح الشريرة، إلخ.) تنتهي حالة المراقبة والتجسس العدوانية هذه، بشأن كل ما هو خبيث فينا وقد يكون له أصل خبيث، بحالة عقلية شديدة الاضطراب والقلق : بحيث تصبح الـ«معجزة»، والانخطاف، ووجود الحل في العالم الماورائي أشياء مرغوبة الآن... النموذج المسيحي، أو المنافق البارع.

* * *

ج) النموذج الرواقي. الحزم، التحكم في النفس، الطبع الراسخ، السلم، نتيجة إرادة طويلة وعنيدة — الهدوء التام، حالة الدفاع، الحصن، الحذر الحربي — صرامة المبادئ ؛ وحدة الإرادة والعلم ؛ احترام الذات. نموذج الزاهد. الحيوان القرني الكامل.

220

يجب ألا نخلط بين نوعين من الأخلاق : أخلاق بها تدافع عن نفسها الغريزة التي ظلت تتمتع بصحة جيدة ضد الانحطاط الذي يتهيأ، — وأخلاق أخرى بها يتشكل هذا الانحطاط ؛ ويبرر نفسه ويساعد على الانحدار... الأولى غالبا ما تكون

رواقية وقاسية واستبدادية — فقد كانت الرواقية نفسها أخلاقا معرقِلة — ؛ والثانية منخطفة، وعاطفية، تقف في صفها النساء والمشاعر الجميلة.

221

تصور تراتبية الأهواء : وكأن تحكم العقل فيها شيء عادي، — بينما الأهواء أخلاقية، وخطيرة، ونصف حيوانية وكأنها ليست، طبقا للغاية منها، سوى رغبات في الشهوة.

يُحتقر الهوى:

1- حين يظهر بطريقة مستهجنة، دون أن يكون ضروريا، دون أن يكون هو الدافع :

2 - حين لا يكون قصده هو تحقيق شيء ذي قيمة سامية، لذة ما ...

إنكار الهوى والعقل، كما لو كان العقل مستقلا بذاته وليس فقط صلة وصل بين مختلف الأهواء والرغبات ؛ وكأنه ليس في كل هوى قسطه من العقل ...

222

الأخلاق الدينية. — يريد الأخلاقيون خنق الانفعال، والرغبة الكبرى، وشهوات السلطة والحب والانتقام والتملك — : يريدون خنقها واستئصالها و«تطهير» الروح منها.

يقول المنطق أن هذه الشهوات غالبا ما تسبب أضرارا فادحة، —وبالتالي فهي خبيثة، ومذمومة. على الإنسان أن يتخلص منها : ولن يكون إنسانا صالحا قبل أن يفعل ذلك.

نفس المنطق يقول : «إذا عُضْوٌ منك دفعك إلى الشر فاقلعه.» والحالة الوحيدة التي نَصح فيها مؤسس المسيحية، هذا «القروي الساذج»، تلاميذه بممارسة الجنس، وهي حالة التهيج الجنسي، فإن تبعة ذلك لم تكن هي غياب العضو فقط، بل تحول طبع الإنسان، ليصير مخصيا... كذلك الأمر بالنسبة لجنون الأخلاقي الذي، عوض أن يطلب السيطرة على الشهوات، يطلب استئصالها. استنتاجه دائما هو : لن يكون إنسانا صالحا إلا الإنسان المخصي.

هذه المنابع الكبرى للروح، فيضانات الروح هذه، التي غالبا ما تكون خطيرة ومنبعثة بعنف، يريد العقل الأخلاقي، هذا العقل الضيق والمشؤوم، أن ينضبها، عوض أن يستغل قوتها ليستعبدها ويوفرها.

223

«الإنسان الصالح»، أو فالج الطبيعة النصفي. -يرى صنف الرجال الذي ظل حيويا وقريبا من الطبيعة أنه لا يمكن الفصل بين الحب والبغض، والعرفان والانتقام، والحِلم والغضب، والفعل المؤكد والفعل النافي. يكون المرء خيِّراً، شريطة أن يعرف كيف يكون شريرا ؛ يكون شريرا لأنه، إن لم يكن كذلك، فلن يعرف كيف يكون خيرا. فما مصدر هذه الحالة المرضية إذا، هذه المذهبية المخالفة للطبيعة، التي ترفض اتجاها مزدوجا، — التي تبشر بفضيلة أسمى هي امتلاك نصف فضيلة فقط؟ ما مصدر فالج الفضيلة النصفي هذا، الذي هو ابتكار الإنسان الصالح؟ ... يُطلب من الإنسان أن يبتز الغرائز التي تمكنه من إبداء المعارضة، وإلحاق الأذى، والغضب، والمطالبة بالانتقام... ويقابل هذا التشويه تصور ثنائي لكائن خير تماما وآخر شرير تماما (الإله، والعقل، والإنسان)، ملخّصا، في الحالة الأولى، كل القوى، والمقاصد والشروط الإيجابية، وفي الأخيرة، كل الشروط والمقاصد السلبية. — بهذا يظن هذا التقييم نفسه «مثاليا» ؛ ولا يشك في كونه قد حدد هدف الشهوات السامية في تصوره للـ«خير». حين يبلغ ذروته يفكر في وضع يلغي فيه الشر كله ولا يبقى بحق إلا الصالحون. إنه لا يقر حتى كبعض الآخرين بأن الخير والشر، في هذا التعارض، مشروط واحدهما بالآخر، إنه يريد، على العكس، أن يزول الشر ويبقى الخير : للواحد الحق في الوجود، بينما الآخر لا يجب أن يوجد إطلاقا ... فما المخلوق الذي يرغب في هذا ؟ ...

لقد بذلت عبر كل العصور، وخاصة في العصور المسيحية، مجهودات مضنية لتحويل الإنسان إلى ممارسة نصف — النشاط الذي هو الـ«الخير» : واليوم أيضا قد يتعرض للتشويه والإضعاف من طرف الكنيسة، التي تعتبر هذا مطابقا للـ«أنسنة»، أو

لـ«إرادة الله»، أو لـ«خلاص الروح». يُطلب من الإنسان هنا ألا يقترف الشر، ألا يؤذي أحدا أو ينوي الإيذاء بتاتا... ولكي ينجح ذلك فإن المسيحية تأمر الناس باستئصال كل احتمالات العداوة، والقضاء على غرائز الحقد، تأمرهم بـ«طمأنينة النفس»، هذا الشر المزمن.

تنطلق هذه النزعة، التي طورها نوع خاص من الرجال، من فرضية غير معقولة: تعتبر الخير والشر واقعين متناقضين (وليس كقيم يكمل بعضها بعضا، وهو ما يستجيب للواقع)، إنها تأمر الناس بالانحياز للخير، وتطلب من الإنسان الصالح أن يتخلى عن الشر ويقاومه حتى الجذور، — وهي بهذا تنفي الحياة التي تحتوي غرائزها على الإثبات والنفي سواء بسواء. وبعيدا عن فهم هذا نجدها تحلم بالعودة إلى الوحدة، والكلية، وقوة الحياة : إنها تتخيل أنه حين تنتهي الفوضى الداخلية والاضطرابات التي تنتج عن تناقض تلك الدوافع ستتبعها حالة من الخلاص. — ربما لم توجد حتى الآن مذهبية أخطر، ولا فضيحة أكبر في علم النفس من إرادة الخير هذه : إنها تعظم الشخص المثير للاشمئزاز، الإنسان الذي ليس حرا، المرائي ؛ لقد بشرت بأنه على المرء أن يكون مرائيا ليسير في الطريق الحق المؤدي إلى الله، وبأن حياة المرائي هي الحياة الوحيدة التي يحبها الرب ...

وهنا أيضا نجد أن الحياة هي التي على حق، — الحياة التي لا تحسن التفريق بين الإثبات والنفي : ما جدوى مناداة المرء بكل ما أؤتي من قوة بأن الحرب قبيحة، ورفضه الإيذاء، ورفضه قول لا! فالناس يتحاربون رغم ذلك، لا يكف أبدا عن القيام بالحرب، عن اكتساب الأعداء، عن قول لا، عن التصرف بشكل سلبي. المسيحي، مثلا، يكره الـ«كذب» ! — وأي شيء لا يسميه كذبا ! وإيمانه بالتعارض الأخلاقي بين الخير والشر هو الذي جعله يرى العالم مليئا بأشياء كريهة تجب محاربتها باستمرار. يرى «الإنسان الصالح» نفسَه محاطا بالشر، ومهاجما من طرف الشر باستمرار، يشحذ بصره فيرى في نهاية المطاف آثار الشرفي كل ما يفعل : وهكذا ينتهي به الأمر، وهذا أمر منطقي، إلى أن يعتبر الطبيعة شريرة، والإنسان فاسدا، والصلاح نعْمة ربانية (أي مستحيلا لدى الإنسان). كخلاصة : إنه ينفي الحياة، ويتصور كيف يُدين الخير

الحياة، بوصفه قيمة سامية ... وبهذه الطريقة يجب دحض مذهبيته الخاصة بالخير والشر. ولكننا لا ندحض مرضا... وهكذا يتصور حياة أخرى ! ...

224

نقد الإنسان الصالح. — الصدق، والكرامة، والإحساس بالواجب، والعدالة، والإنسانية، والوفاء، والاستقامة، وراحة الضمير، — بهذه الكلمات الرنانة يتم إثبات المزايا وإقرارها لأنها مزايا ؟ أم أن المزايا والأحوال التي لا نبالي بها بسبب قيمتها يتم تقديرها فقط من زاوية تضفي عليها قيمة ؟ هل تكمن قيمة هذه المزايا فيها هي نفسها، أم في المنفعة والفائدة التي تنتج عنها (التي يبدو أنها تنتج عنها أو التي ننتظرها منها)؟

بديهي أنني هنا لا أقصد التعارض بين الأنا والآخر في الحكم : يتعلق الأمر بمعرفة ما إن كانت نتائج هذه المزايا هي التي يجب أن تكون لها القيمة، بالنسبة للمتصف بها، أو بالنسبة لمحيطه، أي المجتمع، والـ«إنسانية»، أم أن قيمتها هي في ذاتها ... بتعبير آخر: هل المنفعة هي التي تدفع إلى الإدانة، والردع، وإنكار المزايا المعاكسة (-النفاق، والبهتان، وسوء النية، وعدم الوفاء بالوعد، واللاإنسانية —) ؟ هل تتم إدانة جوهر هذه المزايا أم فقط نتائجها؟ — بتعبير آخر : أيكون شيئا مرغوبا ألا يكون المتصفون بهاته المزايا قد وُجدوا؟ -هذا هو ما يعتقده الناس على كل حال ... وهنا بالضبط يكمن الخطأ، قِصر نظر الأنانية الضيقة وبلادتها.

أو: أيكون شيئا مرغوبا خلق ظروف يكون فيها الامتياز للرجال العادلين، — بحيث يتم تثبيط همة الطباع والغرائز المعاكسة فتموت ببطء ؟

هذه إجمالا مسألة ذوق وجمالية : أيكون شيئا مرغوبا أن يكون صنف الرجال «الشرفاء»، أي المزعجين، قد وُجد هو وحده ؟ أي العنيدون، والفضلاء، الشجعان، والمستقيمون، والحيوانات القرناء ؟

لو قضينا، في الخيال، على الوفرة الوفيرة من «الآخرين»، فلن يعود للإنسان العادل نفسه في نهاية المطاف حق في الوجود، لن يصبح ضروريا —، وبهذا ندرك أن المنفعة هي التي رفعت مقام هذه الفضيلة التي لا تطاق.

ربما يكون العكس هو ما يجب أن نرغب فيه : خلق ظروف ينحط فيها «الإنسان العادل» إلى وضع حقير هو وضع «الأداة النافعة» — حيوان القطيع المثالي، أو راعي هذا القطيع في أفضل الأحوال : باختصار، وضع لن يكون معه في دائرة عليا تتطلب مزايا أخرى. —

225

هناك شعوب وأناس شديد و البساطة يتخيلون أن دوام الطقس الجميل شيء مرغوب فيه : ولا يزالون اليوم يعتقدون من خلال لغز الأخلاق الرمزي أن «الإنسان الصالح»، ووحده «الإنسان الصالح»، شيء مرغوب فيه — وأن مسار التطور الإنساني يجب أن يفضي إلى بقاء هذا الاتجاه -). إنها لفكرة مضادة للاقتصاد بشكل كبير، إنها قمة السذاجة، أعني التعبير عن التأثير المفرح الذي يخلفه «الإنسان الصالح» (-فهو لا يثير الخوف، ويسمح بالفتور، إنه يمنح الناس ما يمكنهم أن يأخذوه).

226

الإنسان الفاضل ينتمي إلى صنف أدنى، لأنه ليس «شخصا»، وقيمته تأتيه من كونه يطابق ترسيمة إنسانية تم تحديدها بشكل نهائي. لا تكمن قيمته في ذاته : إذ يمكن مقارنته، فإن له أمثالا، ولا يجب أن يكون فريدا.

افحصوا مزايا الإنسان الصالح. لماذا تنفعنا ؟ لأنها لا تدفعنا إلى الحرب دفعا، لأنها لا تتطلب الريبة، واتخاذ الحيطة، والخشوع والصرامة : وهكذا يَستمتع كسلنا، وطيبة نفسنا، ولامبالاتنا. هذا الإحساس بالهناء هو الذي نلقي به خارجا عنا لنسقطه على الإنسان الصالح، لنجعل منه مزية له، وقيمة.

227

أصل القيم الأخلاقية : — قيمة الأنانية تساوي القيمة الفزيولوجية للأناني.

يمثل كل فرد حظ التطور كاملا (ليس فقط كما تراه الأخلاق،) كشيء يبدأ مع الولادة) ؛ فإن كان يمثل التطور التصاعدي لخط الإنسان، فإن قيمته تكون بالفعل

غير عادية ؛ والهم الذي يثيره الحفاظ على نموه وحمايته قد يكون هائلا. (همّ وَعْد المستقبل الذي في الفرد الموفَّق يمنحه حقا غير عادي في أن يكون أنانيا.)

أما إن كان يمثل من التطور خطه التنازلي، الانحلال، التوعك المزمن، فيجب أن ينال حظا قليلا من القيمة : وأبسط أشكال العدل يقتضي أن ينتزع من الرجال الناجحين أقل ما يمكن من المكان والقوة والشمس. في هذه الحالة يكون من واجب المجتمع أن يضع للأنانية حدودا ضيقة جدا (— وقد تظهر الأنانية أحيانا بطريقة غير معقولة، ومرَضية، ومتمردة —) : سواء تعلق الأمر بأفراد أو بفئات شعبية كاملة يصيبها الضعف فتهلك. عقيدة الـ«محبة» وديانتها، التي تعرقل إثبات الذات، وديانة الصبر والخضوع والتعاون المتبادل، قولا وفعلا، قد تكون لهما قيمة كبيرة وسط هذه الفئات، حتى في عيون الحكام: لأنهما تقمعان مشاعر المنافسة والحقد والغيرة، التي هي مشاعر الذين خانهم الحظ — إنهما تريانهم حالة تجعلانها ربانية، وتقدمانها تحت اسم المثل الأعلى والتواضع والطاعة، هي حالة العبودية، والدونية، والفقر، والمرض، والقمع. وهذا يفسر سبب كون الطبقات (أو الأعراق) الحاكمة، وكذلك الأفراد، قد حافظوا باستمرار على الإعجاب بالإيثار، وبإنجيل المتواضعين، وبـ«الرب على الصليب».

سيادة التقييمات الغيرية هي نتيجة لغريزة تعمل لصالح الفاشلين. والتقييم الأكثر أهمية يحكم بما يلي : «لست أساوي شيئا كثيرا» ؛ هذا الحكم فزيولوجي محض، إنه شعور بالعجز، إنه غياب الشعور القوي الذي يؤكد القوة (في العضلات، والأعصاب، ومراكز الحركة) تتم ترجمة التقييم، حسب الثقافة الخاصة بهذه الفئات، إلى حكم أخلاقي أو ديني (وسيادة الأحكام الدينية أو الأخلاقية تكون دائما علامة ثقافة دنيا) : تسعى للعثور على أسس هناك في الدوائر التي منها وصلت فكرة الـ«قيمة» إلى معرفتها. التفسير الذي يعتقد المذنب المسيحي أنه يفهم به نفسه هو محاولة لتبرير قلة القوة وقلة الثقة في النفس : إنه يفضل أن يشعر بأنه مذنب على أن يكون شريرا. والحاجة إلى تفسير من هذا النوع تعد علامة على الانحلال. في حالات أخرى، لا يبحث المحروم عن سبب سوء حظه في الـ«ذنب» الذي ارتكبه كما يفعل

المسيحي، بل في المجتمع : كما يفعل الاشتراكي، الفوضوي، والعدمي، — وباعتبار هؤلاء وجودهم شيئا لابد أن يكون هناك مُسَبِّبٌ له فإنهم يقتربون من المسيحي الذي يعتقد أنه سيتحمل وعكته وتشوه خلقته بصورة أفضل حين يجد شخصا يجعله سبب ذلك. في كلتا الحالتين هنا تبدو غريزة الانتقام والحقد كوسيلة لتحمل الحياة، كنوع من غريزة البقاء: نفس الشيء يقال عن النظرية الغيرية وتطبيقها. وهكذا تبدو كراهية الأنانية، سواء كانت الأنانية الشخصية (لدى المسيحي) أو أنانية الآخرين (لدى الاشتراكي) كتقييم يسود فيه الانتقام ؛ وكذلك كحيلة تستخدمها روح البقاء لدى الذين يعانون بسبب زيادة مشاعر التعاون والتبادل... في الأخير، مثلما أسلفت، أرى أن تفريغ الحقد الذي يقتضي الحكم على الأنانية، ورفضها، ومعاقبتها (الأنانية الشخصية، أو أنانية الآخرين) هو أيضا يشكل غريزة البقاء لدى المحرومين. إجمالا، الإعجاب بالإيثار هو شكل خاص من الأنانية يظهر بانتظام في ظروف فزيولوجية خاصة.

حين يطالب الاشتراكي، بسخط جميل، بالـ«عدل»، و«تساوي الحقوق»، فإنه يكون تحت تأثير ثقافته غير الكافية لمعرفة سبب معاناته : كما أن هذا يشكل متعة له؛ — فلو كانت ظروفه أفضل لما رفع عقيرته بذلك : إذا لوجد متعته في شيء آخر. نفس الشيء يقال عن المسيحي : فهو يُدين الـ«عالم» ويفتري عليه ويلعنه، — ولا يستثني منه نفسه. ولكن هذا لا يعد سببا كافيا لنحمل كثرة صياحه على محمل الجد. في كلتا الحالتين نجد أنفسنا وسط مرضى يعتبرون الصراخ مفيدا لهم، والافتراء يعزيهم ويسليهم.

228

ليست الطبيعة هي التي تكون لا أخلاقية حين تقسو على المنحطين ولا ترحمهم: فتنامي الشر النفسي والأخلاقي في أوساط النوع البشري هو، على العكس، نتيجة أخلاق مرضية ومضادة للطبيعة. وحساسية العدد الأكبر من الناس مرضية ومضادة للطبيعة.

ما سبب فساد الإنسانية من الناحية الأخلاقية والفزيولوجية ؟ يموت الجسد حين يتم إتلاف عضو ما. لا يمكن أن نقول أن مصدر الحق في الإيثار هي الفزيولوجيا، ولا الحق في الحصول على النجدة، ولاتساوي المصائر : فكل هذه مساعدات للمنحطين والفاشلين.

لا يكون التضامن في مجتمع فيه عناصر عقيمة، وغير منتجة ومخربة، وهي عناصر ستكون ذريتها أكثر انحطاطا منها.

229

أمر بدافع محبة الناس. — هناك حالات يكون الإنجاب فيها جريمة : في حالة وجود مرض مزمن وفي حالة الإنهاك العصبي من الدرجة الثالثة. فما العمل في هذه الحالة ؟

يمكننا دائما أن نحاول تشجيع أصحاب هذه الحالات على العفة، مثلا بمساعدة موسيقى بارسيفال : فبارسيفال نفسه، هذا الأبله النموذجي، كانت له أسباب عديدة تدعوه لعدم الإنجاب. العقبة هنا هو كون العجز عن «ضبط» النفس (-عن الاستجابة لبعض الإثارات، لأبسط الإثارات الجنسية) جزءا من عواقب الإنهاك العام. سنكون مخطئين إذا تخيلنا ليوباردي عفيفا. إن الكاهن والأخلاقي يلعبان هنا لعبة خاسرة مسبقا؛ ومن الأفضل إحالة هؤلاء على الصيدلي. بوصف المجتمع هو السلطة الأخيرة فإن عليه أن يقوم بواجب: هناك قليل من المطالب الملحة والمطلقة التي يمكن توجيهها إليه. فالمجتمع، وكيل الحياة الكبير، يتحمل أمام الحياة مسؤولية كل حياة فاشلة، — لأنه هو كذلك يعاني منها، لذا وجب عليه منعها. في حالات عديدة يكون على المجتمع أن يمنع الإنجاب : ويمكنه أن يتخذ لأجل ذلك، بغض النظر عن الأصل والمرتبة والعقل، التدابير الإلزامية القاسية، كالحرمان من الحرية، وحتى الإخصاء في بعض الظروف. المنع الوارد في الإنجيل : «لا تقتل» يعتبر بسيطا أمام جدية المنع الحيوي الموجه للمنحطين : «لا تنجبوا !»... الحياة نفسها لا تعترف بالتضامن ولا بـ«تساوي الحقوق» بين الأطراف الصحيحة والأطراف المنحطة من جسمها : يجب إزالة هذه الأخيرة — وإلا هلك الكل. — التعاطف مع المنحطين، والمساواة في الحقوق، حتى بالنسبة للفاشلين — سيكون بمثابة لا أخلاقية كبيرة، وبمثابة رفع مخالفة الطبيعة إلى مقام الأخلاق!

230

ما أحاول التحسيس به بكل ما أوتيت من قوة :

أ) أنه ليس هناك خلط أسوأ من الذي نقوم به بين التأديب والإضعاف : وهو ما فعلناه حتى الآن ... التأديب، مثلما أراه، وسيلة لمراكمة قوى الإنسانية الخارقة، لتتمكن الأجيال من تشييد صرحها على ما عمله أسلافها — ليس ظاهريا فقط، بل باطنيا كذلك، مؤسسة نفسها عضويا على جذور الماضي بغية زيادة حجمها ...

ب) أنه خطر داهم ذلك الاعتقاد بأن الإنسانية قد تتطور في جملتها وتصبح أقوى لو أصبح الأفراد ضعفاء، ومتساوين، ويستجيبون لمعدل ما ... الإنسانية شيء مجرد : والغاية من التأديب، حتى في أشد الحالات خصوصية، لن تكون إلا الإنسان الأقوى (— غير المروَّض ضعيف، ومنحل، ومتقلب —).

231

هذه خلاصتي : الإنسان الحقيقي يمثل قيمة أعلى بكثير من قيمة الإنسان الذي قد «يأمل» تحقيقه أي مثل أعلى، مثلما تم تقديمه حتى الآن ؛ كل ما تمت الرغبة فيه بالنسبة للإنسان لم يكن إلا استطرادا سخيفا وخطيرا، أراد بواسطته صنف خاص من الرجال أن يرفع شروط بقائه ونموه إلى مرتبة قانون يحكم الإنسانية ؛ وكل رغبة من هذا الطراز حطت من قيمة الإنسان، وأضعفت قوته ويقينه في المستقبل : ينكشف اليوم بشكل جلي فقر الإنسان وعقلانيته الضعيفة حين يجري وراء تحقيق رغباته ؛ إن الملَكة التي تمكن الإنسان من تحديد القيم قد تم تطويرها بشكل بالغ الرداءة بحيث لا يؤهلها ذلك لتصبح جزءا من قيمة الإنسان الفعلية وليس فقط من القيمة «التي يرغب فيها»؛ لقد كان المثل الأعلى حتى الآن هو القوة الحقيقية الثالبة للعالم والإنسان، القوة التي نفثت على الواقع نفسها المسموم، والإغواء الكبير للمضي نحو العدم ...

III

الفلسفة كتعبير عن الانحطاط

232

نقد الفلسفة اليونانية. — ظهور الفلاسفة الإغريق منذ سقراط يعد علامة انحطاط؛ فقد أصبحت الغرائز المضادة للهلينية هي السائدة ...

الـ «سوفسطائي» يوناني تماما — وكذلك أنا كساغور، وديمقريط، والأيونيين الكبار — ، وإن كان هؤلاء يشكلون مرحلة انتقالية. أصبحت دولة المدينة تفقد إيمانها بثقافتها، التي تعتبر هي الثقافة الحقيقية الوحيدة، وبحقها في الهيمنة على المدن الدول الأخرى... يتم بينها تبادل الثقافات، أي تبادل «الآلهة»، — وبذلك يتم فقدان ميزة الآلهة الأصيلة. ويمتزج الخير والشر ذوا الأصول المختلفة ... ينمحي الحد الفاصل بينهما ... آنذاك يأتي الـ«سفسطائي»...

وفي المقابل نجد الـ«فيلسوف» رجعيا : يريد الفضيلة القديمة. يرى أسباب الانحطاط في انحطاط السلطة : يبحث عن سلطات جديدة (السفر إلى الخارج، في الثقافات الأجنبية، في الديانات الغريبة الدخيلة ...) : — يريد دولة المدينة المثالية، بعدما أكل الدهر على فكرة المدينة وشرب (تقريبا بنفس الطريقة التي حافظ بها اليهود على نفسهم كشعب لما تم استعبادهم). يهتمون بكل الطغاة : يريدون إعادة الفضيلة بالقوة القاهرة.

وشيئا فشيئا يتم تحميل مسؤولية الانحطاط لكل ما هو هليني (وأفلاطون ناكر لجميل بيريكليس وهو ميروس، والتراجيديا والبلاغة، مثلما أنكر الأنبياء جميل داود وشاول). يعتبر الانحطاط في اليونان معارضة لأسس الثقافة الهلينية : وهذا خطأ كبير

ارتكبه الفلاسفة — . النتيجة : زوال الإغريق. السبب : هو ميروس، والأسطورة، والأخلاقية القديمة، إلخ.

تطور التقييم الفلسفي المضاد للهلينية : — التأثير المصري («الحياة بعد الموت» معتبرة كحكم) ؛ — التأثير السامي («كرامة الحكيم») ؛ التأثير الفيتاغوري، والعبادات السرية والصمت، ورعب الماوراء مستخدما كوسيلة، والرياضيات : التقييم الديني كنوع من العلاقة مع الكل الكوني ؛ — التأثير الكنسي، والزهدي، والاستعلائي ؛ — التأثير الجدلي، — أتصور لدى أفلاطون دقة في الأفكار فظيعة ومتحذلقة ! انحطاط الذوق السليم الفكري : لم تعد هناك فطنة لما هو قبيح وصخّاب في كل جدل مباشر.

تمضي حركتا الانحطاط جنبا إلى جنب إلى أقصاهما :

أ) الانحطاط الموسر، اللطيف والماكر، المحب للترف والفن،

ب) التعتيم المتخذ شكل الكلام المهيج الديني والأخلاقي، والتحمل الرواقي، وإنكار الحواس على طريقة أفلاطون، تهيىء الأرضية المسيحية.

233

إلى أي حد يفسد الطبع الأخلاقي علماء النفس : لا أحد من الفلاسفة القدماء كانت له الشجاعة ليثبت نظرية الإرادة غير الحرة (أي إثبات نظرية تنفي الأخلاق) — لا أحد كانت له الشجاعة ليعرف الشيء النموذجي في الفرح بكل أشكاله («السعادة») على أنه إحساس بالقوة : لأن الفرح الذي يمنح القوة كان يعتبر لاأخلاقيا ؛ لا أحد كانت له الشجاعة ليعتبر الفضيلة نتيجة اللاأخلاقية (نتيجة إرادة القوة)، نتيجة تخدم مصلحة النوع (أو العرق، أو دولة المدينة) — (لأن إرادة القوة كانت تعتبر شيئا لا أخلاقيا.)

ليس في تطور الأخلاق كله حقيقة واحدة : وكل عناصر الأفكار التي نشتغل بها هي من وحي الخيال : كل الوقائع النفسية التي نستند عليها خاطئة ؛ وكل أشكال المنطق التي ندخلها في مملكة الكذب هذه هي مغالطات منطقية. الشيء المميز

لفلاسفة الأخلاق أنفسهم هو الغياب التام لصفاء الفكر وانضباطه : إنهم يعتبرون «المشاعر الجملية» حججا : وصدرهم المنتفخ يبدو لهم وكأن نفخة إلهية تسري فيه ... الفلسفة الأخلاقية هي المرحلة الصعبة في تاريخ العقل.

أول مثل كبير : باسم الأخلاق، وتحت رعايتها، تم ارتكاب أكبر جريمة يمكن ارتكابها، والواقع أن ذلك التصرف كان يعبر عن الانحطاط في كل وجوهه. إنني ألح في تأكيد أن كبار الفلاسفة الإغريق هم الذين يمثلون انحطاط كل القدرات الحقيقية لدى اليونانيين وأن اتجاهاتهم معدية ... تلك «الفضيلة» وقد أصبحت مجردة تماما أغوت الناس غواية كبيرة ودفعتهم لأن يصبحوا هم أنفسهم مجردين : أي لينفصلوا [عن العالم].

اللحظة رائعة : السفسطائيون يقدمون أول نقد للأخلاق، أول معرفة بها : — يضعون أغلب التقييمات الأخلاقية الواحدة جنب الأخرى ؛ — يُفهموننا أن الأخلاق كلها لها تبرير من وجهة نظرا لجدل : أي أنهم يكشفون كيف أن أصل كل أخلاق سفسطائي ولا شك ، — وهي فرضية تمت البرهنة عليها لاحقا، بأسلوب رفيع، من طرف الفلاسفة القدماء من أفلاطون (إلى كانط) ؛ — لقد وضعوا الحقيقة الأولى التي مفادها أن «الأخلاق في ذاتها»، و«الخير في ذاته» لا وجود لهما، وأن الحديث عن الحقيقة في هذا الميدان هو ضرب من الجنون. — فأين كانت النزاهة الفكرية في هاته المرحلة ؟

لقد ولدت ثقافة المرحلة التي عاش فيها بيريكليس، تماما مثلما لا يشكل أفلاطون جزءا منها : إنها تجد في هيراقليط وديمقريط، والنماذج العلمية في الفلسفة القديمة، روادا لها : وتجد امتدادها في ثقافة توسيديد الراقية. وقد كان لها الحق في نهاية المطاف ؛ فقد عمل تقدم المعرفة النفسية والأخلاقية على إحياء السفسطائيين... وعقلنا اليوم هو في أعلى درجاته عقل هيراقليط، وديمقريط، وبروتاغوراس ... بل يكفي أن نقول أنه بروتاغوري، لأن بروتاغوراس جمع في نفسه بين هيراقليط وديمقريط.

(أفلاطون، كاغليوسترو العظيم، — لنتفكر في الطريقة التي بها أبدى فيه أبيقور، وتيموت، صديق بيرون (pyrrhon)، رأيهما. — هل يكون ولاء أفلاطون فوق كل الشبهات ؟... ولكننا نملك بين أيدينا ما أراد أن يتم تعليمُه كحقيقة مطلقة، وهي أشياء لا تبدو له حتى كحقائق مشروطة : أعني الوجود الشخصي للـ«روح» وخلودها الشخصي).

234

السفسطائيون واقعيون : فهم يصوغون القيم والممارسات المألوفة لدى الناس كلهم ليرفعوها إلى مرتبة القيم، — ويملكون شجاعة معرفة لاأخلاقيتهم، وهي شجاعة خاصة بالعقول القوية...

هل نظن أن تلك المدن اليونانية الصغيرة والحرة، التي أَفْنَتْ بعضها البعض بدافع الحسد، كانت تحكمها مبادئ الإنسانية والعدل ؟ هل نلوم ثوسيديد على الخطاب الذي أجراه على لسان السفراء الأثينيين حين مفاوضتهم للميليين بشأن تدمير مدينتهم أو الاستسلام ؟

في ذلك الجو من التوتر الشديد لم يكن ليتحدث عن الفضيلة إلا مراؤون خالصون — أو منعزلون يعيشون بعيدا، أو نساك، أو جبناء فارون ومهاجرون خارج حدود الواقع ... كل الذين أنكروا ليتمكنوا من العيش. —

لقد كان السفسطائيون يونانيين : أما سقراط وأفلاطون، حين انحازا إلى جانب الفضيلة والعدالة، فقد كانا يهوديين أو شيئا لست أدري ما هو. — طريقة غوته في الدفاع عن السفسطائيين خاطئة : يريد أن يرفعهم إلى مرتبة الخيرين والوعاظ، — ولكن الشيء الذي كان يشرفهم هو عدم الممازحة بكلمات الفضيلة التي هي كلمات رنانة ...

235

السبب الكبير الذي جعل التربية تنحو منحى الأخلاق كان دائما هو إرادة التحقق من يقينية غريزة ما : بحيث أن النوايا الحسنة والوسائل الجيدة لم تحتاجا

للنفاذ إلى داخل الوعي باعتبارهما كذلك. مثلما يقوم الجندي بالتمرن فإنه على الإنسان أن يتعلم الفعل. والحقيقة هي أن هذا اللاشعور جزء من كل إتقان : فالرياضي نفسه يرج توفيقاته لاشعوريا...

ماذا يعني إذاً رد فعل سقراط الذي نصح بالجدل طريقا للفضيلة وكان يلهو برؤية أن الأخلاق لا يمكن تبريرها بطريقة منطقية ... ولكن هذا بالضبط هو ما يشكل ميزتها الحسنة، — التي بدونها لا تساوي شيئا ! ...

الزعم بأن قابلية الشيء للإثبات هو شرط القيمة الذاتية في الفضيلة يعني تفسخ الغرائز اليونانية. وكل أولئك «الفضلاء» الكبار، كل واضعي الكلمات، هم أنفسهم نماذج من التفسخ.

عمليا، هذا يعني أن الأحكام الأخلاقية قد فقدت الطبع المشروط الذي صدرت عنه والذي يضفي عليها المعنى ؛ لقد تم استئصالها من تربتها اليونانية السياسية ليتم تشويهها، مع طبع ذلك بمظهر التسامي بها. لقد تم فصل التصورين الكبيرين «صالح» و«عادل» عن شروطهما الأولى التي يشكلان جزءا منها، متخذين شكل «أفكار»، وبعد أن أَصْبَحَا حُرَّين أصبحا من الموضوعات التي يتناولها الجدل. وراءهما يتم البحث عن حقيقة، ويتم اعتبارهما جوهرين أو علامتي ذينك الجوهرين : ويُبتكر لهما عالمهما الخاص، العالم الذي أتيا منه.

كخلاصة : لقد بلغت الفضيحة أقصاها عند أفلاطون ... وأصبح من الضروري كذلك ابتكار الإنسان المجرد والكامل — الإنسان الصالح، العادل، الحكيم، الجدلي — باختصار، فَزَّاعة الفلسفة القديمة ؛ نبتة مجتثة ؛ إنسانية بدون غريزة معيَّنة أو مُنَظِّمة؛ فضيلة تتم البرهنة عليها بالحجج. ذلك هو «الفرد» غير المعقول بامتياز ! أعلى درجات مخالفة الطبيعة ...

بإيجاز، لقد كانت نتيجة تشويه القيم الأخلاقية هي خلق نموذج الإنسان المُشَوَّه، — الإنسان «الصالح»، الإنسان «السعيد»، «الحكيم». — وسقراط هو لحظة الفساد الكبير في تاريخ القيم.

مسألة سقراط. — النقيضتان : الإحساس التراجيدي، الإحساس السقراطي، — وقد قسناهماحسب قوانين الحياة.

بأي معنى يعتبر الإحساس السقراطي ظاهرة من ظواهر الانحطاط : من حيث وجود صحة قوية، وقوة كبيرة في هيأة الإنسان العالِم وفي قدراته وتحمُّله (— صحة العامي، التي يحافظ التعقل على خبثها، وروح النقد فيها، وفطنتها، وما تبقى فيها من صفات الأوغاد داخل حدودها ؛ «قبيح»).

تقبيح : السخرية من الذات، الجفاف الجدلي، الذكاء كطاغية يواجه الـ«طاغية» (الغريزة). كل شيء لدى سقراط مبالغ فيه، وغريب الأطوار، وساخر، إنه مهرج بغرائز ڤولتير. لقد اكتشف شكلا جديدا من القتال ؛ وهو أفضل من يتقن استعمال السلاح في مجتمع أثينا المتميز ؛ إنه يمثل الذكاء الراقي فقط ؛ يسميه «فضيلة» (لقد خمَّن أن في ذلك خلاصه : لم يكن حرا في أن يكون ذكيا، لقد كان لزاما عليه) ؛ على المرء أن يكون سيد نفسه ليدخل الصراع وهو مسلح بالحجج وليس بالهوى (— حيلة سبينوزا، — التمهيد ببطء للقول بخطأ الأهواء) ؛ عليه اكتشاف كيف نَتَوَصَّلُ إلى إغراء كل الذين نفتنهم، واكتشافه أن الهوى ينهج طريقة غير منطقية ؛ واعتياده السخرية من نفسه، وذلك لكي يسيء إلى إحساس الحقد في جذوره.

إنني أسعى لأن أدرك من أية حالة جزئية ومزاجية يمكن أن نستقرئ مسألة سقراط، وتحديده لماهية العقل والفضيلة والسعادة. لقد فتن الناس بنظريته غير المعقولة هذه : حتى أن الفلسفة القديمة لم تعد قادرة على التخلص منها.

نجد لدى سقراط غيابا تاما للاهتمام الموضوعي ؛ وكراهية العلم ؛ وخاصية اعتبار نفسه قضية. كما أنه كان يتوهم سماع أشياء، وذلك عنصر مرضي. إنه لأمر منفر أن يشتغل الأمر بالأخلاق حين يكون له عقل غني ومتحرر. فما الذي جعل سقراط مهووسا بموضوع الأخلاق فقط ؟ — في حالات الضرورة تأتي الفلسفة «العملية» في المقام الأول. وحين يصبح الدين والأخلاق موضوع الاهتمام الرئيسي فإنهما يكونان علامة حالة الضرورة.

اعتبار الذكاء، والوضوح، والقسوة والمنطق أسلحة تستعمل ضد همجية الغرائز.

لا شك أن هذه الغرائز مصدر تهديد وخطر وإلا لكان شيئا سخيفا تطوير الذكاء إلى أن يصير طاغية. — ولكي نجعل من العقل طاغية يجب أن تكون الغرائز طواغيت. هذه هي المشكلة.

وقد كان هذا موضوع الساعة آنذاك.

الحل : لقد كانت للفلاسفة الإغريق نفس التجارب الباطنية التي لسقراط : على مرمى حجر من الإفراط، من الفوضى، ومن الفجور، — وكلهم رجال الانحطاط. إنهم يعتبرون سقراط طبيبا : المنطق بالنسبة لهم هو إرادة القوة، وإرادة ضبط النفس، وإرادة «السعادة». همجية الغرائز وفوضاها لدى سقراط دليلان على الانحطاط. وكذلك تحميل العقل والمنطق ما لا يطيقان. وهما شيئان غير طبيعيين، لأن أحدهما يتعلق بالآخر.

نقد : نضمن الانحطاط في هذا الانشغال بـ«السعادة» (أي بـ«خلاص الروح» وهو حالةُ خطر). التعصب الذي يميز اهتمامهُ بـ«السعادة» يكشف الشيء المرضي في الموضوع : لقد كان ذلك مصلحة حيوية.

إن لم تكن عاقلا تهلك، ذلك هو الخيار الذي كانوا أمامه جميعا. تُظهر أخلاقية الفلاسفة الإغريق أنهم كانوا يشعرون بخطر يتهددهم...

لماذا كان كل ذلك رياء. — لقد كان في مقدور علم النفس البدائي الذي لم يكن يَعُد لدى الإنسان إلا لحظاته الواعية (باعتبارها أسبابا)، والذي كان يعتبر الوعي صفة للروح، ويبحث عن إرادة (أي عن قصد) وراء كل فعل — كان في مقدوره أن يجيب ببساطة، أولا : ماذا يريد الإنسان ؟ الجواب : السعادة (لم يكن الناس يجرؤون على أن يقولوا الـ«قوة» : لأن ذلك سيكون لاأخلاقيا ؛ وبناء عليه، فإن الإنسان يقصد بكل فعل يقوم به أن يحقق السعادة، وثانيا إذا لم يحقق الإنسان السعادة، فما السبب في ذلك ؟ إنها الأخطاء التي يرتكبها بخصوص الوسائل، — ما هي الوسيلة

المضمونة لبلوغ السعادة؟ الجواب : هي الفضيلة. — ولماذا الفضيلة ؟ — لأنها أعلى درجات الحكمة ولأن الحكمة تجعل الخطأ بشأن الوسائل مستحيلا ؛ باعتبار الفضيلة عقلا فهي طريق السعادة. والجدل هو ما تشتغل به الفضيلة باستمرار، لأنها لا تدع مجالا لضلال العقل وتُقْصي الأهواء.

الواقع أن الإنسان لا يريد الـ«سعادة». الفرح إحساس بالقوة : وحين يقصي الإنسان الأهواء فإنه يقصي الشروط التي تثير الإحساس بالقوة في أعلى درجاته، وبالتالي تثير الفرح. الحكمة في أعلى درجاتها حالة هادئة وصافية، وهي أبعد من أن تثير ذلك الإحساس بالسعادة الذي تجلبه معها كل أشكال النشوة ...

الفلاسفة القدماء يحاربون كل ما يحقق النشوة، كل ما يعيق هدوء الوعي وحياده ... لقد كانوا منطقيين باعتمادهم على فرضيتهم الخاطئة : فقد اعتبروا الوعي حالة سامية من الكمال، حالته العليا، بل شرطه، — والحقيقة هي أن العكس هو الصحيح...

بقدرما يكون الشيء مرادا، وبقدرما يكون معلولا فإنه لا يكون هناك كمال في الفعل، مهما تكن درجة هذا الكمال. الفلاسفة القدماء أكبر من يُسَفْسِفُ العَمل حين يحين التطبيق، وذلك لأنهم حكموا على أنفسهم نظريا بالسفسفة... أما في التطبيق فكل ما يفعلونه هو المراءاة، — والذي يفطن للحبكة، مثل بيرون، يصدر الأحكام كسائر الناس، وهو ما يعني، فيما يتعلق بالصلاح والعدل، أن «العامة» يفوقون الفلاسفة كثيرا.

كان كل ذوي العقول الثاقبة القدماء يشمئزون من فلاسفة الفضيلة : كانوا يرون فيهم مُمَاحِكِينَ ومرائين. (هكذا حكم أبيقور وبيرون على أفلاطون.)

النتيجة : يفوقهم العامة في الحياة، في الصبر، وفي الصلاح والتعاون فيما بينهم (— وهذا تقريبا هو الحكم الذي يطالب به دوستويفسكي وتولستوي للفلاحين الروس)، تحركهم فلسفة كبيرة في حياتهم، ولهم طريقة شجاعة في إيجاد الحل لما هو ضروري.

239

نقد الفلاسفة. — يتوهم الفلاسفة والأخلاقيون حين يتخيلون أنهم سيخرجون من الانحطاط بمقاومته. ولاحقا نتبين أنهم كانوا من بين محركي الانحطاط النشطين، وإن كانوا يرفضون الإقرار بذلك، لأنه أمر خارج عن إرادتهم.

لنأخذ فلاسفة الإغريق، كأفلاطون مثلا. أفلاطون فَصَمَ العُرى التي كانت تربط الغرائز بدولة المدينة، وبالمصارعة، وبالبسالة العسكرية، وبالفن والجمال، وبالعجائب، وبالإيمان بالتراث وبالأسلاف... لقد أنكر كل الشروط الأولى التي أوجدت «الإغريقي النبيل» من الصخرة القديمة، وأدخل الجدل في الحياة اليومية، وتآمر مع الطغاة، ومارس سياسة المستقبل وأعطى أفضل مثال على الغرائز المنفصلة عن الأمور القديمة... إنه متحمس وضليع في كل ما هو مضاد للهلينية...

يمثل هؤلاء الفلاسفة الكبار، الواحد تلو الآخر، الأشكال النموذجية من الانحطاط : المزاج الأخلاقي والديني، الفوضوية، العدمية (ضعف الصمود)، الكلبية، التصلب، مذهب المتعة، (15)، والرجعية.

ومسألة الـ«سعادة» والـ«فضيلة» و«خلاص الروح» تجسد التناقض الفزيولوجي لدى هؤلاء المنحطين : ينقصهم توازن الغرائز، الغاية.

240

فلاسفة الإغريق الحقيقيون هم السابقون لسقراط (— فمع سقراط يقع التحول). إنهم أشخاص متميزون، يعيشون بعيدا عن الشعب وعاداته، سافروا كثيرا، جديون حتى الصرامة، بعيون متفحصة، عالمون بشؤون الدولة والدبلوماسية. يتوقعون قبل الحكماء كل التصورات الكبرى للأشياء : هم أنفسهم تجسيدا لتلك التصورات، يتحولون هم أنفسهم إلى أنظمة. لا شيء يعطينا فكرة رفيعة عن العقل الإغريقي أكثر من هذه الوفرة المفاجئة في الشخصيات الأصيلة، ومن هذ السلسلة العفوية الكاملة من الاحتمالات الكبرى للمثل الأعلى الفلسفي، وإني لا أجد في الذين أتوا من بعدهم إلا وجها واحدا عظيما : وجها متأخرا وحتما هو الأخير، — العدمي

بيرون (Pyrrhon) [16] : — غريزته موجهة ضد كل من كانت له السيادة في غضون ذلك، وهم السقراطيون، وأفلاطون، (يرجع بيرون إلى ديمقريط، متجاوزا بروتاغوراس...)

* * *

التعب الحكيم : بيرون. الحياة وسط الوضيعين. دون افتخار. الحياة على الطريقة العامية ؛ تبجيل كل ما يؤمن به الآخرون والإيمان به. الاحتراس من العلم ومن العقل، من كل ما يضخّم. التحلي بصبر أيوب، اللامبالاة والوداعة، لامبالاة الحكيم، بل وبوذي بالنسبة لليونان ترعرع وسط ضوضاء المدارس ؛ أتى متأخرا ؛ متعبا ؛ يمثل احتجاج التعب على حماس الجدليين ؛ إنه الكفر الذي توحي به أهمي كل شيء لِلنفوس المتعبة. التقى الإسكندر، وعاشر التائبين الهندوس. مثل هؤلاء الرجال، المرهفين الذين أتوا متأخرين، يجذبهم كل ما هو سافل وفقير وبليد. إنه شيء يخدرهم، فيرتخون (باسكال). كما أنهم يألفون عامة الناس، ويشاركون الناس في نشاطهم : إنهم في حاجة إلى نشاط، هؤلاء الرجال المتعبون ... تجاوز التناقض ؛ عدم الدخول في أي صراع ؛ عدم الرغبة في الامتيازات الشرفية ؛ إنكار الغرائز الإغريقية. (كان بيرون يعيش مع أخته التي تعمل كمولدة.) إخفاء حكمته وراء قناع حتى لا تميزه؛ إلباسها معطف الفقر وأسماله ؛ ممارسة الأعمال السوقية : بيع الخنازير الهندية في السوق ... اللطافة والوضوح واللامبالاة ؛ احتقار الفضائل التي تتطلب مظاهر متميزة : الوقوف عند مستوى نمطي، حتى فيما يخص الفضيلة : آخرا انتصار على النفس، آخر لا مبالاة.

بيرون أشبه ما يكون بأبيقور، إنهما يمثلان شكلين من أشكال انحطاط الإغريق. تربطهما قرابة بغضهما للجدل ولكل فضائل المرائين — وهذان الشيئان هما ما كان يسمى آنذاك فلسفة ؛ — وعن قصد كانا يبديان احتراما قليلا لكل ما يحبه الفلاسفة؛ ويعبران عنه بالألفاظ السوقية والكلمات البذيئة ؛ يمثلان حالة اللامرض واللاصحة، اللاموت واللاحياة... أبيقور أكثر سذاجة ومثالية وعرفانا ؛ وبيرون أكثر تجربة وقرفا وعدمية... لقد كانت حياته احتجاجا على عقيدة الهوية

(السعادة، والفضيلة، والمعرفة). العلم لا يرفع من وتيرة الحياة الحقيقية : الحكمة لا تجعل الإنسان «حكيما»... الحياة الحقيقية لا تريد السعادة، إنها تترفع على السعادة ...

241

لقد كان الصراع ضد «الإيمان القديم» مثلما خاضه أبيقور، في أدق معانيه، صراعا ضد المسيحية الموجودة قبلا، — صراعا ضد عالم قديم غدا مظلما، لطخته الأخلاق، ودخله الشعور بالذنب، وأصبح هرما ومريضا.

إن ما هيأ الظروف التي مكنت المسيحية من الهيمنة على العالم القديم ليس هو «فساد أخلاق» هذا العالم القديم بل أخلاقيته. فقد دمر التعصب الأخلاقي (باختصار : أفلاطون) الوثنية بتحويل قيمتها وبسقيه البراعة سما. — علينا أن نفهم بأن ما تم تدميره هناك كان شيئا راقيا، إذا قارناه بما ساد لاحقا ! — لقد انبثقت المسيحية عن الفساد النفسي، وضربت جذورها في أعماق تربة فاسدة.

242

العلم كتهذيب أو غريزة. — ألاحظ لدى الفلاسفة الإغريق تقليلا من شأن الغرائز : وإلا لما ارتكبوا الخطأ الفادح باعتبارهم حالة الوعي هي الأغْلى. لحدة الوعي علاقة عكسية مع سهولة وسرعة انتقال الإشارات الدماغية. هنا يغلب الرأي المضاد، بالنسبة للغرائز: وهو ما يدل على أن الغرائز قَدْ تَمَّ إضعافها.

يجب، حقا، أن نبحث عن الحياة الخالية من العيوب هناك حيث تكون أقل وعيا بنفسها (أي هناك حيث لا تفطن كثيرا لمنطقها، لأسبابها ومقاصدها، لمنفعتها). والعودة إلى واقع بسيط، واقع الفطرة السليمة، والرجل الصالح، واقع «العامة» بمختلف فئاتها. إن الوفاء والحكمة، وقد تمَّ تجميعهما منذ عدة أجيال، لم يَعيا أبدا مبادئهما، بل إن المبادئ تثير فيهما شيئا من الرعب. ليست الرغبة في فضيلة تفكر رغبة معقولة، إنها رغبة قد تعرض الفيلسوف للشبهات.

243

حين يكون قد تجمع، عبر سلسلة طويلة من الأجيال، كثير من الرقة، والشجاعة، والفطنة، والاعتدال، فإن القوة الفطرية التي في تلك الفضيلة المدمجة تشرق كذلك في العقل، وتصبح هذه الظاهرة التي نسميها الأمانة الفكرية بادية للعيان. وهي ظاهرة نادرا ما تحدث، ولا نجدها لدى الفلاسفة.

يمكننا أن نقيس بميزان المختبر العقل العلمي لدى مفكر ما، أو، حتى أقول ما أريد من وجهة نظر الأخلاق، أمانته الفكرية، ودقته، وشجاعته، وفطنته، واعتداله الذين تحولوا إلى غرائز وتم نقلهم إلى ميدان العقل : يكفي لذلك أن نجعله يتكلم عن الأخلاق... عندها يكشف مشاهير الفلسفة أن عقلهم العلمي هو مجرد شيء واع، محاولة، مشروع «حسن نية»، تعب، وأنه حين تشرع غرائزهم في الحديث، حين تعبر عن خواطرها في الأخلاق، فذلك هو تهذيب عقلهم ووعيُه. العقل العلمي : يجب أن نعرف ما إن كان فقط نتيجة ترويض خارجي، أم النتيجة النهائية لتمرن أخلاقي وتهذيب طويلين. في الحالة الأولى يتدخل بمجرد ما تتكلم الغريزة (الغريزة الدينية وغريزة الواجب مثلا) ؛ وفي الحالة الأخرى يحل محل هاته الغرائز ويمنعها من الحصول على حقوقها، معتبرا إياها قذارات وغواية...

244

ينطلق الصراع ضد سقراط وأفلاطون وكل المدارس السقراطية من الغريزة الضاربة الجذور التي تعلمنا أن الإنسان لا يصير أفضل حين نقدم له الفضيلة كشيء يمكن البرهنة عليه ويتطلب مرتكزات ... وفي نهاية المطاف نجد أفسنا أمام هذا الواقع البئيس : الغريزة الاحتضارية تجبر كل هؤلاء الجدليين بالفطرة على تمجيد قدراتهم الشخصية، كمزايا راقية، وتقديم كل ما تبقى مما هو صالح على أنه مشروط بها. وقوف عقل هذه الـ«فلسفة» ضد العلم : تريد ا لحفاظ على صوابها.

245

إنه لشيء رائع. فمنذ نشأة الفلسفة الإغريقية ونحن نلاحظ محاربة للعلم تتم بواسطة نظرية المعرفة أو الشكوكية. ولأية غاية ؟ دائما لصالح الأخلاق...

(كره الفيزيائيين والأطباء.) سقراط، وأريستيب، والمدرسة الميغارية[17]، والكلبيون، والأبيقوريون، وبيرون — كلهم شنوا هجوما عاما على المعرفة لصالح الأخلاق... (كره الجدل.) تبقى مسألة يجب إيجاد حل لها : إنهم يتقربون من السفسطائية ليتخلصوا من العلم. كما أن الفزيائيين كلهم قد خضعوا، إلى درجة أنهم أقروا ضمن مبادئهم نظرية الحقيقة، ونظرية الكينونة : كالذرة مثلا، والعناصر الأربعة (تجميع الكينونة من أجل تفسير التعدد والتغير —). تعليم احتقار موضوعية الفائدة : عودة إلى الفائدة العملية، إلى المنفعة الشخصية لكل معرفة...

تتم محاربة العلم :

1 - في مظهره (الموضوعية)

2 - في وسائله (أي احتمالها)،

3 - نتائجه (التي تعتبر طفولية).

هذه المحاربة نفسها هي التي تبنتها الكنيسة فيما بعد باسم التقوى : وقَدْ ورثت الكنيسة كل معدات الحرب التي استعملت في ذلك العصر القديم. ونظرية المعرفة تلعب هنا نفس الدور الذي تلعبه عند كانط، وعند الهندوس... لا يريدون الانشغال بها : يريدون أن يتفرغوا لمواصلة «الطريق».

ضد أي شيء يدافعون عن أنفسهم ؟ ضد الإلزام، وضد الإكراه الذي يمارسه القانون، وضد ضرورة السير يدا في يد — : أعتقد أن ذلك يسمى حرية...

يتجسد الانحطاط في : انحطاط غريزة التضامن إلى حد تعتبر معه استبدادا: إنهم لا يريدون أية سلطة، وأي تضامن، يرفضون الانضمام إلى الصف ليسايروا البطء اللامتناهي في الحركات. إنهم يكرهون المشية المنتظمة، والمظهر العلمي، يكرهون اللامبالاة بالغاية والشخص، والأعمال الطويلة النفس، التي هي من خاصيات الإنسان العلمي.

مسألة الفيلسوف والعالِم. تأثير السن ؛ عادات تسبب الاكتئاب (حياة حضرية على طريقة كانط ؛ إرهاق؛ تغذية ناقصة للدماغ ؛ القراءة). مسألة أهم : معرفة ما إن كان تركيز الأنظار على مثل هاته الأفكار العامة واحدا من أعراض الانحطاط ؛ اعتبار

الموضوعية مفتتة للإرادة. فهي تقتضي ضعف الصمود أمام الغرائز العنيفة : شكلا من العزلة، وضعا خاصا، مقاومة للغرائز السوية.

نموذج : هجرة البلد الأم ؛ دائما في دوائر أكثر اتساعا ؛ تزايُد حب الدخيل ؛ صمت الأوامر — ؛ هذا السؤال الأزلي «إلى أين سنمضي ؟» لا تزال السعادة علامة على حدوث انفصال في طرق التنظيم، علامة على استئصالٍ ما.

مسألة : معرفة ما إن كان العالم دليلا على الانحطاط أكثر من الفيلسوف : — هو في مجمله ليس منفصلا، بل جزء منه فقط هو المكرَّس للمعرفة، المنتصب لوجهة نظر ولمنظور خاص — ، إنه يحتاج لكل فضائل العرق القوي، إلى الصحة، إلى قوة ضخمة، إلى رجولة وذكاء. هو دليل على تعددية كبيرة في الثقافة أكثر مما هو دليل على ضجر الثقافة. عالم الانحطاط عالم رديء. أما فيلسوف الانحطاط فقد بدا، حتى الآن على الأقل، كالفيلسوف النموذج.

247

ما هو الشيء الرجعي لدى الفيلسوف ؟ — يُعلم الفيلسوف مزاياه على أنها المزايا الوحيدة الضرورية لبلوغ الخير الأسمى (كالجدل لدى أفلاطون مثلا). يدع كل أصناف الناس تسمو تدريجيا إلى أن تبلغ نموذجه، وهو نموذج راق. إنه يحتقر ما تقدره غالبية الناس ؛ إنه يفتح هاوية بين قيم الكاهن الراقية وبين قيم العالم. ويعْرف الحقيقة، والغاية، والطريق ... الفيلسوف النموذج هنا وثوقي مطلق ؛ إن احتاج إلى الشك فلكي يستطيع التحدث بوثوقية عما هو أساسي بالنسبة إليه.

248

حين يواجه الفيلسوف خصمه، كالعلم مثلا : آنذاك يصبح شكوكيا : ويُؤْثِرُ نفسه بشكل من المعرفة ويعارضه لدى العالِم؛ وبذلك يمشي ويده في يد الكاهن، حتى لاتحوم حوله شبهة الإلحاد أو المادية؛ وإذا هوجم فإنه يعتبر ذلك هجوما على الأخلاق والفضيلة والدين والرهبانية ؛ إنه يعرف كيف يحط من قدر خصومه، وكيف ينعتهم بـ « الغاوين» و « الهدامين»؛ آنذاك يمشي ويده في يد السلطات.

الفيلسوف ، في صراعه مع فلاسفة آخرين : يحاول إظهارهم كفوضويين وكفار ومعادين للسلطات. إجمالا، نقول إنه حين يصارع فإنه يصارع كالكاهن تماما، كواحد من رجال الدين.

249

الفيلسوف كتطور للنموذج الكنسي. — إنه يحتوي على إرث الكاهن. — حتى حين يكون خصما يجد نفسه مجبرا على الصراع من أجل نفس الأشياء التي من أجلها يصارع كاهن عصره، مستعملا وسائله نفسها. — إنه يطمح لبلوغ أعلى مراتب السلطة.

ما الذي يمنحنا السلطة، حين لا نملك القوة الجسمانية (حين لا يكون لنا قطيع، ولا نملك الأسلحة...) ؟ كيف تكون لنا السلطة على الذين يملكون القوة الجسمانية والسلطة؟ (يتنافس الفلاسفة في تبجيلهم للأمير، والمتنافس الذي يفوز يصبح حكيم الدولة.)

إنهم مجبرون على جعل الآخرين يعتقدون أنهم يملكون سلطة أعلى وأقوى — الله. ذلك هو مضمار تفوقهم : يحتاج الى وساطة الكاهن وخدماته. إنهم يتوسطون كسلطات لا غنى عنها. هم في حاجة، كشرط وجود، إلى :

1) أن يؤمن الناس بالتفوق المطلق لإلههم، وأن يؤمنوا بهذا الإله،

2) أن لا تكون هناك طريق أخرى مباشِرة توصل إلى الرب. الشرط الثاني وحده يخلق فكرة الـ«هرطقة» ؛ والشرط الأول فكرة الـ«كفار» (أي الذين يؤمنون بإله آخر —).

250

لقد أطلق الكهان عبر كل العصور — وكذلك أنصاف الكهنة، والفلاسفة — اسم الحقيقة على عقيدة يكون أثرها التربوي نافعا أو يبدو أنه نافع، — عقيدة تجعل الناس «أفضل». إنهم في هذا يشبهون مشعوذا ساذجا، أو صانع معجزات انبثق من أوساط

الشعب ينفي أن السم سم فقط لأنه أعطيَ السم كعلاج... «ستعرفونها من ثمارها» — أي «حقائق»نا: لا يزال حتى اليوم هذا هو تفكير الكهنة. لقد أنفقوا فطنتهم، بشكل مميت، ليجعلوا «برهان القوة» (أو البرهان بـ«الثمار») هو المتفوق على أشكال البرهان الأخرى، بل هو الذي يحددها مسبقا. «الذي يجعل الإنسان صالحا لابد أن يكون صالحا؛ والصالح لا يمكن أن يكذب» — هذا ما يخلصون إليه بشكل حتمي. — «الذي يعطي ثمارا طيبة لابد أن يكون حقيقيا ؛ ليس هناك معيار آخر للحقيقة»... ولكن، بما أن ما يجعل الإنسان أفضل يعتبر برهانا، فإن ما يجعله خبيثا يجب أن يعتبر دحضا. إنهم يبينون كون الذنب ذنبا بتفحصهم لحياة الذين ارتكبوه: والانحراف والرذيلة يدحضان ذلك ... لا تزال حيةً تستخدم هاته الطريقة الوقحة في الخصومة، طريقة البحث في الوراء وفي الأسفل، وهي طريقة الكلاب : فالكهنة، باعتبارهم علماء نفس، لم يجدوا يوما شيئا أهم من شم أمور خصومهم السرية، — إنهم يبرهنون على مسيحيتهم بالبحث عن القمامة في الـ«عالم». وخاصة لدى الذين يحتلون الصدارة فيه، لدى الـ« سادة» : نتذكر كيف تمت محاربة غوته باستمرار في ألمانيا (و«خير مثال» على محاربته هو كلوبستوك وهردر، [18]، فالطيور على أشكالها تقع).

251

من الصعب أن نظل جديين هنا. في خضم كل هذه القضايا لا نستطيع الظهور وكأننا في مأتم... وللفضيلة، على وجه الخصوص، مظاهر تتطلب من المرء أن يكون مصابا بعسر الهضم حتى لا يدنس كرامته. والجدية البالغة، أليست هي في حد ذاتها مرضا ؟ أوَّل تقبيح ؟ فميلنا إلى القبح يستيقظ حين تستيقظ الجدية ؛ وأخذ الأمور مأخذ الجد يعد تشويها لها... خذوا المرأة بجدية : وسرعان ما ستصير قبيحةً أجمل امرأة !

252

الخطأ والجهل وخيمان. التأكيد بأن الحقيقة موجودة وبأنه قد قضي على الخطأ والجهل شيء شديد الجاذبية. وإذا ما تم تصديق هذا الأمر فإن ذلك سيشل على التو إرادة الاستقصاء والبحث والحصافة والتجربة : بل قد يتم اعتبارها إرادة إجرامية، لأنها تشك في الحقيقة...

إذا فالحقيقة أوخم من الخطأ والجهل، لأنها تشكل القوى التي قد تخدم التطور والمعرفة.

أصبح الكسل يقف الآن بجانب الـ«حقيقة» — («التفكير شيء شاق وبئيس»)؛ وكذلك النظام، والقاعدة، وسعادة التملك، والفخر بالحكمة، - والغرور إجمالا. الطاعة مريحة أكثر من التفحص؛ اعتقاد المرء «أنا أملك الحقيقة» يثير غروره أكثر من رؤية نفسه وسط الظلام... وقبل كل شيء: هذا أمر يهدئ، ويمنح الثقة، ويلطف الحياة، — إنه يجعل الطبع «أفضل» بتقليله من قدر الريبة فيه. ما «طمأنينة النفس» و«راحة الضمير» إلا ابتكارات لا تصير ممكنة إلا إذا وُجدت الحقيقة. -

— «ستعرفونها من ثمارها»... الـ«حقيقة» حقيقة، لأنها تجعل الناس أفضل... ويستمر المنهج: كل ما هو صالح، كل النجاحات تنسب للـ«حقيقة».

هذا برهان القوة: لقد أصبحت السعادة والرضى والرفاهية، سواء تعلق الأمر بالفرد أو بالجماعة، تُفهم على أنها نتائج الإيمان بالأخلاق... والنتيجة العكسية، أي الفشل، تنجم عن قلة الإيمان.

253

تكمن أسباب الخطأ في حسن نية الإنسان كما في سوء نيته: — وفي حالات لا تحصى يخفي الإنسان الحقيقة عن نفسه، ويلطخها، حتى لا يعاني لا في حسن نيته ولا في سوئها. اعتبار الإنسان الله محركا للمصائر البشرية؛ تفسيره لمصيره هو وكأن كل شيء قد تم ترتيبه من أجل خلاص الروح، — هذا النقص في «فقه اللغة» الذي سيبدو حتما لذي عقل دقيق كقذارة وتزييف، يستلهم حسن النية على العموم. يستخدم حسنُ النية، و«المشاعر النبيلة»، و«الحالات النفسية السامية» نفس الوسائل — وهي وسائل الخدّاع والمزيّف — وسائل يرفضها الهوى، وترفضها الأخلاق وتسميها أنانية: الحب، والكراهية، والانتقام.

الأخطاء هي الشيء الذي أدت الإنسانية ثمنه غاليا: وأخطاء «حسن النية»، عموما، هي التي سببت لها أكبر ضرر. الوهم الذي يجلب السعادة أكثر شؤما من

ذلك الذي تنتج عنه مباشرة نتائج ضارة : فهذا الأخير يشحذ الفطنة، ويجعل الإنسان مرتابا، ويطهر العقل، — بينما الأول يكتفي بتنويمه ...

المشاعر الجميلة، والدوافع النبيلة تنتج، حتى نتكلم فسلجيا، عن الوسائل المخدرة: تنتج عن الإفراط في استعمالها نفس النتائج التي تنتج عن الإفراط في استعمال الأفيون، - إضعاف الأعصاب...

254

الالتباسات النفسية : الخلط بين الحاجة إلى الإيمان و«إرادة الحقيقة» (لدى كارلايل مثلا). وكذلك بين الحاجة إلى الجحود و«إرادة الحقيقة» (— الحاجة إلى التخلص من إيمان ما لأسباب عديدة، الحاجة لأن نكون على حق ضد «مؤمن» ما). ما الذي يلهم الشكوكيين ؟ كراهية الوثوقيين — أو الحاجة إلى الهدوء، والتعب، كما لدى بيرون.

المزايا التي كنا ننتظرها من الحقيقة هي المزايا التي يوفرها الإيمان بها ؛- لأن الحقيقة في ذاتها قد تكون شاقة وضارة ووخيمة —. ما عاد الناس إلى محاربة الحقيقة إلا بعد ما وعدوا أنفسهم بمزايا النصر، — كالشعور بالحرية نحو السلطات الحاكمة.

لم يتم العثور على منهجية الحقيقة بدافع من الحقيقة، بل بدافع القوة، أي إرادة المرء أن يكون أرقى من غيره.

ما الذي يبرهن على الحقيقة ؟ الإحساس بازدياد القوة، — والمنفعة، — وكونها لا غنى عنها، — باختصار، هي المزايا.

ولكن هذا حكم مسبق، دليل على أن الأمر لا يتعلق بتاتا بالحقيقة...

ماذا تعني «إرادة الحقيقة» لدى الإخوان غونكور ؟ ولدى الطبيعيين ؟ - نقد الـ«موضوعية».

لماذا نريد المعرفة : لم لا نريد الخطأ ؟ إن ما أردناه على الدوام هو الإيمان، — وليس الحقيقة ... الإيمان يتولد عن أسباب معاكسة لتلك التي يستخدمها منهج العلوم — : بل إنه يقصي هذا الأخير.

يحتاج من يهاجم كل ما هو مبني على الاحترام ليحاربه إلى مشاعر جريئة وصارمة، بل ووقحة ... إذا اعتبرنا أن ما بجلته الإنسانية منذ آلاف السنين كان عبارة عن أخطاء تختبئ وراء اسم الحقائق، وأنها قد أضعفت كل نقد لهاته الحقائق، معتبرة إياه دليلا على إحساس فاسد، فإنه يجب أن نعترف لأنفسنا، بحزن وأسى، أن عددا كبيرا من الأمور اللاأخلاقية كانت ضرورية لإطلاق مبادرة الهجوم، أعني مبادرة العقل... ليغفر لهؤلاء اللاأخلاقيين كونهم اتخذوا دائما مظهر «شهداء الحقيقة» : ومن أجل الحقيقة نقول أن ما جعلهم نافين ليست هي غريزة الحقيقة، بل العقل الخبيث، والشك الجاحد، وفرحة المغامرة. — في الحالة الأخرى تكون الأحقاد الشخصية هي التي تدفعهم إلى ميدان المشاكل، — يحاربون المشاكل ليحافظوا على رشدهم ضد بعض الأشخاص. والانتقام، قبل كل شيء، هو الذي أصبح ساريا بشكل علمي، - ا نتقام المضطهدين، الذين طردوا خارجا، أو قمعتهم الحقيقة السائدة.

لقد تم استعمال وتشجيع الحقيقة، أعني المنهج العلمي، من طرف أولئك الذين خمنوا فيها أداة حرب، عملا هداما... ولكي يتم الاعتراف بهم كخصوم احتاجوا فضلا عن ذلك، إلى أداة شبيهة بتلك التي كان خصومهم يستخدمونها : — كانوا يظهرون فكرة الحقيقة بشكل مطلق مثلما يفعل خصومهم، — أصبحوا متعصبين، على الأقل في مظهرهم، لأنه لم يكن أي مظهر آخر يُؤخذ مأخذ الجد. والاضطهاد، والغضب وانعدام أمن المضطَهدين كان يقوم بما تبقى، — يزداد البغض، فيضعُف الدافع الأول ليتمكن من البقاء على أرض العِلم. وفي النهاية أرادوا أن يكونوا جميعا على صواب بطريقة غير معقولة مثل خصومهم... وكلمات «القناعة» و«الإيمان» وكرامة الشهيد، — شروط غير ملائمة للمعرفة. وقد انتهى الأمر بخصوم الحقيقة إلى أن يقبلوا من تلقاء أنفسهم الطريقة الذاتية في التقرير بشأن الحقيقة، أي بواسطة مظاهر التضحية، والقرارات البطولية : — وبهذا أطالوا سيادة المنهج المضاد للعلم. وباعتبارهم شهداء فإنهم يثيرون الشبهة حول عملهم.

النظرية والتطبيق. — هناك تمييز خطير بين النظرية والتطبيق، لدى كانط مثلا، وكذلك لدى القدماء : — يتصرفون كما لو كانت الروحانية الخالصة تقدم لهمْ مشاكل المعرفة وما وراء الطبيعة. — يتصرفون وكأن التطبيق يجب أن يُحكم عليه حسب مقياس شخصي، مهما يكن الجواب الذي تقدمه النظرية. أعارض الاتجاه الأول بعلم نفس الفلاسفة الخاص بي : فما حسابهم الغريب و«روحانية» هم إلا آخِر أثرٍ باهت من آثار عمل فسلجي : لا وجود فيه للتلقائية ؛ وهو كله عبارة عن غريزة، كله موجه، في المقام الأول، نحو طرق محددة...

وبخصوص الاتجاه الثاني أتساءل ما إن كنا نعرف طريقة أخرى في حسن التصرف أفضل من حسن التفكير. في الحالة الأخيرة هناك الفعل، والأولى تفترض الفكر. هل نحن مؤهلون للحكم بطريقة مخالفة على قيمة نوع من الحياة وعلى قيمة نظرية ما : بالاستقراء، بالمقارنة ؟... يتخيل الساذجون أننا هنا في موقف جيد، وأننا نعرف ما هو «خير»، — والفلاسفة يكتفون بترديده. نستنتج أن هذا مجرد إيمان لا غير...

حتى شكوكيو العصور القديمة كانوا يقولون : «يجب أن نفعل شيئا ؛ وبالتالي فنحن في حاجة إلى قاعدة سلوك». استعجالية القرار هي التي تعتبر حجة على اعتبار شيء ما حقيقيا ! ...

«لا يجب فعل أي شيء» - كان يقول إخوانهم المنطقيون، البوذيون، ثم تصوروا خط سلوك يسمح بالتخلص من الفعل ...

التعقل، والحياة كما يحيى «الإنسان البسيط»، واعتبار الحق والعدل ما يراه هو حقا وعدلا : هذا هو الخضوع لغريزة القطيع. يجب على المرء الدفع بشجاعته وصرامته إلى اعتبار هذا الخضوع شيئا مخجلا. عليه ألا يعيش بمقياسين !... وألا يفصل بين النظرية والتطبيق!...

257

كل ما اعتبر فيما مضى حقيقيا ليس كذلك. — كل ما تم احتقاره في الماضي لأنه مدنس، ومحرم، وحقير، ومشؤوم - كل ذلك اليوم أزهار تنمو على جنبات الممرات الباسمة ممرات الحقيقة.

لم تعد تلك الأخلاق القديمة تعنينا في شيء ؛ إذ ليست فيها فكرة واحدة تستحق التقدير. لقد دفناها، ولم نعد بدائيين ولا سذجا حتى ننخدع بهذا الشكل... وبطريقة مهذبة أكثر نقول : إننا أفاضل بشكل لا يجعلها تليق بمقامنا... ولئن كانت الحقيقة، بمعناها القديم، قد اعتبرت «حقيقة» فقط لأن الأخلاق القديمة أثبتتها، فقط لأن الأخلاق القديمة كان لها حق إثباتها، فإن نتيجة ذلك هي أنه لم تعد أية فضيلة من فضائل الماضي ضرورية لنا ... ليست الأخلاقية هي معياركم للحقيقة : وإننا ندحض إثباتا ببرهنتنا على كونه متوقفا على الأخلاق، وكون مشاعر نبيلة هي التي ألهمته.

258

كل هذه القيم تجريبية ومشروطة، ولكن الذي يؤمن بها ويبجلها لا يريد الاعتراف بهذا الطابع تحديدا. كل الفلاسفة يؤمنون بهذه القيم، وأحد أشكال تبجيلهم لها هو سعيهم ليجعلوا منها حقائق قبلية. وهذا طابع مُزَيِّفٌ للتبجيل...

التبجيل دليل قاطع على الأمانة الفكرية : ولكن تاريخ الفلسفة برمته لا يعرف الأمانة الفكرية، — ليس فيه إلا «محبة الخير»...

من جهة، ليس للمطلق منهج لقياس قيمة هذه القيم ؛ ومن جهة أخرى، إن استقصاءها والإقرار بأنها مشروطة يثيران الاشمئزاز. في ظل سيادة القيم الأخلاقية تتحالف كل الغرائز المضادة للعلم من أجل إقصائه...

259

لماذا الفلاسفة مفترون. - معاداة الفلاسفة للحواس بشكل غادر وأعمى، - كم في هذه الكراهية من دهماوية وشجاعة !

الشعب دائما يعتبر التعسف الذي كانت له عواقب وخيمة حجة ضد الذي تعسف عليه : كل الحركات التمردية على المبادئ، سواء كان ذلك في ميدان السياسة أو الاقتصاد، تحاجج دائما محاوِلةً إظهار أن التعسف ملازم للمبدأ وضروري فيه.

إنها قصة محزنة : يبحث الإنسان عن مبدأ يمكنه الاعتماد عليه من أجل احتقار الإنسان، — يختلق عالما ليتمكن من الافتراء على هذا العالم وتدنيسه : الحقيقة هي أنه يمد يده نحو العدم، ويجعل ذلك العدم هو «الإله»، وهو الـ«حقيقة»، ويجعله في كل الأحوال هو قاضي هذا الوجود ومُدينه...

إذا أردنا أن يكون لنا دليل على الطريقة اللاواعية والأساسية التي يسعى با الإنسان إلى تلبية حاجياته الحقيقية والهمجية، حتى وهو مروَّض و«متحضر»، فيجب علينا أن نبحث عن لازمات تطور الفلسفة. — سنجد نوعا من الانتقام من الحقيقة، وتدميرا ماكرا للقيم، التي في جوها يعيش الإنسان، ونفسا غير راضية تعتبر التأديب تعذيبا وتجد لذة غريبة في قطع كل صلاتها به، بطريقة مرَضية.

تاريخ الفلسفة غيظ مكتوم ضد الحياة، ضد مشاعر قيمة الحياة، ضد الحكم الصالح للحياة. ما تردد الفلاسفة يوما في إثبات عالم ما، شريطة أن يكون نقيضا لهذا العالم، وأن يضع بين أيديهم ما يجعلهم يتحدثون بسوء عن هذا العالم. لقد كانت الفلسفة حتى الآن مدرسة الافتراء الكبيرة وطَالما أوهمتنا بأن علمنا، الذي يجعل من نفسه ترجمان الحياة، قد قبل هو الآخر اليوم بالموقف الأساسي للافتراء، وبأنه يعالج هذا العالم كما لو كان ظاهرا فقط، وتسلسل الأسباب كما لو كان ظاهراتيا فقط. ما هو الحقد العامل هنا ؟

أخشى أن تكون ساحرة الفلاسفة، أي الأخلاق، هي التي تمكر بهم هنا لتجبرهم على أن يكونوا مفترين على الدوام... لقد آمنوا بالـ«حقائق» الأخلاقية، ووجدوا فيها القيم الراقية، — فماذا بقي لهم سوى أن يقولوا «لا» للوجود كلما فهموه أكثر ؟ ... لأن هذا الوجود لا أخلاقي ... وهذه الحياة تقوم على فرضيات لاأخلاقية : والأخلاق تنفي الحياة. —

لِنُلْغِ العالم الحقيقة : ولكي نقوم بذلك، يجب أن نلغي القيم الراقية التي كانت سارية المَفعول حتى الآن، أعني الأخلاق... يكفي أن نبين بأن الأخلاق، هي بدورها، لاأخلاقية، بما أن اللاأخلاقية قد أدينت حتى الآن. حين نتوصل إلى تحطيم استبداد القيم التي كانت سارية حتى الآن، حين نتمكن من إلغاء العالم الحقيقة، فسيظهرنظام قيم جديد بالطبع.

العالم — الظاهر والعالم — الكاذب — هذا هو التناقض. وقد سمي هذا الأخير حتى الآن «العالم الحقيقة» ، «الحقيقة المطلقة»، «الله». وهو الذي ألغيناه.

منطقُ تَصَوُّرِ :

1 . الأخلاق كقيمة سامية (سيدة كل أشكال الفلسفة، حتى الشكوكية). النتيجة : هذا العالم لا قيمة له، ليس هو «العالم الحقيقة».

2 . ما الذي يحدد القيمة السامية هنا ؟ ما هي الأخلاق تحديدا ؟

– غريزة الانحطاط ؛ إنها بالنسبة للمنهكين والمحرومين شكل من أشكال الانتقام. الدليل التاريخي : الفلاسفة دائما منحطون... في خدمة الديانة العدمية.

3 . غريزة الانحطاط التي تظهر على شكل إرادة القوة. الدليل: لا أخلاقية الوسائل عبر تاريخ الأخلاق كله.

ما عرفنا في هذا التيار كله إلا حالة واحدة من إرادة القوة.

الكتاب الثالث

مبدأ تقييم جديد

I

إرادة القوة باعتبارها معرفة

260

«نفكر : إذن هناك شيء يفكر»، هذه نتيجة برهنة ديكارت. ولكن هذا معناه اعتبار إيماننا بفكرة الجوهر «قبليا حقيقيا». — إن قولنا، حين نفكر، بأنه يجب أن يكون هناك شيء «يفكر» هو بكل بساطة صياغة لتلك العادة النحوية التي تقرن بكل فعل فاعلا. باختصار، إننا نقدم هنا مسلمة منطقية — ماورائية — عوض أن نكتفي بالملاحظة... إذا تتبعنا السبيل التي رسمها لنا ديكارت فلن نصل إلى يقين مطلق، بل فقط إلى إيمان قوي.

إذا اختزلنا القضية هكذا : «نحن نفكر، إذن هناك أفكار»، فسيكون ذلك تحصيل حاصل، أما موضوع «حقيقة الفكر» فلا تتم ملامسته، — بحيث أننا نجد أنفسنا مضطرين، بهذا الشكل، إلى الاعتراف بـ«ظاهر» الفكر. وما أراده ديكارت ليس هو أن يكون للفكر حقيقة ظاهرة، بل أن يكون شيئا في ذاته.

261

أؤيد كذلك طابع ظاهرة العالم الداخلي : فكل ما يصير محسوما في وعينا يكون قد تم إعداده وتبسيطه ووضعه في ترسيمة وتفسيره. والطريقة الحقيقية التي يسلكها « الإدراك الداخلي»، فتسلسل الأسباب ما بين الأفكار، والأحاسيس، والرغبات، وبين الذات والموضوع، يَظل خفيا عنا تماما — وربما يكون ذلك لدينا مجرد تخيل. وهذا «العالم الداخلي كظاهر» يتم تناوله بنفس الأشكال ونفس الطرق التي يُتَناول

بها العالم «الخارجي». إننا لا نصطدم أبدا بالـ«وقائع» : فالمتعة والكدر ظاهرتان تأتيان متأخرتين وهما متفرعتين عن الفكر...

إننا لا ندرك «السببية» ؛ والتسليم بأن هناك بين الأفكار رابط مباشر وسببي، مثلما يفعل المنطق، — هو نتيجة ملاحظة بدائية وبليدة. بين فكرتين نجد مختلف الأهواء التي تمرح على هواها : غير أن حركاتها سريعة جدا، لذلك ننكرها، وننفيها...

«التفكير»، مثلما يُعرفه منظروا المعرفة، لا وجود له ؛ إنه خيال اعتباطي، يتم تحقيقه بفصل عنصر واحد عن السياق العام، وطرح كل العناصر الأخرى، إنه تدبير متكلَّف بغرض التفاهم.

«العقل» شيء يفكر : بل العقل المطلق عند الحاجة، «العقل الخالص» — هذا التصور المتفرع عن الملاحظة الخاطئة للذات، الذي يؤمن بطريقة تقتضي «التفكير»: هنا نشرع في تخيل فعل لايحدث أبدا : «التفكير»، وتتخيل بعد ذلك موضوعا، ذاتا وهمية يجد فيها كل فعل من هذا التفكير أصله لا غير : وهو ما يعني أن الفعل والفاعل كلاهما صوريان.

262

لا يجب أن نبحث عن الظاهراتية في غير مواضعها : فليس هناك شيء أكثر ظاهرية، وبتعبير أدق، ليس هناك وهم أكبر من هذا العالم الخارجي الذي نراقبه بذلك «الحس الباطني» الشهير.

لقد اعتقدنا أن الإرادة سبب، إلى حد أننا، حسب تجربتنا الشخصية، افترضنا سببا لكل ما يحدث (أي اعتبرنا القصد سبب ما يحدث —).

نعتقد أن الفكر والأفكار، مثلما يتواليان فينا، يربطهم تسلسل سببي ما : وقد تعود المنطقي، وهو الذي يتحدث عن حالات لم تحدث في الواقع أبدا، على الحكم المسبق الذي يرى بأن الأفكار تولد أفكارا أخرى.

إننا نعتقد — وفلاسفتنا أنفسهم يعتقدون — أن قصد اللذة والألم هو إثارة ردود الأفعال. لقد تم طيلة آلاف السنين تقديم اللذة والرغبة في التخلص من الكدر على أنهما باعثا كل أشكال الفعل. بقليل من التفكير يمكننا أن نسلم بأن كل شيء سيكون كذلك، حسب نفس تسلسل الأسباب والنتائج تماما، لو أن حالات اللذة والألم هذه لم يكن لها وجود : ونكون مخطئين إذا زعمنا أنها تتسبب في حدوث شيء ما. إنها ظواهر ثانوية، ولها غاية أخرى غير إثارة ردود الأفعال ؛ إنها نتائج تشكل جزءا من سياق رد الفعل الذي بدأ...

مجمل القول : كل ما يصبح واعيا هو ظاهرة نهائية، خاتمة لا تتسبب في حدوث أي شيء ؛ كل توالٍ يحدث في الوعي فهو توال ذري atomistique حتما. — لقد حاولنا فهم العالم بارتكازنا على تصورات متناقضة، — وكأنه ليس هناك شيء فعال، أو شيء حقيقي خلا الفكر، والإحساس، والإرادة !...

263

لقد تم دائما، في كل مكان يعرف نوعا من الوحدة في التجمع، اعتبار العقل سبب ذلك التنسيق : وليس في هذا أي وجه من أوجه الصواب. لماذا تكون فكرة الحادث المعقد أحد شروط هذا الحادث ؟ أو لماذا يكون الحادث المعقد مسبوقا بعَرض له ؟

إننا نحترس غاية الاحتراس من تفسير الغاية بالعقل : فليس هناك داعٍ لأن ننسب للعقل خاصية التنظيم والمنهجة. مجال الجهاز العصبي شاسع جدا : وعالم الوعي مضاف إليه. فالوعي لا يلعب أي دور في السياق العام للتكييف والمنهجة.

إنه لخطأ شديد الفداحة أن نجعل من الظواهر النفسية والمادية وجهين أو تَجَلِّيَيْنِ لجوهر واحد. إننا بهذا لا نفسر شيئا ؛ وفكرة الـ«جوهر» غير صالحة بتاتا للاستخدام في التفسير. والوعي الذي يلعب الدور الثاني، في شبه لامبالاة، وزائدا عن الحاجة، قديكون مصيره الزوال ليترك مكانه لنظام ذاتي الحركة تماما ...

إذا نحن لم نلاحظ إلا الظواهر الداخلية فسنكون أشبه بالصم البكم الذين يخمنون الكلمات التي لا يسمعونها من خلال حركة الشفاه. نخلص من مظاهر عالم داخلي إلى ظواهر مرئية وظواهر أخرى، ظواهر كنا سندركها لو كانت وسائل الملاحظة لدينا كافية.

إننا لا نملك الأعضاء الدقيقة لإدراك ذلك العالم الداخلي، بحيث أننا نعتبر التعقيد المتعدد وحدة ونتخيل وجود سببيه ما، والحالة أن بواعث الحركة والتغير تظل خفية عنا، — لأن تتابع الأفكار والأحاسيس ناتج عن كونها مرئية داخل الوعي. وما لا يمكن تصديقه هو أن يكون لهذا التتابع أي شيء مشترك مع تسلسل السببية : الوعي لا يعطينا أبدا أمثلة على السبب والنتيجة.

264

الأخطاء الكبرى :

1 . المبالغة غير المعقولة في تقدير الوعي ؛ إننا نجعل منه وحدة، وكيانا : «عقلا»، «روحا»، شيئا يحس ويفكر ويريد ؛

2 . اعتبار العقل سببا، خاصة حيثما ظهرت الغاية، والنظام، والتنسيق ؛

3 . اعتبار الوعي أسمى شكل يمكننا بلوغه، أرقى كائن، كـ«الرب» ؛

4 . تسجيل الإرادة حيثما تكون نتائج ؛

5 . اعتبار المعرفة المطلقة بمثابة قوة الوعي، حيثما كانت المعرفة.

النتائج :

يكمن التقدم في التقدم نحو الوعي ؛ وكل تقهقر يكمن في اللاوعي (— إذا أصبح المرء يتصرف بلاوعي اعتُبر ذلك انحطاطا، واستسلاما للشهوات الحسية، — وتوحشا...) الجدل يقربنا من الواقع، من «الكينونة الحقيقية» ؛ وتبعدنا عنهما الغرائز والحواس والإوالية...

الدفع بالإنسان للفناء في العقل معناه أن نجعل منه إلها : عقلا، وإرادة، وصلاحا، — ووحدة ؛

يجب أن يكون أصل الخير في الروحانية، يجب أن يكون الخير صنيع الوعي ؛

التقدم نحو الأفضل لا يمكن إلا أن يكون تقدما هدفه هو أن يصير لنا وعي.

ظاهراتية «العالم الداخلي». — لقد انعكس الترتيب الزمني، بحيث أن السبب يصل إلى الوعي متأخرا عن النتيجة. — لقد تعلمنا أننا قد نشعر بألم في موضع من جسمنا ليس هو مركز الألم — : وأن الأحاسيس التي نعتبرها مشروطة بالعالم الخارجي هي في الحقيقة مشروطة بالعالم الداخلي : أن الفعل الحقيقي الذي يقوم به العالم الخارجي يتم دائما بطريقة لاشعورية... الجزء الذي نعيه من العالم الخارجي يحدث بعد الأثر الذي يُحدثه العالم الخارجي فينا، ويظهر لنا لاحقا على أنه هو «سبب» ذلك الأثر... في ظاهراتية «العالم الداخلي» نقلب الترتيب الزمني للسبب والنتيجة. العمل الأساسي للتجربة الداخلية هو كون السبب يتم تخيله بعد حصول النتيجة .. نفس الشيء يقال عن تتابع الأفكار ... — نبحث عن سبب فكرة ما قبل أن نعيها : آنذاك نعي السبب، ثم نتيجته بعد ذلك... كل أحلامنا تقوم على تفسير الأحاسيس في شموليتها لنبحث عن أسبابها المحتملة : وذلك بحيث أننا لا نعي حالة ما إلا بعد أن يدرك وعينا سلسلة السببيات التي اختُلقت لتفسرها.

تقوم «التجربة الداخلية» على كوننا نبحث عن السبب ونتخيله عند حدوث أي تهيج في المراكز العصبية — وعلى كون السبب الذي نجده بهاته الطريقة هو الذي ينفذ إلى الوعي : وهذا السبب لا يطابق السبب الحقيقي بتاتا، — إنه نوع من التلمس المرتكز على «تجارب داخلية» سابقة، أي على الذاكرة. والذاكرة تحافظ كذلك على التفسيرات القديمة، أي عادة السببية الخاطئة، — بحيث أن «التجربة الداخلية» ستحمل في طياتها كل الأوهام السببية القديمة الخاطئة. «عالمنا الخارجي».

خلاصة القول : الشيء الذي نصبح واعين به يكمن في علاقات سببية خفية عنا. وتتابع الأفكار والأحاسيس في الوعي لا يعني أن هذا التتابع سببي : ولكن ظاهره يبدو كذلك، وبقدر كبير. وعلى هذا الظاهر أقمنا تمثلنا للعقل، والبرهان، والمنطق، إلخ. (كل هذا لا وجود له : فما هي إلا حصيلات ووحدات صورية)، لنسقطه فيما بعد على الأشياء، وعلى ما وراء الأشياء !

عموما، إننا نعتبر الوعي نفسه تجمعا حسيا وسلطة عليا ؛ وما هو فضلا عن ذلك إلا أداة للتواصل ؛ لقد تطور في خضم العلاقات، مراعيا لمصالح العلاقة ... نطلق اسم «العلاقة» هنا حتى على تأثير العالم الخارجي فينا وعلى ردود الفعل التي يستدعيها ذلك من طرفنا ؛ وكذلك على التأثير الذي نمارسه على الخارج. إنه ليس قناة، بل عضوا ناقلا. ـــ

267

أن تكون هناك بين الذات والموضوع علاقات متكافئة، أن يكون الموضوع وكأنه الذات مرئية من الداخل، فهذه اختلاقات عَفًّى عليها الزمن. يرتبط قدر الشيء الذي نعيه في الغالب ارتباطا كليا بالمنفعة البدائية لما يصل إلى وعينا. كيف سيمكننا هذا المنظور الصغير للوعي، بأية طريقة كانت، أن نثبت للـ«ذات» وللـ«موضوع» معطيات تخص الواقع ! ـــ

268

تقييم القيمة : «أظن أن الشيء الفلاني بهذا» يعتبر هو جوهر الـ«حقيقة». في التقييمات تتجسد ظروف البقاء والنمو. كل أعضاء المعرفة والحواس فينا متطورة فقط بالنسبة لظروف البقاء والنمو. والثقة في العقل ومقولاته، في الجدل، أي تقييم المنطق، تبين فقط منفعة العقل للحياة، وهي منفعة سبق أن بينتها التجربة : وليس «حقيقة»هـ.

الشروط الأساسية لكل ما هو حي ولحياة كل ما هو حي : وجود قدر من الإيمان، قدرتنا على الحكم ؛ عدم الشك في القيم الأساسية. إذن، من الضروري أن يكون هناك شيء نعتبره حقيقيا، ـــ ولكن ليس من الضروري أبدا أن يكون حقيقيا.

«العالم الحقيقة والعالم الظاهر» ـــ أُرجع تناقض هذين المذهبين إلى العلاقات بين القيم. لقد اعتبرنا ظروف البقاء صفات للكينونة بصفة عامة. نظرا لكون الثبات في الإيمان يلزمنا، لكي نتطور، فقد توصلنا إلى إثبات أن العالم ـــ «الحقيقة» لم يعد متغيرا ومتقلبا، بل هو الكينونة.

269

في نهاية المطاف تصل الأخلاق، أي نوع الحياة الذي برهنت عليه تجربة واختبار طويلين، إلى الوعي على شكل قانون، متخذة شكلا مهيمنا ... وبذلك تدخل في دائرتها مجموعة القيم والشروط المماثلة لها : فتصبح هذه الأخلاق مبجلة ومقدسة وحقيقية ؛ ونسيان الناس أصلها جزء من تطورها... وإنها لعلامة أن تكون قد انتصبت كسيدة ...

وقد يحدث نفس الشيء تماما لمقولات العقل : فقد كان بإمكانها، بعد كثير من المحاولات والتردد، أن تبرهن على نفسها من خلال منفعة نسبية... وقد حلت لحظة تم فيها تلخيصها وإيصالها إلى الوعي مجتمعة، — حيث تم فيها إصدار الأوامر إليها، أي أنها تصرفت كما لو كانت هي الآمرة... ومنذ ذلك الحين أصبحت تعتبر قبلية، متجاوزة التجربة، غير قابلة للبرهنة. ومع ذلك فإنها قد لا تعبر عن نوع من غاية العِرق والنوع، — ومنفعتها هي وحدها «حقيقة» ها.

270

لا وجود لكل من «العقل»، والبرهان والفكر والوعي، والروح، والإراد، والحقيقة: فما هي إلا أوهام لايمكن استعمالها. لا يتعلق الأمر هنا بـ«ذات وموضوع»، بل بنوع حيواني لا يتكاثر إلا في ظل الدقة النسبية لإدراكاته، وخاصة بفعل انتظام هذه الإدراكات (بحيث تصبح جديرة بمراكمة التجارب)...

تعمل المعرفة كأداة للقوة. وبالتالي فمن البديهي أن تزداد بازدياد القوة...

معنى المعرفة : يجب هنا، كما هو الشأن بالنسبة لفكرة «الخير» و«الجمال»، أن ننظر بصرامة ودقة إلى هذا التصور من زاوية علم الأحياء والمركزية البشرية [19]. لكي يتمكن نوع معين من البقاء ويزداد قوة فإن تصوره للواقع يجب أن يشمل الكثير من الأشياء القابلة للإحصاء والثابتة، ولكي يكون جديرا بأن يضع على أساس هذا التصور ترسيمة سلوكه. تقف منفعة البقاء — وليست الحاجة المجردة والنظرية إلى عدم الوقوع ضحية التضليل — وراء تطور أعضاء المعرفة كباعثة له...، وهذه

الأعضاء تتطور بشكل يجعل ملاحظتنا لها تكفي لبقائنا. بتعبير آخر : يتوقف قدر الحاجة إلى المعرفة لدى نوع ما على قدر نمو إرادة القوة لديه ؛ وهذه الأعضاء تتطور بشكل يجعل ملاحظتنا لها تكفي لبقائنا. بتعبير آخر : يتوقف قدر الحاجة إلى المعرفة لدى نوع ما على قدر نمو إرادة القوة لديه ؛ يستولي أحد الأنواع على قدر من الواقع ليصير سيده، ليجعله في خدمته.

لا يجدر بنا أن نُثبت وننفي نفس الشيء في وقت واحد : فهذا أحد مبادئ التجربة الذاتية ؛ ليست «الضرورة» هي التي تتجسد هنا، بل الاستحالة فقط.

إذا كان مبدأ عدم التناقض، حسب أرسطو، هو أكثر المبادئ يقينية، إن كان هو الأخير، هو المتواجد على القمة وإليه تعود كل البرهنات، إن كان هو مكمن مبدأ كل المسلمات الأخرى : فهذا هو أوان فحصنا بصرامة لكمية الإثباتات التي يفترضها إجمالا. فإما أن نثبت معه شيئا يخص الواقع، والكينونة، وكأنه على سابق معرفة بهذا، فوق ذلك : أي أننا لا نستطيع أن نطلق عليه صفات متناقضة. وإما أن يكون الافتراض يعني أنه لا يجب علينا أن نطلق عليه صفات متناقضة. وآنذاك سيصير المنطق ضرورة، ليس لأجل معرفة الحقيقة، وإنما لتحديد وترتيب عالم يجب أن نسميه العالم الحقيقي.

باختصار، يبقى السؤال مفتوحا : هل المسلمات المنطقية مطابقة للواقع، أم أنها مقاييس ووسائل لنخلق بها، لنا نحن، الأشياء الحقيقية، والتصور «حقيقة الشيء» ؟... والحالة أنه، لكي نتمكن من إثبات الأمر الأول يجب، كما أسلفت، أن نكون قد عرفنا الكينونة ؛ وهو أمر غير حاصل. إذاً فالمبدأ لا يضم معيارا للحقيقة، بل ضرورة تخص ما يجب اعتباره حقيقيا.

إذا سلمنا بأن هذا أ المطابق لنفسه، مثلما تسلم به مبادئ علم المنطق (وكذلك الرياضيات)، لا وجود له، إذا سلمنا أن هذا أ هو ظاهر، فإنه يجب أن نستخلص من ذلك أن أساس المنطق هو العالم — الظاهر. الواقع أننا نؤمن بهذا المبدأ تحت تجريبية لا نهائية يبدو أنها تؤكد ذلك على الدوام. الجوهر هو الأساس الحقيقي (الـ أ) : وإيماننا بالأشياء هو الشرط الأولي للإيمان بالمنطق. أ المنطق مثل ذرة من التشكل الجديد

للـ«شيء» ... بعدم فهمنا لهذا وبجعلنا من المنطق معيارا للكينونة الحقيقية نكون قد شرعنا في اعتبار أقانيم الجوهر، والصفة، والموضوع، والذات، والفعل، إلخ، حقائق : أي أننا نتصور عالما ميتافيزيقيا، «عالما — حقيقة» (— وهو نسخة مكررة من عالم الظاهر...).

بما أن أعمال الفكر الأولية، والإثبات والنفي، واعتبار شيء ما حقيقيا، واعتبار شيء ما خاطئا، بما أنها لا تفترض عادة فقط، بل الحقَّ في اعتبار الشيء حقيقيا أو النفي، فقد أصبح يهيمن عليها الإيمان بأن المعرفة قد وجدت لنا، وأن الحكم يمكنه فعلا أن يمس الحقيقة : — باختصار، لا يشكل المنطق في كونه يستطيع تبيان شيء بخصوص الشيء الحقيقي في ذاته (أي أننا لا نستطيع إطلاق صفات متناقضة على الشيء الحقيقي في ذاته).

هنا يسود الحكم المسبق الحسَّوي البدائي الذي يريد أن تكون الحواس هي التي تعلمنا حقائق الأشياء، — يعلمنا أنه لا يمكننا أن نقول عن نفس الشيء، وفي نفس الوقت، أنه صلب ورخو. (البرهنة الفطرية القائلة «لا أستطيع أن أشعر بإحساسين متناقضيْن في ذات الوقت» — هي برهنة بدائية وخاطئة تماما.)

ينطلق تحريمنا للتناقض في التصورات من الاعتقاد أننا جديرون بصياغة تصورات، وأن التصور لا يدل فقط على جوهر الأشياء، بل يتضمنه ... الحقيقة أن المنطق (مثل الهندسة والجبر) لا يُطبَّق إلا على كائنات متصورة نحن من اختلقها. المنطق هو محاولة فهم العالم الحقيقي من خلال ترسيمة الكيْنونة التي حددناها نحن، وتحديدا: جعْلنا جديرين بتشكيل العالم الحقيقي وتحديده ...

272

ليس «أن نعرف» وإنما أن نضع ترسيمة، — أن نفرض على السديم ما يكفي من الانتظام والأشكال لنلبي حاجتنا التطبيقية.

الحاجة هي التي حددت مقياس تكوّن العقل، والمنطق، والمقولات : ليست الحاجة إلى «المعرفة»، بل إلى الفهم والتلخيص ووضع الترسيمة لنصبح ماهرين في الحساب ...

(تنظيم الأشياء المتشابهة، المتساوية، وتأويلها، — تطور العقل هو العملية نفسها التي تخضع لها الحواس في كل انفعالاتها !) الذي حرك هذا ليس «فكرة» موجودة قَبْلاً، بل المنفعة ؛ إننا لا نعتبر الأشياء قابلة للتقييم والمعالجة إلا حين نراها بدائية ومتساوية... ليست القصدية في العقل نتيجة بل أثرا : تحذرنا الحياة من أي صنف آخر من العقل نبذل مجهودات لبلوغه، — لأنه يصبح آنذاك قليل الوضوح — غير متساوٍ.

إننا لا نعتبر المقولات «حقائق» مشروطة. (بما أنه لا أحد سيؤيد القول بالضرورة المطلقة لوجود الناس فإن العقل، وكذلك فضاء أقليدس، هو مجرد خاصية لدى بعض الأنواع الحيوانية، خاصية واحدة إلى جانب خاصيات أخرى كثيرة...)

الإكراه الذاتي يمنعنا من مناقضة هذا هو إكراه بيولوجي: غريزة المنفعة التي يمكننا استنتاجها هنا أصبحت بالنسبة لنا طبيعة ثانية، لقد كادت هذه الغريزة تصبح هي نحن... ولكن محاولة البرهنة بهذا على أننا نملك حقيقة في ذاتها تعتبر سذاجة وأية سذاجة! فعدم القدرة على المناقضة دليل على العجز وليس على «الحقيقة».

273

لا بد من التسليم بما هو كائن كي نتمكن من التفكير والاستنتاج. فالمنطق لا يستعمل إلا صيغا مطابقة لأشياء ثابتة. لذلك لن يكون لهذا التسليم أية قوة برهانية بالنسبة للواقع. فما هو «كائن» يشكل جزءا مما نراه. الـ «أنا» باعتباره «جوهرا» (-لا تؤثر فيه الصيرورة والتطور).

العالم الخيالي عالم الذات، والجوهر، والـ «عقل»، إلخ. ضرورة - هناك فينا قوة آمرة، ومبسطة تزيف وتُفرق بتصنُّع. « الحقيقة» هي إرادة التحكم في تعدد الأحاسيس - وتصنيف الظواهر بالتسلسل حسب مقولات محددة. ونحن في هذا ننطلق من الإيمان بما هو « في ذاته» في الأشياء (نعتبر الظواهر حقيقية).

طبع العالم الذي نجده في صيرورته «غير قابل لتشكيل»، إنه خاطئ، ويناقض نفسه. المعروفة والصيرورة يقصيان بعضهما. وبالتالي، يجب أن تكون الـ «معرفة» شيئا آخر: يجب أن تسبقها رغبة في جعل الشيء ممكن المعرفة يجب أن يخلق نوع من الصيرورة وهم الكينونة.

274

الافتراض الأول: ــــ انتصار طريقة التفكير السهلة على طريقة التفكير الصعبة؛ ــــ وهذا مصوغ على شكل عقيدة : الوجه البسيط للحقيقة. ــــ أراد بالقول: الاعتقاد بأن الوضوح يبرهن على شيء ما لصالح الفضيلة هو شيء طفولي محض.

الافتراض الثاني: نظرية الكينونة، والشيء، وكل الوحدات الثابتة، أسهل بكثير من عقيدة الصيرورة والتطور...

الافتراض الثالث: ــــ لقد تم اعتبار المنطق وسيلة لتسهيل التفكير: كوسيلة للتعبير ــــ وليس كحقيقة... ولاحقا تصرف كحقيقة...

275

هكذا يتم تحديد وجهة نظرنا النفسية:

1- ضرورة التواصل: لكي يكون التواصل ممكنا، يجب أن يكون هناك شيء ثابت، ومبسَّط، وممكن التحديد (وخاصة في ما نسميه الحالة المطابقة). ولكي يكون شيء ما قابلا لأن يُتواصل بشأنه يجب أن يُعطي الإنطباع على كونه شيئا متصنَّعا، شيئا «ممكنة معرفته». مادة الحواس، وقد جعلها الإدراك متصنَّعة، وقد تحولت إلى خطوط عريضة، وقد أصبحت متشابهة، وقد تم ترتيبها مع أشياء مماثلة لها. إذا: لقد تمت، إلى حدما، مَنْطَقَة لانهاية وسديم الانطباعات الحسية.

2- عالم الـ «ظواهر» هو العالم المتصنَّع الذي يخلق لدينا انطباع الحقيقة. تكمن الـ «حقيقة» في العودة المستمرة للأشياء المتماثلة، والمعروفة، والمتشابهة، في الطبع المنطقي لهذه الأشياء، في اعتقادنا أنه يمكننا هنا أن نحسب ونحدد.

3- ليس نقيض عالم الظواهر هذا هو «العالم الحقيقة»، بل عالم سديم الأحاسيس الذي لاشكل له وغير القابل للتشكل، ــــ أي نوع آخر من عالم الظواهر، عالم غير « ممكنة معرفته» بالنسبة لنا.

4- يجب أن نجيب عن الأسئلة المتعلقة ب «الأشياء في ذاتها» بغض النظر عن قابلية الانفعال في حواسنا وفعالية عقلنا، بسؤال آخر: كيف السبيل إلى معرفة أن

هناك أشياء؟ نحن الذين خلقنا «وجود الأشياء». المقصود هنا هو أن نعرف ما إذا كانت توجد طرق كثيرة لخلق هذا العالم — الظاهرة — وما إذا كانت هذه الطريقة في الخلق، والمنطقة، والتصنُّع، والتزييف هي الواقع نفسه بكل تأكيد؛ باختصار، ما إذا كان الذي يعين للأشياء مكانها هو وحده الواقعي، وما إذا كان «تأثير العالم الخارجي علينا» هو نتيجة تلك الذوات المريدة... «الكائنات» الأخرى تؤثر علينا؛ وعالم الظواهر المتصنَّعة هو ضبط لأفعال هذه المخلوقات وانتصار عليها: إجراء دفاعي نوعا ما. وحدها الذات تمكن البرهنة عليها : يمكن أن نفترض أنه ليست هناك إلا ذوات، — وأن «الموضوع» ما هو إلا تأثير الذات على الذات... صيغة من صيغ الذات.

276

قال بارمنيدس: « لايمكن للعقل أن يتصور العدم.» نجد أنفسنا في الطرف الآخر ونقول: « مايمكن تصوره هو وهم.»

277

فكرة الجوهر هي نتيجة فكرة الذات: وليس العكس! إذا ضحينا بالروح، أي بالـ«ذات»، فستنعدم شروط تخيل الـ«جوهر». نحصل على درجات الكينونة، نضحي بالكينونة.

نقد ال«واقع»: إلى أين يؤدي «الكثير أو القليل من الواقع»، وتدرُّج الكينونة الذي نؤمن به؟

تعيطنا درجات الإحساس بالحياة وبالقوة (منطق وترابط ما عشناه) مقياس الـ «كينونة»، والـ «واقع»، والـ « جوهرية»، — «الذات»، هي الوهم الذي يود أن يجعلنا نصدق بأن كثيرا من الحالات المتماثلة هي لدينا أثر لنفس الموضوع: ولكننا نحن من أوجد الـ « مماثلة» بين هذه الحالات المختلفة. مساواة هذه الحالات وتجميلها هما الأثرين وليس التماثل (— يجب، على العكس، نفي المماثلة —).

278

التقسيم النفسي لإيماننا بالعقل. فكرة الـ «واقع» والـ «كينونة» مقتبسة من إحساسنا بالـ «ذات».

«الذات»: يتم تأويلها انطلاقا منا، بحيث يتم اعتبار الأنا هو الجوهر، هو سبب كل فعل، هو الفاعل.

يستمد العرض، والصفة، والمسلمات المنطقية الماورائية، والإيمان بالجوهر، إلخ. قوتهم الإقناعية من عادة اعتبار كل ما فعله هو نتيجة لإرادتنا: — بحيث أن الأنا، باعتباره جوهرا، لا يتلاشى في خضم تعددية التغير. ولكن لا وجود للإرادة.

ليست لدينا مقولات تمكننا من الفصل بين «عالم في ذاته» وعالم يُعتبر تمثُّلا، كل مقولات العقل لدينا أصلها حسوي: مستنبطة من العالم التجريبي. يكشف تاريخ تصوري الـ «روح» والـ «أنا» أن أقدم تقسيم لايزال، هنا أيضا، («يتنفس»، «يحيا».)

إذا لم يكن في التصور أي شيء مادي، فإنه ليس فيه أي شيء روحي أيضا. لم يعد التصور يضم شيئا...

ليست هناك ذات «ذرة». فدائرة الذات تتسع أو تتقلص باستمرار، ومركز النظام ينتقل باستمرار إلى قسمين. كما أنه يستطيع أن يحول ذاتا أضعف منه، دون أن يدمرها، ليجعل منها موظفة لديه ويشكل معها، إلى حدما، وحدة جديدة. ليس هناك «جوهر» كذلك، وإنما شيء يسعى إلى أن يقوي نفسه بنفسه؛ ويريد الإبقاء على نفسه بشكل غير مباشر (أن يزايد على نفسه —).

279

من أجل «الظاهر المنطقي». — فكرة الـ «فرد» وفكرة الـ « نوع» هما أيضا خاطئتان وظاهريتان فقط. الـ «نوع» إنما يعبر عن كون جماعة من الكائنات المتماثلة تظهر في نفس الوقت وكون سرعة التطور والتحول قد تباطأت أمدا طويلا : بحيث أن التغيرات والزيادات الصغيرة التي طرأت فعلا لا تدخل في الحسبان - — مرحلة التطور لا يعود فيها التطور مرئيا، بحيث يبدو التوازن وكأنه قد تحقق، وهو ما يفتح المجال بسهولة أمام الفكرة الخاطئة عن كون الهدف قد تحقق — وأن التطور قد تضمن غاية...).

يبدو الشكل كشيء يدوم، وبالتالي كشيء ثمين؛ ولكننا نحن هم من ابتكر الشكل؛ ومهما يكن عدد المرات التي ننجز فيها «نفس الشكل» فإن هذا لا يعني بتاتا أنه نفس الشكل، — لأن الذي يظهر دائما هو شيء جديد، — ونحن، الذين نقارن، نحن وحدنا من يحق لنا أن نجمع الجديد، إذا كان شبيها بالقديم، ونضيفه إلى وحدة الـ« شكل». وكأنه علينا أن نبلغ نوعا معينا، كأن هذا النوع سيكون هو النموذج والمثال الذي سيحذو التشكيل حذوهما.

الشكل، النوع، القانون، الفكرة، الهدف، — في كل شيء نرتكب خطأ إحلال واقع مزيَّف محل وهم: وكأن ما يحدث يحمل في طياته وجوب الطاعة علينا، — نقوم بفصل متكلَّف بين الذي يقوم بالفعل وبين الذي حَسَبَهُ يأخذ الفعل وِجْهَتَهُ (ولانحدد الذي والذي حَسَبَهُ إلا التزاما بوثوقينا الماورائية — المنطقية: فهما ليس «واقعين»).

يجب ألا نؤول الإكراه الذي يدفعنا إلى تشكيل تصورات وأنواع، وأشكال، وعنايات وقوانين («عالم من الحالات المتطابقة») بما مفاده أننا بذلك سنحدد العالم — الحقيقة؛ إنها على العكس ضرورة تحضيرنا لأنفسنا عالما يكون فيه وجودنا ممكنا: — نخلق بذلك عالما يمكن تحديده، مبسَّطا، ويمكننا فهمه.

نفس الإكراه لا يزال قائما في فعالية الحواس التي يدعمها العقل — من خلال التبسيط، والتضخيم، والإبراز، والتأويل، وهو ما ترتكز عليه كل «معرفة»، كل احتمال لأن يصير الشيء معقولا. لقد حددت حاجاتُنا حواسنا بشكل كبير إلى حد أن «نفس عالم المظاهر» يعود للظهور كل مرة ويتخذ بذلك مظهر الواقع.

الإكراه الذاتي الذي يجعلنا نؤمن بالمنطق يفسر لنا كوننا لم نفعل شيئا، زمنا طويلا قبل أن نعرف المنطق نفسه، سوى إدخال مسلماته في ما يحدث: والآن نجد أنفسنا في حضرتها — ولا نملك فعل غير ذلك —، ويعتبر خيالنا هذا الإكراه هو ضمانة الـ« حقيقة». نحن هم من خلقنا «الشيء»، و« الشيء المساوي». والذات، والصفة، والفعل، والموضوع، والجوهر، والشكل، بعد أن اكتفينا مدة بجعل الشيء مساويا، وفظا وبسيطا. يبدو لنا العالم منطقيا لأننا نحن من مَنْطَقْنَاه أولاً.

لمحاربة الحتمية. — كون شيء ما يحدث بانتظام وفي ظروف ملائمة لا ينتج عنه أن يحدث هذا الشيء حتما. إذا كانت كمية من القوة تتحدد وتتصرف، في كل حالة معينة، بطريقة خاصة وفريدة فلا يجب أن نتستنتج من ذلك أن « إرادته ليست حرة». « الحتمية الآلية» أمر واقع : نحن الذين أردنا استخدامها من أجل تأويل ما يحدث. لقد فسرنا احتمال تبيان ما يحدث بأنه نتيجة حتمية تحكم الأحداث. ولكن كوني أقوم بشيء حتمي لا يعني أن نستنتج من ذلك كوني أقوم به مكرها. فالإكراه لا تمكن البرهنة عليه بتاتا في الأشياء: القاعدة تبين فقط أن الشيء حين يحدث هو نفسه فإنه لا يكون في نفس الوقت شيئا آخر. فهذا الوهم لا يظهر إلا بعد أن ندخل ذوات، أي «فاعلين»، في الأشياء: كل ما يحدث هو نتيجة إكراه يمارس على الذات، — ولكن من الذي يمارسه؟ الفاعل مرة أخرى. السبب والنتيجة — مفهومان خطيران ما دمنا نفكر في شيء يكون هو السبب وشيء يقع عليه الفعل.

* * *

أ) ليست الحتمية واقعا ملموسا، بل تأويلا.

ب) حين ندرك أن الـ « ذات» ليست فاعلة، بل فقط وهما، فإنه ينتج عن ذلك أمور كثيرة.

على غرار الذات ابتكرنا السببية وأدخلنا ها في خليط الأحاسيس. إذا لم نعُد نؤمن بالذات الفاعلة فسيتلاشى كذلك الإيمان بالمواضيع الفاعلة، وبالفعل المتبادل، وبالسبب والنتيجة، بين تلك الظواهر التي نسميها أشياء.

كما سيزول بالطبع عالم الجواهر الفردة الفاعلة: الذي نسلم به دائما بشرط أن تكون لنا حاجة إلى ذوات.

وأخيرا يزول «الشيء في ذاته»، لأنه في مجمله مساوٍ لـ « الذات في ذاتها». ولقد أدركنا أن الذات من بنات الوهم. والتناقض بين «الشيء» في ذاته و«الظاهر» لا يستطيع الصمود؛ وبذلك تزول كذلك فكرة « الظاهرة».

ج) إذا تخلينا عن الذات الفاعلة، فإننا نتخلى كذلك عن الموضوع الذي يقع عليه الفعل. ليست الديمومة، ومساواة الشيء لذاته، والكينونة لازمة لا في ما نسميه ذاتا ولا في ما نسميه موضوعا: إنها تعقيدات الشيء الذي يحدث، مقارنة مع تعقيدات أخرى دائمة في مظهرها، — وهي تتميز مثلا باختلاف في هيأة ما يحدث (رائحة — حركة؛ جامد — سائل: وهي فروق لا توجد نفسها بنفسها، وبها نعبر عن كون الاختلافات في الدرجات، وبسبب مقياس خاص بالبصر، تشبه التناقض. لا وجود للتناقض: لقد أخذنا فكرة التناقض من المنطق — ونقلناها بطريقة خاطئة إلى الأشياء).

د) إذا تخلينا عن فكرة الـ «ذات» والـ « موضوع»، فسنتخلى كذلك عن فكرة الـ «عقل» وكائنات أخرى مفترضة، و« أزلية المادة وثباتيتها»، إلخ. لقد تخلصنا من المادية.

* * *

إذا وضحنا فكرتنا من وجهة نظرا الأخلاق قلنا إن العالم باطل. وبما أن الأخلاق نفسها هي جزء من هذا العالم فإنها باطلة هي الأخرى. إرادة الحقيقة توطيد، عمل لجعل العالم حقيقيا ودائما، إزالة لهذا الطابع الباطل، ونقلاله إلى الكينونة. وبالتالي فالـ «حقيقة» ليست شيئا موجودا يجب البحث عنه واكتشافه، — وإنما شيئا يجب خلقه، شيئا يعطي اسمه لعملية ما، بل لإرادة تحقيق انتصارما، إرادة ليست لها في حد ذاتها غاية: تقديم الحقيقة سيرورة لا تنتهي، وعزمٌ فعال، — وليست وصول شيء ثابت ومحدَّد إلى الوعي. إنها كلمة من أجل «إرادة القوة».

الحياة مبنية على فرضية الإيمان بشيء له الدوام ويتصرف بطريقة منتظمة؛ كلما كانت الحياة قوية، كلما وجب أن يكون شاسعا ذلك العالم الممكن تخمينه والذي أعطيناه الوجود نوعاما. ووسائل الحياة هي المنْطَقة والعقلنة والمنهجة.

يلقي الإنسان إلى خارجه بغريزة الحقيقة لديه. بـ «هدف»، ليجعل منها عالم الكينون، العالم الما ورائي، الـ « شيء في ذاته»، العالم الموجود. حاجته كخلاق

تتخيل مسبقا ذلك العالم الذي يسعى إليه، يستبقه: وهذا الاستباق (هذا «الإيمان» بالحقيقة) هو دعامته.

* * *

يعتبر كل ما يحدث، وكل حركة، وكل صيرورة، تحديدا للدرجات والقوى، — يعتبر صراعا...

* * *

« خير الفرد» وهمي تماما مثله مثل «خير النوع»: لا نُضحي بالأول من أجل الثاني ؛ النوع، إذا أدركنا الأمور جيدا، متقلب مثله مثل الفرد. «بقاء النوع» هو نتيجة لنمو النوع، وهو ما يساوي انتصارا على النوع، بسيره قدما نحو نوع أقوى.

* * *

بمجرد ما نتخيل أحدا ما مسؤولا عن تكويننا الخِلْقي (الله، الطبيعة)، ناسبين إليه وجودنا، وسعادتنا وطبعنا، وكأن ذلك كان من أهدافه، فإننا نفسد على أنفسنا براءة الصيرورة. ويكون لدينا آنذاك أحد يريد تحقيق شيء لنا ومن خلالنا.

* * *

الـ « قصدية» الظاهرة («هذه القصدية التي تفوق كل فن إنساني») ليست سوى نتيجة لإرادة القوة التي تجري في كل ما يحدث — ؛ فحين يصبح عرق ما أكثر قوة فإن ذلك يخلق ظروفا تشبه مسودة القصدية — ؛ الغايات الظاهرة ليست مقصودة، ولكن بمجرد ما تهيمن قوة أكبر على قوة أضعف منها، بحيث تعمل هذه الأخيرة كوظيفة الأولى، تنشأ تراتبية، وتنظيم يثير حتما فكرة نظام تلعب فيه الغاية والوسائل الدور الرئيسي.

ضد «الحتمية» الظاهرة:

— فهي مجرد كلمة للتعبير عن كون قوة ما لم تصر بعد شيئا آخر. ضد «القصدية» الظاهرة.

— فهي ليست سوى كلمة للتعبير عن نظام دوائر القوة وعن مجموع هذه الدوائر.

* * *

اعتبار الدقة المنطقية والشفافية معيارا للحقيقة (« الكل يسخر من الحقيقة، لأن تصورها شديد الوضوح» — ديكارت): وبهذا تصبح الفرضية الإوالية للعالم مرغوبة ومحل تصديق.

وهذا خلط فادح : مثل القول بأن صورة الحقيقة بسيطة. من أين عرف الناس أن الوضع الحقيقي للأشياء يكمن في العلاقة الفلانية مع عقلنا؟ — ألا يكون الأمر خلاف ذلك؟ ألا تكون الفرضية هي التي تمنحه أكبر إحساس بالقوة وبالثقة في النفس، إحساس يفضله العقل ويقدره أكثر، وبالتالي يعتبره حقيقيا؟ — يضع العقل سلطته ومعرفته الأكثر تحررا وقوة معيارا لأثمن الموجودات، وبالتالي للحقيقة...

«الحقيقة»: من زاوية الإحساس — هي ما يحرك الإحساس بقوةٍ أكبر («أنا»).

من زاوية العقل — هي ما يمنح الفكر أكبر إحساس بالقوة؛

من زاوية الحواس، اللمس، والبصر، والسمع، — هي ما يدفعنا إلى المقاومة الشرسة.

إذا، فتجليات الموضوع بدرجات كبيرة هي التي تثير الإيمان بـ «حقيقة»ه، أي بواقعيته. فالإحساس بالقوة، وبالصراع، وبالمقاومة، يقنعنا بوجود شيء نقاومه.

281

لقد فسر أوغست كونط تاريخ المناهج العلمية بشيء قريب من الفلسفة. — فتحديد «الصحيح» و«الخطأ»، وتحديد واقعية الأشياء عموما يختلف اختلافا جوهريا عن التحديد الإبداعي، عن فعل الإبداع، والتركيب، والتجاوز، والإرادة، مثلما هو مُتَّضمَّن في جوهر الفلسفة. إضفاء المعنى — لاتزال هذه المهمة في حاجة إلى الإتمام، إذا سلمنا بأن هناك معنى: نفس الشيء يقال عن الأصوات، وكذا عن مصائر الشعوب: إنها قابلة لتأويلات وتوجيهات شديدة الاختلاف، لبلوغ غايات شديدة

الاختلاف. الدرجة السامية هي تحديد الهدف وجعل الأصل مطابقا له: إذن تأويل الفعل وليس فقط تحويل التصورات.

282

يزداد « التظاهر» كلما ارتفعت درجة النوع في تراتبية الكائنات. يبدو أن العالم غير العضوي لا يعرف التظاهر، وفي العالم العضوي تبدأ الحيلة؛ وقد برعت النباتات في ذلك. وكذلك العظماء مثل قيصر، ونابليون (كلمة ستوندال في حقه)، والأعراق الرفيعة القدر، والإيطاليون، والإغريق (عوليس)؛ الحيلة كامنة في جوهر سمو قدر الإنسان...

إنها قضية الكوميدي. المثال الديونيسي الحق... بصر كل الوظائف العضوية، كل الغرائز الحيوية القوية: القوة التي تريد الخطأفي حياتنا؛ بل الخطأ كشرط للفكر. قبل أن «نفكر» يجب أن نكون قد « تخيل» نا؛ التشبيه بحالات مطابقة، بمظهر الهوية، أصلي أكثر من معقولية الهوية الحقيقية.

283

في عالم زائف يكون الصدق ميلا مخالفا للطبيعة: ولا يمكن أن تكون له قيمة إلا كوسيلة لبلوغ قوة زيف كبيرة. لكي يتم تخيل عالم الحقيقة، عالم الكينونة، كان من اللازم خلق الإنسان الصادق قبل ذلك (ولازما أن يعتقد أنه «صادق»).

بسيط، شفاف، لا يناقض نفسه، دائم، مساو لنفسه، لا يخطىء ولا يراوغ، لا يرتدي قناعا ولا ينافق: رجل من هذا النوع يتصور عالم كينونة على صورته هو ويسميه «الرب».

لكي يكون الصدق ممكنا يجب أن يكون محيط الإنسان كلُّه نقيا، صغيرا ومحترما؛ يجب أن يكون الامتياز، كيفما كان نوعه، لصالح الصادق. — أما الكذب والمكر والنفاق فيجب أ ن يثيروا الاندهاش...

284

القيم الأخلاقية في نظرية المعرفة نفسها.

الثقة في العقل — لم لا الريبة؟

يجب أ ن يكون العالم ـــ الحقيقة هو عالم الخير ـــ لماذا؟ اعتبار الظاهر، والتغير، والتناقض، والصراع أمورا لا أخلاقية: الرغبة في عالم لن يوجد فيه كل هذا.

تخيل العالم المتعالي للتخلي عن « الحرية الأخلاقية» (لدى كانط). اعتبار الجدل سبيل الفضيلة (لدى أفلاطون وسقراط: على ما يبدو لأن السفسطائية كانت تعتبر هي سبيل اللا أخلاقية).

النظر إلى الزمان والمكان نظرة مثالية: والنتيجة هي «وحدة» جوهر الأشياء، وعدم ارتكاب الذنوب، وعدم اقتراف الشر، والإعراض عن النقائض، ـــ تبرير للرب.

لقد نفى أبيقور إمكانية المعرفة: ليحافظ على القيم الأخلاقية (أي قيم مذهب المتعة) كقيم راقية. وقد فعل القديس أوغسطين نفس الشيء، وفعله باسكال («العقل الفاسد») لاحقا لصالح القيم المسيحية.

احتقار ديكارت لكل ما يتغير؛ وكذلك سبينوزا.

285

أ ـــ يبحث الإنسان عن « الحقيقة»: عن عالم لا يناقض نفسه، لا يخدع ولا يتغير، عن عالم ـــ حقيقة ـــ عالم لا مُعاناة فيه: فالتناقض والوهم والتغير هي أسباب المعاناة! إنه لا يشك في وجود عالم وجوداً مثلما ينبغي؛ بل يريد أن يشق طريقه إليه. أين يبحث الإنسان هنا عن فكرة الواقع؟ ـــ لماذا يثير الرغبة في المعاناة الناجمة عن التغير والوهم والتناقض؟ لماذا لا يستمد منهم سعادته؟...

احتقار وكراهية كل ما يحدث ويتغير ويتحول: ما مصدر هذا التطور في ما يبقى؟ من الواضح أن إرادة الحقيقة هنا ما هي إلا الرغبة في عالم يكون لكل شيء فيه الدوام.

الحواس تخدعنا، والعقل يصحح أخطاءنا: وبالتالي فالعقل، هكذا قرروا، هو السبيل إلى ما هو دائم، لا شك أن الأفكار التي اعتمدت على الحواس أقل ما يمكن هي الأقرب إلى «العالم ـــ الحقيقة».

ـــ الحواس هي مصدر أغلب المصائب ـــ فهي خداعة ومغوية وهدامة. لا يضمن السعادة إلا ما هو موجود: فالتغير والسعادة يقضيان بعضهما. وإنه لطموح كبير جدا أن نروم التطابق مع الكينونة. فهذه الصيغة هي التي تهدي إلى سبيل السعادة الكبرى.

مجمل القول: العالم مثلما ينبغي أن يكون موجودٌ؛ وهذا العالم، أعني العالم الذي نعيش فيه، خطأ، ـــ هذا العالم، الذي هو عالمنا، لا يجب أن يوجد.

يتضح الإيمان بالكينونة فقط كنتيجة: الباعث الأول الحقيقي هو قلة الإيمان بالصيرورة، الشك في الصيرورة، واحتقارها... أي نوع من الناس يفكر هكذا؟ نوع عقيم ومريض، نوع أصابه الضجر من الحياة. إذا تخيلنا النوع المضاد فسنجده غير محتاج إلى الإيمان بالكينونة: بل يحتقر الكينونة باعتبارها شيئا ميتا، ومملا، وغير ذي أهمية...

الاعتقاد بأن العالم الذي يجب أن يكون هو موجود فعلا اعتقاد العقيمين الذين لا يريدون خلق عالم مثلما يجب أن يكون. يسلمون بأنه موجود بالفعل، ويبحثون عن سبل بلوغه.« إرادة الحقيقة» تعني عجز إرادة الخلق.

الإعتراف بكون شيء ما قد	تضاد في
تم فعله بالطريقة الفلانية	درجات
العمل على أن يتم فعل شيء	قوة
ما بالطريقة الفلانية.	الطباع

تخيل عالم يطابق رغباتنا: استخدام الحيل والتأويلات النفسية لربط كل ما نبجله وكل ما هو مستحب لدينا بهذا العالم ـــ الحقيقة. « إرادة الحقيقة»، عند هذه الدرجة هي بالأساس فن التأويل، لذلك يلزمنا الكثير من قوة التأويل.

نفس الصنف من الرجال، الفقراء أكثر الذين لم يعودوا يملكون قوة التأويل ولا اختلاق الأوهام، يشكل الصنف العدمي. العدمي إنسان يرى أن العالم، مثلما هو كائن، ما كان له أن يوجد، وأن العالم، مثلما ينبغي أن يكون، غير موجود. وبالتالي

فوجودنا (بما فيه من فعل، ومعاناة، وإرادة، وإحساس) لا معنى له: موقف الـ«جدوى» هو موقف العدمي، ـــ وباعتباره موقفا فهو علاوة على ذلك تناقض للعدمي مع نفسه.

الذي لا يتقن وضع إرادته في الأشياء، الذي ليست له قوة ولا إرادة، يعرف على الأقل كيف يعطي للأشياء معنى، أي أنه يؤمن بأن لها إرادة.

إنه إجراء للإشارة إلى القدر الذي نعرف به، في إطار قوة الإرادة، إلى أي حد يمكننا الاستغناء عن المعنى في الأشياء، إلى أي حد نطيق العيش في عالم لا معنى له: لأننا ننظم جزءا منه. فامتلاك نظرة موضوعية قد يكون، من وجهة نظرا فلسفية، دليلا على فقر في الإرادة وفي القوة. لأن القوة تنظم أقرب ما يوجد بجواد الإنسان؛ الـ «عارفون» الذين يريدون تحديد ما هو كائن فقط لا يمكنهم تحديد أي شيء مثلما ينبغي أن يكون.

الفنانون صنف وسيط: هم على الأقل يحددون رمز ما يجب أن يكون، ـــ إنهم منتجون لكونهم يتغيرون ويتحولون فعلا؛ وليس كما يفعل ال «عارفون»الذين يتركون كل شيء كما هو.

الصلة بين الفلاسفة والديانات التشاؤمية: هم رجال من نفس النوع (ـــ يضفون أسمى درجات الواقعية على الأشياء التي يقدرونها على أنها هي الأسمى ـــ).

الصلة بين الفلاسفة والرجال الأخلاقيين وتقييماتهم ـــ اعتبار التأويل الأخلاقي للعالم هو معنى العالم، بعد الحط من شأن المعنى الديني).

سحق الفلاسفة بتدمير عالم الكينونة؛ مرحلة العدمية انتقالية قبل أن تصبح القوة كافية لقلب القيم، لتأليه عالم الصيرورة والمظهر وقبوله على أنه هو العالم الوحيد.

ب) قد تكون العدمية، باعتبارها ظاهرة عادية، علامة قوة متنامية أو ضعف متزايد:

إما أن قوة الخلق والإرادة قد تطورت بشكل لم تعد معه في حاجة إلى هذا التأويل العام، وإلى إعطاء معنى ما (« الواجبات الحالية»، الدولة، إلخ)؛

وإما أن القوة الإبداعية التي تتخيل الكينونة تقل، ويصير زوال الوهم هو الحالة السائدة. العجز عن الإيمان ب «كينونة» ما، ال «جحود».

ماذا يعني العلم بالنسبة لهذين الاحتمالين؟

1 - إنه علامة على القوة وضبط النفس، تدل على أنه يمكننا الاستغناء عن عالم الأوهام التي تعترينا وتداوي جراحنا؛

2 - كما يمكنه أن يدمر خفية بالتدريج، ويشرح، ويزيل الأوهام، ويضعف.

ج) الإيمان بالحقيقة، الحاجة إلى الاستناد على شيء يعتبر حقيقيا: اختزال نفسي، بعيدا عن كل التقييمات التي كانت سائدة حتى الآن. الخوف، الكسل.

وكذلك الكفر: اختزال. وبهذا المعنى يكتسب قيمة جديدة، إن لم يكن هناك وجود للعالم — الحقيقة (—وبهذا تعود حرة أحاسيس القيمة، التي تم تبذيرها حتى الآن من أجل عالم الكينونة).

286

طبع الصيرورة بطابع الكينونة — تلك هي إرادة القوة في ذروتها. تزييف مضاعف، تزييف أصله الحواس، وآخر أصله في العقل، للمحافظة على عالم الكينونة والديمومة والمساواة.

أن يعود كل شيء باستمرار، ذلك هو أقصى تقارب بين عالم الصيرورة وعالم الكينونة. قمة التأمل.

القيم المنسوبة إلى الكينونة هي مصدر الإدانة والاستياء في الصيرورة: وذلك بعد ما تم خلق الكينونة.

تحولات الكينونة (الجسد، الرب، الأفكار، القوانين الطبيعية، الصيغ، إلخ.) — اعتبار الكينونة مظهرا؛ قلب القيم: لقد كان المظهر هو ما يضفي القيمة. المعرفة في ذاتها مستحيلة في الصيرورة؛ فكيف إذا تكون المعرفة ممكنة؟ باعتبارها خطأ يرتكبه الإنسان في حق نفسه، باعتبارها إرادة للقوة، باعتبارها إرادة للوهم. — اعتبار

الصيرورة ابتكارا، إرادة، نفيا للذات، انتصارا على الذات: لاذاتا، بل موضوعا، تقييما أخلاقيا. لا «علل» ولا «معلولات». ـــ اعتبار الفن إرادة لتجاوز الصيرورة، «تخليدا»، ولكن على مدى قصير، حسب المنظور التالي: تكرارا نوعاً ما، وبشكل مصغَّر، لنزوع الكل.

كل مافيه حياة يجب اعتباره صيغة مصغرة للميل العام: ومنذ ذلك الحين سيتم تحديدٌ جديد لفكرة الـ«حياة» كإرادة للقوة.

ومحل « السبب» و« النتجية» سيحل صراع عناصر الصيرورة مع بعضها، مع المغفرة للخصم في أغلب الأحيان؛ ليس هناك عدد ثابت في الصيرورة.

287

علم نفس الميتافيزيقا. ـــ هذا العالم ظاهري: إذاً هناك عالم ـــ حقيقة؛ ـــ هذا العالم مشروط: إذا هناك عالم مطلق؛ ـــ هذا العالم مليء بالمتناقضات: إذا هناك عالم خالٍ من المتناقضات؛ ـــ هذا العالم في إطار الصيرورة، إذا يوجد عالم كائن: ـــ كل هذه خلاصات خاطئة (نتيجة ثقة عمياء في العقل: إذا كان أ موجوداً، فلا بد أن توجد الفكرة المناقضة له، أي ب). المعاناة هي التي توحي بهذه الخلاصات: الواقع أن هذه ماهي إلا توق لذلك العالم؛ كما أن الحقد على عالم يجعلنا نعاني يتجسد في كوننا نتخيل عالما آخر، عالما أثمن منه : هنا يصبح حقد الميتافزيقيين على الواقع خلاقا.

السلسلة الثانية من الأسئلة: لماذا المعاناة؟... وعن هذا تنتج خلاصة حول علاقة العالم ـــ الحقيقة بعالمنا الذي هو عالم الظاهر، عالم التغير والمعاناة والتناقض : 1) المعاناة كنتيجة للخطأ: كيف يكون الخطأ ممكنا؟ ـــ 2) المعاناة كنتيجة للذنب: كيف يكون الذنب ممكنا؟ (ـــ تجارب مستخرجة من محيط الطبيعة التي نجعلها كونية ونسقطها على العالم «في ذاته». وإذا كان العالم المشروط على علاقة سببية مع العالم المطلق، فيجب أن تكون حرية ارتكاب الخطأ والذنب مشروطة هي كذلك بهذا العالم ومرة أخرى نسأل لأية غاية؟... إذا فعالم الخطأ والصيروة والتناقض والمعاناة مراد: لأية غاية؟

عيب هذا القياس: تتم صياغة تصورين متناقضين، — بما أن واقعا يطابق أحدهما، فإنه «يجب» أن يطابق الآخر واقع أيضا. «وإلا فمن أين الحصول على المفهوم المضاد له؟» — وبالتالي فالعقل مصدر وحي بالنسبة للشيء في ذاته.

ولكن أصل هذه التناقضات لايحتاج لأن يعود بالضرورة إلى مصدر فوطبيعي للعقل: يكفي أن نعارضه بالأصل الحقيقي للأفكار: — فالأفكار تجد أصلها في المحيط العملي، محيط المنفعة، ولذلك تملك إيمانا حيا (إذا لم نخرج بخلاصات مطابقة لهذا العقل فإننا سنهلك: ولكن هذا لا «يبرهن» على ما يؤكده هذا العقل).

انشغال الميتافزيقيين بالمعاناة يدل على السذاجة. «الغبطة الأبدية»: شيء نفسي لا معنى له. الرجال الشجعان والخلاقون لايعتبرون الفرح والمعاناة أبدا مسائل ذات قيمة سامية، — إنهما ظاهرتان ثانويتان: يجب أن نريدهما معا، الفرح والمعاناة، إن نحن أردنا بلوغ شيء ما. يدل كون الميتافزقيين ورجال الدين يرون في الفرح والمعاناة مسألتين من الطراز الأول على شيء من المرض والضجر. حتى الأخلاق لا تكتسي في نظرهم أهمية كبيرة إلا لكونها تعتبر أحد الشروط الأساسية للقضاء على المعاناة.

وكذلك الانشغالات التي مصدرها الظاهر والخطأ: سبب المعاناة، والخرافة القائلة بقرن فكرن السعادة بفكرة الحقيقة (التباس: السعادة في الـ «يقين»، في الـ«إيمان»).

288

أصل «العالم - الحقيقة»

يكمن خطأ الفلاسفة في كونهم عوض أن يروا في المنطق وفي مقولات العقل وسائل لملاءمة العالم والغايات النفعية (إذا، مبدئيا، بغرض خلق نافع زائف)، فقد ظنوا أنه معيار الحقيقة، أي معيار الواقع. والواقع أن« معيار الحقيقة» كان هو المنفعة البيولوجية التي في نظام التغير المبدئي: وفي انتظار ألا يعرف نوع حيواني شيئا أهم من البقاء سيكون لنا الحق بالفعل في الحديث هنا عن الـ«حقيقة». كانت السذاجة تقتضي فقط اعتبار خاصية المركزية البشرية هي مقياس الأشياء، هي معيار الـ«واقعي» والـ«لاواقعي»: باختصار، تحويل شيء مشروط إلى شيء مطلق. وها هو

العالم ينقسم فجأة إلى قسمين، إلى «العالم — الحقيقة» و «عالم المظاهر»: وقد كان العالم الذي تخيل الإنسان، بأمر من عقله، أنه سيعيش فيه ويستقر، هو العالم الذي تم تحقيره له. عوض استعمال جنون الفلاسفة الأشكال كوسائل لجعل العالم طيع القيادة وممكنا تحديده من طرفه فقد أراد أن يكتشف أن وراء هذه المقولات يختبىء تصور هذا العالم، الذي لا يطابقه العالم الآخر، هذا العالم الذي نعيش فيه... لقد أسيء تأويل الوسائل، حيث اعتُبرت كمقاييس للقيم، بل استُعملت لإدانة قصدها الأول...

كان القصد هو خداع النفس بطريقة نافعة؛ وكانت الوسيلة هي ابتكار صيغ ورموز يمكن بواسطتها اختزال التعددية المزعجة في ترسيمة نافعة وسهلة الاستعمال.

ولكن، مع الأسف، تم الآن إدخال مقولة أخلاقية في الأمر؛ لا يريد أي كائن أن يخطىء، لا يجب على أي كائن أ ن يخطىء، — وبالتالي فليست هناك — إلا إرادة حقيقة واحدة. فما هي الـ«حقيقة».

ويوفر التناقض الترسيمة: لايمكن للعالم — الحقيقة الذي نبحث عن السبيل إليه أن يكون في تناقض مع نفسه، لا يمكنه أن يتغير أو يكون في صيرورة، ليس له أصل ولاغاية.

هذا هو أكبر خطأ تم ارتكابه، مصيبة الخطأ الحقيقية على الأرض: اعتقدنا أننا نملك في أشكال العقل معيار الواقع، — بينما لم نكن نسعى من وراء الأشكال إلا إلى التحكم في الواقع، لكي نسيء فهم الواقع بطريقة ذكية...

وها هو العالم قد أصبح زائفا، بسبب الخصائص المشكلة لواقعه؛ التغير، والصيرورة، والتضاد، والتناقض، والحرب. وقد أصبحت الحتمية هي هذه:

1- كيف نتخلص من العالم الزائف، من العالم الذي ما هو إلا ظاهر؟ (— لقد كان هو العالم الحقيقي والفريد)؛

2- كيف يكتسب المرء بنفسه، ما وسعه ذلك، الطبع المضاد لطبع العالم — الظاهر؟ (تصور الكائن الكامل، نقيض كل كائن واقعي، ونقيض الحياة بالتحديد...)

كان تيار الأفكار كله يقوم على الافتراء على الحياة؛ وقد تم اختلاق لبس بين الوثوقية المثالية وبين المعرفة بصفة عامة: بحيث أن الطرف المعارض شرع هو الآخر في كراهية العلم.

وهكذا تم إغلاق طريق العلم إغلاقا مزدوجا: من طرف الإيمان ب «العالم — الحقيقة»، ومن طرف خصوم هذا الإيمان. كانت العلوم الطبيعية والفسلجة 1) مدانة في مواضيعها، 2) محرومة من امتيازاتها...

في العالم الواقعي، الذي يترابط فيه كل شيء وينحصر، تكون إدانة شيء ما وإقصاؤه في الخيال بمثابة إدانة كل شيء وإقصائه، وكلمة «ما كان لهذا أن يكون»، « ما كان أن يكون بهذا الشكل» تهريج. بتخيلنا للعواقب سندمر نبع الحياة، إن نحن أردنا أن ندمر ما هو، بمعنى أو بآخر، خطير وهدام. الفسلجة تبين هذا بشكل أفضل!

نرى كيف أن الأخلاق أ) تسسم تصور العالم كله، ب) توقف السير نحو المعرفة، نحو العلم، ج) تفسخ الغرائز الحقيقية وتفسدها بتعليمها الناس أن يعتبروا الجذور لا أخلاقية).

نرى أمام أعيننا آلة الانحطاط البشعة تعمل، الأداة التي تتوصل إلى المحافظة على نفسها مطلقة على نفسها أقدس الأسماء، ومتخذة أقدس المظاهر.

289

أ

أرى اليوم، باستغراب، أن العلم يستسلم لجعله يهتم فقط بالعالم — الظاهر: إننا لانملك عضو المعرفة لإدراك العالم — الحقيقة، أيا كان.

ومن حقنا هنا أن نتساءل: ما هو عضو المعرفة الذي يمكننا من إقامة هذا التعارض؟...

إننا إذ نعتبر العالم الذي تدركه أعضاؤنا متعلق بهذه الأعضاء، ونعتبر عالما ما مشروط ذاتيا، لا نعبر بتاتا عن احتمال وجود عالم موضوعي. فما الذي يمنعنا من الاعتقاد بأن الذاتية واقعية، وجوهرية؟

«الشيء في ذاته» تصور غير معقول: «الكيفية في ذاتها» لا معنى لها: لايزال تصور ال«كينونة»، وال«شيء» بالنسبة لنا مجرد تصور علاقة...

والحزن في الأمر أنه مع ذلك التناقض القديم بين «ظاهر» و«حقيقي» انتشر الحكم الملازم للقيمة: «ضعيف القيمة» و«له قيمة مطلقة».

إننا لا ننظر إلى العالم ـــ الظاهر على أنه عالم «أكثر قيمة»؛ يجب أن يكون الظاهر حجة فرعية ضد القيمة السامية. وحده «العالم ـــ الحقيقة» قد تكون له قيمة في ذاته...

أكبر الأحكام المسبقة! قد يكون ممكنا في ذاته أن يكون التكون الحقيقي للأشياء قد شكل خطورة على الأشياء الأولية للحياة وعارضها، إلى حد أصبح معه الظاهر ضروريا ليتمكن الناس من الحياة... وقد أصبح ذلك هو الحال في كثير من الأوضاع المختلفة، كما في الزواج مثلا.

كما أن عالمنا التجريبي قد يكون محصورا في حدود المعرفة من طرف غرائز البقاء: فنحن نعتبر ما يحافظ على بقاء النوع حقيقيا، وحسنا، وثمينا...

أ) لا نملك مقولات يمكننا حسبها أن نفصل العالم ـــ الحقيقة عن العالم ـــ الظاهر. (قد يوجد عالم ـــ ظاهر، ولكنه لن يكون فقط هذا العالم ـــ الظاهر الذي هو عالمنا.)

ب) إذا سلمنا بأن العالم ـــ الحقيقة موجود. فربما يكون ذا قيمة أقل بالنسبة لنا: لأن كمية الوهم قد تكون رفيعة في نظرنا بسبب قيمة البقاء فيها. (اللهم إلا إذا كان الظاهر كافيا، في حد ذاته، لرفض شيء ما.)

ج) وجود تلازم بين درجات القيم ودرجات الواقع (بحيث يكون للقيم السامية واقع سام) مسلمة ميتافزيقية تنطلق من فرضية كوننا نعرف تراتبية القيم: أي أننا نعرف أن هذه التراتبية تراتبية أخلاقية. في هذه الفرضية تكون الحقيقة ضرورية لوضع تعريف لكل ماله قيمة سامية.

ب

إنه لأمر بالغ الأهمية أن نزيل العالم ـــ الحقيقة. فهو الذي يقلل من قيمة العالم الذي هو نحن ويثير حوله الشكوك: لقد شكل العالم ـــ الحقيقة حتى الآن أخطر مساس بالحياة.

لنشن الحرب على كل الفرضيات التي على أساسها تم تخيل العالم — الحقيقة. وتأكيد كون القيم الأخلاقية هي القيم السامية يشكل جزءا من هذه الفرضية.

سندحض طابع التفوق في التقييم الأخلاقي لو استطعنا البرهنة على أنه ناتج عن تقييم لا أخلاقي: أنه حالة خاصة من اللاأخلاقية الواقعية: وبذلك سيصبح هو نفسه مجرد ظاهر، وباعتباره ظاهرا فلن يكون له الحق في الارتكاز على نفسه ليُدين الخطأ.

ج

بعد ذلك يجب أن نبحث «إرادة الحقيقة» من الناحية النفسية: فهي ليست قوة أخلاقية، بل شكلا من أشكال إرادة القوة. وسنبين ذلك من خلال كونها تستخدم وسائل لاأخلاقية: وخاصة وسائل الميتافزيقيين. — إننا لا ندرك منهجية البحث الحقيقية إلا بعد أن نتخطى كل الأحكام المسبقة الأخلاقية: — فهذه المنهجية تعتبر نصرا على الأخلاق...

290

وبهذا المعنى تكون مختلف النظريات الأساسية في المعرفة ا(المادية، والحسوية، والمثالية) نتائج لتقديرات القيم: كما أن مصدر أحاسيس اللذة السامية («أحاسيس القيم») حاسمة بالنسبة لقضية الواقع.

— يعتبر مقياس المعرفة الإيجابية غير مهم أو ثانويا: يكفي أن ننظر إلى تطور الهندوس.

فالنظرية البوذية التي تنكر الواقع بشكل عام (الظاهر = المعاناة) هي نتيجة لزوم مطلق: ليس فقط تعذر الـ«عالم في ذاته» على الإثبات، ومناعته، وخلوه من المقولات، بل ينطبق ذلك حتى على ذكاء الإجرادات المعيبة التي تم بواسطتها اكتساب هذا المفهوم. «الواقع المطلق» و«الكينونة في ذاتها» تناقض. لا يكون الـ«واقع» في العالم الذي هو في صيرورة إلا تبسيطا هدفه تحقيق هدف عملي، أو وهماً قائما على أعضاء بدائية، أو فرقا في سرعة الصيرورة، ينتج نفي العالم وجعل المنطق عدميا عن وجوب معارضتنا الكينونة باللاكينونة ونفي فكرة الـ «صيرورة».

لقد تم تركيب الـ «عقل» على أسس حسوية، على أحكام الحاسة المسبقة، أي مع الإيمان بحقيقة أحكام الحواس.

«الكينونة» كتعميم لفكرة الـ«حياة» (التنفس)، «أن تكون حيا»، «أن تريد»، «أن تفعل»، «أن تصير».

سيكون التناقض آنذاك هو : «أن تكون حيا» ، «ألا تكون في صيرورة»، «ألاّ تريد». إذا فنحن لا نعارض الكينونة باللاكينونة، بالظاهر، ولانعارضها كذلك بالموت (لأن الشيء الذي يحيا هو وحده الذي يمكن أ ن يموت).

وتم تقديم الـ «روح» و الـ«أنا» كأمر جوهري: وتم إدخالهما حيثما وجدت الصيرورة.

291

الدفاع عن كون الأشياء تملك كيفية في ذاتها، بغض النظر عن التأويل والذاتية، فرضية عديمة الفائدة: وهذا قد يفترض أن قيام المرء بالتأويل وكونه ذاتا ليس شيئا أساسيا، وأن الشيء الذي تم فصله عن كل ماله به علاقة يظل مع ذلك شيئا. وفي المقابل، ألا يمكن حصر طبع الأشياء، الموضوعي في ظاهره، في مجرد فرق في درجات الذاتية؟ — والشيء الذي يتغير ببطء ويظهر لنا وكأنه «موضوعي». ودائم، وله صفة الكائن في ذاته ألن يكون سوى تصور خاطئ للفضاء، وتناقض وسط الذاتي؟

292

ضد قيمة كل ما هو مساو لذاته أزليا (انظروا إلى سذاجة سبينوزا وديكارت). القيمة أقصر الأشياء عمرا وأسرعها زوالا، هي بريق الذهب الخؤون في بطن حية الحياة.

293

نقد تصوري « العالم — الحقيقة» و« العالم — الظاهر». — الأول مجرد وهم، مكون من أشياء خيالية محضة.

الـ« ظاهر» من صميم الواقع نفسه؛ فهو أحد أشكال جوهره؛ أي أنه في عالم لا كينونة فيه لابد من خلق مسبق، بواسطة الظاهر، لعالم من الحالات المتطابقة الممكن تقييمه : المظهر تكون فيه الملاحظة والمقارنة ممكنتين، إلخ.

... الـ«ظاهر» عالم مهيأ ومبسط عملت لإيجاده غرائزنا العملية: وهو بالنسبة لنا حقيقي تماما، لأننا نعيش فيه، نستطيع العيش فيه: وهذا دليل على كونه حقيقيا بالنسبة لنا... العالم، بغض النظر عن شرط عيشنا فيه، العالم الذي لم نختزله في كينونتنا، في منطقنا وأحكامنا النفسية المسبقة، لا يوجد كعالم « في ذاته»؛ إنه عالم علاقات بالأساس، في كل مرة ننظر إليه من زاوية مختلفة يتخذ وجها جديدا؛ فكينونته مختلفة عند كل زاوية؛ يضغط على كل زاوية، وتقاوم ضغطه كل زاوية —— وفي كل حالة تكون هذه الإضافات غير لائقة تماما. مقياس القوة يحدد الكائن الذي يملك مقياس القوة الآخر؛ وبأي شكل، وأية قوة، وأي إكراه، يقوم بالفعل أو يقاوم.

حالتنا الخاصة مهمة للغاية: لقد أبدعنا تصورا يمكننا من العيش في عالم، وإدراك أشياء كثيرة، لكي نستطيع تحمل العيش في هذا العالم...

294

الـ«ظاهر» نشاط خاص من فعل ورد فعل. —— العالم —— الظاهر عالم يتم تقديره حسب القيم؛ إنه منظم ومختار حسب القيم، أي. هنا، من زاوية المنفعة في ما يتعلق ببقاء وتزايد قوة نوع حيواني خاص.

الجانب المنظوري إذا هو الذي يعطي الـ« ظاهر» طبعه! وكأنه يبقى هناك عالم بعد إزالتنا للمنظور ! وبهذا نكون قد استنبطنا النسبية.

لكل مركز قوة منظو ره تجاه البقية، أي فعله الخاص، مقاومته وبالتالي فـ « العالم —— الظاهر» هو مجرد طريقة خاصة في ممارسة الفعل على العالم، انطلاقا من مركز واحد.

والحالة أنه لا توجد طريقة أخرى للقيام بالفعل: وما نسميه «عالمنا» ليس سوى كلمة تطلق للدالالة على مجموعة هذه الأفعال. وما الواقع إلا فعل الفرد ورد فعله تجاه المجموع...لم يعد لنا هنا أدنى حق للحديث عن الظاهر...

الطريقة الخاصة في القيام برد الفعل هي الطريقة الوحيدة لرد الفعل: لا نعرض عدد الأنواع الموجودة ولانوعها.

ولكن ليس هناك كائن «مختلف»، و «حقيقي»، وجوهري، — هكذا نعبر عن عالم لا يعرف الفعل ولا رد الفعل... والتعارض ما بين العالم — الظاهر والعالم — الحقيقة يتم اختزاله في تعرض بين الـ«عالم» وال«عدم».

295

«العالم — الحقيقة» و « العالم — الظاهر» مرة أخرى.

أ) إغراءات هذا التصور ثلاثة:

عالم آخر كل شيء فيه مختلف: — هنا شيء فينا يريد إجراء مقارنات، — ربما يكون أفضل من هذا، فلن تذهب آمالنا أدراج الرياح... عالم يكون فيه كل شيء مختلفا، أين... من يدري؟ — قد نكون نحن كذلك مختلفون.

عالم — حقيقة: هذه هي المؤامرة الفريدة التي تم إغراؤنا بها؛ هناك أشياء كثيرة التصقت بكلمة «الحقيقة»، وبشكل لاإرادي ننسبها كذلك إلى العالم — الحقيقة»، وبشكل لاإرادي ننسبها كذلك إلى العالم — الحقيقة؛ يجب على العالم — الحقيقة أن يكون عالما حقيقيا كذلك، عالما لايخطئ ولا يعتبرنا مغفلين: الإيمان به أشبه ما يكون بالإيمان نتيجة الإجبار (— بدافع اللياقة، مثلما يحدث لدى الكائنات الجديرة بالثقة).

إننا نوحي من خلال فكرة «العالم المجهول» بأن هذا العالم «معروف» (أي ممل —). ومن خلال فكرة «العالم الآخر» نوحي بأن العالم قد يكون مختلفا، — هذه الفكرة تلغي الضرورة والحتمية (— لاداعي للخضوع، للمماثلة —).

و من خلال فكرة «العالم — الحقيقة»، نوحي بأن هذا العالم كاذب، ومضلل، ومخادع، وزائف، وغير أساسي، — وأنه، من ثمة، لا يهتم بأمر منفعته لنا (— يجب أن نتجنب التشبه به ومن الأفضل أن نقاومه).

إذا فنحن نفلت من براثن هذا العالم بثلاث طرق مختلفة: بفضولنا. — كما لو كان الجزء المهم في مكان آخر بعيد؛ باستسلامنا، — وكأن الاستسلام لم يكن شيئا

ضروريا، وكأن هذا العالم ليس ضرورة من الطراز الأخير؛ بودنا واحترامنا، — وكأن هذا العالم لا يستحقهما، وكأنه غير مخلص لنا وغير شريف معنا...

خلاصة القول: نحن غاضبون غضبا مضاعفا ثلاث مرات؛ نستخدم مجهولا لننتقد عالما معروفا.

ب) أول خطوة في التيقظ: أن نفهم كيف تم إغراؤنا. — لأن ذلك قد يكون بالطريقة المعاكسة تماما:

أ) قد يتم تكوين العالم المجهول بهذا الشكل، ليعطينا طعم هذا العالم، — قد يكون هذا شكلا من الوجود أدنى وأقل بلادة؛

ب) قد يكون العالم الآخر، الذي لا يهتم بتاتا برغباتنا التي لا تتم تلبيتها هنا، جزءا من كل ما يجعله هذا العالم ممكنا بالنسبة لنا: وتَعَلُّمُنَا كيف تعرفه سيكون وسيلة لنشفي غليلنا؛

ج) العالم — الحقيقة: ولكن من يقول لنا إجمالا أن العالم — الظاهر يجب أن يكون أقل قيمة من العالم — الحقيقة؟ ألا تعارض فطرتنا هذا القول؟ ألا يخلق الإنسان لنفسه باستمرار عالما خياليا لأنه يريد أن يكون له عالم أفضل من الواقع؟ وقبل هذا وذاك، كيف نتوصل إلى فكرة أن عالمنا ليس هو العالم الحقيقي؟ ... ثم إن العالم الآخر قد يكون على الأقل هو العالم — الظاهر (وبالفعل، لقد تخيل الأغريق، مثلا، مملكة الظلال، وجودا وهميا بجانب الوجود الحقيقي —). وأخيرا، ما الذي يعطينا الحق في تحديد درجات الواقع؟ وهذا مغاير تماما لعالم مجهول، — إنها الرغبة في معرفة شيء ما عن العالم المجهول. العالم الـ «آخر»، العالم «المجهول» — تماما! ولكن الزعم بأنه «العالم — الحقيقة» معناه «معرفة شيء ما عنه»، — إنه عكس افتراض عالم مجهول...

خلاصة القول: قد يكون العالم المجهول، من جميع الجوانب، مملا، ولا إنسانيا، وغير لائق أكثر من هذا العالم.

وسيكون الأمر خلاف ذلك لو زعمنا أن هناك عددا غير محدد من العوالم، أي كل العوالم الممكنة عدا هذا. ولكنه ليس هذا هو ما تم زعمه.

ج) مسألة: لماذا تكون فكرة العالم الآخر دائما مجحفة في حق هذا العالم، أي منتقدة له؟ — على أي شيء يدل ذلك؟

الشعب الفخور بحياته، الذي هو في بداية حياة صاعدة، يتخيل كونه شعبا آخر، وكأنه من درجة أدنى وذو قيمة أقل؛ يعتبر العالم الغريب والمجهول كعدو له، كنقيضة، لا يبدي أي شكل من الفضول نحو ماهو غريب ويرفضه تماما.

... لن يقبل أي شعب بأن يكون شعب آخر هو «الشعب الحقيقي»... وإمكانية حدوث مثل هذا التمييز — اعتبارُ هذا العالم عالم المظاهر والعالم الآخر عالم الحقيقة — دليلٌ على ذلك. مصدر فكرة «العالم الآخر»: الفيلسوف الذي يختلق عالم العقل حيث يكون العقل والوظائف المنطقية متكافئين:

— هذا هو مصدر العالم «الحقيقة»؛

رجل الدين الذي يختلق «عالما ربانيا»: — وهذا هو مصدر العالم «المشوه»، «المخالف للطبيعة»؛ الأخلاقي الذي يتصنع عالم «حرية الاختيار»: — وهذا هو مصدر العالم « الحسَن، الكامل، العادل، المقدس».

القاسم المشترك بين هؤلاء الثلاثة: الغلط النفسي، والالتباس الفسلجي.

«العالم الآخر»، مثلما يبدو حقيقة في التاريخ، أية صفات تميزه؟ نُدُوبُ الحكم المسبق الفلسفي والأخلاقي والديني. «العالم الآخر». مثلما تبرزه هذه الوقائع، مرادف للاَّكينونة، للاَّحياة، للرغبة في عدم الحياة.

نظرة إجمالية: غريزة الضجر من الحياة هي التي خلقت «العالم الآخر» ،ليست غريزة الحياة.

النتيجة: الفلسفة والدين والأخلاق علامات الانحطاط.

II

إرادة القوة في الطبيعة

1- إرادة القوة كقانون طبيعي

296

نقد فكرة «السبب». — من الناحية الفسلجية، فكرة «السبب» هي إحساسنا بالقوة في إطار ما نسميه الإرادة، — وفكرة «النتيجة» هي الحكم المسبق الذي هو الاعتقاد بأن الإحساس بالقوة هو القوة نفسها التي تحرك...

الوضع الذي يرافق حدثا ما، والذي يكون نتيجة هذا الحدث، يتم تحويله إلى «السبب الكافي» لهذا الحدث؛ — هل نسبه شدة إحساسنا بالقوة (الفرح باعتباره إحساسا بالقوة)، والمقاومة التي تغلبنا عليها — هل هما وهمان؟

لنسجل ثانية فكرة «السبب» في الدائرة الوحيدة التي نعرفها والتي أخذناها منها ولا نستطيع تصور حدوث أي تغير، التي لا وجود فيها لإرادة القوة، إننا لن نستطيع العثور على أصلِ تحولٍ ما إذا لم يكن هناك تطاول قوة على أخرى.

لا ترينا الإوالة إلا نتائج، ولا ترينا إياها إلا عل« شكل صور (الحركة لغة مجازية). حتى الجاذبية ليس لها سبب آلي، فهي البرهان على النتائج الآلية.

إرادة مراكمة القوى هي من مميزات ظاهرة الحياة، والتغذية، والإنجاب، والوراثة. من مميزات المجتمع، والدولة، والعادات، والسلطة.

ألن يسمح لنا باعتبار هذه الإرداة هي السبب الفاعل في الكيمياء؟ - وفي النظام الكوني؟

ليس فقط مراكمة الطاقة، بل الاقتصاد أكثر مايمكن في استهلاكها: بحيث تكون الحقيقة الوحيدة في كل مركز من مراكز القوة هي الرغبة في أن يصبح أقوى، — لا البقاء، بل الرغبة في التملك، في السيادة، في زيادة الحجم، وامتلاك قوة أكبر.

هل يجب أن يبرهن لنا مبدأ السببية على كون العلم ممكنا؟ — «نفس السبب تكون له نفس النتيجة» — « قانون ثابت في الأشياء» — «نظام ثابت» — هل يكون الشيء ضروريا لمجرد كون تقييمه ممكنا.

حيث يحدث حادث بهاته الطريقة أو تلك وليس بخلافهما، فإن ذلك لا يكون من فعل «مبدأ» أو « قانون» أو «نظام»، وإنما يبين ذلك أن كميات من القوى تعمل، وهي قوى جوهرها ممارسة السلطة على كميات أخرى من القوى.

هل يمكن أن نقبل طموحا إلى القوة، دون إحساس بالمتعة أو الكدر، أي دون الإحساس بازدياد القوة أو نقصانها؟ الإوالية مجرد لغة إشارات لعالم الظواهر الباطنية، صراع بعض كميات الإرادة وانتصارها. كل فرضيات الإوالية، المادة، والذرة، والضغط والصدمة، والجاذبية، ليست وقائع في حد ذاتها، بل تأويلات بواسطة أوهام نفسية.

الحياة، باعتبارها شكل الكينونة المعروف لدينا أكثر، هي على الخصوص إرادة مراكمة القوة: — هذه هي دعامة كل قضايا الحياة؛ لا شيء يريد البقاء، يجب أن يتم جمع كل شيء ومراكمته.

تطمح الحياة، باعتبارها حالة خاصة (الفرضية التي تؤدي، انطلاقا من هذا، إلى الطابع العام للوجود —)، إلى بلوغ أكبر إحساس بالقوة؛ إنها بالأساس طموح لتحقيق فائض من القوة؛ لا يعتبر طموحا إلا الطموح إلى القوة؛ وتبقى هذه الإرادة أكثر الأشياء خصوصية وأهمية: ما الإوالية إلا نظرية رموز وعلامات النتائج.

297

نقد الإوالية. — لنُبعد هنا التصورين الشعبيين، الـ«قدرية» والـ«قانون»: فالقدرية تبث في العالم إكراها زائفا، والقانون يبث فيه حرية زائفة. الـ«أشياء» لا تمشي بانتظام، وطبقا لقاعدة ما: ليست هناك أشياء (— فهذا مجرد وهم): كما أنها لا تدع إكراه

القدرية يوجهها. لا خضوع هنا: لأن كون الشيء ما هو عليه، قويا أو ضعيفا، ليس نتيجة لخضوع، أو لقاعدة، أو لإكراه...

مايتعلق به الأمر في كل مايحدث هو درجة المقاومة ودرجة التفوق: إذا كنا نحن، من أجل استعما لنا اليومي لذلك في الحساب، قادرين على صياغة ذلك في قواعد وعلى شكل «قانون»، فنعم الأمر بالنسبة لنا! إننا لم ندخل اللا أخلاقية في العالم بتخيلنا له خاضعا.

ليس هناك قانون: فكل قوة تقوم بآخر استنتاج لها في كل لحظة. والقابلية للحساب تقوم بالضبط على عدم وجود أنصاف الآلهة.

يتم تحديد كمية القوة من خلال الأثر الذي تحدثه والمقاومة التي تبديها. وضعف الصُّمود، هو في ذاته، الذي قد يتم تخيله، لا وجود له. إنها بالدرجة الأولى رغبة في العنف وفي التصدي للعنف. لا يتعلق الأمر بالبقاء؛ كل ذرة تَفْعَلُ في الكينونة كلها، — وتتم إزالتها في الخيال حين تتم إزالة إشعاع إرادة القوة هذا. لذلك أسميها كمية من «إرادة القوة»: ويجسد هذا الطابع، في النظام الإوالي، الذي لانستطيع أن نغض الظرف عنه، دون أن نغض الطرف عن هذا النظام نفسه.

فكرة الـ«حركة» هي التي تنقل عالم النتائج هذا إلى عالم مرئي — عالم تراه العين — . ونعني ضمنا هنا أنه يتم تحريك شيء ما — سواء في تثبيت ذرة — كُرَيَّة أو انتزاعها، أو الذرة النشيطة، فإننا نتخيل دائما شيئا فاعلا، — وهو ما يعادل القول بكوننا لم نتخلص من العادة التي تحثنا عليها الحواس واللغة. الذات والموضوع، فاعل ليقوم بالفعل. الفعل وما يثير هذا الفعل، وقد فُصِلَ بينهم: لا نَنْسَيَنَّ أن هذا يدل على مجرد نظرية رموز وعلامات لا على شيء حقيقي. لقد تم تكييف الإوالة، باعتبارها عقيدة الحركة، في لغة حواس الإنسان.

نحتاج إلى وحدات من أجل الحساب، ولكن هذا ليس سببا لنسلم بالوجود الفعلي لهاته الوحدات. لقد اقتبسنا مفهوم الوحدة من تصورنا للـ«أنا»، — أقدم ركن من أركان عقيدتنا. لو لم نعتبر أنفسنا وحدات لما كوننا تصور الـ «كينونة» أبدا. ونحن جد مقتنعين الآن. بشكل جد متأخر بأن تصورنا للأنا لا يؤيد الوحدة الحقيقية

إطلاقا. لكي نحافظ نظريا على العالم الإوالي يجب علينا دائما أن نحتفظ بالبند القائل بأننا نبلغه بواسطة تصورين: تصور الحركة (المقتبس من لغة حواسنا) وتصور الذرة (أي فكرة الوحدة النابعة من «تجربة» نا النفسية): الشرط الأصلي للعالم الإوالي هو حكمُ حواسٍ مسبق وحكم نفسي مسبق.

لقد تم تخيل العالم الإوالي بالطريقة التي يمكن بها للبصر واللمس وحدهما أن يتخيلا عالما (أي «محرك»)، بحيث لايمكن تقييمه إلا إذا تظاهرنا بوجود وحدات أسباب، بوجود «أشياء» (جواهر فردة) يظل تأثيرها ثابتا (— نقل تصور الذات الخاطئ إلى تصور الجوهر الفرد): فكرة العدد، فكرة الكينونة (فكرة الذات)، فكرة النشاط (فصل السبب عن النتيجة). الحركة (البصر واللمس)؛ بحيث أن كل نتيجة هي حركة، وأن كل مكان توجد فيه الحركة يتم فيه تحريك شيء ما.

«المدهش» في هذا هو إدخالنا فكرة العدد والذات والحركة: إذ فيها نحتفظ بعيننا وبنفسيتنا.

إذا حذفنا هذه الإضافات فلن تبقى هناك «أشياء»، بل كميات نشيطة، في علاقة متوترة مع الكميات الأخرى، وجوهرها يكمن في علاقاتها مع كل الكميات الأخرى، وفي «فعل» ها فيها. ليست إرادة القوة كينونة، أو صيرورة، بل تضخيما للذات، — هي الواقع الأصلي الذي تنتج عنه الصيرورة والفعل...

تصوغ الإوالة ظواهر التتالي، تصوغها من زاوية نظرية الرموز والعلامات، بوسائل تعبير حساسة ونفسية: إنها لاتمس القوة السببية بتاتا.

إذا كان جوهر الكينونة الخاص هو إرادة القوة؛ إذا كانت اللذة هي زيادة القوة، والكدر هو الإحساس بالعجز عن المقاومة أو السيادة: ألن يكون مباحا لنا أن نعتبر اللذة والكدر أمرين أساسيين؟ هل تكون الإرادة ممكنة من دون هذا التأرجح المزدوج بين نعم ولا؟... إنه لسؤال تافه! حين يكون الجوهر نفسه هو إرادة القوة، وبالتالي هو الإحساس بالمتعة أو الكدر! ومع ذلك، هناك؛ حاجة إلى المعارضة، والمقاومة، أي، من وجهة نظر نسبية، إلى وحدات سمتها التطاول.

نقد فكرة الـ«سبب». — ليست لنا أية تجربة في موضوع السبب؛ فمصدر الفكرة، إن أردنا تتبعها من الناحية النفسية، هو قناعتنا الذاتية بكوننا أسباب، أي بكون الذراع تتحرك... وهذا خطأ، نتميز، نحن الذين نقوم بالفعل، وفي كل مكان نبحث عن الفاعل بالنسبة لكل ما يحدث. ماالذي فعلناه؟ لقد أسأنا تأويل إحساسٍ بالقوة، بالتوتر، بالمقاومة، إحساسٍ عضلي يشكل بداية الفعل، لنجعل منه سببا ؛ اعتبرنا إرادة فعل هذا الشيء أو ذلك هي العلة، وذلك لأن الفعل ينجم عنها.

ليس هناك «سبب» على الإطلاق: والحالات التي بدا لنا فيها السبب شيئا معطى، التي فيها ألقينا بالسبب خارجنا لكي ندرك ما يحدث، قد تبين أننا في ذلك واهمون. كان « إدراكنا لما يحدث» يقتضي أن نختلق ذاتا نجعلها مسؤولة عن حدوث شيء ما وعن الطريقة التي بها يحدث. لقد لخصنا إحساسنا بالإرادة، بالـ «حرية»، بالمسؤولية ، وقَصْدَنَا القيام بالفعل في تصور «السبب»: فالسبب الفاعل والسبب الغائي هما، في التصور الأصلي، نفس الشيء.

كنا نعتقد أننا نفسر معلولا ما حين نستطيع إظهار وضع يكون فيه ملازما للموضوع. والحقيقة أننا نختلق كل العلل حسب ترسيمه المعلول: فهذا الأخير معرف لدينا... وفي مقابل ذلك، نحن عاجزون كل العجز عن توقع الطريقة التي «سيفعل» بها شيء ما. الكينونة، والذات، والإرادة، والقصد — كل هذا ملازم لتصور ال«علة». إننا نبحث عن الكينونات لنفسر سبب تحول شيء ما.

الفترة نفسها أحد هذه «الكينونات»، أحد هذه «الذوات البدائية» التي أضفنا ها في خيالنا...

وفي نهاية المطاف نفهم أن الكينونات — ومن ثمة الذرات — لاتقوم بأي فعل، لأنه لا وجود لها بالمرة، وكذلك أن فكرة العلّية غير صالحة للاستعمال بتاتا. — لايجب مطلقا أن نَخْلُصَ من التتابع الحتمي لبعض الأوضاع إلى وجود علية ـ لأن ذلك سيكون بمثابة توسيع قدرتها على القيام بالفعل من 1 إلى2، إلى 3، إلى 4، إلى 5).

ليست هناك لا علل ولا معلومات. ومن الناحية اللغوية فإنه يستحيل علينا التخلص من هاته الأفكار. ولكن هذا لا يهم. فإن أنا تصورت العضلة منفصلة عن «معلولات» ها أكون قد أنكرتها...

كخلاصة: الشيء الذي يحدث لايكون مسبِّبا ولا مسبَّباً: العلة هي ملَكة التسبب، تم ابتكارها وإضافتها لما يحدث.

تأويل العلية وهم... الشجرة كلمة؛ ليست الشجرة علة. — ال«الكينونة» هي مجموع النتائج التي تنتج عنه ويؤلف بينها تصور ما أو صورة.... الواقع أن العلم قد أفرغ مبدأ العلية من محتواه وجعل منه قاعدة رمزية أصبح من غير المهم فيها معرفة موقع العلة والمعلول.. نؤكد أنه في كل أنظمة القوى المختلفة تظل كميات الطاقة ثابتة.

لا تنبع قابلية ما يحدث للتقييم من كوننا نتبع قاعدة أو نخضع لحتمية، أو من إسقاط قانون العلية على كا ما يحدث: بل تكمن في عودة الحالات المتاطابقة.

ليس هناك حس العلية، مثلما يزعم ذلك كانط. ندهش وينتا بنا القلق، ونبحث عن شيء معروف لدينا يمكننا التعلق به. وبمجرد مايتم إطلاعنا، في الشيء الجديد، على شيء نعرفه، فإننا نشعر بالطمأنينة. فما غريزة العلية المزعومة إلا الخوف من الشيء غير المألوف ومحاولة العثور فيه على شيء معروف لدينا، إنه بحث ليس عن العلل، بل عن الشيء المعروف...

حالتين تتبع إحداهما الأخرى: ال«سبب» وال«نتيجة» — هذا تصور خاطئ. الحالة الأولى لا تتسبب في شيء، والثانية لا يسببها أي شيء.

يتعلق الأمر بصراع بين عنصرين قوتهما متفاوتة: ويتم الحصول على تنظيم جديد للقوى، حسب مقدار قوة كل واحد منهما. الحالة الثانية تختلف جذريا عن الأولى (ليست نتيجتها): المهم هو أن يؤدي العنصران المتصارعان إلى ظهور كميات أخرى من القوة.

يؤمن بعض الفيزيائيين بـ«عالم — حقيقة» مكون على طريقتهم. نظام ثابت من الجواهر الفردة الثابة، متساو لدى كل المخلوقات، تحركه حركات حتمية، — بحيث أن «العالم — الظاهر» ينحصر بالنسبة لهم في الكائن الكوني الكلي الضرورة، الذي يمكن لكل فرد أن يدركه على طريقته (ممكن الإدراك ومعدّلٌ كذلك — أي أصبح «ذاتيا»). ولكنهم بهذا يضلون السبيل: فالجوهر الفرد الذي يجعلونه ثابتا ممكن الإدراك حسب منطق منظورية الوعي، — وبالتالي فهو كذلك ثبات ذاتي. هذه الصورة التي يكونونها عن العالم لا تختلف في جوهرها عن الصورة الذاتية للعالم: الفرق هو أنه مبني بحواس أكبر، ولكن هذه الحواس هي حواسنا... وفي نهاية المطاف، دون أن يلقوا لذلك بالا، حذفوا شيئا من المجرة: إنه المنظورية الحتمية، التي بواسطتها يبني، انطلاقنا من نفسه، كلُّ مركز قوة — وليس الإنسان فقط — بقية العالم، أي أن الإنسان يقيس العالم ويلمسه ويشكله حسب قوته... لقد نسوا أن يمنحوا « الكائن الحقيقي» تلك القوة التي تحدد المنظورات، — حتى نعبر بلغة المدرسة: لقد نسوا كيفية الذات. إنهم يتصورون أن تتم إضافتها من خلال «التطور»؛ — ولكن الكيمائي يحتاجها كذلك: إنها الكينونة النوعية، الفعل ورد الفعل، حسب التنظيمات، بهذا الشكل أو ذاك.

ما المنظورية إلا شكل معقد من أشكال التخصيص. أتصور أن كل جسم نوعي يطمح إلى بسط سيادته على الفضاء بأكمله وتوسيع قوته (— إرادة القوة لديه)، لإبعاد كل ما يقاوم توسعه. ولكنه يصادف باستمرار طموحات مماثلة لدى أجسام أخرى وفي نهاية المطاف يتصالح -«يتحد») مع المتجانسة معه: فيتآمرون جميعا لغزو القوة. وتستمر العملية...

ليس هناك في الكيمياء شيء ثابت، ليس هذا إلا ظاهر، مجرد حكم مسبق تعلمه المدرسة. لقد اقتبسنا الثابت من ما وراء الطبيعة أيها الفيزيائيون. إنها لسذاجة سطحية أن نزعم بأن الماس والغرافيت والفحم متطابقون. لماذا؟ فقط لأنه لا يمكننا أن نتحقق، بواسطة الميزان، من وجود نقصان في الجوهر. لا جرم أن هذه الأجسام الثلاثة تحافظ

على شيء مشترك بينها؛ ولكن عمل الجزئيات في التحول الذي لا نستطيع أن نراه أو نزنه يجعل من مادة أخرى، — وبخصائص نوعية مختلفة.

301

مفهوم ال« قيمة» هو التفكير في شروط البقاء والزيادة المتعلقة بأشكال معقدة ديمومتها نسبية في صيرورة الحياة. — ليست هناك وحدات نهائية دائمة، ولا ذرات ولا جواهر فردة، (— هناك كذلك نحن هم من وجد ال«كينونة»، لأسباب تتعلق بالمنظور، أسباب عملية ومفيدة). هناك «أشكال مهيمنة»؛ دائرة المهيمِن تتسع باستمرار، أو تتسع وتضيق بشكل دوري: كما أنها تخضع لظروف ملائمة أو غير ملائمة (ظروف التغذية.). الـ«قيمة» أساسا هي مفهوم زيادة أو نقصان المراكز المهيمنة (« الأشكال المتعددة» بكل تأكيد: ولكن طبيعة الصيرورة لا وجود للـ«وحدة» فيها). الوسائل التي تستعملها اللغة في التعبير لا تصلح للتعبير عن الصيرورة: إحدى الحاجات الدائمة لبقائنا هي التحديد المستمر لعالم بدائي من الأشياء الدائمة والـ «كائنات»، إلخ. من الناحية النسبية يمكننا الحديث عن الذرات والجواهر الفردة: ومن المؤكد أن العالم الأصغر هو الأكثر دواما... ليست هناك إرادة بل مشاريع إرادة تزيد قوتها وتنقص باستمرار.

302

تصورٌ موحد لعلم النفس. — لقد اعتدنا اعتبار تطور التعدد الهائل في الأشكال منسجما مع أصل مشترك في الوحدة. إني أطلق النظرية القائلة بأن إرادة القوة هي شكل الأهواء البدائي، وأن كل الأهواء الأخرى ما هي إلا تحول هذه الإرادة، وأنه من الدقة أن نضع بدل فكرة الـ«سعادة» الفلسفية (التي يجب أن تطمح إليها كل حياة)، فكرة القوة : « الطموح إلى القوة، إلى فائض من القوة»؛ الفرح هو علامة الإحساس ببلوغ السعادة، إنها إدراك الاختلاف — (— إننا لا نطمح للفرح » فالفرح يحصل حين نحقق مطمحنا: الفرح يرافق، ولا يكون هو المحرك)؛ هي كون كل قوة إرادة للقوة، وأنه لا وجود لقوة فيزيائية أو نشيطة أو نفسية أخرى... ما يحدث في العلم، هذا العلم

الذي يتم فيه اختزال تصور العلة والمعلول في معادلة، هو أننا بسبب عجرفتنا في البرهنة على وجود نفس الكمية من القوة في كل جانب لا نأخذ بعين الإعتبار ما يشكل القوة الفعالة؛ لا ننظر إلا إلى النتائج، ونعتبرها متساوية بالنسبة إلى كمية قوتها...

التجربة هي التي تجعلنا نقول بأن التغير دائم لايتوقف: لأنه ليس هناك أدنى سبب يجعلنا نعتقد بأن تغيرا يتبعه آخر بالضرورة. على العكس: يجب على حالة ما، بمجرد ما يتم بلوغها، أن تُبقي على نفسها، مادامت لا تحصل في طياتها إرادة تقتضي منها ألا تبقي على نفسها... لاشك أن افتراض سبينوزا المتعلق بالإبقاء على النفس سيعرقل التغير: ولكنه افتراض خاطئ، والعكس هو الصحيح... الكائن الحي تحديدا هو الذي يمكننا البرهنة على كونه يفعل مافي وسعه لكي لايحافظ على نفسه، بل لكي يصير أكثر مما هو...

* * *

التصور الآلي للحركة هو ترجمة الظاهرة الأصلية إلى لغة العين واللمس التقليدية.

فكرة الذرة، التمييز بين« مركز القوة المحركة وهذه القوة نفسها» لغة تقليدية تستمد أصلها من عالمنا المنطقي النفسي.

— إننا لا نغير وسيلة تعبيرنا على هوانا، ولكنه بإمكاننا إدراك كم هي هذه الوسيلة علاماتية. المطالبة بلغة تكون عباراتها ملائمة شيء غير معقول: فجوهر اللغة ووسائلها هو التعبير عن مجرد علاقة... وفكرة الـ«حقيقة» شيء لامنطقي. ترتبط مملكة الـ«صحيح» والـ«خطأ» بالعلاقات بين الكائنات وليس ب «الشيء في ذاته»... ليست هناك «كائنات في ذاتها» (فالعلاقات هي التي تشكل الكائنات...) مثلما لايمكن أن توجد «معرفة في ذاتها».

* * *

هل «إرادة القوة» نوع من الإرادة أم هي مطابقة لفكرة الـ«إرادة»؟ هل هي مساوية لفكرة الرغبة أم التَّأَمُّر؟ هل هي الـ «إرادة» التي يزعم شوبنهاور أنها هي «الأشياء» في ذاتها»؟

أؤكد أن إرادة علم النفس، مثلما تم تعليمها حتى الآن، هي تعميم غير مبرَّر، وأن هذه الإرادة غير موجودة بتاتا، وأنه عوض أن نفهم تطور إرادة محددة، في أشكال متعددة، حذفنا صبغة الإرادة، وذلك بإخفائنا مضمونها وهدفها — : وهي حالة بلغت أقصاها عند شوبنهاور، إذا أنه يسمي «الإرادة» كلمة لا معنى لها. كما لا يتعلق الأمر هنا بـ« إرادة الحياة»، لأن الحياة ليست سوى حالة خاصة من إرادة القوة؛ وإنه لمن التعسف الزعم بأن كل شيء يميل إلى اتخاذ هذا الشكل من إرادة القوة.

2 ـ إرادة القوة كحياة

أ ـ علم نفس إرادة القوة

303

لا يبحث الإنسان عن اللذة ولا يتجنب الكدر: تعلمون الحكم المسبق الشهير الذي أريد مناقضته هنا. فاللذة والكدر هما مجرد نتيجتين، مجرد ظاهرتين فرعيتين. وما يريده الإنسان، ما يريده أصغر جزء من جسم حي هو ازدياد القوة. يشتمل الطموح إلى هذا الهدف في ثناياه على اللذة وعلى الكدر سواء بسواء؛ يبحث الإنسان من خلال إراداته كلها عن المقاومة، فهو في حاجة لأن يقف في وجهه شيء ما... فالكدر، الذي يعيق إرادة القوة لديه، هو إذن عامل طبيعي، المكون الطبيعي لكل ظاهرة عضوية؛ والإنسان لا يتفاداه، فهو في حاجة إليه باستمرار: كل انتصار، كل شعور باللذة، كل حدث يفترض مسبقا مقاومة تم التغلب عليها.

لنأخذ أبسط مثال، مثال الغذية الأولية: نجد البروتوبلازما تمد شَوَاتها الكاذبات (pseudopodes) بحثا عن شيء يقاومها، — ليس لأنها جائعة، بل لتحريك إرادة القوة لديها. ثم تحاول تجاوز هذا الشيء وامتلاكه وإدماجه فيها. وما نسميه التغذية ليس إلا نتيجة، ممارسة البروتوبلازما لإراداتها الأصلية في أن تصبح هي الأقوى.

(لايمكن اعتبار الجوع هو الدافع الأساسي، وكذلك البقاء. اعتبار الجوع نتيجة للتغذية اللا شعورية هو إثبات لكون الجوع ينتج عن إرادة قوة لم تعد تعرف كيف تتصرف كسيد. لايتعلق الأمر هنا بتاتا بتعويض خسارة ما، — فحاجة الجسم إلى

التمثل لا تنحصر في الجوع، في الحاجة إلى تعويض ما تم فقدانه، إلا لاحقا، أي بعد تقسيم العمل، بعد أن تكون إرادة القوة قد تعلمت نهج سبل أخرى لإشباع نفسها.)

إذا فالكدر لا يتبعه نقصان في إحساسنا بالقوة، ونادرا ما يحدث هذا إلى درجة أنه غالبا ما يكون مهيجا لإرادة القوة هذه، — فالعائق هو الذي يحفز إرادة القوة.

* * *

لقد تم الخلط بين الكدر وبين نوع خاص من الكدر، أعني الإنهاك: فهو يمثل نقصا كبيرا في إرادة القوة وتقليلا من شأنها، يمثل ضياع قوة يمكن تقديرها. وهذا يعني أن هناك: كدرا يعمل كمهيج لازدياد القوة، وكدرا يأتي بعد تبذير القوة؛ فهو في الحالة الأولى محفز، وفي الثانية نتيجة تهيج شديد... خاصية الكدر الثاني هي العجز عن المقاومة، وخاصية الأول هي تحدي الذي يقاوم... اللذة الوحيدة التي نشعر بها في حالة الإنهاك هي لذة النوم؛ وفي الحالة الأخرى نشعر بلذة النصر...

الخطأ الفادح الذي ارتكبه علماء النفس هو عدم الفصل بين شكلي اللذة — لذة النوم ولذة الانتصار. يريد المنهكون الراحة، والإستراحة، والسلام، والطمأنينة، — هذه هي السعادة كما تراها الأديان والفلسفات العدمية؛ أما الأغنياء والأحياء فيريدون النصر، والخصوم الذين يتم هزمهم، ومد الإحساس بالقوة إلى ميادين جديدة. كل الوظائف السليمة في الجسم هي في حاجة إلى هذا، — والجسم بكامله أحد تلك الأنظمة المعقدة التي تناضل من أجل نمو الإحساس بالقوة...

304

الألم خلاف الفرح، — أعني أنهما ليسا نقيضان. إذا كان جوهر اللذة قد تم تعريفه بأنه ازدياد القوة (وبالتالي على أنه إحساس بالاختلاف يفترض المقاومة)، فإن جوهر الكدر لم يتم تعريفه بذلك. التعارضات الكاذبة التي يؤمن بها العامة، وتؤمن بها اللغة بالتالي، كانت دائما تشكل عوائق خطيرة أمام سير الحقيقة. بل هناك حالات يكون فيها شكل من أشكال اللذة مشروطا بتتابع إيقاعي لانقباضات صغيرة ناتجة عن الكدر: وبهذا يتم تحقيق نمو سريع في إحساس القوة، في الإحساس باللذة. تلك

هي الحالة في التهيج، مثلا، وكذا في التهيج الجنسي أثناء عملية الجماع: نرى الكدر يتصرف وكأنه عنصر من عناصر اللذة. يظهر عائق صغير يتم التغلب عليه، ومباشرة بعده يظهر عائق صغير يتم التغلب عليه هو الآخر —ولعبة المقاومة والانتصار هذه تحفز أكثر ذلك الإحساس العام بالقوة، الفائض عن الحاجة، الذي يشكل جوهر اللذة، والنقيض، أي تزايد الإحساس بالألم، من خلال تتابع الانقباضات الخفيفة الناتجة عن اللذة، منعدم: وذلك لأن اللذة والألم ليسا نقيضين. — الألم ظاهرة عقلية، يتمظهر فيها حكمٌ ما بوضوح، — الحكم «ضار»، ظاهرة تراكمت فيها التجربة أمدا طويلا. ليس هناك ألم في ذاته. ليس الجرح هو ما يؤلم؛ بل المفهوم الذي اكتسبناه بالتجربة، مفهوم العواقب الوخيمة التي قد تكون لجرح ما على سائر الجسد، هذا المفهوم هو الذي يعبر عن نفسه في تلك الهزة العميقة التي نسميها الكدر (فيما يخص التأثيرات الضارة التي ظلت الإنسانية تجهلها، مثل تأثيرات المواد الكيماوية السامة. التي تم الجمع بينها في تركيبات حديثا، فإنه ليس هناك مطلقا تعبير عن الألم يناسبها — ومع ذلك فنحن تائهون... الشيء الذي يميز الألم بشكل خاص هو تلك الهزة الطويلة، أثر الصدمة الذي يثير الخوف في ذلك المكان من الجهاز العصبي الذي هو الدماغ. —ليست أسباب الألم إجمالا هي التي تجعلكم تتألمون (الحجرح مثلا)، بل هو اختلال التوازن الذي يحدث إثر هذه الصدمة. الألم يصيب المراكز العصبية الدماغية. — أما اللذة فليست مرضا... — قد يجعلنا المظهر وحكم الفلاسفة المسبق نعتقد أن الألم تنتج عنه أعمال لا إرادية؛ غير أننا في بعض الحالات الفجائية، إذا ما لاحظنا بدقة، ندرك أن العمل اللا إرادي يحدث بشكل واضح قبل الإحساس بالألم. سأكون في موقف سيء لو وجدت نفسي مضطرا، حين أكبو، إلى انتظار دق هذه الحركة جرس الشعور ليبعث إلي من جديد بما يجب علي فعله. على العكس، إني ألاحظ بأكثر مايمكن من الدقة، أن ما يحدث في المقام الأول هو حركة الرجل المعاكسة لتفادي السقوط، وبعد ذلك بهنيهة يمكن قياسها، أشعر بهزة مؤلمة في الجزء الأمامي من الرأس. إذاً فرد فعلنا لايتم ضد الألم. فالألم يتم الشعور به بعد برهة في موضع الجرح: — ومع ذلك فإن جوهر هذا الألم الموضعي لايعبر عن الصنف الذي ينتمي

إليه هذا الألم الموضعي؛ إنه مجرد إشارة موضعية تطابق شدتها ودرجتها الجرح الذي أصابت به المراكز العصبية. وتقلص قوة الجسم العضلية، إثر هذه الصدمة، بشكل يمكن تقديره، لايسمح لنا بتاتا بالبحث عن جوهر الألم في تقلص الإحساس بالقوة... مرة أخرى نقول بأن رد فعلنا لايتم ضد الألم: ليس الكدر هو «سبب» الأفعال. الألم نفسه رد فعل، والحركة المعاكسة رد فعل سابق، — إنهما ينطلقان من نقطتين مختلفتين...

305

لماذا نجد الأركان الأساسية، في علم النفس، هي التشويه والتزوير في أبشع صورهما؟ أي شيء حقيقي نجده، مثلا، في «الإنسان يطمح للسعادة»؟ لكي نفهم معنى الحياة، ونوع الطموح والتوتر الذي تتطلبه الحياة، يجب أن تنطبق هذه الصبغة على الشجرة والنبتة كما على الحيوان. «إلى ماذا تطمح النبتة؟» — ولكننا بهذا نكون قد تخيلنا وحَدة لا وجود لها. إذا افترضنا أولا وجود «النبتة» كوحدة فإن النمو المتعدد، بمبادرات خاصة وشبه خاصة، يختفي ويتم إنكاره. الشيء الواضح بجلاء هو كون هؤلاء الأفراد» الأخيرين، المتناهين في الصغر، غير معقولين بمعنى «فرد» ميتافزيقي و«جوهر فرد»، وكون دائرة قوتهم تتحول باستمرار؛ وإن كان كل فرد من هؤلاء الأفراد يتحول بهذا الشكل فهل يطمح إلى السعادة؟ — ومع ذلك، فالميلُ إلى التوسع، والإدماج والنموُّ هو صراع ضد شيء يصاحبه إحساس بالكدر: فالعلة الباعثة هنا تريد ولا شك شيئا آخر برغبتها في الكدر وبحثها عنه باستمرار. — لماذا تتصارع أشجار غابة غُفْل فيما بينها؟ أمن زجل الـ«سعادة»؟ — بل من أجل القوة!...

يمثل الإنسان الذي أصبح سيد قوى الطبيعة، الإنسان الذي أصبح يملك زمام همجيته وغرائزه الهائجة (لقد تعلمت الشهوات أن تطيع، أن تكون نافعة) — الإنسان إذا ما قورن بما قبل الإنسان كمية كبيرة من القوة — وليس زيادة في «السعادة»! فكيف يمكننا الادعاء بأنه قد طمح إلى السعادة؟...

306

اللذة والكدر أكثر المصطلحات غباوة للتعبير عن حكم ما: وهو شيء لم يكن القصد من ورائه طبعا هو تأكيد أن الأحكام التي تصدر بهذا الشكل هي أحكام غبية حتما. اللذة والكدر هما: إزالة كل أساس وكل منطق، الإثبات أو النفي من خلال حصر الأمر في شهوة أو في نفور انفعالي، اختزال إلزامي لايمكن إنكار فائدته. يكمن أصلهما في مركز العقل: شروطهما إدراك غاية في السرعة، وملكة إصدار الأوامر والتلخيص والتحقق والإستنتاج: اللذة والكدر هما على الدوام ظاهرتين نهائيتين وليسا « سببين»...

اتخاذ القرار بخصوص ما يثير اللذة والكدر يتوقف على درجة القوة: فالشيء نفسه الذي يبدو، بالنسبة لكمية ضئيلة من القوة، خطرا من الضرورة تداركه بأسرع مايمكن، قد يتسبب، حين يشعر المرء بقوة أكبر، في حدوث إثارة شهوانية، إحساس باللذة.

كل أحاسيس اللذة والكدر تفترض كوننا نقيس حسب المنفعة العامة، حسب الضرر، أي كوننا نسلم بوجود نطاق نعبر فيه عن إرادة هدف ما (إرادة حالةٍ ما) وعن اختيار الوسائل التي تمكننا من بلوغه. لاتكون اللذة والكدر أبدا «أمرين أصليين».

اللذة والكدر ردتا فعل الإرادة (الأهواء)، يثبت فيهما المركز العقلي قيمة بعض التغيرات التي حصلت حسب القيمة العامة وذلك ليقوم، في نفس الوقت، بأعمال مضادة.

307

يجب أن يكبر حجم الفشل والنكبات التي تثيرها قوة ما ليناسبا المقاومة التي تبحث عنها لتتغلب عليها: وبما أنه لايمكن لأية قوة أن تظهر إلا بتغلبها على الذي يقاومها فإننا نجد حتما في كل عملية عنصرا من عناصر الكدر. غير أن هذا الكدر يقوم بدور المحفز للحياة ويقوي إرادة القوة!

308

ليس عدم الإشباع الطبيعي لغرائزنا، كالجوع مثلا، أو الجنس، أو الحركة، في حد ذاته، شيئا محبطا؛ بل يقوم، على العكس، بإثارة الملكات الحيوية، كما أن إيقاع

التهيجات المؤلمة الضئيلة يقوم بتقويتها، مهما أراد المتشائمون أن يقولوا لنا عن ذلك: فعدم الإشباع هذا أبعد من أن ينفر من الحياة، بل هو محفزها الكبير.

309

ليس إشباع الإرادة هو سبب اللذة (— أريد أن أحارب هذه النظرية السطحية بالخصوص — التزييف النفسي الذي لامعنى له للأمور المستقبلية —)، بل هو كون الإرادة تريد المضي قدما وبسط سيادتها على كل ما تجده في طريقها. يكمن الإحساس باللذة بالضبط في عدم إشباع الإرادة، في عجز الإرادة عن إشباع نفسها في غياب الخصم والمقاومة. — «الإنسان السعيد» : غريزة القطيع.

310

إذا كان الإنسان واضحا مع نفسه بخصوص « لماذا؟» حياته فإنه يتخلى طواعية عن «كيف؟» المتعلقة بها. إنه لدليل على ضعف الإيمان بـ « لماذا»، بغاية الحياة ومعناها، وعلى ضعف الإرادة، أن تحتل الصدارة قيمة اللذة والكدر، وتتوصل نظريات مذاهب المتعة والتشاؤم إلى التفاهم. يمكن أن يكون الزهد، والاستسلام، والفضيلة، والـ « موضوعية»، على الأقل، تلك الإشارة التي تكشف بأن الشيء الأساسي بدأ ينقصنا.

311

أطرح نظرية هنا: يجب أن نعيد الفاعل إلى الفعل، وذلك بعد أن تم تجريد الفعل منه بشكل مجرد، فتم بذلك إفراغ الفعل من محتواه؛ يجب أن نعيد إلى الفعل موضوع الفعل. الـ «هدف»، الـ «قصد»، والـ «غاية»، بعد أن تم تجريده منهم بطريقة مصطنعة، وبذلك تم إفراغه من محتواه؛ كل الـ«غايات» والـ«أهداف» والـ «معاني» ما هي إلا تحولات إرادة واحدة ووسائل تعبر بها عن نفسها، إرادة ملازمة لكل ما يحدث، هي إرادة القوة؛ امتلاك المرء الغايات والأهداف والمقاصد، باختصار كونه يريد، يساوي إرادته أن يصبح أقوى، إرادة الكِبَر — وإرادة الوسائل لتحقيق ذلك؛ لقد ظلت الغريزة الشاملة والموغلة العمق في كل فعل، وفي كل إرادة، مجهولة لدينا وخفية عنا، وذلك لأننا أثناء ممارسة حياتنا نخضع لأمرها دائما، لأننا نحن هم ذلك الأمر.

ما كل التقييمات إلا نتائج ومنظورات ضيقة تخدم هذه الإرادة الوحيدة : وما التقييم نفسه إلا إرادة القوة هذه؛ نقد الكينونة المرتكز على إحدى هذه القيم هو شيء لامعنى له ولايمكن فهمه ؛ حتى لو سلمنا أن تقدم الهدم دخل ضمنه فإن هذا التقدم سيكون مع ذلك في خدمة هذه الإرادة.

تقييم الكينونة نفسها : وهذا التقييم نفسه هو جزء من الكينونة ، وبقولنا لا فإننا نصنع الشيء الذي هو نحن... يجب أن ننتبه إلى سخافة ذلك الموقف الذي يريد الحكم على الوجود، وأن نسعى بعد ذلك إلى تخمين مايتعلق به الأمر. إنه لأمر ذو دلالة.

312

« كمية الكدر تغلب كمية اللذة : ومن ثمة فعدم وجود العالم سيكون أفضل من وجوده». — « من الإنصاف ألا يكون العالم قد وُجد، وذلك لأنه يتسبب للذات المرهفة الإحساس في الكدر أكثر من اللذة» — هذه الثرثرة تسمى اليوم تشاؤما !

اللذة والكدر تابعان وليسا سببين ؛ إنهما تقييمان من الدرجة الثانية، متفرعان عن قيمة مهيمنة، — لغة الإحساس تؤكد ما هو «نافع» و«ضار»، وهذه اللغة متغيرة وتابعة. لأنه في كل مرة نقول فيها هذا الشيء «نافع» أو «ضار» تكون أمامنا طرق عديدة لنسأل : نافع في أي شيء؟ وما وجه ضرره؟ احتقر تشاؤم الحساسية هذا: فهو علامة فقر حيوي شديد.

313

انشغال المرء بنفسه وب «خلاصه الأبدي» لا يعبر عن كونه إنسانا غنيا وواثقا من نفسه : لأن الإنسان الغني الواثق من نفسه لاينشغل كثيرا بخلاصه، — ولا يهتم بالسعادة،مهما كانت، مثل الاهتمام السالف الذكر؛ فهو قوة، وعمل، ورغبة، — إنه يطبع الأشياء بطابعه.

المسيحية سويداء رومانسية لدى الذين لا يقفون بصلابة على أقدامهم. — حيثما كانت الصدارة لمنظور مذهب المتعة فإنه يمكننا الاستنتاج بأن ثمة معاناة ونوعا من النجاح الرديء.

314

في خضم الظواهر العديدة التي تحدث داخل الجسم يكون الجزء الذي نشعر به مجرد وسيلة من وسائل الطبيعة: والقدر الضئيل من الـ«فضيلة»، من الـ«نزاهة»، ومن الأوهام المماثلة يتم نفيه نفيا باتا إذا ما حكمنا عليه من زاوية ما يحدث علاوة ذلك. سنحسن صنعا إذا نحن درسنا حسمنا في لا أخلاقيته التامة.

الوظائف الحيوانية أهم بكثير من الحالات النفسية الجميلة ومن ذروة الشعور: فهذه الأخيرة تشكل فائضا، بما أنه لايجب أن تكون أداة من أدوات هذه الوظائف الحيوانية. لصالح من تعمل مكونات الحياة الشعورية، من عقل وروح وقلب، وكذلك الصلاح والفضيلة؟ لصالح إتقان الوظائف الحيوانية الأساسية ما أمكن ذلك (وسائل التغذية وزيادة الطاقة): تعمل في المقام الأول لصالح زيادة الحياة.

ما كان يسمى الـ «جسد» والـ«شهوة» له أهمية كبيرة جدا: وكل ما تبقى ما هو إلا إضافة صغيرة. مهمتنا هي الإستمرار في حياكة نسيج الحياة بحيث يصبح خيطها أقوى شيئا فشيئا. ولكن انظروا كيف يتآمر القلب والروح والفضيلة والعقل لتحويل هذه المهمة الرئيسية، وكأنهم هم الهدف المقصود. يتوقف انحطاط الحياة أساسا على قدرة الشعور على الخطأ: فقليلا ما تمسك الغرائز بزمامه وبالتالي فهو يخطيء بسهولة بالغة أخطاء فادحة.

هل يمكننا تخيل أن يكون للغرور فُجور أخرق من قياس قيمة الحياة حسب أحاسيس المسرة والانزعاج التي تعتري الشعور؟ ما الشعور إلا وسيلة؛ وما أحاسيس المسرة والانزعاج نفسها إلا وسائل! — حسب أي شيء يتم تقييم القيمة موضوعيا؟ فقط حسب كمية القوة المنظّمة والمدعَّمة.

315

إذا قارنا عالم الشعور الذي تشكله الأحاسيس والمقاصد والتقييمات بالقوة الهائلة والعديدة العاملة ضد بعضها البعض، مثلما تجسد ذلك كل حياة عضوية،

فإننا سنجده. مجرد جزء صغير. ولا حق لنا بتاتا في اعتبار هذا الجزء من الشعور هو الهدف، هو علة ظاهرة الحياة: واضح أن بلوغ الوعي ليس سوى وسيلة إضافية في تطور القوة الحيوية وازديادها. لهذا يعتبر من السذاجة اعتبار اللذة أو الروحانية أو الأخلاقية، أو أية نقطة في دائرة الوعي، قيما سامية؛ بل وإرادة تبرير «العالم» من خلال التركيز على إحدى هذه النقط. تلك هي معارضتي الأساسية لكل نظريات نشأة الكون ولكل الإلهيات الفلسفية والأخلاقية[20]، لكل القضايا والقيم السامية في الفلسفة وفي الفلسفة الدينية، مثلما عرفناها حتى الآن. لقد أسيء تأويل مقولة الطبيعة ليتم البحث فيها عن العلل الغائية؛ وفي المقابل تم رفع الحياة وقوتها التي تمت تعليتها بشكل مفرط إلى مقام الوسيلة.

إذا أردنا أن نحدد للحياة هدفا كبير فإنه يجب ألا يكون مطابقا لأية مقولة من مقولات الحياة الشعورية؛ عليه، على العكس، أن يفسرها جميعا بكونها وسائل لتحقيقه هو...

اعتبار «نفي الحياة» هو هدف الحياة، هو هدف تطور الوجود، اعتباره حماقة كبرى ! ما هذا التأويل الغريب إلا نتيجة تقييم الحياة بواسطة عوامل الوعي (اللذة والكدر، الخير والشر). هنا تتم مواجهة الهدف بالوسائل «الكافرة»، العبثية والمزعجة قبل كل شيء — : كيف لهدف يستعمل مثل هذه الوسائل أن تكون له قيمة ما! يكمن عيب هذا التأويل في كونه يفترض مسبقا، وقبل كل شيء، هدفا يقصي هاته الوسائل، عوض أن يسعى إلى هدف يبين ضرورتها: أي كوننا نعتبر رغباتنا هي معايير بعض الوسائل (الوسائل السائغة، والمعقولة، والفاضلة)، محددين لذلك الهدف العام المرغوب...

العيب الأساسي هو أنه عوض أن نعتبر الوعي أداة وحالة خاصة في إطار الحياة العامة فإننا نعتبره مقياس الحياة وقيمتها السامية: إنه المنظور المعيب الذي مرده جزئيا إلى الكل (totum)؛ هذا هو ما يجعل كل الفلاسفة يسعون غريزيا إلى تخيل مساهم واع في كل ما يحدث، «روح» أو «إله». ويجب أن نُفهم أن هذا هو ما يجعل الحياة شيئا فظيعا ؛ أن الحد «إله» والحساسية العالمية سيؤديان بالوجود إلى الهلاك... لقد أقصينا الوعي العالمي الذي يحدد الهدف والوسيلة: وهذا بالضبط هو ما أراحنا، — وبهذا لم نعد مجبرين على أن نكون متشائمين... مانؤاخذ عليه الحياة بشكل كبير هو وجود الرب...

316

للتذكير: — في السيرورة العامة لا يدخل العمل الإنساني في الحساب، لإنه لاوجود للسيرورة العامة(باعتبارها نظاما).

ليس هناك «كل»: لايمكن تقييم الوجود الإنساني والغايات الإنسانية بالنسبة إلى شيء غير موجود.

الحتمية والسببية والغائية مظاهر ضرورية.

ليس الهدف هو زيادة الوعي، بل إعلاء القوة، هذا الإعلاء الذي يتضمن منفعة الوعي؛ نفس الشيء يقال عن اللذة والكدر.

لايجب اعتبار الوسائل البسيطة قيما سامية (مثل حالات الوعي كالألم واللذة حين يكون الوعي ذاته مجرد وسيلة —).

ليس العالم جسما، بل سديما؛ تطور الـ«عقلانية» وسيلة لبلوغ مدةٍ نسبية من التنظيم.

لايكون للشيء المرغوب أي معنى بالنسبة إلى الطابع العام للكينونة...

ب) عن التطور

317

لا يمكن أن نعرف سبب وجود التطور بقيامنا بأبحاث حول سبيل التطور ذاته: لا يمكننا اعتبار هذا السبب لايزال في إطار الصيرورة، ولا اعتباره قد تحقق... لايمكن أن تكون إرادة القوة قد تحققت.

318

اعتبار «الإله» هو لحظة الأوج: والوجود عملية سرمدية من التألُّه ونقض التألُّه. ولكن ليس ها هنا أوج القيمة بل أوج القوة، إقصاء تام للإوالية والمادة. فما هما معا إلا تعبير من درجة أدنى، شكل الإنفعال وقد جُرِّدَ من روحانيته (شكل «إرادة القوة»).

اعتبار التراجع بعد بلوغ أوج الصيرورة (أسمى روحانية للقوة على أساس العبودية) كنتيجة لذلك الشكل الراقي الذي يواجه نفسه، بعد أن لم يعد لديه شيء يقوم بتنظيمه، والذي يستغل طاقته في إفساد النظام...

أ) الهزيمة الكبرى للمجتمعات وخضوعها لحكم القلة، ولكنها قلة قوية.

ب) الهزيمة الكبرى للمحظوظين والأقوياء وبالتالي مجيء الديمقراطية، وأخيرا فوضى العناصر.

319

الإمكانية الوحيدة التي نملكها للإبقاء على معنى لفكرة «الرب» هي عدم اعتبار الرب قوة فاعلة بل أقصى حالة بلغتها مرحلة ما — نقطة في تطور إرادة القوة، وهو ما سيفسر التطور إلى الأمام وكذلك الشيء السابق المؤدي إليه.

إذا ما نظرنا إلى طاقة الصيرورة الكونية وجدناها ثابتة: وباقتصاد تعلو حتى تبلغ أوجا معينا ثم تنحدر بعد ذلك لتعلو مرة أخرى في حركة دائرية لا تتوقف. تتجسد « إرادة القوة» هذه في التأويل، في طريقة استهلاك القوة. لذلك يبدو تحويل الطاقة إلى حياة، إلى حياة في أوج قوتها، هدفا، تدل نفس كمية الطاقة على أشياء مختلفة في مختلف درجات التطور.

الشيء الذي يخلق التطور في الحياة هو الاقتصاد الصارم والمدرك لعواقب الأمور، والذي يحقق أكثر بقوة أقل. إنه مبدأ المجهود الأقل كمثل أعلى...

الشيء الوحيد الذي تمت البرهنة عليه هو كون العالم لايريد بلوغ حالة تكون دائمة. لذلك يجب أن نتصور أن ذروته ليست حالة توازن...

لا تدل الضرورة المطلقة لوقوع نفس الأحداث في سياق دائرة كونية، كما في سياق كل الدوائر الأخرى، لا تدل في إطار الخلود عن حتمية تعلو على كل ما يحدث، وإنما فقط عن كون المستحيل ليس ممكنا؛ عن كون قوة معينة لايمكن أن تكون شيئا آخر عدا هذه القوة المعينة، وأنها، حين تواجه مقاومة معينة، لا تظهر إلا بمقدار يطابق قتها؛ — حدوث الشيء وحدوثه بالضرورة هو تحصيل حاصل.

320

تصاحب الحط الأخلاقي من شأن الأنا، في العلوم الطبيعية، مبالغة في تقدير النوع. ولكن النوع شيء وهمي مثله مثل الأنا: لقد قمنا بتمييز خاطئ. الأنا أكبر

من أن يكون مجرد وحدة في تسلسل الأعضاء؛ إنه هو السلسلة ذاتها، بأكملها؛ وما النوع إلا شيء مجرد استنبطناه من تعدد تلك التسلسلات وتشابهها الجزئي. إذا كان الفرد، مثلما تم ادعاء ذلك كثيرا، تتم التضحية به من أجل النوع، فإن ذلك لايدل على الحقيقة: بل هو نموذج تأويل خاطئ.

321

— يضع فائض القوة الذي تعرفه العقلانية لنفسه أهدافها جديدة؛ فهو لا يكتفي بقيادة العالم الأدنى وتوجيهه. أو بالحفاظ على الجسم. أو الـ «فرد». نحن أكبر من الفرد: نحن السلسلة بأكملها، ولنا مهمة السلسة ومستقبلها.

322

ضد الداروينية. — لا تفسر لنا فائدة عضو ما أصله، بل العكس! فأثناء تكون ميزة ما فإنها لاتحافظ على الفرد ولا تفيده في مواجهة الظروف الخارجية والأعداء ولا في أي شيء آخر. وماهو «النافع» في نهاية المطاف؟ يجب أن نتساءل « مفيد بالنسبة لماذا»؟ فالشيء الذي يكون مفيدا لديمومة الفرد قد يكون غير ملائم لبهائه؛ والشيء الذي يحافظ على الفرد قد يعمل في نفس الوقت على تجميد تطوره. ومن جهة أخري قد يكون التشوه الخلقي والانحلال الخلوي مفيدين جدا، وذلك بتحفيزهما للأعضاء الأخرى. كما قد تكون حالة العوز شرط وجود، وذلك بدفعها الفرد إلى التجميع وعدم العطاء. الفرد نفسه هو ساحة قتال بين مختف أجرائه (من أجل الغذاء، والفضاء، إلخ): وتطور مرتبط بانتصار بعض الأجزاء وسيادتها، وبهلاك الأجزاء الأخرى وتحولها إلى أعضاء.

لقد بالغ داروين بشكل غريب بخصوص تأثير «الظروف الخارجية: الشيء الأهم في سيرورة الحياة هو تلك القوة الخلاقة الهائلة التي تخلق الأشكال من الداخل إلى الخارج، التي تستخدم «الظروف الخارجية» وتستغلها. — والأشكال الجديدة، التي تم خلقها من الداخل إلى الخارج لم يتم خلقها لهدف ما؛ وفي إطار صراع الأجزاء فإن الشكل الجديد لن يظل وقتا طويلا دون أن تربطه علاقة بمنفعة جزئية، وذلك لكي يتطور لاحقا، طبقا للطريقة لتي استُعمل بها، ودائما بمزيد من الإتقان.

ضد داروين. — أية قيمة نهائية قد تكون لتدجين الإنسان؟ أم أن للتدجين دائما قيمة نهائية؟ — لدينا أسباب تجعلنا ننفي هذا الواقع الأخير.

صحيح أن مدرسة داروين تبذل مجهودات كبيرة لتقنعنا بالعكس: تريد لتأثير التدجين أن يصير كبيرا بل وأساسيا. لنتوقف مؤقتا عند الماضي: لم تتم البرهنة حتى الآن سوى على تأثير سطحي يحدثه التدجين — أو الانحطاط. وكل ما يفلح في الإفلات من قبضة الإنسان وترويضه يعود على التو تقريبا إلى حالته الطبيعية. النوع ثابت: لا نستطيع « تغير الطبيعة».

إننا نعول على الصراع من أجل الوجود، على هلاك الكائنات الضعيفة وبقاء الكائنات الأقوى والموهوبة: لذلك نتصور نموا مستمرا في كمال الكائنات. ومقابل ذلك تأكدنا، في إطار الصراع من أجل البقاء، أن الصدفة تخدم الضعفاء والأقوياء على السواء، أن الحيلة غالبا ما تقوم مقام القوة محققة نتائج أفضل، وأن خصوبة النوع تكون في علاقة غريبة مع فرص الإبادة...

نعزو إلى الانتخاب الطبيعي تحولات بطيئة ولا نهائية في نفس الوقت: نريد الاعتقاد بأن كل المزايا تنتقل وراثيا وتظهر لدى الأجيال اللاحقة، بكثافة أكبر(بينما الوراثة في الواقع شديدة التقلب...)؛ نلاحظ لدى بعض الكائنات التمثل الناجح لظروف حياتيه معينة فننادي بأن هذا التمثل نتيجة لتأثير الوسط.

ولكننا لا نجد في أي مكان أمثلة على انتخاب لا شعوري (على الإطلاق). الأفراد المتنافرون يتوحدون، والبعيدون ينضمون إلى الجمهور. الكل يساهم في الحفاظ على نوعه، الأفراد الذين يملكون علامات تحميهم من بعض الأخطار لايفقدونها حين تتوفر لهم ظروف عيش لاخطر فيها... وإذا تم نقلهم إلى أماكن لا يستر فيها الثوب عريهم فإنهم لا يغيرونها وذلك بغية التقرب من الوسط.

لقد تمت المبالغة بخصوص انتخاب أجمل الكائنات بحيث أنه تجاوز كثيرا غريزة الجمال لدى عرقنا نحن ! الواقع أن الجميل يرضى تمام الرضى بالكائنات المحرومة،

والكبير بالصغير. نرى الذكر والأنثى تقريبا دائما ينتهزون كل حركة من حركات الصدفة دون أن يكون اختيارهما صعب الإرضاء. — نعم، هناك تغيير يُحدثه المناخ والتغذية، ولكنه تغيير غير مهم في الحقيقة.

ليست هناك أشكال وسيطة.

نزعم أن تطور الكائنات قد عرف تطورا؛ ولكنها نظرية لا أساس لها. لكل نوع حدود: ولا وجود للتطور بعد تلك الحدود. ما عرفته الأنواع حتى الآن هو الإنتظام التام.

* * *

آرائي الأساسية. — الافتراض الأول: الإنسان كنوع لايتطور. يظهر بيننا أفراد راقون، ولكنهم لايحافظون على أنفسهم. لا يحقق مستوى النوع رقيا.

الافتراض الثاني: لا يحقق الإنسان باعتباره نوعا أي تطور مقارنة مع سائر الحيوانات. لايتطور عالم الحيوان والنبات، في مجمله، من الأدنى إلى الأرقى... يتم كل شيء في الوقت ذاته، بشكل عشوائي، يتطابق ويتعارض. الأشكال المعقدة والغنية — لأن كلمة «نوع أرقى» لا تقول أكثر من هذا — تختفي بسهولة: وحدها الأشكال الدنيا تحافظ على خلودها الظاهر. الأشكال الأولى نادرا ما تظهر للوجود وتجد صعوبة في البقاء: أما الثانية فخصوبتها مثيرة للشبهات. حتى الإنسانيية نفسها يموت أفرادها الراقون بسهولة، أولئك الذين نجح فيهم التطور، الذين يتناوب عليهم حسن الحظ والنكد. إنهم معرضون لكل الأشكال الإنحطاط: إنهم يشكلون أقصى درجات التطور، وهذا يكفي لجعلهم على حافة الانحطاط... قصرُ مدة جمال وعبقرية قيصر شيء خاص به وحده: — فهذه المزايا لا تنتقل بالوراثة. النوع وراثي: ليس أقصى. ليس «ضربة حظ»... ليس صنيع قدرية خاصة، « صنيع إرادة سيئة» من جانب الطبيعة، وإنما صنيع فكرة « النوع الراقي»؛ يمثل النوع الراقي تعقيدا هائلا، — قدرا كبير من العناصر المنتظمة: لهذا يكون احتمال تشتتها كبيرا جدا. الـ«عبقرية» أسمى آلة يعرفها النوع الراقي، ومن ثمة فهي الأكثر هشاشة كذلك.

الافتراض الثالث: لا يبلغ تدجين («ثقافة») الإنسان طبقات عميقة... وكل من نفذ إلى أعماقه فإنه سرعان مايتحول لديه إلى انحطاط (نموذج المسيح). الإنسان

«المتوحش» (أو الإنسان الشرير، حتى أتكلم من وجهة نظر الأخلاق) عودة إلى الطبيعة — هو، بمعنى من المعاني، استعادة للعافية، هو شفاء الـ «ثقافة».

324

ضد داروين. — ما يفاجئني أكثر حين استعرض أمام أنظاري مصائر الإنسانية الكبيرة هو كوني أرى فيها عكس مايراه أو يريد رؤيته داروين ومدرسته. هم يرون انتخاب الكائنات الأقوى والناجحة، يرون تقدم الإنسانية. لكن الشيء الظاهر للعيان هو العكس تماما: القضاء على الأفراد الموفقين، عدم منفعة الأشخاص الناجحين، الهيمنة المحتومة للأشخاص المتوسطين وحتى الذين هم دون المتوسط. ما لم تبين لنا مدرسة داروين السبب الذي يجعل من الإنسان الإستثناء من بين المخلوقات، فإني أميل إلى الإعتقاد بأن هذه المدرسة قد أخطأت في كل شيء. إرادة القوة هذه التي أتعرف فيها على خفايا وطبيعة كل تغيير تفسر لنا سبب كون الانتخاب لا يكون في صالح الإستثناءات والصدف الموفقة: الأقوياء والسعداء يصبحون ضعفاء حيث تواجههم غرائز القطيع المنظمة وجبن الضعفاء والعامة. يبرهن تصوري لعالم القيم على أن الذين لهم الغلبة في القيم الرفيعة المنصوبة الآن فوق رؤوس الإنسانية ليسوا هم أولئك الذين نجحت الصدفة في إيجادهم ولا الذين تم انتخابهم، بل المنحطون. قد لا يكون هناك في هذا العالم ما هو أهم من هذا المشهد غير المطلوب...

مهما يكن من غرابة في إثبات ذلك فإنه يجب دائما أن نبدي مزايا الأقوياء ضد الضعفاء، والناجحين ضد الفاشلين، والأصحاء ضد المنحلين والمرضى بالوراثة. لو أردنا اختزال الواقع في صيغة أخلاقية لكانت هذه الأخلاق كالتالي: المتوسط أفضل من الاستثناء وأشكال الانحطاط أفضل من المتوسط؛ إرادة العدم تتقدم على إرادة الإيمان — والهدف العام يصبح، كيفما كانت وسيلة التعبير، مسيحية أو بوذية أو شوبنهاورية، هو: «عدم الوجود أفضل من الوجود».

تغيظني هذه الطريقة في صياغة الواقع إلى أخلاق: لذلك أكره المسيحية غاية الكره، لأنها ابتكرت كلمات ومواقف بهية لتلبس الواقع البشع رداء القانون والفضيلة والألوهية.

أرى الفلسفة والعلم جاثيين أمام صراع من أجل الحياة. هو نقيض الصراع الذي تُعلنه مدرسة داروين، — أي أنني أرى في كل مكان في المقام الأول حثالة الناس، وأولئك الذين يثيرون الشبهات حول الحياة، حول قيمة الحياة. لقد أصبح خطأ مدرسة داروين بالنسبة لي مشكلة: كيف تعامت وأخطأت بخصوص هذه الحالة؟... الادعاء بأن الأنواع تمثل تقدما هو الإثبات الأكثر لا معقولية للعالم: يكفيها مؤقتا أن تمثل مستوى واحدا منه. إذا كانت الأجسام الراقية قد تطورت من أجسام أدنى فإنه ليس هناك مثال واحد يبرهن على ذلك الآن. فأنا أرى أن الأدنون هم المتفوقون بالعدد، بالدهاء وبالحيلة. لست أرى كيف يمكن لمثل هذا التغير العرضي أن يكون نافعا، على الأقل ليس على مدى هذا الحيز الزمني الطويل: لأنه حينها يجب تفسير سبب اكتساب هذا التغير العرضي مثل هذه القوة.

أجد «قسوة الطبيعة»، التي يقال عنها الشيء الكثير، في مكان آخر: الطبيعة تقسو على من حباهم القدر: إنها تراعي جانب العامة وتحميهم وتحبهم.

خلاصة القول هي أن ازدياد قوة نوع ما تضمنه هيمنة أفراده المتوسطين والأدنون أكثر مما تضمنه هيمنة الأقوياء فيه ومن حباهم القدر... فالأولون يملكون الخصوبة الكبيرة والديمومة؛ أما الأواخر فتزداد معهم الخطورة، والتدمير السريع، وتقلص العدد.

III

إرادة القوة باعتبارها أخلاقا

1- المجتمع والدولة

325

مسلَّمة : وحدهم الأفراد يشعرون بأنهم مسؤولون. لقد تم ابتكار الجماعات لتقوم بما لايملك الفرد شجاعة القيام به. إذا فالجماعات والمجتمعات تعلمنا الشيء الكثير، وبصدق أكبر عن طبيعة الإنسان أكثر مما يعلمنا الفرد ، الذي يحول ضعفه الشديد دون امتلاكه شجاعة تلبية رغباته...

الـ«إيثار» نتيجة لذكاء الفرد : فالمجتمعات لا «يؤثر» بعضها البعض على نفسه... لم يقم أي أحد بتوسيع مجال وصية محبة القريب لتصبح وصية صحبة الجار. ومقابل ذلك يجب أن نعتبر ما تضمنته شريعة مانو صحيحا...

دراسة المجتمع ثمينة جدا نظرا لكون الإنسان كمجتمع أكثر سذاجة منه كـ «فرد». وما نظر الـ«مجتمع» يوما إلى الفضيلة إلا باعتبارها وسيلة لبولغ القوة، والسلطة، والنظام.

326

الدولة أو اللا أخلاقية المنظمة. — في الداخل تتخذ شكل الشرطة، والقانون الجنائي، والطائفة، والتجارة، والعائلة، وفي الخارج تظهر كإرادة للقوة، والحرب والغزو والإنتقام.

كيف تستطيع الجماعة القيام بأشياء لن يقرر الفرد القيام بها أبدا؟ بتقسيمها للمسؤوليات، للأمر والتنفيذ، بإشاعة الفضيلة، والواجب، وحب الوطن والملك.

بالحفاظ على الأنفة، والصرامة، والقوة، والحقد، والانتقام، أي على كل السمات النموذجية التي تنفر منها كينونة القطيع...

327

الحيلة التي تنقل إلى دائرة الإمكان أعمال ومشاريع وأهواء لم تعد، حسب المعايير الفردية، «مسموحا بها» — ولا مستساغة... — الفن الذي يدخلنا هذه العوالم «الغريبة» يضفي عليها نكهة؟ — يكشف لنا المؤرخ طريقتها كما ينبغي؛ السفر، حب الدخيل، علم النفس؛ القانون الجنائي؛ مستشفى المجانين؛ المجرم؛ علم الاجتماع.
— الـ«لافردية» التي تحركنا (— بما أننا وسطاء جماعة ما فإننا نستطيع ممارسة نفس الأهواء والأفعال، — نتسمى آنذاك باسم هيأة العدل، هيأة المحلفين، المواطن، الجندي، الوزير، الأمير، المجتمع، «الناقد» —) تثير لدينا الإحساس بأننا تضحية ما.

الحفاظ على الدولة العسكرية هي آخر وسيلة تلجأ إليها التقاليد العريقة، أو يمكن اللجوء إليها. بالنسبة للإنسان الراقي، الإنسان القوي. وكل التصورات التي تخلد العداوة والفوارق الاجتماعية بين الدولة قد تجد في هذا قانونها (كالقومية والحمائية الجمركية).

328

يجب أولا أن نتأمل الكمية التي يتضمنها الهدف وآثارها على التقييم: المجرم الكبير والمجرم الصغير. والكمية التي يتضمنها الهدف من الإرادة، لدى الفاعل، هي التي تحدد كذلك ما إن كان يكن احتراما لنفسه أو يشعر بالحقارة والبؤس.

يجب بعد ذلك أن نتأمل درجة المعقولية في الوسائل وأثرها على التطوره كم يبدو المجدد الفلسفي، ومعير الذهب، والمستبد مختلفين إذا ما قارناهم بقاطع الطريق، بالهمجي، وبالمغامر! — مظهر الرجال «المترفعين».

وفي الأخير انظروا مليا إلى كيف تغير التصرفات والمواقف النبيلة، والشجاعة والثقة في النفس، تقديرنا لما قد يتم تحقيقه بهذا الشكل.

من أجل التقييم:

تأثير الكمية (الكبيرة، والصغيرة) في الهدف.

تأثير المعقولية في الوسائل.

تأثير التصرف في الفعل

تأثير النجاح أوالفشل.

تأثير القوى المناوئة وقيمتها.

تأثير المباح والمحرَّم.

329

أثر التحريم. — القوة التي تحرم، التي تعرف كيف تزرع الخوف في الذي تحرم عليه شيئا ما، تولد تبكيت الضمير (أي الرغبة في فعل شيء ما مقرونة بفكرة كون تلبيه تلك الرغبة ستكون خطيرة، بضرورة كتمان السر، وسلك طرق ملتوية، واتخاذ الحيطة والحذر). يفسد التحريم طبع الذين لا يقبلونه طوعا، بل بالقوة.

330

« الثواب والعقاب». — جميعا نحيا، وجميعا نموت. اليوم لا نريد أن ننال الثواب، ولا نريد الاعتراف بأي شخص يعاقب... لقد أعلنا الحرب: نريد شيئا معينا، نواجه معارضات ونصل إليه ربما بالطريقة الأكثر حكمة إذا نحن عشنا في سلام، — إذا عقدنا اتقافية.

في المجتمع الحديث، الذي عقد فيه كل فرد « اتفاقية» تخصه، يعتبر المجرم ناقضا للاتفاقية التي أبرمها... هذا مفهوم واضح. إذن لن يقبل مجتمع ما بين أفراده الفوضويين وخصوم الشكل الذي اتخذه هذا المجتمع.

331

تدخل الجريمة ضمن مفهوم «الثورة على النظام الاجتماعي». والثائر لا يعاقب، بل يتم سحقه. قد يكون الثائر إنسانا تعسا ومحتقرا: والثورة، في ذاتها، لا تتضمن شيئا

يستدعي الاحتقار، — وبالنسبة للنظام الاجتماعي فإن ثورة إنسان ما، في ذاتها، لا تحط من قيمة. بل هناك حالات يجب علينا فيها أن نبجل ذلك الثائر، لأنه يشعر في مجتمعنا بشيء تجب محاربته؛ لأن هناك حالات يوقظنا فيها من سباتنا.

إن ارتكاب مجرم لفعل من فرد في حق فرد ما لايبرهن على أن غريزته بأكملها هي التي توجد في حالة حرب مع النظام الاجتماعي بأسره: فما فعله هو مجرد عارض من العوارض.

يجب حصر فكرة «العقاب» في فكرة قمع الثورة، إجراء أمني ضد المهزوم (الأسر الكلي أو الجزئي). غير أنه لايجب أن يتم التعبير عن الاحتقار من خلال العقاب؛ فالمجرم، على أية حال، إنسان يجازف بحياته وشرفه وحريته، — إنسان شجاع. كما أنه لا يجب اعتبار العقاب تكفيرا؛ أو دينا؛ لأنه ليست هناك علاقة تبادل بين العقاب والذنب، — العقاب لايُطَهِّر، لأن الجريمة لا تُدَنِّس.

لا يجب أن نحرم المجرم من إمكانية التصالح مع المجتمع، إذا سلمنا بأنه لاينتمي إلى عرق المجرمين. في هذه الحالة الأخيرة يجب أن نحاربه قبل أن يقدم على القيام بأعمال عدوانية (أول ما يجب القيام به بمجرد السيطرة عليه: خَصْيُه).

لايجب أن نلوم المجرم على سوء سلوكه، على تدني ذكائه. من المعتاد أن تجده يخطئ بخصوص نفسه (فغريزته الثائرة غالبا ما تكون تعبيرا عن حقد إنسان مهمش، حقد لايتمكن من الوعي به لكونه لا يقرأ)، أن تجده يثلب فعلته ويشينها تحت وطأة الخوف والفشل: بغض النظر عن الحالات التي يستسلم فيها المجرم لغريزة أساء فهمها، وهو شيء يمكن البرهنة عليه نفسيا، والتي يعطي فيها لفعلته، من خلال قيامه بفعل إضافي، دافعا ليس لها (بالسرقة مثلا، والحالة أن غرضه كان هو القتل...)

لايجب الحكم على قيمة إنسان ما من خلال فعل منفرد. وقد حذّر نابليون من الوقوع في هذا الخطأ. الأفعال التي تظهر بارزة تكون أفعالا تافهة. وإن كان أحدنا لايعذبه ضميره بسبب جريمة ارتكبها — كجريمة القتل، مثلا — فلأي شيء يعود ذلك؟ إلى كون الظروف المواتية لم تتوفر لنا. ولو اقترفنا عملا إجراميا واحدا، فأية

أفكار سيتم تكوينها من خلال ذلك عن قيمتنا الشخصية؟ عموما، سيتم احتقارنا من طرف الناس إن اعتقدونا عاجزين عن قتل إنسان ما حين تقتضي الظروف ذلك. في كل الجرائم تقريبا تتجلى مزايا يملكها كل رجل حقيقي. لم يخطئ دوستويفسكي حين زعم أن المعتقلين المنفيين في سيبريا يشكلون العنصر الأقوى والأغلى في صفوف الشعب الروسي. إن كان المجرم لدينا نبتة لا ينال تغذية جيدة فتذبل فإن ذلك شيء مشين لظروفنا الاجتماعية؛ إبان عصر النهضة ازدهر المجرم واكتسب طريقة خاصة في الفضيلة، — الفضيلة حسب أسلوب النهضة، فضيلة متحررة من كل أخلاق.

لا يمكننا أن نربي الناس إلا حين لا نعاملهم باحتقار؛ فالاحتقار الأخلاقي إذلال كبير يسبب أذى كبيرا أكثر من أية جريمة.

332

في عالمنا المتحضر نتعلم كيف نتعرف بشكل خاص على المجرم الذي يصيبه الوهن، المسحوق تحت وطأة لعنة المجتمع واحتقاره، المرتاب في نفسه، الذي يحط من قدر فعلته وينعتها بكونها مشينة، إنه نموذج المجرم الفاشل، ونشمئز من الفكرة القائلة بأن كل العظماء كانون مجرمين، ولكن بأسلوب رفيع وليس بأسلوب رديئ، نشمئز من الفكرة القائلة بأن الجريمة جزء من العظمة (الذيم سبروا نفس الإنسان واعون بهذا، وكذلك الذين سبروا أعماق النفوس العظيمة)، كل رجل عظيم يعرف خطر التموقع (خارج قانون) التراث أو الوعي أو الواجب. ولكنه يريد ذلك: إنه يريد الهدف العظيم وكذلك وسيلة بلوغه.

333

كانت في القانون الجنائي القديم فكرة قوية: فكرة القوة التعويضية التي يتمتع بها العقاب. العقاب يطهر، أما في العالم المعاصر فإنه يدنس. العقاب دين نؤديه، نتخلص من ذلك الشيء الذي طالما أردنا المعاناة بسببه. إذا سلمنا بأننا نؤمن بقوة العقاب هذه، فإنه سيليها تلطيف يقترب كثيرا من صحة جديدة، من الشفاء. لن يكون المجرم بذلك قد تصالح مع المجتمع فقط، بل يصبح كذلك جديرا بالاحترام في نظر نفسه، — يصبح «طاهرا»... اليوم أصبح العقاب سببا للعزلة أكثر من الذنب: لقد تعاظمت اللعنة التي

تصاحب الجريمة حتى أصبحت متعذرة المحو. فحين يكمل المجرم عقوبته يكون قد انتقل إلى صف أعداء المجتمع ... ومنذ ذلك الحين يصير للمجتمع عدو إضافي.

قد يكون ما يملي القصاص هو روح المجازاة بالمثل (أي هو شكل ملطَّف من غريزة الإنتقام): أما في شريعة مانو، مثلا، فما يمليه هو التوفر على ند، من أجل التكفير، ليعود المقتص «حرا» في نظر الدين.

334

الزيادة جزء من تصور الشيء الحي: ـ على الشيء الحي أن يزيد قوته ويمتص بالتالي قوى أجنبية. تحت تأثير المخدر الأخلاقي نتحدث عن حق الفرد في الدفاع عن النفس: وفي نفس السياق يمكننا أن نتحدث عن حقه في الهجوم: لأن الدفاع والهجوم ضرورتان لدى كل ما هو حي. ليست الأنانية الهجومية والأنانية الدفاعية شيئا اختياريا أو من قبيل «حرية الاختيار»، إنهما حتمية الحياة نفسها.

وسواء نظرنا إلى فرد واحد، إلى جسم حي أو إلى «مجتمع يطمح للنمو، فالأمر سيان. والحق في العقاب (أو الدفاع الإجتماعي) لم يلبس لباس الـ «الحق» إلا عسفا: إننا نكتسب حقا ما من خلال معاهدة، ولكن الدفاع عن النفس لا يقوم على أساس المعاهدة. يستطيع شعب ما، وسيكون على صواب في ذلك، أن يسمي حقا حاجته إلى الغزو، ورغبته في القوة، سواء بواسطة السلاح، أو التجارة، أو التبادل والإستعمار، ـ وسيكون ذلك الحق آنذاك هو الحق في النمو. المجتمع الذي يرفض الحرب والغزو، بشكل قطعي وبالفطرة، هو مجتمع دخل مرحلة الإنحطاط: مجتمع أصبح مهيأ للديمقراطية ونظام البقالين ... صحيح أن ضمانات السلام تكون في أغلب الحالات مجرد وسائل للإسترخاء.

335

2ـ الفرد

شكل إحساس الفرد بقيمته. ـــ وجهة النظر الأولى: ترى أن مشاعر الرحمة والتضامن هي تلك الدرجة الدنيا المهيئة لمرحلة لم يصبح فيها بعد ممكنا الإحساس بالقيمة الشخصية، وكذلك التقييم الشامل.

وجهة النظر الثانية: ترى أن الإحساس بالقيمة الجمعية الذي تم الدفع به إلى علو معين، وكبرياء المسافة التي تفرق بين الناس في هذه الحياة، والشعور بعدم المساواة، والنفور من التوسط، والحقوق المتساوية، والمصالحة، هي مدرسة التوجه نحو الأحاسيس الفردية: وخاصة بكونها تجبر الفرد على تمثيل كبرياء الجماعة : — وآنذاك يكون عليه أن يتكلم ويفعل وهو يشعر بقيمته شعورا بلغ قصاراه، وذلك لكونه يجسد الجماعة. نفس الشيء يحدث حين يعتبر الفرد نفسه هو أداة المعبود والمناطق باسمه.

وجهة النظر الثالثة : وترى أن أشكال نكران الذات هذه تعطي أهمية كبيرة جدا للفرد، وذلك حين تستغله قوى أعلى : الخوف الديني للفرد من نفسه، الحالة النفسية للنبي، للشاعر...

وجهة النظر الرابعة: ترى أن مسؤولية الفرد عن الجماعة ترسخ في ذهنه رؤية واسعة وتمكنه منها، من امتلاك يد صارمة ومرعبة، من التفكير والتأمل، من رباطة الجأش والرفعة، في الموقف والحركة، وهو ما لن يجرؤ على التوفر عليه لو كان الأمر يتعلق به هو.

خلاصة القول: الأنانيات الجمعية هي أكبر مهيء للسيادة الفردية. وطبقة النبلاء هي التي ترث هذا التهذيب.

336

ما يحدد مقياس الحرية، سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع، هو درجة المقاومة التي يجب التغلب عليها باستمرار للبقاء في الأعلى: باعتبار الحرية هنا قوة إيجابية، باعتبارها إرادة للقوة. وقد يحدث أن تنمو قوة الحرية الكبرى، قوة السيادة، قريبا جدا من نقيضها، هناك حيث خطر العبودية معلق رفوق رأس الوجود، مثل مئة سيف من سيوف ديمقريط. جولوا عبر التاريخ وسترون ذلك. فالعصور التي صار فيها ال — «فرد» ناضجا إلى هذا الحد من الكمال، أي حرا، التي تحقق فيها النموذج التقليدي من الإنسان السيد، لم تكن أبدا عصورا إنسانية.

لا يجب أن يكون هناك خيار : إما في الأعلى — وإما في الأسفل، زاحفا، مثل دودة، مهانا، منهكا، ومداسا. يجب أن يكون خصوم المرء طغاة لكي يصبح طاغية هو الآخر، أي حرا. إنه لامتياز كبير أن تكون معلقة فوق رأس المرء مئة سيف من سيوف ديمقريط: فبذلك يتعلم الرقص، وبذلك يبلغ «رشاقة الحركة».

الفردانية شكل متواضع وواع من «إرادة القوة»؛ يبدو أنه يكفي الفرد أن يتحرر من هيمنة المجتمع (سواء كان هذا المجتمع هو الدولة أو الكنيسة...) لا يقف الفرد كمعارض بصفته شخصا، بل فقط بصفته وحدة؛ إنه يمثل كل الوحدات المضادة للجماعة.

وهذا يعني أنه يضع نفسه غريزيا في مساواة مع كل الوحدات؛ والشيء الذي يحصل عليه لايحصل لنفسه هو باعتباره شخصا، بل باعتباره الرقم واحد ضد الجماعة كلها.

ليست الاشتراكية سوى وسيلة لإثارة الفردانية : فهي تتصور أنه ، لكي يتم تحقيق شيء ما، يجب القيام بعمل موحد، تنظيم «قوة»ما.. غير أن الذي تريد تحقيقه ليس هو المجتمع الذي يسعى الفرد وراءه كهدف، بل المجتمع الذي يكون وسيلة تجعل وجود أفراد كثيرين ممكنا. هذه هي غريزة الاشتراكيين التي كثيرا مايخطئون بشأنها (ـ دون أن ننسى أنه يجب عليهم، لكي يحققوا غاياتهم، أن يخدعوا الآخرين). القَسَمُ الإيثاري في خدمة الأنانية الفردية : هذه واحدة من الخدع المعتادة في القرن التاسع عشر.

وليست الفوضوية، من جهتها، إلا وسيلة لإثارة الاشتراكية؛ بوسائلها الخاصة تثير الخوف، ومع الخوف تبدأ في الإبهار والترهيب : تجلب إليها قبل كل شيء الرجال الشجعان والجريئين، حتى في الميدان الروحي.

رغم كل هذا فإن الفردانية هي الدرجة الأكثر تواضعا من بين درجات إرادة القوة.

* * *

حين يبلغ المرء درجة معينة من الاستقلال يريد المزيد : إنه يقوم بانتخاب حسب درجة القوة : فالفرد لايضع نفسه ندا دون اختبار؛ على العكس إنه يبحث عن أمثاله،- يتخلص من الآخرين. بعد الفردانية يأتي تكون الأطراف والأعضاء : والاتجاهات المجاورة تتوحد وتظهر كقوة ؛ وبين مراكز القوة هذه يحدث الاحتكاك، والحرب، ومعرفة القوى المتقابلة، والتعويض، والتقارب، وتحديد تبادل المنتوجات وأخيرا : التراتبية.

1 - يتحرر الأفراد.

2 - يدخلون في صراع، ويتفقون حول «حقوق متساوية» (الـ«عدل»كهدف).

3 - حين يتحقق هذا تظهر بحجم أكبر الفروق الحقيقية بين القوى (مادام السلم سائدا، وكثير من الكميات الصغيرة من القوى تتميز عن بعضها بفروق كانت فيما مضى منعدمة): الآن ينتظم الأفراد في مجموعات ؛ والمجموعات تطمح إلى امتيازات وتفوقات. ويبدأ الصراع من جديد، بشكل ألطف.

نريد الحرية ما دمنا لا نمتلك القوة. وحين نشرع في امتلاكها نريد الهيمنة. وإذا ما فشلنا (إذا كان ضعفنا يحول دون الهيمنة) فإننا نطلب — «عدالة»، أي المساواة في الحقوق.

338

الأشكال المقنّعة من إرادة القوة.

1 - الرغبة في الحرية، في الاستقلالية، وكذلك في التوازن، في السلم، في التنسيق. هناك كذلك الرغبة في العزلة، في «حرية الفكر». وفي شكل أدنى: الرغبة في الوجود، «غريزة البقاء».

2 - الرغبة في الانضمام إلى الصف لإشباع إرادة قوة الجماعة: الخضوع، جعل الفرد نفسه نافعا ولا غنى عنه لدى صاحب السلطة؛ الحب، طريقة ملتوية لبلوغ قلوب الأقوياء — بغية الهيمنة عليها.

3 - الشعور بالواجب، والوعي، والعزاء الوهمي بالانتماء لصف أرقى من صف الذين يملكون السلطة بالفعل؛ الاعتراف بترابية تسمح بالحكم حتى على الأكثر قوة؛ إدانة المرء لذاته ؛ ابتكار جداول جديدة للقيم (اليهود هم المثل التقليدي على ذلك).

339

«ميكيافيلية» القوة (الميكيافيلية اللاشعورية). — تظهر إرادة القوة:

أ) لدى المضطهدين، ولدى كل أصناف العبيد، على صورة توق إلى «الحرية»: وحده الخلاص يبدو أنه الهدف (من وجهة النظر الأخلاقية والدينية: «الفرد مسؤول فقط أمام ضميره»؛ «الحرية الإنجيلية»، إلخ.)؛

ب) لدى نوع أقوى بدأ يسمو إلى القوة ؛ وآنذاك تكون إرادة التفوق؛ وإذا لم تنجح في البدء فإنها تقصر نفسها على إرادة ال «عدل»، أي على تساووي جميع الناس في الحقوق (الصراع من أجل الحقوق...)؛

ج) لدى الأكثر قوة وغنى واستقلالية وشجاعة في صور «حب الإنسانية»، حب «الناس»، والإنجيل، والحقيقة، والله ؛ في صورة الرحمة والتضحية بالنفس، إلخ ؛ — وكذلك في صورة الانتصار على الغير، صورة التمرن، والتجنيد الغريزي لكمية كبيرة من القوة، التي يودون التوحد معها ليتمكنو من توجيهها وجهة معينة : البطل، والنبي، والقيصر، والمخلص، والراعي ؛ (— الحب الجنسي يندرج هو كذلك في هذا الباب: ويريد الإخضاع، والامتلاك، ويبدو وكأنه نكران للذات. وهو في مجمله مجرد حب لل «أداة»، لـ «رهن الحيازة»، قناعة بأن هذا الشيء ملك لك، كما لو كان ملك شخص يمكنه استعماله).

«حرية» و «عدل« و «حب» !!! —

340

عجز القوة، نفاقها ومكرها : على شكل خضوع (التبعية، الافتخار بالواجب المؤدى، الأخلاقية ...) ؛ على شكل استسلام، ونكران للذات، وحب (أمثلة الحاكم وتأليهه، كتعويض، وبطريقة غير مباشرة، كتمجيد للذات)؛ على شكل قدرية واستسلام ؛ على شكل موضوعية واستبداد بالنفس (الرواقية، والزهد، ونكران الذات، والتقديس)؛ على شكل نقد، وتشاؤم، وسخط، وانزعاج : بتظاهرها ب «بساطة القلب»، بال «فضيلة»، بال «تدله بالذات»، بالحياة «على الهامش»، بال — «طهارة« التي تتجنب الناس، إلخ (— تنكر القناعة بالعجز عن ممارسة القوة في صفة الازدراء). في كل مكان تظهر حاجة المرء إلى ممارسة قوة ما، رغم كل شيء، أو حاجته إلى الظهور بمظهر القوة مؤقتا في صورة انتشاء.

هناك رجال يريدون القوة بسبب مزايا السعادة التي تمثلها — الحزب السياسي.

وآخرون يريدون القوة، رغم الأضرار والتضحيات التي قد تلحق سعادتهم ورغد عيشهم — الطموحون.

وآخرون يريدون القوة فقط لأنهم إن لم يريدها فستقع في أيدي رجال آخرين، وهم لا يريدون أن يكونوا تابعين لأحد.

341

تصحيح فكرة الـ «أنانية». — إذا فهمنا معنى كون الـ «فرد» خطأ وكيف أن كل فرد يتضمن السيرورة كلها مباشرة (ليس فقط عن طريق الوراثة، بل في نفسه...) فَسَنُولي للفرد أهمية كبرى. الغريزة تتكلم فيه لغتها الحقيقية؛ وحين ترتخي هذه الغريزة، — حين لا يبحث الفرد لنفسه عن قيمة إلا في خدمة الآخرين، آنذاك يمكننا الاستنتاج بيقين أنه قد أصابه الضجر وشرع في الانحطاط. الغيرية الصادقة في الإحساس تقابل الغريزة التي تدفعنا لأن تخلق لأنفسنا قيمة ثانية، في خدمة الأنانية الأخرى. وفي كثيرر من الحالات تكون هذه الغيرية ظاهرية فقط : وآنذاك تكون حيلة يحافظ بها الفرد على إحساسه الحيوي، على إحساسه الخاص بالقيمة.

342

الحب — انظروا أيها السادة : أترون شيئا أكثر أنانية من حب النساء وشفقتهن؟ وحين يضحين، حين يضحين بشرفهن وسمعتهن، فلأجل من يفعلن ذلك؟ أمن أجل الرجل؟ أو لأجل شهوة جامحة ؟ — هذه رغبات أنانية هي بدورها، مهما يكن نفعها للآخرين ورغم العرفان الذي ينجم عنها ...

كيف لمثل هذا الإطناب في تقييم ما أن يجعل الباقي كله مقدسا !

343

ما الحياة ؟ — ثناء وعرفان بمناسبة حصاد وفير، بمناسبة الجو الجميل، والنصر، وحفل الزفاف والسلام: — ولكن كل هذه الحفلات تحتاج إلى موضوع يتمكن الإحساس من التعبير عن نفسه تجاهه. يريدون أن يكون كل الخير الذي يصيبكم صنيع أحدما : يريدون العثور على الفاعل. وكذلك أمام عمل فني : لا نكتفي بتأمل العمل ذاته، بل نريد الثناء على الفنان . — فما هو الثناء إذن ؟ نوع من التعويض على خيرات نلناها، إرجاع، شهادة على قوتنا نحن، — لأن الذ يثني يؤكد، ويقدّر،،

ويُقيّم ، ويَحْكُم : إنه يستأثر بحق الإثبات، بحث التشريف... الإحساس المكثف بالسعادة وبالحياة هو كذلك إحساس مكثف بالقوة : وانطلاقا من هذا الإحساس يثني الإنسان (— يختلق فاعلا، «ذاتا»، ويبحث عنه —). العرفان انتقام قوي : انتقام تتم المطالبة به وبممارسته بقسوة بالغة هناك حيث يجب الحفاظ على المساواة والأنفة في ذات الوقت، هناك حيث تتم ممارسة الانتقام بأفضل طريقة.

344

كل ما يأتي من الضعف لا يساوي شيئا، كل ما يأتي من الارتياب في النفس ومن النفس المريضة — وإن تجلى في الازدراء التام لخيرات الأرض، فإنه لا يساوي شيئا هو كذلك، لأنه يكون آنذاك مثلا يسمّمُ الحياة... لقد أساءت نظرة الكاهن وحياته الشاحبة على الهامش إلى الحياة بقدر فاق كل المنفعة التي كانت في نكرانه لذاته : مثل هذه الحياة على الهامش تعد افتراء على الحياة.

345

تأتي مجازفة الإنسان بحياته وصحته وشرفه نتيجة لكبريائه ولإرادته الطافحة والمبذّرة. إننا لا نتصرف بهاته الطريقة بدافع الحب للناس، بل لأن كل خطر كبير يثير فضولنا لتجريب قوتنا وشجاعتنا.

346

«تكريس الحياة لقضية ما» — كم يبهر هذا ! ولكن هناك أمور كثيرة نكرس لها حياتنا : كل الأهواء، على اختلافها، تريد منا إشباعها. سواء كرسنا حياتنا للرحمة، أو للغضب، أو للانتقام، فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئا. كم من الرجال كرسوا حياتهم للشابات الجميلات — والأسوأ من ذلك أنهم كرسوا لهن صحتهم ! حين يكون المرء رائق المزاج فإنه يتجه فطريا إلى اختيار الأمور الخطيرة : مثل مغامرات التأمل إذا كان فيلسوفا، أو مغامرات اللاأخلاقية إذا كان فاضلا. نوع من الرجال لا يريد المجازفة بأي شيء، وآخر يريد المجازفة. أنكون نحن محتقرين للحياة ؟ على العكس،

إننا نبحث فطريا عن حياة درجة قوتها كبيرة، عن حياة في المخاطرة... ومرة أخرى نقول إننا لا نريد بهذا أن نكون أفاضل أكثر من الآخرين. فباسكال مثلا، لم يرد المجازفة بأي شيء فظل مسيحيا، ربما كان ذلك أمراً فاضلا. ـــ

347

ما تم أبدا تشريف مشاعر الطيبة، والبر، والإحسان، بسبب المنفعة التي تجرها، بل لكونها تشكل جزءا من الحالات النفسية للنفوس الطافحة التي تستطيع العطاء من فيضها والتي قيمتها هي الحياة بكاملها. لنسلط أنظارنا على المحسنين ! إننا سنرى فيهم شيئا آخر غير نكران الذات، وكراهية الأنا، وال ـــ «باسكالية». ـــ

348

ما مصير الإنسان الذي لم يعد لديه سبب للدفاع عن نفسه أو للهجوم ؟ ماذا يبقى له من أهوائه إذا فقد تلك التي تشكل أسلحته الدفاعية والهجومية ؟

349

في العصور الديمقراطية يكره الناس «إرادة القوة» إلى حد أن علم النفس الذي تتحول إليه هذه الإرادة يبدو وكأنه يستخدم للتقليل من شأنها والافتراء عليها. صاحب الطموح الكبير: هو ولا شك نابليون ! وقيصر! والإسكندر ! ـــ وكأن هؤلاء ليسوا هم بالضبط من يحتقر التشريفات ! ـــ

ويفسر سبنسر طموحنا للقوة بسعينا للحصول على المتع المتاحة للإنسان القوي: ـــ إنه يرى أن هذا الطموح إلى القوة هو رغبةٌ في المتعة، هو مذهب المتعة!...

350

سذاجة لاروشفوكو اللاإرادية، الذي يعتقد أنه يقول شيئا جزئيا، ومستقلا، ومتناقضا ـــ فقد كانت الـ «حقيقة» في علم النفس آنذاك تثير إحساسا كبيرا بالدهشة ـــ تبدو مثلا في الحكمة القائلة : «ليس العظماء هم أولئك الذين تقل أهواؤهم وفضائلهم عن فضائل العوام وأهوائهم، الذين لهم مشاريع أكبر» صحيح أن جون ستيوارات ميل (الذي

كان يسمي شومفور لاروشفوكو القرن الثامن عشر الأكثر نبلا وفلسفة)[21] يرى فيه مجرد ملاحظ دقيق لكل ما هو «أنانية مألوفة» في النفس الإنسانية، ويضيف : «لن يصمم العقل النبيل على إلزام نفسه بضرورة القيام بمراقبة طويلة لما هو مألوف ودنيء، اللهم إلا إذا كان ذلك سيتم بغرض إبراز التأثيرات الوخيمة التي يعرف العقل الراقي ونبالة الطبع كيف يقفان في وجهها وقوف الظافرين».

351

كل الأهواء نافعة، بعضها بشكل مباشر، والبعض الأخر بشكل غير مباشر؛ ويستحيل تحديد سلم للقيم يخص منفعتها، — وإن كان مما لا شك فيه، من الناحية الاقتصادية، أن كل قوى الطبيعة حسنة، أي نافعة، مهما يكن حجم المصيبة المريعة التي تنجم عنها. وما يمكننا قوله، على الأكثر، هو أن أقوى الأهواء هي الأثمن : بمعنى أنه لا يوجد مصدر للقوة أكبر منها.

352

يتوقف ما نسميه نافعا على القصد على الهدف، ويتوقف القصد بدوره على درجة القوة: وهذا هو سبب كون النفعية مذهب النتائج وليس مذهب الأسس، ويتعذر بتاتا إضفاء طابع الإلزامية عليها.

353

لقد أصبحت معرفتنا علمية بما أنه أصبح بإمكاننا التقييم والتقدير. وهذا مما يدعونا للقيام بمحاولة لنرى ما إن كان بإمكاننا إقامة نظام علمي من القيم على سلم القوى فقط... فكل الـ «قيم» الأخرى إن هي إلا أحكام مسبقة وسذاجات وسوء تفاهم. — إذ مرجعها في كل مكان إلى سلم القوى هذا. فالارتفاع في هذا السلم يعني زيادة القيمة، والانخفاض يعني نقصانها. — هنا يقف الظاهر والحكم المسبق ضد المرء.

الفرضية الأولى : لا وجود بتاتا لأفعال أخلاقية: فما هي إلا محض أوهام. ذلك أنها ليست فقط من قبيل ما يستعصي الاستدلال عليه (وهو ما سلم به كا نط، وكذلك المسيحية)، بل هي مستحيلة. لقد ابتكر الناس نقيضا للقوى الفعالة، نتيجة سوء فهم نفسي، ظانين أنهم بذلك يعيّنون صنفا آخر من هذه القوى: لقد تخيلوا باعثا أولا لاوجود له. وحسب طريقة التقييم هذه التي دشنت التعارض بين «أخلاقي» و«لا أخلاقي» ينبغي القول : ليس هناك إلا مقاصد وأفعال لا أخلاقية.

الفرضية الثانية: ينطلق هذا التمييز بين «أخلاقي» و«غير أخلاقي» من المبدأ القائل بأن الأفعال الأخلاقية والأفعال اللاأخلاقية على حد سواء هي أفعال تصدر عن تلقائية حرة، باختصار أن هذه التلقائية موجودة فعلا، أو بصيغة أخرى : أن التقييم الأخلاقي لا يتعلق إلا بالمقاصد والأفعال الحرة فقط. ولكن هذه المقاصد والأفعال وهمية : فالعالم الذي يمكن أن نطبق عليه هذا التعلّم الأخلاقي غير موجود : — ليس هناك لاأفعال أخلاقية ولاأفعال لا أخلاقية.

* * *

الخطأ النفسي، الذي نجم عنه التعارض بين فكرة «اللاأخلاقي» و«الأخلاقي»؛ والـ «نزاهة»، والـ «إيثار»، و«نكران الذات» — كل هذا وهمي وغير واقعي.

الوثوقية الخاطئة بشأن الـ «أنا» : هذه الأنا التي ثم النظر إليها من الناحية الذرية، في تعارض خاطئ مع «اللاأنا» : وكذلك الأنا المتحررة من الصيرورة، كشيء له كينونته. لقد تم (في الإيمان بالخلود الشخصي) وضع النظر الخاطئ إلى الأنا باعتباره جوهرا في مقام أركان الإيمان، وخاصة تحت ضغط الدين والأخلاق. بعد هذا التفريق المتكلّف، هذا الإعلان عن استقلال الأنا، وجد الإنسان نفسه أمام تناقص في القيم يبدو وكأنه لا يمكن التغلب عليه: الأنا الفردي مقابل اللاأنا الضخم. كان يبدو بديهيا أن قيمة الأنا الفردي لا يمكن أن تكمن إلا في علاقتها مع «اللاأنا» الضخم، هذا اللاأنا

الذي كان الأنا الفردي يخضع له فلا يوجد إلا من خلاله. — هنا كانت غرائز القطيع حاسمة. وليس هناك الآن ما يفق في وجه هذه الغرائز إلا سيادة الفرد. إذا سلمنا بأن الأنا يوجد كشيء في ذاته فيجب أن تكمن قيمته في نفسيه لذاته.

ونجد أنفسنا أمام :

1) استقلال «الفرد» استقلالا مزيفا باعتباره ذرة؛

2) تقدير القطيع الذي يدين رغبة الفرد في أن يظل جوهرا ويرى فيها شيئا من العداوة؛

3) والنتيجة هي انتصاره على الفرد بتغيير وجهة هدفه؛

4) ومنذ ذلك الحين أخذ الفرد يبدو وكأنه مسرح لأعمال يدحض بعضها بعضا؛ وحول هذه الأعمال يتم تصور دائرة من التناقضات؛

5) كان التساؤل المطروح : ما هي الأعمال التي يثبت فيها الإنسان نفسه بقوة؟ وأعمال (الجنس والجشع والطموح والقسوة ، إلخ). هي التي صبت عليها اللعنات وكانت موضع حقد واحتقار : كان الاعتقاد السائد هو وجود غرائز غير أنانية، فتم نبذ كل الغرائز الأنانية والمطالبة بكل الغرائز الغيرية.

6) فما ذا كانت النتيجة ؟ تم إبعاد كل الغرائز القوية، الطبيعية جدا، بل الواقعية من بين كل الغرائز؛ وأصبح لزاما، منذ ذلك الحين، نفي هذه الغرائز عن كل عمل يروم نيل الثناء : – ياله من تزييف نفسي كبير! كان أي شكل من أشكال «الرضى عن النفس» في حاجة إلى جعل نفسه ممكنا من خلال جعل الآخرين يفسرونه خطأ على أنه سعي إلى نوع خيّر من الرجال. وعلى العكس من ذلك فقد عرفت الطبقة المستفيدة من حرمان الإنسان من رضاه عن نفسه (أقصد ممثلي غريزة القطيع، مثل الكاهن والفيلسوف) كيف تبين بطريقة دقية وبكثير من الفطنة كيف أن الإنسانية، ورغم كل شيء، تسود في كل مكان. الخلاصة المسيحية : «كل شيء إثم، حتى فضائلنا. الإنسان شرير قطعا. والعمل النزيه غير ممكن.» الخطيئة الأصلية. باختصار، بعد أن وضع الإنسان غرائزه في تناقض مع عالم خيالي هو عالم الخير انتهى به الأمر إلى احتقار نفسه، وأصبح عاجزا عن القيام بأعمال «حسنة».

لقد حصل مع المسيحية تقدم في صفاء النظرة النفسية: لاروشفوكو وباسكال. لقد أدركت المسيحية ما هية أعمال الإنسان وتساوي قيمتها في خطوطها العريضة (هي كلها لا أخلاقية).

* * *

وبدأ العمل جديا لتكوين رجال لا أنانية فيهم : الكهنة والقديسون. حين يشك الإنسان في إمكانية أن يصير «كاملا» فإنه لا يشك في معرفته لما هو كامل.

وهكذا أضحى علم نفس القديس والكاهن مجرد عرض للأشباح.[22] لقد تم اعتبار بواعث الفعل خبيثة : وهكذا أصبح من اللازم عليهما، حتى يتمكنا من القيام بالفعل أو أمر الناس بإتيان أفعال ما، وصف أفعال لم تكن ممكنة من قبل بأنها ممكنة، ثم تقديسها نوعا ما. وها هو نفس التدليس الذي استعمل للافتراء يستعمل الآن للتبجيل والأمثلة.

لقد تم اعتبار الغضب على غرائز الحياة شيئا «مقدسا» ومبجلا. العفة التامة، والطاعة الكاملة، والفقر المدقع: هذا هو المثل الأعلى لدى الكاهن. الصدقة، والتقوى، والتضحية، وجحود الجمال والعقل والشبقية، والنظرة الحزينة إلى كل مزايانا القوية: هذا هو المثل الأعلى لدى العلماني.

* * *

وتقدمنا : ها هي الغرائز المفترى عليها تسعى هي الأخرى للحصول على حقها (إصلاح لوثر مثلا: أبشع أشكال الكذب الأخلاقي المتخذ اسم «الحرية الإنجيلية»، — يتم تجريدها من أسمائها القديمة لتطلق عليها أسماء مقدسة.

تسعى الغرائز المفترى عليها إلى إظهار كونها ضرورية، وإلا لما كانت الغرائز الفاضلة ممكنة؛ لا بد أن نحيا لكي نتمكن من الحياة لأجل غيرنا: لا بد من الأنانية لبلوغ الهدف.

وذهبنا أبعد من ذلك، سعينا لإعطاء الحق في الوجود للدوافع الأنانية وغير الأنانية على السواء: مساواتهما في الحقوق (من زاوية المنفعة).

وذهبنا أبعد من ذلك كثيرا، بحثنا عن المنفعة الكبرى بتفضيلنا لجانب الأنانية على جانب الغيرية: أكثر نفعا بالنسبة لسعادة العامة، لتطور الإنسانية، إلخ. إذن : هيمنة حقوق الأنانية، ولكن من منظور إيثاري صرف («المنفعة العامة للإنسانية»).

لقد حاولنا التوفيق بين طريقة الفعل الإيثاري وطريقة الفعل الطبيعي، بحثنا عن التيار الإيثاري في أساس الحياة : اعتبرنا الأنانية والغيرية ذاتي أساس في جوهر الحياة والطبيعة نفسه.

حلمنا بزوال التناقض بينهما في المستقبل، أو بالتوفيق المستمر بينهما بحيث يصير ما هو أناني إيثاريا في الوقت نفسه...

وفي النهاية أدركنا أن الأعمال الإيثارية ما هي إلا نوع من الأعمال الأنانية، — وأن القدر الذي نحب به ونبذل به أنفسنا يقدم دليلا على قدر القوة الفردية وقدر الشخصية. مجمل القول، بجعلنا الإنسان شريرا نصيّره أفضل، ولن يكون بوسعنا أن نكون هذا دون أن نكون ذاك في الوقت ذاته ... وهكذا يرفع الستار عن ذلك التزييف الهائل الذي تمت ممارسته حتى الآن في حق نفسية الإنسان.

* * *

خلاصات : ليس هناك إلا نوايا وأعمال أخلاقية، — والأعمال التي نزعم أنها أخلاقية ما هي إلا لاأخلاقيات. كل الأهواء يمكن استنباطها من إرادة القوة: جوهرها إذن واحد، فكرة الحياة : في التناقضين الظاهرين(«الخير والشر») تتجسد غرائز تتغير درجات قوتها، وتراتبيات مؤقتة، توجه بعض الغرائز الأخرى وتستخدمها. تبرير الأخلاق: اقتصادية، إلخ.

* * *

ضد الفرضية الثانية. الحتمية: محاولة لإنقاذ العالم الأخلاقي بتحويله — نحو المجهول. ما الحتمية إلا طريقة تمكننا من إخفاء أحكام قيمتنا التي لم تجد لها مكانا في عالم مشكّل بطريق آلية. لذا وجب علينا مهاجمةالحتمية وتلغيمها، وكذلك إنكار حقنا في الفصل بين عالم الأشياء في ذاته وعالم الظواهر.

IV

من أجل فزيولجيا الفن

355

تصميم أجمالي

1 ـ الإنتشاء كشرط أولي : أسباب الانتشاء.

2 ـ أعراض الانتشاء الخاصة.

3 ـ الشعور بالقوة والإمتلاء عند الانتشاء: تأثيره المؤمثل.

4 ـ فائض القوة الفعلي : زينتها الفعلية. (فائض القوة في رقص الجنسين مثلا) الشيء المرضي في الانتشاء ؛ خطورة الفن الفزيولوجية.

ـ تأمل الحكم الذي نصدره على الـ «جمال» وكيف أنه حكم مبني على مركزية البشرية: تأسيسه على فرضيات بيولوجية فيما يتعلق بالنمو والتقدم.

5 ـ الأبولوني، الديونيسي : نوعان أساسيان. في مجال أوسع، مقارنة مع فنوننا الخاصة.

6 - سؤال : ما انتماء المعمار؟

7 ـ مساهمة الكفاءة الفنية في الحياة العادية، ممارستها توفّر قوة منشطة : أما بالنسبة للقبيح فالعكس هو ما يحدث.

8 - مسألة الوباء والعدوى.

9 - مشكلة الـ «صحة» والـ «هستريا»، ـــ العبقرية = العصاب.

10 - الفن باعتباره إيحاء، أداة للتواصل، كمجال لابتكار استقراءنفسي حركي.

11 - الحالات غير الفنية: الموضوعية، غيظ تحليل المرء لذاته، الحياد. الإرادة التي تم إضعافها: خسارة في رأس المال.

12 - الحالات غير الفنية : التجريدية. المعنى الذ ي تم إفقاره.

13 - الحالات غير الفنية: الهزال، الضعف، الفراغ. — إرادة العدم (المسيحي، والبوذي، والعدمي).الجسد الذ ي تم إنهاكه.

14 - الحالات غير الفنية : المزاج الأخلاقي. خشية الضعفاء وقليلي الذكاء للحواس، للقوة، وللانتشاء (غريزة الذين هزمتهم الحياة).

15 - كيف يكون الفن التراجيدي ممكنا؟

16- الشخص الرومانسي : غامض. ونتيجته هي الـ «طبيعة»،

17 - قضية الكوميدي : ضعف «النية الحسنة»، القدرة النموذجية على التحول باعتبارها عيبا في الطبع... قلة الحياء، المهرج، الستير 23 البهلول، جيل بْلاَ، الكوميدي الذي يتظاهر بأنه فنان.

356

تكوّن الجمال والقبح. — الشيء الذي ننفر من جماله نفورا غريزيا نعتبره شيئا ضارا بالإنسان وخطرا عليه، شيئا يستحق أن نحذره، يحدث هذا، كما هو معلوم، بعد تجربة طويلة؛ والغريزة الجمالية التي تنطق فجأة (من خلال الإشمئزاز مثلا) تتضمن حكما. وبهذا يجد الجمال نفسه واحدا من ضمن أصناف قيم النافع البيولوجية، قيم ما يزيد في حجم الحياة : ولا يتم ذلك إلا من خلال كون عدد كبير من التهيجات التي تجعلنا نفكر من بعيد في أشياء وظروف ممتعة ترتبط بها، كونها تمنحنا الإحساس بالجمال، أي ازياد إحساسنا بالجمال (— ليست الأشياء وحدها إذا، بل كذلك الأحاسيس التي تصاحبها، أو رموزها).

وهكذا يبدو طابع الجمال والقبح وكأنه مشروط؛ وذلك بالنسبة لقيم البقاء الدنيا لدينا. ولن يكون للإنطلاق من هذا لتحديد الجميل والقبيح أي معنى. الجمال قليل الوجود، مثله في ذلك مثل الخير والحقيقة. يتعلق الأمر في جزئياته بشروط بقاء صنف معين من الناس: وهكذا سيشعر إنسان القطيع بقيمة الجمال أمام أشياء هي غير تلك الأشياء التي سيشعر أمامها بذلك الإنسان المتفرد والإنسان الراقي.

المنظور الرفيع هو الذي لا يأخذ في الحسبان إلا النتائج المباشرة، والتي منها يتم استنباط قيمة الجمال (وكذلك قيمة الحقيقة والخير).

كل الأحكام الغريزية قصيرة النظر فيما يتعلق بالنتائج، إنها تنصح بما يجب القيام به في المقام الأول. العقل هو قبل كل شيء أداة إبطاء تقف في وجه رد الفعل المباشر الذي يلي حكما غريزيا: إنه يتوقف. ويعمل الفكر في فضاءات أطول، ويطيل سلسلة النتائج.

الأحكام التي نصدر على الجمال والقبح قصيرة النظر (— دائما يعارضها العقل): ولكنها تقنع غاية الإقناع؛ إنها تخاطب غرائزنا، حين تتخذ قراراها بأسرع ما يمكن، معلنة القبول أو الرفض، قبل أن يتمكن العقل من تناول الكلمة...

تأكيدات الجمال المعتادة تخلق بعضها وتحفز بعضها البعض؛ بمجرد ما تشرع الغريزة الجمالية في العمل فإن مجموعة من الكمالات المتعددة وذات أصل متعدد تتبلور حول «الجمال المتفرد». يستحيل على المرء أن يظل موضوعيا، أي أن يوقف عمل القوة التي تؤول وتضيق وتملأ وتبتكر(— هذه القوة تنتج تسلسل إثباتات الجمال). مظهر «امرأة جميلة»...

إذاً 1) الحكم الجمالي قصير النظر، فهو لا يرى إلا النتائج المباشرة.

2) يضفي على الموضوع الذي يثيره سحرا ناتجا عن الجمع بين أحكام جمالية متنوعة — ولكن هذا السحر يظل غريبا تماما عن جوهر ذلك الموضوع. فالشعور أمام شيء ما بالجمال يساوي بالضرورة الإحساس أمامه بشعور زائف — (لذلك أشير هنا إشارة عابرة إلى كون الزواج عن حب يعتبر، من وجهة النظر الاجتماعية، أكثر أشكال الزواج غير المعقولة)...

357

يقوم كل فن بالإيحاء للأعضاء والحواس التي تكون، لدى الإنسان الفطري والفني، في حالة نشاط أولي: ولكن الفن لا يخاطب دائما إلا الفنانين - يخاطب حركية الجسم الرشيقة. تصور «الجاهل بالفن» خطأ. والأصم ليس صنفا من الذي يسمع.

لكل فن أثره المقوي، يزيد القوة، يشعل فتيل الفرح (أي الإحساس بالقوة)، يبعث أدق ذكريات الإنتشاء، - هناك ذاكرة فريدة تنزل إلى مستوى مثل هذه الظروف: وآنذاك يعود إلينا عالم من الأحاسيس، عالم بعيد وهارب.

القبح هو مقابل الفن، هو ما نخرجه من دائرة الفن، هو نفيه: — كلما ظهرت للوجود فكرة الانحطاط، وإفقار الحياة، والعجز، والتفكك، والانحلال، كلما كان رد فعل الإنسان الجمالي هو الرفض. كل ما هو قبيح يخلف أثراكئيبا، إنه تعبير عن الاكتئات. إنه ذلك الشيء الذي يجرد الإنسان من القوة، ويضعفه، ويجعله كئيبا... القبح بوحي بالقبح. يمكن للمرء تجربة ذلك على ظروفه الصحية، وسيدرك مدى شحذ الانزعاج لملكة تخيل القبح. ويتم تحويل مسار الاختيار، في الأشياء، في الاهتمامات، في القضايا. هناك حالة قريبة من القبح، حتى في مجال المنطق: — إنه الثقل، الخمول... من الناحية الإوالية هناك غياب نقطة الإرتكاز؛ القبح يعرج في مشيته، القبح يتعثر... إنه نقيض خفة الراقص الإلهية ...

يملك الجمال وسائل كثيرة جدا يتواصل بها معنا، كما أنه يكرر كثيرا إثاراته ورموزه. إنه يشكل ذروة التواص والاتصال بين الكائنات الحية، — إنه مصدر اللغة. منه انبثقت اللغات: لغة الأصوات، وكذلك لغة الإشارات والنظرات. ظاهرة الامتلاء دائما هي المنطلق: في ملكات الامتلاء لدينا يتم تدقيق وشحذ ملكاتنا. ولكننا لازلنا اليوم نسمع بعضلاتنا، بل ونقرأ بها كذلك.

لكل فن، في امتلائه، أساسٌ قوامه سلسلة من التعاقدات : مادام يريد التعبير عن شيء ما. التعاقد هو شرط الفن العظيم، وليس عائقا في طريقه ... كل تسام بالحياة يزيد ملكة التواصل، وكذلك ملكة الإدراك لدى الإنسان. استمداد المرء حياته من حياة إنسان آخر ليس أمرا أخلاقيا أصلا، بل هياجا نفسيا سببه الإيحاء. الـ «تعاطف»، أوما نسميه بال «غيرية»، ليس سوى تطوير لعلاقة الحركينفسي في ميدان المعقولية (يقول ش. فيري: استقراء حركينفسي). إننا لا نتواصل أبدا بالأفكار، بل نتواصل بالحركات، بالإشارات الإيمائية التي نحولها، من خلال التدوين، إلى أفكار...

358

أثبت هنا سلسلة الحالات النفسية التي تؤشر على حياة خصبة ومزدهرة، والتي اعتاد الناس اليوم اعتبارها أعراض مرض. ولكننا لم نعد نتحدث عن الصحة والمرض كنقيضين: إنهما عبارة عن درجات. — فيما يخص الحاضر أوكد أن ما نسميه اليوم «صحة» يمثل مستوى أدنى مما قد تكون عليه الصحة في ظروف أكثر ملائمة... وأننا مريضون نسبيا... ينتمي الفنان إلى عرق ما يزال قويا. فما قد يشكل خطرا علينا، ما قد يبدو لنا وكأنه حالة مرضيه، يعتبره هو أمرا طبيعيا. ويواجهنا المعارضون بالقول بأن هذا الضعف تحديدا هو الذي يمكّن القلة من الفهم الخارق لكل أشكال الإيحاء: إلى التجربة يا نساءنا الهستريات.

الوفرة الزائدة عن الحد في النسغ قد يصاحبها ظهور أعراض إكراه جزئي، أعراض هذيان الحواس، أعراض رقة الإيحاء، وكذلك ضعفٌ في الغريزة الحيوية، قد تتغير ظروف حدوث التهيج، ولكن النتيجة لا تتغير... ولكن التأثير الجانبي ليس مشابها، الفقر المدقع الذي يصيب كل النفوس المريضة إثرانحرافها العصبي لا يمت بأية صلة إلى حالات الفنان الذي لا يحتاج إلى المعاناة من لحظاته الجميلة... غناه الوافر يسمح له بالتبذير تبذير من لا يخشى الفقر، لأنه لن يصير فقيرا...

مثلما قد نقول اليوم عن الـ «عبقرية» أنها شكل من أشكال العصاب، فإنه يمكننا أن نقول نفس الشيء عن القوة الإيحائية الفنية، والحقيقة هي أن فنانينا شديدو القرابة مع النساء الهستيريات!!! ولكن هذه الحجة هي حجة ضد «الحاضر» وليس ضد الـ «فنانين» ...

الحالات غير الفنية هي حالات الموضوعية، وتأمل الذات، والإرادة النائمة ... (الخطأ الفاحش الذي ارتكبه شوبنها ورعندما اعتبر الفن جسرا يؤدي إلى نفي الحياة)... الحالات غير الفنية لدى الكائنات الفقيرة، لدى الذين يزولون ويعانون، الذين يقاسون العذاب أمام أخطار الحياة؛ — المسيحي...

الشعور بالنشوة إحساس يقابل زيادة في القوة: ويكون أقوى وقتَ تسافد الأجناس: أعضاء جديدة، وملكات جدية، وألوان جديدة، وأشكال جديدة، الـ— «تجمّل» نتيجة قوة أكبر. يمكن أن نعتبر التجمل تجسيدا لإرادة ظافرة، لتنسيق كثيف، لتحقيق للانسجام بين كل الواجبات العنيفة، لتوازن عمودي لا يلحقه الاختلال، الاختزل المنطقي والهندسي نتيجةٌ لتزايد القوة؛ ومن جهة أخرى فإن إدراك مثل هذه الاختزالات يكثف الشعور بالقوة... قمة التطور: الأسلوب الرفيع.

القبح يساوي انحطاط نوع ما ؛ حين يكون هناك تناقض وتنسيق غير كاف في الطموحات الداخلية يجب الاستنتاج من ذلك وجود نقص في القوة المنظّمة، في الـ «إرادة» النفسية...

حالة المتعة التي نسميها النشوة هي شعور بقوة كبيرة... يتغير الإحساس بالزمان والمكان ؛ نعانق فضاءات كبيرة لم يمر على إدراكنا لها وقت طويل ؛ يمتد نظرنا على آفاق رحيبة وعلى الحشود؛ وتترقى الأعضاء لتدرك أدق الأشياء وأكثرها تفلتا، إنه التَّأَلُّه وقوة الإدراك يثيرهما أدنى تحريض وأضعف إيحاء: الشبقية «الذكية» — ؛ تظهر القوة كشعور بالسيادة في العضلات، كرشاقة في الحركة، ولذة ناجمة عن هذه الرشاقة، كرقصة، كخفة، كعزف سريع : تصبح القوة هي فرحة إظهار هذه القوة، تصبح إقداما، ومغامرة، وبسالة، وعدم اعتراف بالحياة أو الموت. كل هذه اللحظات المتفوقة في الحياة يثير بعضها بعضا؛ ويكون عالم الصور والتصورات في لحظة ما كافيا بالنسبة للحظة الأخرى: — وهكذا ينتهي الأمر بحالات نفسية إلى التمازج بعدما كان ممكنا تذرعها بأسباب تبقيها غريبة عن بعضها. مثلا: شعور النشوة الدينية والهياج الجنسي (شعوران عميقان يتم الانسجام بينهما بالتدريج. ما الذي تحبه النساء التقيات، والعجائز، والشابات؟ الجواب : قديس ذو ساقين جميلتين يكون في سن الشباب وأبله...)، القسوة في المأساة والرحمة (هما كذلك يتم الإنسجام بينهما بشكل طبيعي). الربيع، والرقص، والموسيقى: كلهم نتيجة لصراع الجنسين، وكذلك هذا «اللامتناهي في الصدر» كما في فاوست...

الفنانون، حين يكونون ذوي قيمة، يملكون طبعا قويا (من الناحية البدنية كذلك)، يملكون فائضا من القوة، إنهم شهوانيون: دون فرط التسخين الجنسي لن يكون بوسعنا تخيل رافائيل... إبداع الألحان الموسيقية هو أيضا طريقة لإنجاب الأطفال؛ ما العفة إلا إدخار يقوم به الفنان، ـــ ومن المؤكد أن الخصوبة تتوقف لدى الفنان عندما تتوقف ميزة الإنتاج الغزير... لا يجب على الفنانين أن يروا أي شيء، مثلما هو، عليهم أن يروه أكثر غزارة، وببساطة وقوة: لذلك يجب أن تخصم الحياة بنوع من الشباب والربيع، من النشوة المعتادة.

360

الظروف الاستثنائية التي تخلق الفنان: كل الحالات ذات الارتباط الحميمي بالظواهر المرضية، إلى حد تبدو معه استحالة أن يكون المرء فنانا دون أن يكون مريضا.

هناك حالات فسلجية تكاد تصير لدى الفنان شخصا ثانيا ونجدها، بمقدار ما، لدى الإنسان العادي.

1) النشوة : ازدياد الشعور بالقوة، الضرورة التي يشعر بها الإنسان داخله تدفعه ليجعل من الأشياء انعكاسا لا متلائه وكماله.

2) الحدة الشديدة في بعض الأعضاء : عندها تفهم هذه الأعضاء لغة رموز أخرى، ـــ وتخلق تلك اللغة... وهي نفس اللغة التي تبدو مقترنة ببعض الأمراض العصبية ـــ ؛ الحركية الكبيرة التي يتولد عنها التوسع الكبير؛ الرغبة في التعبير عن كل مايعرف كيف يعطي رموزا...، الرغبة في التخلص نوعا ما من الذات بواسطة رموز ومواقف؛ ملكة تحدث المرء عن نفسه بمثابة عضو من أعضاء الكلام، ـــ حالة متفجرة علينا أولا أن نتصور هذه الحالة على أنها رغبة جامحة تدفعنا إلى التخلص، بواسطة عمل عضلي وحركية متعددة الأشكال، من حدة ذلك التوتر الداخلي: ثم أنها تنسيق غير مقصود بين هذه الحركة وبين الظواهر الداخلية (الصور، والأفكار،

والرغبات)، — على أنها شكل من تلقائية الجهاز العضلي كله، استجابة لتحريض تهيج قوي يعمل في الداخل — ؛ هناك عجز عن الحيلولة بالقيام برد الفعل ؛ لقد تم تعطيل الجهاز المعرقِل. تصاحب كل حركة داخلية (شعور، أو فكرة، أو انفعال) تغيرات عرقية، وبالتالي تغيرات في اللون والحرارة والإفرازات. القوة الإيحائية للموسيقى، « إيحاؤها الذهني».

3) اضطراب كبير يدفع الإنسان بشكل مُعْدٍ إلى تبليغ صورة معينة، — لقد تم تضمين حالة ما من خلال العلامات فقط، وتم تصورها... الصورة التي تولد في الداخل تدفع الأعضاء إلى الحركة، — هناك نوع من تعليق الإرادة... (شوبنهاور!!!) نوع من الصمم، والعمى عن كل مايحدث في الخارج، ومملكة التهيجات التي تتمكن من التغلب محدودة جدا.

وهذا هو مايميز الفنان عن الجاهل بالفن (القابل للتَّأثُّر) : فهو يبلغ ذروة تهيُّجه وهو يتلقى، بينما الفنان يبلغها وهو يعطي — بحيث أن التناقض بين هاتين القابلتين لايكون طبيعيا فقط، بل مرغوبا.

لكل من هاته الحالات رؤيتها الخاصة بها، — ومطالبة الفنان بممارسة عمله أمام المشاهد (أمام الناقد) — هي مطالبته بإضعاف قوة الخلق لديه... الأمر هنا أشبه ما يكون بالفرق بين الجنسين: لا يجب أن نطلب من الفنان الذي يعطي أن يصبح امرأة، — أن «يتلقى»...

لقد كانت جماليتنا إلى حد الآن جمالية امرأة، وذلك بسبب كون متلقي الفنون هم وحدهم من صاغوا تجاربهم بخصوص الجمال ... وهذا، مثلما يدل عليه ما سبق، خطأ ضروري: لأن الفنان إذا بدأ يفهم فسيلتبس عليه الأمر، — لا يجب عليه أن ينظر إلى الوراء، لا يجب عليه أن ينظر بتاتا، عليه أن يعطي ... إنه لشرف الفنان أن يعجز عن النقد، — وبعبارة أخرى أقول إنه ليس حائرا ولا مترددا، إنه «عصري»....

هناك حالات تبدي لنا مظهر الأشياء متغيرا وتضفي عليها امتلاء ؛ عندما يشتغل عليها خيالنا إلى أن تعكس امتلاء ناوابتهاجنا بالحياة : الغريزة الجنسية، والنشوة، والراحة، وفصل الربيع، والتهكم، ومظهر الشجاعة، والقسوة، ونشوة الشعور الديني. يجب أن نتأمل ثلاثة عناصر على الخصوص: الغريزة الجنسية، والنشوة، والقسوة، — التي هي جزء من أقدم حبور عيد شعر به الإنسان، ذلك الحبور الذي هيمن بنفس الشكل لدى الـ «فنان» عند انبلاج فجره.

ومن جهة أخرى، حين نكون في حضرة أشياء تؤكد هذا التغيير وهذا الإمتلاء فإن كياننا الحيواني يستجيب بتهييجه لمكامن كل حالات اللذة هذه : وعن مزيج أدقّ فروق هذه السعادة الحيوانية وهذه الرغبات تنتج الحالة الجمالية. هذه الحالة التي لا تظهر إلا لدى القادرين على الشعور بفائض من القوة البدنية الذي يسمح لهم بأن يعطوا جزءا من فائض قوتهم؛ هذا هو ما يجب علينا أن نبحث فيه عن الدافع الأول. لا يمكن لبليذ الذهن، ذلك الإنسان المتعب والمنهك (كالعالِم مثلا) أن يحصل على أي شيء من الفن، لأنه لا يملك القوة الفنية الأساسية، التي توجبها الثروة: الذي لا يستطيع العطاء لا ينال أي شيء.

في هذه الحالات العاطفية (خاصة في الحب الجنسي) يظهر الكمال بطريقة ساذجة، وهذا بالنسبة للغريزة الأساسية هو الشيء الأسمى والمرغوب أكثر والأثمن، هو حركة نوعها التصاعدية، كما أنه يشكل تلك الحالة التي نطمح إليها حقا. الكمال هو التوسيع الخارق لشعور الإنسان بالقوة، هو الثروة والوفرة التي تفيض الكأس حتما...

يجعلنا الفن نفكر في حالات قوة حيوانية؛ فهو من جهة فائض بنية مزدهرة تفيض على عالم الصور والرغبات؛ ومن جهة أخرى تهييج للوظائف الحيوانية بواسطة صور ورغبات الحياة المكثفة؛ إنه فرط التسامي بشعورنا بالحياة، إنه محفز للحياة.

كيف يمكن أن تكون للقبح نفسه هذه القوة؟ بكونه يطلعنا على شيء من طاقة الفنان الظافرة التي استولت على ما هو قبيح ومرعب؛ أو بكونه يثير فينا لذة القسوة

قليلا (بل يثير فينا في بعض الحالات لذة إيذاء أنفسنا، وممارسة العنف على أنفسنا: وبذلك يثير فينا شعورا بالقوة تجاه أنفسنا).

362

التشاؤم في الفن؟ — يبدأ الفن بالتدريج في محبته للوسائل التي تتجلى من خلالها النشوة: الرقة البالغة وبهاء الألوان، وضوح الخطوط الجلي، والفرق في درجة إشراق اللون : وهو ما يظهر بشكل عام أن التمييز يغيب في كل ما هو عادي. كل الأشياء المتميزة، كل الفروق، تثير النشوة، وتبعث الإحساس بالنشوة بشكل معكوس، وذلك بتذكيرها لنا بأكبر توترات القوى التي تثير النشوة؛ — تأثير العمل الفني هو أن يثير الحالة القمينة بخلق عمل فني ، هو إثارة النشوة.

الشيء الأساسي في الفن هو كمال الكينونة، هو الإنهاء، هو ا لسير نحو الإمتلاء؛ الفن أساسا هو إثبات الحياة ومباركتها وتخمينها... ما معنى الفن المشائم؟ أليس في هذا تناقض؟ — بكل تأكيد — يخطئ شو بنها ورحين يضع بعض أجزاء الفن في خدمة التشاؤم. المأساة لا تعلم الإنسان الـ «استسلام»... والفنان يعتبر تصويره للأشياء المرعبة والإشكالية دليلا على كونه يمتلك غريزة القوة والسيادة: إنه لا يخشى هذه الأشياء... ليس هناك فن متشائم... الفن يؤكد. جوب (Job) يؤكد. — أمّا زولا؟ أما الإخوان غونكور؟ — فالأشياء التي يصورونها قبيحة : ولكن إظهارهم لها هو من قبيل تلك الرغبة التي يثيرها القبح... — فما الفائدة! تكونون مخطئين إ ن أنتم أكدتم العكس. — كم يخلص دوستويفسكي إلى جانب هذا !

363

أي شيء هو تراجيدي ؟ — سبق لي مرار أن أشرت إلى خطأ أرسطو الذي اعتقد أنه وجد المشاعر المأساوية في شعورين مزعجين، هما الخوف والشفقة. لو أنه كان على صواب لكانت التراجيديا فنا خطيرا: إذا لوجب التحذير منها كما من خطر داهم أو من فضيحة كبيرة. إن الفن، الذي يعتبر على العموم هو الحافز الكبير للحياة، هو

نشوة الحياة، هو إرادة الحياة، سيصبح، إذا ما وضع في خدمة حركة تنازلية، في خدمة التشاؤم بشكل من الأشكال، خطرا على الصحة (- لأنه من الخطأ أن يتطهر الإنسان من عواطفه بإثارتها، مثلما يعتقده أرسطو على مايبدو). الشيء الذي يثير الخوف أو الشفقة على العموم هو شيء يفسد النظام ويضعف ويثبط الهمة : — وإذا سلمنا بأن شوبنهاور حافظ على رشده، وبوجوب اقتباس الاستسلام من التراجيديا، أي التخلي عن اللطيف عن السعادة، وعن الأمل، وعن إرادة الحياة، فإننا بذلك سنتصور فنا ينفي فيه الفن نفسه بنفسه. وستصبح التراجيديا حينها عبارة عن سيرورة تَفَكُّك : تدمير غريزة الحياة لنفسها في غريزة الفن. هل ستصير المسيحية والعدمية والفن التراجيدي والانحطاط النفسي مساوين لبعضهم، هل سيتمكنون من الهيمنة فيي نفس الوقت، هلل سيدفع بعضهم البعض إلى الأمام - إلى الأسفل ؟... هل تكون التراجيديا علامة التحلل ؟

يمكننا دحض هذه النظرية بهدوء تام : يكفي أن نقيس بمقياس القوى (dynamomètre) أثر الانفعال التراجيدي. سنحصل آنذاك على نتيجة لن ينكرها إلا عقل النسقيين الكاذب غاية مايكون الكذب : ندرك أن للتراجيديا أثرا مقويا. إذا كان شوبنهاور قد رفض فهم هذا، إن كان قد اعتبر انحطاط القوى الشامل حالة تراجيدية، إن حاول إفهام الإغريق (- الذين، رغم أنفه، لا «يستسلمون»...) بأنهم لم يكونوا في مستوى تصور العالم : فذلك انحياز، ذلك هو منطق النسق، التزوير الذي يمارسه النسقي، أسوأ تزوير على الإطلاق، الذي أفسد تدريجيا عقلية شوبنهاور كلها (وأجبره على تجاهل العبقرية، تجاهل الفن نفسه، والأخلاق، والوثنية، والجمال، والمعرفة، وكل شيء تقريبا).

364

تريدون الدليل القاطع على المدى الذي تذهب إليه القوة التعبيرية التي في النشوة؟ الـ «حب» يعطينا هذا الدليل، ما نسميه الحب في كل لغات العالم، وفي صفته كله. فيه ترتضي النشوة الواقع إلى درجة يتم معها، في شعور المحب، امحاء السبب ويبدو أن شيئا آخر يحل محله، — بريق ولمعان كل مرايا سيرسي السحرية... وفي هذا لا يتميز

الإنسان عن الحيوان؛ وكذلك العقل، والطيبة، والإنصاف... يتم خداعنا ببراعة حين نكون بارعين؛ ويتم خداعنا بفظاظة حين نكون أفظاظا: ولكن الحب، حب الله نفسه، حب قديس «الأرواح المفتداة»، يظل واحدا في أصله: إنه حمى لها أسباب تجعلها تتغير، نشوة تحسن صنيعا بكذبها بشأن نفسها... ونحن، عموما، نكذب كثيرا حين نحب، نكذب أمام أنفسنا وبخصوص أنفسنا: نبدو وكأننا نتغير، نصير أكثر قوة وغنى وكمالا، إننا أكثر كمالا... نجد ا لحب هنا كوظيفة عضوية، نجده ملتصقا بغريزة الـ «حب» الإنجيلية؛ نرى فيه أكبر حافز للحياة، — وبذلك فاالفن فرصة رائعة، حتى إن كان كاذبا... ولكننا سنكون مخطئين لو توقفنا عند قوة الكذب فيه : إنه يدفعنا إلى شيء أكثر من مجرد التخيل: بل إنه يغير وجهة القيم. لا يقوم الحب فقط بتغيير الإحساس بالقيم لدى المحب، بل يمنحه قيما أكثر، يصيّرُه قويا أكثر. عند الحيوانات تخلق هذه الحالة أسلحة جديدة، وخضابا جديدا، وأشكالا وألوانا جديدة، واجتذابا وغواية جديدين، ولا يختلف الأمر عن ذلك لدى الإنسان، تكون بنية المحب أغنى من ذي قبل، و أكثر قوة وحجما من بنية غير المحب. المحب يصبح سخيا، فغناه يؤهله لذلك. يصبح جريئا، ومغامرا، حمار كرم وبراءة؛ يؤمن من جديد بالخير، وبالفضيلة، لأنه يؤمن بالحب؛ ومن جهة أخرى تبدأ، لدى أحمق السعادة هذا، تبدأ الأجنحة في النمو، تصبح له ملكات جديدة بل وينفتح أمامه باب إلى الفن. إذا جردنا الغنائية التي تكون في النبرة والكلمات من إيحاء تلك الحمى الداخلية: فما سيبقى من الغنائية ومن الموسيقى ؟.... الفن من أجل الفن ربما؟ النقيق الرائع الذي تصدره الضفادع الفاترة التي تموت في مستنقعاتها؟... كل ما سوى ذلك هو من إبداع الحب...

365

ما الذي لا تستطيع تلك النشوة التي نسميها الـ «حب»، والتي هي خلاف الحب، تحقيقه! — لكل مناعلمه بخصوص هذا الموضوع. إن القوة العضلية لدى الفتاة الشابة تزداد بمجرد اقتراب رجل منها؛ هناك أدوات يمكن أن نقيس بها ذلك. وفي علاقات الجنسيين الأكثر حميمية، مثلما هو الشأن في الرقص، أو في بعض

الممارسات الجنسية الأخرى، يزداد هذا النشاط إلى حد جعل المرء قادرا على إبداء مظاهر حقيقية للقوة: وينتهي به الأمر إلى عدم تصديق ما يرى — ولهذا دلالته! صحيح أنه يجب علينا هنا أن نأخذ بعين الاعتبار كون الرقص، شأنه شأن كل الحركات السريعة، يجلب معه نوعا من النشوة للعروق وللجهاز العصبي والعضلي. علينا إذن في هذه الحالة أن نتأمل التأثيرات المشتركة لنشوة مزدوجة. وكم هو من الحكمة أن يكون للإنسان من حين لآخر ظل من النشوة!... هناك حقائق لا يجب أبدا أن نعترف بها لأنفسنا؛ نحن في هذا امرأة، وفيه نملك الحياء الأنثوي كله... تلك الشابات اللائي يرقصن هناك يتحركن بكل جلاء في ما وراء الواقع: ما يدفعهن إلى الرقص هو المثل الأعلى المنظور لهن؛ بل إنهن يرين مثلا أعلى آخر هو الأمهات الجالسات حولهن!... وهذه فرصة سانحة لنستشهد بفاوست... تكون سحنات تلك الكائنات الجميلة أجمل حين تتم استثارتهن. — وإنهن يعرفن ذلك! بل يصبحن محبوبات لكونهن يعرفن ذلك! — وأخيرا، زينتهن هي كذلك تجعلهن منتشيات ونشيطات؛ هي نشوتهن الضئيلة الثالثة؛ إنهن يؤمن بخياطهنّ إيمانهن بالله: — ومن سينصحهن بنبذ ذلك الإيمان! هذا إيمان مخلّص! والإعجاب بالذات شيء صحي! الإعجاب بالذات يحفظ الإنسان من الفتور. هل حدث أن أصيبت امرأة مرتدية لثيابها بنزلة برد؟ لا علم لنا بحالة كهذه. بل أُقِرُّ أن ثيابها كانت بالكاد تسترها.

366

نجد الجنس والشهوة في النشوة الديونيسية: كما نجدهما في النشوة الأبولونية كذلك. ولكنهما تختلفان من حيث المظهر ... يحب الهدوء التام لبعض أحاسيس النشوة (أو بعبارة أدق تباطؤ الزمن والمكان) أن ينعكس في رؤية المواقف و النفوس الهادئة والمطمئنة. النموذج الكلاسيكي يمثل بالأساس هذا الهدوء، وهذا التبسيط، وهذا التخفيض، وهذا التركيز، — الإحساس الأسمى بالقوة متركز في النموذج الكلاسيكي. رد الفعل بصعوبة، امتلاك وعي كبير: انعدام الإحساس بالمقاومة.

367

العقل في الحياة. — قد تشكل العفة النسبية، من حيث المبدأ، والتبصر الشديد في الأمور الجنسية، ولو في الفكر، جزءا من العقل الأعلى في الحياة، حتى لدى المتميزين بالخصب والموهبة. هذا صحيح خاصة بالنسبة للفنانين الذين يعتبر هذا هو أفضل تعقل في حياتهم. وقد أبدت رأيها في هذا الموضوع أصوات لا مجال للشك فيها : اذكر ستاندال وثيوفيل غوتيي وكذلك فلوبير. قد يكون الفنان بالفطرة شهوانيا بالضرورة، عاطفيا بشكل عام، لين الجانب تماما، قابلا للتهييج، ولكل أشكال الإيحاء. ورغم هذا فهو غالبا ما يكون إنسانا رزينا بل وعفيفا، وذلك في ظل سيطرة مهمته ورغبته في الإمساك بزفاف نفسه، والغريزة المهيمنة لديه تتطلب منه ذلك : فهي لا تسمح له بالتبدد ربهاته الطريقة أو تلك. إننا ننفق نفس القوة عند التصور الفني وعند ممارسة الجنس : فليس هناك إلا صنف واحد من القوة... فالاستسلام في هذه الحالة، والتبدد، يشكلان خطرا على الفنان؛ فذلك يكشف نقصا في الغريزة، في غريزة القوة غالبا، وقد يكون ذلك علامة انحطاط، — وهذا في كل الأحوال يحط من قيمة فنه إلى درجة لا تتصور.

368

ليس الفنانون من العاشقين الكبار، مهما تخيلوا أنفسهم كذلك ومهما قالوا لنا عنه. وذلك لسببين : فهم لا يستحيون من أنفسهم (ينظرون إلى أنفسهم وهم يَحْيَوْن، ويراقبون أنفسهم، إنهم يتخذون من أنفسهم موضوع فضولهم) كما لا يستحيون من العشق الكبير(يريدون استغلاله بصفتهم فنانين). ثم إن مصاص الدماء فيهم، أي موهبتهم، تغار عموما من ذلك التبذير الذي نسميه العشق. — بامتلاك المرء الموهبة يصير كذلك ضحية لموهبته: يعيش تحت سيطرة موهبته المصاصة للدماء.

لا ينتهي المرء من عشقه حين يقوم بعرضه، بل على العكس، إنه لا يعرضه إلا بعد أن يكون قد انتهى منه. (يعلمنا غوته أن الأمر خلاف ذلك؛ ولكن يبدو أنه أراد في هذا أن يسيء فهم نفسه، — بدافع اللباقة...)

369

يدل ظهور العالِم، مقارنة مع الفنان، على نوع من عرقلة الحياة والهبوط بمستواها (— ولكنه يدل كذلك على تقوية ، على صرامة كبيرة، على صلابة كبيرة، على إرادة قوة كبيرة).

بأي معنى قد تكون الازدواجية وعدم الاكتراث بالحقيقي والنافع لدى الفنانين علامتين على الشباب، على «الصبيانية»... فقد اعتادوا التصرف بغباوة، وهم يتجاهلون أنفسهم، ولا يبالون بـ «القيم الخالدة»، ويتعاملون مع كل شيء جدي وكأنه لعب... إنه نقص الكرامة لديهم؛ لديهم يتجاور الرب والمهرج الرديء، والقديس والوغد... وتصبح المحاكاة لديهم لحظة مهيمنة... — وفنانو البداية — وفنانو الانحطاط، ألا ينتمون لكل المراحل... بلى !

370

على المرء، لكي يكون كلاسيكيا، أن يمتلك كل المواهب، كل الرغبات القوية والمتناقضة في ظاهرها، ولكن بحيث تمضي مجتمعة تحت نفس النير؛ بحيث تعمل في اللحظة المناسبة على الارتفاع بالمتعة الأدبية، أو الفنية، أو السياسية إلى أعلى مستوى لها (— وليس عندما يكون هذا المستوى قد تم بلوغه...) ؛ عليه أن يعكس في أعماقه حالة عامة (حالة شعب أو ثقافة)، في الوقت الذي تكون فيه هذه الحالة موجودة ولم تشوهها المحاكاة الغريبة (أو تكون غير موجودة بعد، ولازالت في مرحلة التبعية...)؛ عليه أن يكون، لاعقلا ارتكاسيا، بل عقلا يحدّد ويمضي قدما، عقلا إيجابيا في كل الحالات التي تصادفه، حتى مع كرهه.

«ألا يستلزم هذا أسمى قيمة شخصية؟» ... ربما يحب تفحص ما إن كان للأحكام المسبقة الأخلاقية دور هنا وما إن كان التفوق الأخلاقي الكبير في حد ذاته مناقضا للكلاسيكي؟ ... ما إن كانت المسوخ الأخلاقية بالضرورة رومانسية، قولا

وفعلا؟. .. هيمنة فضيلة ما على أخرى (مثلما نجدها لدى المسخ الأخلاقي) مناقضة لقوة التوازن الكلاسيكية: إذا سلمنا بكونه متفوقا وبكونه رغم ذلك كلاسيكيا، فقد نستنتج من ذلك أنه لا أخلاقي بنفس قدر تفوقه: قد تكون تلك حالة شكسبير (شريطة أن يكون هو اللورد بيكون بالفعل).

ألا يخبئ التناقض بين الارتكاسي والفعال في ثنايا التناقض بين الكلاسيكي والرومانسي؟...

371

تخليق الفنون. — اعتبار الفن استقلال أمام قصر النظر الأخلاقي والبصر الأعمى؛ أو استهزاء بهما. الهروب إلى الطبيعة، هناك حيث جمال الطبيعة يتحد بطبعها المرعب. تصور الإنسان العظيم.

— النفوس المترفة، الهشة وغير النافعة، التي تكفي هبَّة واحدة لزعزعتها، «النفوس المرهفة».

— بعث المثل الأعلى الميت بصلابته وقسوته الشديدتين، بعثه في صورة أروع مسخ يكون عليها في الواقع.

— الفرح الظافر الذي ينجم عن الفحص النفسي للالتواء — والتصنع اللاشعوري الذي نجده لدى كل الفنانين المصابين بالأخلاق.

— زيف الفن، تسليط الضوء على لاأخلاقيته.

— تسليط الضوء على القوى الأساسية «المُؤَمْثِلَة» (الشبقية، والنشوة، والحيوانية الوفيرة).

372

نظرات على المستقبل. ضد الرومانسية، «العشق»

إدراك أن الذوق الكلاسيكي يحتاج إلى قدر من عدم الإنفعال، من الصحو، ومن الصلابة: المنطق قبل كل شيء، السعادة الروحانية «الوحدات الثلاث»، التركيز،

كراهية الإحساس، والحساسية، والعقل، كراهية كل ما هو متعدد، وغير يقيني، وغامض، وما ينتج عن الحدوس، وكذلك كراهية كل ما هو موجز، وحاد، وجميل، وطيب. لا يجب التلاعب بطرائق التعبير الفنية: يجب تغيير الحياة حتى تصبح فيما بعد مجبرة على التعبير عن نفسها.

إنها لملهاة مرحة، والآن فقط نتعلم كيف نسخر منها، ملهاة نشاهدها الآن فقط: فقد زعم معاصرو وينكلمان وهِرْدر وغوته وهيجل أنهم اكتشفوا المثل الأعلى الكلاسيكي من جديد... واكتشفو، في ذات الوقت، شكسبير! — لقد انفصل هذا الجيل نفسه عن المدرسة الكلاسيكية الفرنسية بطريقة غادرة ! وكأنهم فشلوا في تعلم الشيء الأساسي في هذه المدرسة أو في ذلك المثل وفي شكسبير!... ومع ذلك كانوا يطالبون بالـ «طبيعة»، بالـ «طبيعي»: يا للحماقة: لقد تخيلوا أن الكلاسيكية كانت طبيعية!

إن التصور التام، دون حكم مسبق أوْ رخاوة، للأرضية التي يستطيع أن ينمو عليها الذوق الكلاسيكي، يمشي يدا في يد مع جعل الإنسان أكثر صلابة وبساطة وقوة وخبثا. التبسيط المنطقي والنفسي. ازدراء الجزئيات، وكل ما هو مركب وغير يقيني.

لم يحتجَّ الرومانسيون في ألمانيا ضد الكلاسيكية، بل ضد العقل، والثقافة، والذوق، والقرن الثامن عشر.

حساسية الموسيقى الرومانسية والڤاغنرية : في مقابل الحساسية الكلاسيكية.

إرادة الوحدة (لأن الوحدة تستبد: تستبد بالمستمعين وبالمشاهدين)، ولكن العجز يطال تركها تستبد بما هو أساسي : أعني فيما يخص العمل النفسي نفسه (التخلي، والإغراء، والتوضيح، والتبسيط). انتصار الجماهير (ڤاغنر، فكتور هيجو، زولا، تينTaine).

373

عدمية الفنانين. — الطبيعية قاسية بهدوئها؛ وقحة بأشعة شمسها. نحن خصوم الانفعالات العاطفية. نفر إلى حيث الطبيعة تحرك حواسنا وخيالنا، حيث لا شيء

نحبه، حيث لايذكرنا أحد بالمظاهر واللياقة الأخلاقية الخاصة بتلك الطبيعة الشمالية — وكذلك الفنون. نفضل ألا نتذكر الـ «خير»والـ «شر» وكأن سرعة غضبنا الأخلاقية وقدرتنا على المعاناة قد ذابتافي طبيعة مرعبة وسعيدة، في قدرية الحواس والقوى. الحياة الخالية من الطيبة.

الشيء الناجح بالنسبة لنا هو تأمل عدم اكتراث الطبيعة الرائع بالخير والشر.

ليس هناك في التاريخ عدل، ولا في الطبيعة طيبة؛ لذلك فإن المتشائم، في حالة كونه فنانا، سيفضل أن يتناول من التاريخ العصور التي يظهر فيها انعدام العدالة ببساطة رائعة، والتي يجد فيها الكمال تعبيرا عن نفسه —، كما أنه سيذهب في الطبيعة إلى حيث الطبع الشرير واللامبالي لا يخفي نفسه، حيث الطبيعة نفسها تمثل الكمال... ينكشف الفنان العدمي في إرادته للتاريخ والطبيعة الوقحين وتفضيله لهما.

374

إن السؤال الذي يتم طرحه(من طرف الفرد أو الشعب) حول انشغالنا بالحكم «جميل» وحول المكانةالتي نضع فيها هذا الحكم هو سؤال حول القوة. فالإحساس بالامتلاء، بالقوة المراكَمة (وهو إحساس يمكننا من تقبل عدة أمور بشجاعة وفرح قد يرتعد لهما الإنسان الضعيف) — الإحساس بالقوة يصدر الحكم «جميل» حتى على الأشياء والأوضاع ا لتي لا يملك الإحساس بالعجز إلا اعتبارها جديرة بالكره، و«قبيحة». الحاسة التي تشعرنا بما سنكون قادرين على القيام به لو واجهنا خطر أو مشكلة أو إغراء، — هذه الحاسة تحدد كذلك إثباتنا الجمالي. («هذا جميل» يعتبر إثباتا.)

ما ينتج عن هذا، بشكل عام، هوكون تفضيل الأمور الإشكالية والمرعبة دليل قوة: بينما حب الجميل والأنيق من سمات الضعفاء والرقيقين. المتعة التي تقدمها التراجيديا تميز العصور والطباع القوية: وربما تكون ذروتهم هي الكوميديا الإلهية. الأبطال هم الذين يقولون نعم لأنفسهم في خضم القسوة المأساوية: إن لهم من الصلابة ما يكفي لاعتبار المعاناة لذة... إذا سلمنا، على العكس، بأن الضعفاء يطلبون المتعة في فن لم يتم تخيله لأجلهم هم، فماذا سيفعلون ليلائموا التراجيديا مع ذوقهم؟ إنهم سيُضَمِّنُونَهَا تقديراتهم وأحكام قيمهم : مثل «انتصار الأخلاق» أو

نظرية «لاجدوى الوجود»، أو دعوة للـ «استسلام»(— أو تفريغا عاطفيا، نصف أخلاقي ونصف طبي، على طريقة ذوق أرسطو —) كما أن الفن المرعب، بما أنه يهيج الأعصاب، قد يدخل في الحسبان كمحفز للضعفاء والمنهكين: وهذا هو سبب التقدير الذي يحظى به الفن الڤاغنري اليوم. كلما أضفى المرء على الأشياء طابعها المرعب والإشكالي كلما أكد امتلاكه إحساسا برغد العيش وبالقوة؛ وهو بذلك يبين أنه يحتاج لأن يرى الأمور تنتهي إلى حل.

هذا الشكل من التشاؤم الفني هو نقيض التشاؤم الأخلاقي والديني الذي يعاني من «فساد» الإنسان، ومن كون الحياة لغزا: فهو يريد حلا بأي ثمن، على الأقل أملا في الحل... لقد كان اليائسون، الذين يعانون ويرتابون في أنفسهم، المرضى باختصار، دائما في حاجة إلى أوهام فاتنة ليتمكنو من تحمل الحياة (فكرة الـ — «غبطة» هي أصل ذلك). هناك حالة أخرى لا تمت بصلة إلى هذه: فنانوا الانحطاط، الذين هم في مجملهم عدميون في مواجهة الحياة، يلجأون إلى جمال ا لشكل، — إلى الأشياء النفيسة، التي بلغت فيها الطبيعة الكمال، وأصبحت عظيمة وجميلة كذلك... (— وبالتالي قد يكون «حب الجمال» شيئا مخالفا لمجرد رؤية شيء ما جميلا، لإبداع شيء جميل : قد يكون تعبيرا عن العجز عن بلوغ ذلك).

الفنانون الفاتنون، الذين يعرفون كيف يحولون كل خلاف إلى تناغم، يجعلون كل شيء يستفيد من قوتهم، من خلاصهم الشخصي: إنهم يجسدون تجربتهم الشخصية في رمزية كل عمل فني، — فالإبداع لديهم عرفان بالجميل لذواتهم.

يكمن عمق الفنان التراجيدي في كون غريزته الجمالية تفكر في العواقب البعيدة، ولا تتوقف عند الأشياء القريبة، برؤية قصيرة المدى، في كونها تؤكد الاقتصاد في أكبر معانيه، الاقتصاد الذي يبرر الشيء المرعب والخبيث والاشكالي، بل لا يكتفي فقط بتبريره.

الكتاب الرابع

التأديب والانتقاء

I

العودة الأبدية

375

تأتي فلسفتي معها بالفكرة العظيمة الظافرة التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى حجب كل طريقة سواها. إنها فكرة الانتقاء العظيمة: الأعراق التي لا تؤيدهاته الفكرة محكوم عليها بالزوال؛ والتي تعتبرها هي النعمةالكبرى يتم اختيارها لتكون مهيمنة.

376

في بعض الظروف، قد تكون الفكرة والعقيدة التشاؤميتين، وكذلك العدمية الحماسية، ضرورية للفيلسوف بحيث لا يستغني عنها: قد يستخدمها كضغط ومطرقة رائعين ليحطم الأعراق التي تضمحل وتموت ويمحو أثرها من الوجود، ويفتح الطريق لنظام حياتي جدي، أو لكي يلهم الذي يضمحل ويموت الرغبة في معانقة النهاية.

377

أريد أن أعلم الناس الفكرة التي ستمنح الكثيرين منهم الحق في وضع حد لحياتهم، — فكرة الإنتقاء العظيمة.

378

1 - فكرة العودة الأبدية: فرضياتها التي قد تكون صحيحة لو تم تمحيص هذه الفكرة. ما ينتج عنا.

2 - إنها فكرة عملية وصعبة: أثرها محتمل ما لم يتم اتخاذ إجراءات وقائية: أي ما لم يتم قلب كل القيم.

3 - وسيلة دعمها : قلب كل القيم. ليست اللذة الناجمة عن اليقين بل عن اللايقيم ؛ ليس الـ «سبب» والـ «نتيجة»، بل الخلق الدائم ؛ ليست إرادة البقاء، بل إرادة القوة ؛ ليس ذلك التعبير الوضيع القائل «كل شيء ذاتي» — بل«إنه عملنا نحن كذلك ! — فلنكن فخورين به !».

379

دعم فكرة العودة الأبدية يقتضي الاستقلالية عن الأخلاق؛ — وكذلك العثور على وسائل جديدة ضد عمل الألم (اعتبار الألم أداة، باعثا للفرح ؛ ليس هناك وعي يلخص الانزعاج) ؛ — المتعة التي يمنحها اللايقين، والمؤقت، عوض تلك القدرية المتطرفة ؛ — إلغاء فكرة الضرورة، — إلغاء الـ «إرادة» ؛ — إلغاء الـ «معرفة في ذاتها.

التسامي الكبير بوعي الإنسان بقوته هو الذي يخلق الإنسان الراقي.

380

لو كان للعالم هدف لكان هذا الهدف قد تحقق. لو كان هناك وضع أخير غير متوقع بالنسبة له لكان هذا الوضع قد تحقق هو الأخر. لو كان قادرا على الإستماتة والمثابرة، قادرا على أن «يكون»، لو أنه، أثناء صيرورته، كان يملك، ولو للحظة واحدة فقط، هذه القدرة على أن «يكون»، لقضي أمر الصيرورة برمتها منذ أمد بعيد، وبالتالي أمر كل فكرة، كل «عقل». إذ كون الـ «عقل» صيرورة يبرهن على أن العالم ليس له هدف، ولا وضع أخير، ووبالتالي على كونه عاجزا عن أن «يكون». - ولكن العادة القديمة التي تقضي بالتفكير في وجود هدف لكل ما يحدث، وفي وجود إله خلق العالم ويسيره كيف يشاء، هذه العادة شديدة القوة بحيث أن المفكر يجد عناء كبيرا في عدم تصور غياب الهدف في هذا العالم شيئا مقصودا بدوره. هذه الفكرة — فكرة كون العالم يتعمد تفادي بلوغ

الهدف وكونه يعرف كيف يتفادى بتكلف أن يقع في حركة دائرية — لا بد أنها فكرة أولئك الذين يريدون أن يلزموا العالم بالقدرة على التجدد الأبدي أي إلزام قوة محدودة، ومعينة، ومساوية لنفسها على الدوام، مثلما هو حال «العالم»، بالقدرة الرائعة على تجديد أشكاله وأوضاعه إلى ما لانهاية. على العالم، وإن لم يعد إلها، أن يكون قادرا على الخلق، تلك المزية الربانية، وعلى التحول، تلك المقدرة اللامتناهية؛ عليه أن يمتنع طواعية عن العودة إلى شكل من أشكاله القديمة ؛ عليه أن يمتلك الوسائل الكفيلة بأن تضمن له عدم التكرار، وليس نية عدم التكرار فقط؛ عليه، بالتالي، أن يتحكم دائما في كل حركاته ليتفادى الأهداف والأوضاع الأخيرة والتكرار — وأيا كانت نتائج رأي واعتقاد أحمقين حمقا لا يغتفر: فما كل ذلك إلا اعتقاد ديني قديم، نوع منه الرغبة في الإعقاد بأن العالم، رغم كل شيء، يشببه، بشكل من الأشكال، الإله القديم والعزيز، الإله اللامنتاهي، الخالق الذي لا يحده شيء — بأن «الإله القديم لا يزال حيا» في شيء ما على الأقل —، رغبة سبينوزا هذه هي التي تتجسد في هاته الكلمات «الإله أو الطبيعة»(بل كان الأمر بالنسبة له هو «الطبيعة أو الإله» —). ولكن ما هي العبارة التي تعبر بشكل أفضل على التغير النهائي، عن الهيمنة المتحققة الآن للعقل العلمي على العقل الديني الذي يتخيل آلهة؟ ألا يجب القول : إن العالم، باعتباره قوة، لايمكن تخيله لا متناهيا، لأن تصوره على ذلك النحو مستحيل، — إننا نحرم على أنفسنا فكرة قوة لا متناهية، لأنها لا تناسب فكرة القوة». إذا — فالقدرة على التجدد إلى مالانهاية منعدمة في العالم.

381

نظرية ثبات الطاقة تقتضي العودة الأبدية.

382

بما أن حالة التوازن لا يمكن تحقيقها فهي مستحيلة. ولكنها يجب أن تكون ممكنة التحقق في فضاء غير محدد. وكذلك في فضاء دائري الشكل. لا شك أن شكل الفضاء هو سبب الحركة الأبدية، وهو في نهاية المطاف سبب كل «نقص».

الـ «قوة» من جهة، والـ «ثبات»والـ «استقرار» من جهة أخرى، شيئان يلغي أحدهما الآخر. مقياس القوة (كبعد) ثابت، وجوهرها سائل.

لا شيء يحدث «خارج الزمن». في لحظة معينة من لحظات القوة تكون المشروطية المطلقة لتوزيع جديد لكل القوى أمرا مسلما به. لا تستطيع القوة التوقف، فال «تغير» من سمات جوهرها، وكذلك الطبع الزمني: وهو شيء يتم به مرة أخرى حصر ضرورة التغير بشكل مجرد.

383

لو أن حركة العالم كانت تسير نحو هدف ما لتم بلوغ هذا الهدف. والأمر الأساسي الوحيد هو بالضبط كونه لا يسير نحو وضع أخير، وكل فلسفة أو فرضية علمية (كالإوالية مثلا) تتضمن وضعا أخيرا يدحضها هذا الأمر الأساسي... إنني أبحث عن تصور للعالم يأخذ هذا الأمر في الحسبان : يجب أن نفسر الصيرورة دون أن نلجأ إلى مثل نوايا القصدية هذه ؛ يجب أن تبدو الصيرورة مبرّرة في كل لحظة من لحظاتها (أو أن تبدو غير قابلة للتقييم، وهو ما يعني نفس الشيء)؛ لايجب بتاتا أن نبرر الحاضر بالمستقبل، أو الماضي بالحاضر. لا توجد الـ «حتمية» على شكل قوة عالمية تتدخل وتهيمن، أو على صورة محرك أصلي؛ كما أنها لا توجد كشرط لشيء ثمين. لهذا يتحتم علينا أن ننفي وجود وعي عالمي للصيرورة، وجود «إله»، حتى لاننظر إلى كل مايحدث بمنظار كائن رحيم وعارف، ولكنه لايعبر عن إراداته: لا جدوى من «الإله« إن لم تكن له قيمة، وسيكون بهذا جمعا بين الكدر واللامعقولية سينقص من القيمة العامة للـ «صيرورة»: لحسن الحظ أنه لا وجود لهاته القوة التي تقوم بالجمع (ـــ الإله الذي يتألم ويهيمن بنظرته، «الوعي الشامل»، «العقل الكوني»، قد يكون أكبر حجة ضد الإله). بدقة أكثر : لا يسمح بالتسليم بشيء كائن ـــ لأن الصيرورة تفقد قيمتها وتبدو كشيئ زائد عن الحاجة ولا معنى له. علينا بالتالي أن نتساءل عن كيف تولّد وهم الإله: ـــ وعن كيف الحط من قيمة كل أحكام القيمة التي كانت تقوم على فرضية وجود الإله. وبهذا نقر بأن فرضية الإله هذه هي مصدر ثلب العالم (ـــ «العالم الأفضل»، «العالم الحقيقة»، «العالم الماورائي»، «الشيء في ذاته».

1 - ليس للصيرورة وضع أخير ولا تؤدي إلى «كائن متعالي».

2 - ليست الصيرورة شرطا ظاهرا: وقد يكون عالم الكائن المتعالي مجرد ظاهر.

3 - تظل الصيرورة، في كل لحظة، مساوية لنفسها في كليتها؛ لا يتغير مجموع قيمتها؛ بعبارة أخرى: ليست لها قيمة على الإطلاق، لأنه ينقصنا ما نقيسها به وما قد يضفي معنى على كلمة «قيمة». لا يمكن تقدير القيمة العامة للعالم، وبهذا يكون التشاؤم الفلسفي واحدا من تلك الأشياء المضحكة.

384

التصور الجديد للعالم. — العالم موجود : إنه ليس شيئا في طور الصيرورة، شيئا عابرا. أو بعبارة أدق: إنه يصير، إنه يمر، ولكنه لم يشرع أبدا في الصيرورة، ولم يكف عن المرور، — إنه يحافظ على نفسه في هذين الشكلين... إنه يعيش من ذاته: فضلاته هي غذاؤه.

لا يجب أن تشغلنا فرضية كون هذا العالم مخلوقا ولو لحظة. من المستحيل تعريف مفهوم «الخلق» اليوم، إنه مفهوم لا يتحقق في أي شيء؛ لقد أصبح مجرد كلمة، كلمة بدائية تعود إلى عصر الخرافة ؛ وبالكلمة لا نفسر شيئا. لقد تم القيام بآخر محاولة لتصور عالم في بداية نشأته مرارا منذ عهد قريب باتباع طريقة منطقية، — مع صبغه في المقام الأول، كما تحزرون ذلك، بقصد لا هوتي.

لقد حاول البعض مرارا، في عصرنا هذا، أن يجد تناقضا في فكرة «لا نهائية الزمن في مامضى» (العودة إلى والوراء إلى مالانهاية): صحيح أنهم قد برهنوا على ذلك، ولكن بخلطهم بين الرأس والذيل. لا شيء يستطيع منعي من العد إلى الوراء، بدءا من هاته اللحظة، ومن القول لنفسي : «لن أنتهي من هذا أبدا»؛ كما أنني أستطيع العد إلى الأمام، في نفس اللحظة، إلى مالا نهاية. وفقط حين أريد أن أخطئ — وسأحرص على ارتكاب الخطأ — بمماثلة هذا التصور الملموس، أي تصور العودة إلى الوراء إلى مالانهاية، لمفهوم لا يتحقق أبدا، بتقدم إلى اللحظة الحاضرة، فقط حين أعتبر الوجهة (إلى الأمام أو إلى الوراء)غير مهمة منطقيا سأكون قد أمسكت بالرأس — في تلك اللحظة — معتقدا أني أمسك بالذيل: أترك لك هذه المتعة ياسيد دوهرينغ..

لقد عثرت على هذه الفكرة لدى مفكرين أكثر قدما: وفي كل مرة كانت تحددها أفكار مسبقة أخرى (— هي في الغالب أفكار مسبقة لا هوتية تدافع عن الخالق الروحي). بشكل عام، لوكان بإمكان العالم أن يتجمد، أو يجف، أويفنى، أو يصير عدما، أو لو كان بإمكانه بلوغ حالة الميتافزيقيا، لو أمكن للصيرورة أن تقود إلى الكينونة أو إلى العدم) لوكان هذا الوضع قد تحقق. ولكنه لم يتحقق، — وبالتالي ... هذا هو اليقين الوحيد الذي نملكه لنصحح به كما هائلا من الفرضيات الكونية الممكنة في ذاتها. إذا لم تستطع الإوالية الإفلات من نتيجة حالة القصدية، مثلما رسم لها طومسون ذلك، فإن ذلك يعتبر، دحضا للإوالية.

إذا كان بإمكاننا تخيل العالم ككمية محددة من القوة وكعدد محدد من مراكز القوة — كل تصور آخر يبقى غير محدد وبالتالي غير صالح للاستعمال — ، فسينتج عن ذلك أنه على العالم اجتياز عدد من التوفيقات التي يمكن تقديرها، وذلك في إطار لعبة النرد الكبرى التي يمارسها وجوده. في غصون زمن معين سيتم تحقق كل وحدة من توفيقاته مرة واحدة، بل سيتم تحققها مالا يحصى من المرات. وبما أنه بين تحقق توفيقة ما وبين تحققها القادم يجب أن تتحقق كل التوفيقات الأخرى الممكنة وكل واحدة منها تتحكم في توالي توفيقات السلسلة الواحدة، فإننا بذلك نبرهن على توالي السلسلات المتطابقة في حركة دائرية: نبرهن بذلك على كون العالم حركة دائرية تكررت مالا يحصى من المرات وهو مستمر في ممارسة لعبته إلى ما لا نهاية. — ليس هذا التصور تصورا آليا صرفا: لأنه، لوكان كذلك، لما استلزم تكرار الحالات المتطابقة إلى ما نهاية، بل وضعا نهائيا. وبما أن العالم لم يبلغ هذا الوضع النهائي فيجب أن ننظر إلى الإوالية باعتبارها ناقصة وفرضية مؤقتة.

385

هل تعلمون ما يعنيه «العالم» بالنسبة لي ؟ هل يجب أن أريكم إياه في المرآة ؟ هذا العالم بحر من القوة لا أولا له ولاآخر، كمٌ من قوة فولاذية لا يزيد حجمها ولا ينقص، لاتقوم بالاستهلاك وإنما بالاستخدام فقط، لا تتغير في مجملها، منزل بدون مصاريف ولا خسائر، ولكن دون مداخيل ولازيادة كذلك، يحيط به العدم كما لو كان هو

حدوده. ليس هذا العالم شيئا غامضا يتم تبذيره، ليس شيئا لامتناهي الامتداد، وبما أنه قوة محددة فإنه قد وُضع في فضاء محدد وليس في فضاء فارغ. القوة تملأه، إنه لعبة القوى وموجاتها، هو في الوقت ذاته واحد ومتعدد، يحقق التراكم هنا والتناقض هناك، بحر من القوى الهائجة هو العاصفة المحركة لها، متحولا في حركة أبدية من المد والجزر، محققا للعودة بعد سنوات طويلة جدا، مع مد أبدي من الأشكال، من أبسط الأشكال إلى أكثرها تعقيدا، من أكثرها هدوءا وصلابة وبرودة إلى أكثرها حرارة وشراسة وتناقضا، ليعود بعد ذلك من التعددية إلى البساطة، من لعبة التناقضات إلى مسرات الإنسجام، مؤكدا ذاته، حتى في وحدة الشكل التي لا تتغير على مر السنين، مباركا نفسه لكونه ذلك الشيء الذي يجب أن يعود ويعود إلى مالا نهاية، لكونه صيرورة لا تعرف الإرهاق أو النفور أو التعب ـــ هذا العالم، الذي هو العالم مثلما أتصوره أنا، هذ ا العالم الديونيسي الذي يخلق نفسه باستمرار، ويدمر نفسه باستمرار، هذا العالم العجيب الذي هو عالم الشهوات المزدوجة، عالم «ماوراء الخير والشر» الذي أتصوره دون هدف، اللهم ما كان من هدف يكمن في سعادة الدائرة. دون إرادة، اللهم ما كان من داءرة تملك إرادة المضي في طريقها القديم، دائما حول نفسها وحول نفسها فقط: هذا العالم مثلما أتصوره أنا، ـــ من يملك من القوة ما يجعله يقدم روحه لهذه المرآة ؟ ويقدم مرآته لمرآة دينونيزوس؟ ويقدم حله للغز ديونيزوس؟ والذي سيقدر على هذا ألن يكون عليه أن يقوم بأكثر من ذلك ؟ أن ينذر نفسه لـ «حلقة الحلقات»؟ مع أمنية عودته هو نفسه؟ مع حلقة مباركته الأبدية لنفسه، وإثباته الأبدي لنفسه؟ مع إرادته أن يريد دائما ومرة أخرى علاوة على ذلك؟ أن يريد إلى الوراء، أن يريد كل الأشياء التي كانت ؟ أن يريد إلى الأمام، أن يريد كل الأشياء التي ستكون ؟ هل أدركتم الآن ما يعنيه العالم بالنسبة لي ؟ وما أريده حين أريد هذا العالم ؟ ....

II

التراتبية الجديدة

386

أقوياء المستقبل. — يمكننا الآن أن نفهم الشيء الذي حققته هنا وهناك الشروط الضرورية لإنتاج نوع أقوى من الرجال، سواء كان هو البؤس أو الصدفة، وأن نريده عن علم : يمكننا أن نخلق الشروط التي في ظلها يكون مثل هذا التسامي ممكنا.

لقد كانت الـ«تربية» إلى حد الآن تروم تحقيق منفعة المجتمع : ليس أكبر قدر ممكن من المعرفة بالنسبة للمستقبل، بل منفعة المجتمع في الوقت الحاضر. كانت تريد «أدوات» تصلح لخدمة المجتمع. إذا سلمنا بكون ثروة القوة أكبر حجما فسيمكننا أن نتخيل تربية هذه الثروة تربية لا يكون هدفها هو تحقيق منفعة المجتمع، بل منفعةالمستقبل.

يجب أن نقدم هذه المهمة بطريقة تمكننا من إدراك مدى التحول الذي يمر منه الشكل الحالي للمجتمع، إنه تحول جد عنيف بحيث أن المجتمع سينتهي به الأمر إلى التسبب في اندثار نفسه والتحول إلى مجرد وسيلة في أيدي عرق أقوى.

الإضعاف المتزايد للإنسان هو تلك القوة الفعالة التي تسمح بالإيمان بعرق أقوى: عرق سيكون له فائض في تلك الأشياء التي سيصير فيها النوع الضعيف ضعيفا(الإرادة، والمسؤولية، واليقين، والقدرة على تحديد هدف ما).

الوسائل هي تلك التي يعلمنا إياها التاريخ: العزلة التي تفرضها مصالح البقاء المناقضة للمصالح التي تشكل متوسط الوقت الحاضر؛ التهيؤ لتقييمات مضادة؛ اعتبار التحفظ تضخيما للذات ؛ عدم تبكيت الضمير بشأن كل ما يعتبره الناس اليوم ممنوعا وقليل القيمة.

تحقيق المساواة بين الناس في أوربا هي تلك السيرورة التي لا نستطيع عرقلتها: بل علينا تسريع وتيرتها. وهذا يفرض علينا ضرورة فتح هاوية، وتوسيع المسافات، وإقامة تراتبية: وليس ضرورة إبطاء وتيرة سيرورة المساواة هذه.

بمجرد ما يصبح النوع الذي تحققت له المساواة أمرا واقعا فإنه سيحتاج إلى تبرير: وهذا التبرير نجده في خدمته لنوع أرقى وله السيادة إذ سيعتمد عليه هذا النوع ليرقى إلى مستوى مهمته. لن يكون عرق أسياد تنحصر مهمتهم في الحكم فقط، بل عرقا له منطقته الحيوية الخاصة به، مع فائض قوة يخصصه للجمال، وللشجاعة، والثقافة، والعادات الحسنة، وذلك حتى في المجال الفكري المحض؛ عرق فعال يمكنه السماح لنفسه بكل أصناف الترف الكبير — ، وقوي إلى حد يغنيه عن الحاجة إلى الادخار والتحذلق، متموقعا في ماوراء الخير والشر؛ بيت زجاجي تزرع فيه النباتات الفريدة والمنتقاة.

387

يجب أن نعتبر إضعاف الإنسان هدفنا الوحيد لمدة طويلة : إذ يجب أولا أن نقيم أساسا عريضا يمكن أن نشيد عليه صرح الرجال الأقوياء. (وهذا هو ما جعل كل نوع تمت تقويته، إلى حد الآن، يجد نفسه في نفس مستوى النوع الأدنى منه ...).

388

الهيمنة العابرة للتقييم الاجتماعي مفهومة ونافعة : يتعلق الأمر بإقامة أساس يمكنه أن يخدم عرقا أقوى. — مقياس القوة : أن نستطيع الحياة في ظل هيمنة التقييمات المضادة، وأن نريد عودتها الأبدية. اعتبار الدولة والمجتمع أساسين : تلك وجهة نظر اقتصادية، باعتبار التربية تأديبا.

389

سبب كون الضعفاء هم الظافرون.

المرضى والضعفاء أكثر شفقة و«إنسانية» — ؛ المرضى والضعفاء أكثر نباهة، وأكثر ثقلبا وتعددا وتسلية، — هم أكثر خبثا: المرضى هم من ابتكر الخبث. (غالبا

ما نجد الابتسار المرضي لدى الكسيحين والمصابين بداء الخنازير والمسلولين —).
النباهة من سمات الأعراق المتأخرة: اليهود والفرنسيون والصينيون. (لا يستطيع المعادون للسامية أن يغفروا لليهود امتلاكهم النباهة — والمال. المعادون للسامية اسم يطلقه على أنفسهم «المحرومون»).

لقد استأثر المرضى والضعفاء بالإعجاب، فهم أكثر أهمية من الأصحاء؛ الأحمق والقديس — صنفي الإنسان الأكثر أهمية... نظرا للقرابة التي تربطهما بال«عبقري». يكون كبار «المجرمين والمغامرين» وكل الناس، وفي مقدمتهم الأصحاء، يكونون مرضى في بعض مراحل حياتهم ؛ — فميول النفس الكبيرة، وأهواء القوة، والحب، والانتقام، تصاحبهم اضطرابات شديدة... أما الانحطاط فإن الذي لا يموت مبكرا يمثله بكل الاعتبارات تقريبا — وبالتالي فهو يعرض أيضا، عن تجربة، تلك الغرائز التي هي جزء منه. يقضي المرء ما يقارب نصف حياته في حالة انحطاط.

وهناك المرأة ! نصف الإنسانية ضعيف، ومريض أصلا، ومتقلب، وغير واع، — تحتاج المرأة إلى القوة لتتمسك بها، وتلزمها ديانة الضعف التي ستمجدها، كما لو كان الضعف شيئا ربانيا، وكذلك الحب والوضاعة، تسود المرأة إذا هي تمكنت من إخضاع الأقوياء. لقد تآمرت المرأة على الدوام مع رجال الانحطاط، ومع الكهنة، ضد الـ «أقوياء» و«أولي البأس». ضد الرجال — تضع المرأة الأطفال جانبا لأجل العبادة والتقوى، لأجل الشفقة والحب؛ — تمثل الأم الإيثار بشكل مقْنع...

هناك كذلك الحضارة التي تمضي بوتيرة متصاعدة. وهي تجلب معها بالضرورة ازدياد العناصر المرضية، العصاب النفسي و الإجرام. ويتكون عنصر وسيط، هو الفنان، يفصله عن الإجرام الفعلي ضعف الإرادة والخوف الاجتماعي، لم يبلغ بعد أهلية ولوج مستشفى المجانين، ولكنه يمد هوائيات استشعاره بفضول نحو هاتين المنطقتين. غريب هو منتوج الثقافة هذا الذي هو الفنان المعاصر، الرسام، والموسيقى، والروائي في المقام الأول، الذي يستخدم مصطلح «الطبيعة» غير الملائم بتاتا ليصف طريقة عيشه... إن عدد المعتوهين والمجرمين و«الطبيعيين» في ازدياد : إنه دليل على

ثقافة متناهية تتقدم بخطى عملاقة، — أي إن الحثالة، والفضلات، والبراز يزدادون أهمية — والتيار النازل يسير بخطى ثابتة.

وهناك في الأخير تلك الفوضى الاجتماعية التي نجمت عن الثورة، عن مساواة الحقوق، عن خرافة «كون الناس متساوين». نرى ممثلي غرائز الاضمحلال (غرائز الحقد، وعدم الرضى، والهدم، والفوضوية، والعدمية)، يمتزجون مع ممثلي العبودية، والجبن، والمكر، الغرائز الحقيرة لدى الطبقات التي أبقيت في الحضيض زمنا طويلا؛ يمتزج كل هذا بدم كل الطبقات: وبعد جيلين أو ثلاثة أجيال يفقد العرق كل معالمه، — يصبح الكل سفلة. وينتج عن هذا غريزة عامة تقف ضد الاختيار، ضد كل الامتيازات، وتتحرك بقوة وثقة في النفس كبيرتين، إنها تتميز بشدة صلابتها وقسوتها في الحياة بحيث أن المتميزين أنفسهم يخضعون لها في نهاية المطاف. الذي يريد الحفاظ على القوة يجامل الدهماء ويعمل معها، عليه أن يستميلها إلى جانبه، — ال — «عباقرة» في المقام الأول: إنهم يصبحون نذيري المشاعر، الذين يعملون على إثارة حماس الجماهير، — وتعلو نبرة الشفقة، وإظهار الإجلال لكل من يعاني، لكل من عاش في الحضيض، محتقرا، ومضطهدا، تعلو هذه النبرة على غيرها من النبرات (نماذج: ڤكتور هيجو وريشار ڤاغنر). صعود الدهماء يعني صعود القيم القديمة مرة أخرى...

* * *

في الحركة التي تكون شديدة بالنسبة للسرعة وللوسط، مثلما يتجلى ذلك في حضارتنا، يتحول توازن الرجال: توازن الرجال الذين يفوتون كل من سواهم أهمية، الذين يتحتم عليهم نوعا ما أن يجدوا عوضا لخطر هذه الحركة المرضية الداهم. — سيكونون آنذاك هم المُبْطئون بامتياز، سيكونون هم أولئك الذين يستوعبون ببطء ويتخلوْن بصعوبة، الذين يكون تحملهم مناسبا للوسط الذي يتم فيه ذلك التغير الهائل، ذلك المزيج من العناصر المتنافرة. في مثل هذه الظروف يحق حتما للضعفاء أن يحافظوا على التوازن: لمواجهة هيمنة الدهماء وغريبي الأطوار (وهما متحالفين تقريبا دائما) يتوطد الضعف ليصبح هو ضمانة المستقبل والمؤتمن عليه. وهكذا يولد

خصم جديد للممتازين ـــ أو قل إغراء جديد لهم. إذا سلمنا بأنهم لن يندمجوا مع العامة لينشدوا الأناشيد مدحا للمحرومين فإنه سيلزمهم أن يكونوا «ضعفاء» و«ذوي ضمائرحية»، إنهم يعلمون أن الضعف هو كذلك مُذَهَّب ـــ أنه هو وحده من يملك الذهب والفضة (ـــ كل لما يلمع...). ومرة أخرى تكتسب الفضيلة القديمة بهذا، وكذلك عالم المثال الذي عاش، ناطقين موهوبين باسمهم... النتيجة: يكتسب الضعف نباهة، وشوكا، ونبوغا، ـــ يصبح مسليا، ويغري...

* * *

النتيجة. ـــ لا يمكن لثقافة رفيعة أن تقوم إلا على أرضية رحبة، على ضعف متمتع بصحة جيدة ووطيد. إنه يخدم العلم، ويعمل العلم على خدمته ـــ وكذلك الفن. وذلك هو أفضل ما يتمناه العلم : فالذين يشتغلون بالعلم ينتمون لصنف متوسط من الرجال ـــ صنف لا يناسب الرجال الممتازين، ـــ إذ ليس في غرائزه ذرة من الأرستقراطية، ولا من الفوضوية. ـــ إن من يحافظ على قوة هذا الصنف المتوسط هو التجارة، وفي مقدمتها تجارة المال :

وغريزة رجال المال الكبار تقف ضد كل تطرف، ـــ لذلك نجد الآن أن اليهود هم القوة الأكثر محافظة في أوربا المهددة والحائرة. إنهم لا يريدون ثورات، ولا اشتراكية، ولا نظما عسكرية. وإن أرادوا امتلاك القوة، إن احتاجوا لأن تكون لهم السلطة على الحزب الثوري، فما ذلك إلا نتيجة لما أشرت إليه، وليس تناقضا. يحتاجون من حين لآخر لجعل التيارات المتطرفة الأخرى تخشاهم ـــ بإظهارهم كل ما يتوفرون عليه. ومع ذلك فغريزتهم نفسها تظل محافظة على الدوام ـــ و«ضعيفة»... حيثما تكون القوة فإنهم يعرفون كيف يكونون أقوياء : ولكن استغلالهم لقوتهم يتم دائما في نفس ا لمنحى. الكلمة التي يمكنها بجدارة أن تصف ما هو ضعيف، مثلما نعلم، هي كلمة «ليبرالي»...

تأمل . ـــ من غير المعقول أن نتصور أن انتصار القيم هذا قد يكون مضادا للحياة : يجب السعي لتفسيره بكونه يشكل مصلحة حيوية للحفاظ على النموذج

«إنسان»، حتى وإن تم ذلك من خلال هيمنة الضعفاء والمحرومين. ففي حالات أخرى ربما لن يعود للإنسان وجود؟ ـــ مشكلة. ...

التسامي بالنموذج يشكل خطرا على بقاء النوع. لماذا ؟

فالتجربة التاريخية تظهر لنا أن الأعراق القوية يبيد بعضها البعض: بالحروب، والرغبة في السلطة، بالمغامرات، بالأهواء القوية، بالتبذير ـــ (التوتر المبالغ فيه يؤدي إلى عدم مراكمة القوة وإلى اضطرابات فكرية). إنها تؤدي ثمن وجودها غاليا، باختصار ـــ إنها ترهق بعضها البعض. بعد ذلك تأتي مراحل من الوهن الكبير والتراخي لا بد من دفع ثمن مقابل كل العصور الزاهية ... وبذلك يصير الأقوياء أضعف وأكثر ترددا وبلادة من متوسط الضعاء.

الأعراق القوية أعراق سخية. إنها لا ترى لل «ديمومة» في حد ذاتها أية قيمة، وتفضل أن تكون حياة النوع قصيرة حدا : وهو ما يعني أن الإنسان، باعتباره يجمع بين القوى، ستكون له بذلك هيمنة أكبر على الأشياء، لو تم ذلك بهاته الطريقة أو تلك ... إننا هنا أمام مسألة تتعلق بالاقتصاد.

390

لا بد لنا هنا أن نبين أن الاستهلاك المتزايد للناس وللجموع الإنسانية، وأن «آليات» المصالح والإنتاجات المتشابكة تكملها حركة حافزة. أعني بهذه الحركة وضع فائض الترف الإنساني جانبا: هنا يجب أن يرى النور صنف أقوى، نموذج راق، تتم تنشئته والمحافظة عليه في ظروف مخالفة لظروف النموذج المتوسط. الفكرة التي لدي عن هذا النوع، الرمز الذي أطلقه عليه، مثلما تعلمون، هي كلمة «الإنسان الراقي».

على هذه الطريق التي أصبحت الآن تحت أنظارنا بأكملها يظهر التشابه بين الناس، والخسة، والعراقيل الكبيرة، وحقارة الغرائز، والرضا بضعف الإنسان، ـــ نوع من الجمود في مستوى الإنسان. حين نتوصل إلى تحقيق هذه الإدارةالعامة والاقتصادية للأرض التي تنتظرنا لا محالة، فإن الإنسانية، باعتبارها إوالية، تجد في خدمة الأرض معناها الدقيق : ـــ لأنها ستكون آنذاك دولابا كبيرا. مكونا من

أجزاء لا تفتأ تصير صغيرة جدا، من «تكييف» لا يفتأ يصير دقيقا، تكيف سيجعل بالتريج كل العناصر الحاكمة والمهيمنة تصبح فائضة عن الحاجة، لأنها ستصبح قوة هائلة تمثل مختلف عناصرها قوى دنيا وقيما دنيا.

ومقابل ضعف الإنسان هذا وتكييفه، مقابل هذه المنفعة المتخصصة أكثر، لا بد من حركة مضادة — إنتاج الإنسان القادر على التركيب، الذي يلخص ويبرر، الإنسان الذي يكون تحويل الإنسانية إلى آلة بالنسبة إليه هو شرط الوجود، لأنه على هذا الأساس سيبتكر شكل وجوده الأسمى...

إنه في حاجة إلى عداوة الجماهير. إلى أناس «تمت المساواة بينهم» وإلى إحساس بمسافة تفصله عنهم؛ إنه يأخذ مكانه فوقهم، ويعيش عليهم. هذا الشكل الراقي من الأرستقراطية هو الذي سيعرفه المستقبل. — تمثل هذه الآلية الشاملة وهذا التضامن بين كل الدواليب، من الناحية الأخلاقية، أقصى نقطة في استغلال الإنسان: ولكنها يفترضان وجود رجال يعني لهمم هذا الاستغلال شيئا. وفي الحالة الأخرى فإنه لن يكون هناك سوى حط شامل من قيمة النوع الإنساني، — سوى ظاهرة نكوص شديد السرعة.

— ترون أن ما أحاربه هو التفاؤل الاقتصادي وكأن منفعة كل الناس يجب أن تزداد حتما بازدياد إنفاقهم. يبدو لي العكس هو الصحيح: فنفقات الكل ينتج عنها عجز عام (يضعف الإنسان) — بحيث لا تتم في نهاية المطاف معرفة الغرض الذي سُخرت له تلك العملية. لماذا؟ ولماذا جديدة ؟ — هذا ما تحتاج إليه الإنسانية.

391

معرفة ازدياد حجم السلطة الشاملة : معرفة القدر الذي تتضمنه هذه الزيادة من انحطاط الأفراد والطبقات والشعوب والعصور.

تحويل توازن ثقافة ما. من يتحمل نفقات كل نمو ؟ كيف تكون اليوم كبيرة.

392

شكل الأوربي في المستقبل: يتم اعتباره العبد الأكثر ذكاء، المجد في العمل، الشديد التواضع، البالغ الفضول، المتعدد، الرخو، والضعيف الإرادة، — سديم

شامل من الهوى والذكاء. فكيف سيتولد عنه نوع قوي؟ نوع يكون له ذوق كلاسيكي؟ الخوف الكلاسيكي هو إرادة التبسيط ورفع الوتيرة ووضوح السعادة، إرادة تحقيق الشيء المريع، الشجاعة على معانقة العري النفسي (— التبسيط هو نتيجة إرادة رفع الوتيرة؛ ووضوح السعادة والعري نتيجة لإرادة تحقيق الشيء المريع...). وللإرتقاء من هذا السديم إلى ذلك النظام لا بد أن يكون الدافع هو حتمية ما. لا يجب أن يكون هناك خيار: إما أن تزول أو تفرض نفسك. لا يمكن أن تكون لعرق مهيمن إلا أصول مريعة وشديدة القوة. مشكلة: أين برابرة القرن العشرين؟ جلي أنهم لن يظهرو للعيان ولن يتأزروا إلا بعد حدوث أزمات اشتراكية كبيرة، — إنهم يمثلون تلك العناصر التي ستكون شديدة القسوة على نفسها وتكون ضامنة للإرادة التي ستدوم...

393

قليلا من الهواء النقي ! إن الدولة اللامعقولة التي تعرفها أوربا حاليا لن تدوم طويلا!... وهي دولة تزعم أنها «دولة مسيحية». حتى «الإمبراطورية» الجديدة قد قامت على الفكرة البالية والمحتقرة، فكرة تساوي الحقوق والأصوات الإنتخابية. يتم هذا في ظروف بات فيها انعدام الاستقلال الفكري وفقدان الجنسية واضحين للعيان، بات فيها معنى الثقافة الحالية وقيمتها الحقيقيان يكمن في اتحاد وإخصاب متبادلين.

الصراع من أجل التفوق وسط ظروف لا قيمة لها؛ كذلك هي هذه الحضارة التي هي حضارة المدن الكبيرة والجرائد والحمى و«اللاجدوى» — !

ستتحقق الوحدة الاقتصادية الأوربية لا محالة — وكرد فعل على ذلك، سيتحقق حزب السلام كذلك.

حزب سلام غير عاطفي، يمنع على نفسه وعلى أبنائه القيام بالحرب واللجوء إلى المحاكم؛ حزب يثير على نفسه المقاومة، والمعارضة، والاضطهاد؛ حزب يضم المضطهدين، على الأقل زمنا معينا، ولكنه سرعان ما سيصير حزبا كبيرا. حزب يعارض مشاعر الحقد والانتقام.

— حزب حرب يعمل في الإتجاه المعاكس، معاملا نفسه بنفس المنطق ونفس القوة.

394

تراتبية القيم الإنسانية. — لا يجب تقييم إنسان ما من خلال أعمال منفردة. أعمال سطحية. فالعمل الشخصي أكثر الأعمال نُدرة. ففي العمل الفني أو في عمل ما يتم التعبير عن الظرف، والمرتبة الاجتماعية، والعرف، والوسط، والصدفة أكثر منه عن «الشخص». عموما، علينا أن نحترس من افتراض كون كثير من الناس «أشخاصا». هناك رجال يتكونون من عدة أشخاص، ولكن أغلب الرجال ليسوا بأشخاص. حيث تسود المزايا المتوسطة التي تلعب دورا مهما في تخليد نوع ما فإن كون المرء «شخصا» يعتبر تبذيرا وترفا؛ هناك لن يكون للاستعلام عن «الشخص» أي معنى. فما الناس هناك إلا أدوات النقل ومثلوه.

الـ «شخص» نقد لاذع منعزل؛ إنه يكاد يكون شيئا مخالفا للطبيعة إذا ما قورن بالأهمية الكبيرة التي للإستمرارية وللانسان المتوسط.. لكي يكون المرء من نفسه شخصية لا بد له من قضاء فترة من العزلة، وإجبار نفسه على عيش حياة دفاعية مسلحة، عى ما يشبه إحاطة نفسه بالأسوار، على قوة انزواء كبيرة؛ وقبل كل شيء على تأثرية أقل بكثير من تأثرية الانسان المتوسط، الذي يصيب بعدواه الانسانية.

أول سؤال يجب طرحه، فيما يخص التراتبية، هو معرفة مدى امتلاك إنسان ما لغرائز التوحد أو غرائز القطيع. (في هذه الحالة الأخيرة فإن قيمته ستكمن في المزايا التي تضمن استمرار قطيعه، استمرار نوعه؛ أما في الحالة الأولى فتكمن قيمته في مايخرجه ويعزله ويحميه ويجعل توحّده ممكنا).

النتيجة: لا يجب تقييم نموذج الشخص المتوحد حسب نموذج الشخص المنتمي للقطيع، ولا هذا الأخير حسب نموذج الشخص المتوحد.

إذا نظرنا إلى الأمور من الأعلى وجدناهما كليهما ضروريين: مثلما هو ضروري عداؤهما. وليس هناك ما هو أجدر باللوم من تمني ظهور نموذج ثالث ينتج عن هذين

النموذجين..(الـ ـــ «فضيلة معتبرة كخنثوية). لا نتمنى هذا مثلما لا نتمنى تقارب الجنسين وتصالحهما. يجب أن نطور أكثر كل ما هو نموذجي ونزيد تعميق الهاوية باستمرار.

في كلتا الحالتين هناك انحطاط: حين يستولي القطيع على مزايا المتوحدين وكذلك حين يستحوذ المتوحدون على مزايا القطيع، ـــ باختصار، حين يتقاربان. وهذا الانحطاط يقع خارج نطاق الحكم الأخلاقي.

395

أين يجب البحث عن الأقوياء. ـــ اندثار وانحطاط أصناف المتوحدين كبير جدا وفظيع : ففي وجهها تقف غرائز القطيع وتراث القيم؛ ووسائله الدفاعية، وغرائزها الحامية ليست قوية ولا مأمونة ؛ولكي يزدهر المتوحدون يجب أن تسبغ عليهم الصدفة كنفها (ـــ إنهم غالبا ما يزدهرون في العناصر الدنيا والمتخلى عنها، من الناحية الاجتماعية : إذا بحثنا عن شخصيات فسنجدها هنا يقينا أكثر مما سنجدها في الطبقات المتوسطة!).

حين يشرف على نهايته ذلك الصراع بين الأوضاع والطبقات الذي يؤدي إلى «المساواة في الحقوق» فإن الحرب تتنظم ضد الشخص المتوحد. (يستطيع هذا الشخص، إلى حد ما ، البقاء والتطور بشكل أفضل في مجتمع ديمقراطي، ذلك أن وسائل الدفاع الفظة لا تعود ضرورية ويصبح من بين الظروف العادية نوع من التعود على النظام، والنزاهة، والعدل، والثقة).

يجب أن يتم تقييد الأقوياء بإحكام، يجب مراقبتهم ووضعهم في الأغلال : هذا ما تريده غريزة القطيع، يجب أن نفرض عليهم نظام الإكراه، نظام العزلة الزهدية، أو أن نفرض عليهم الـ «واجب» في إطار عمل يستنفذهم ولايسمح لهم باستعادة سكينتهم.

396

«استقلالية الفرد المتنامية» هي ما يتحدث عنه فلاسفة باريزيون مثل فويي (Fouillée)[24]. فلينظروا إذا إلى السلالة الغنمية التي ينتمون إليها هم أنفسهم!

افتحوا عيونكم ياعلماء اجتماع المستقبل ! لقد أصبح الفرد قويا تحت ظروف متعارضة: إنكم تصفون ضعف الإنسان التام وسقمه، بل إنهما يوافقان رغباتكم، وللقيام بهذا تستخدمون آلة المثل الأعلى القديم الكاذبة ! لقد صنعتم بشكل يجعل حاجيات حيوان القطيع الذي هو أنتم تبدو لكم حقا كمثل أعلى !

397

المثل الأعلى عند حيوان القطيع. — بلغ أوجه الآن في التقييم الأسمى لـ «مجتمع». وهو محاولة لإضفاء قيمة كونية بل وميتافزيقية على المجتمع. — وإنني أحمي منها الأرستقراطية.

على المجتمع الذي يحتفظ في ثناياه بهاته الاعتبارات وهاته الرقة، فيما يتعلق بالحرية، أن يعتبر نفسه استثناء ويجد في مواجهته قوة تبرزه، قوة يحاربها ويحتقرها.

كلما تخليت عن بعض حقوقي، كلما وضعت نفسي على قدم المساواة، ووضعتها تحت سيطرة الطبقة المتوسطة والعامة في نهاية المطاف.

الأوضاع التي ينطوي عليها المجتمع الأرستقراطي، ليحصل أفراده على قدر كبير من الحرية، تؤدي إلى حدوث توتر شديد نتيجة وجود غرائز متعارضة لدى كل أفراده: إنها إرادة الهيمنة...

إذا أردتم القضاء على التناقضات العنيفة وعلى الفوارق في المراتب الاجتماعية فإنكم ستقضون كذلك على الحب القوي، على الشعور السامي، وعلى مفهوم التحفُّظ.

* * *

نفسية المجتمع الحقيقية مع مبادئ الحرية والمساواة. — أي شيء تتناقص كميته؟ — إنها إرادة تحمل المسؤولية، وذلك دليل على تناقص الاستقلالية؛ القدرة على حمل السلاح، من الناحيةالثقافية كذلك : قوة القيام بأمور الحكم والقيادة؛ معنى الاحترام، والخضوع، وملكة الصمت؛ العشق الكبير، والمهمةالكبيرة، والمأساة، والرصانة.

398

الحكم الذي ينقُص «العقول الحرة»: المادةالتي تزيد من قوة الأقوياء وتجعلهم قادرين على إنجاز مشاريع كبيرة تحطم الضعفاء وتصيبهم بالذبول: — الشك، — ورحابة الصدر، — والتجربة، — والإستقلالية.

399

إنها لطريقة غير معقولة ومثيرة للاحتقار تلك التي تسلكها المثالية التي لا تريد للضعف أن يكون ضعيفا والتي، عوض أن ترى الظرف في كون المرء استثناء متميزا، فإنها تغتاظ من الجبن والزيف والحقارة والمظهر البئيس. لا يجب أن نريد أن يكون الأمر بخلاف ذلك ! وأن نزيد من تعميق الهوة ! يجب أن نرغم النوع الراقي على الانفصال، وذلك من خلال القرابين التي يجب عليه أن يقدمها لطريقته في الكينونة.

وجهة نظر أساسية : خلق مسافات وليس خلق تناقضات. التقليل من الأشكال الوسيطة والحد من تأثيرها: هذه وسيلة أساسية للحفاظ على المسافات.

400

زيادة القوة، رغم انحطاط الفرد المؤقت:

خلق مستوى جديد؛

طريقة جديدة لتجميع القوى، بغرض الحفاظ على الإنتاجات الصغيرة، مقابل تبذير كامل؛

الاستعباد المؤقت للمدمِّر لنجعل منه أداة اقتصاد المستقبل؛ المحافظة على الضعفاء، بما أنه يجب القيام بكم هائل من الأعمال الصغيرة؛

المحافظة على اعتقاد يجعل وجود الضعفاء والمعانين ممكنا؛ التضامن لزرع ما يشبه غريزة مضادة لغريزة الخوف والمذلة؛ مصارعةالصدفة وكذلك صدفة «العظماء».

401

الشعور بالقوة. — بعبارة أخرى : الفرح دائما يفترض مقارنة (ليس بالضرورة مع الآخرين، بل مع الذات، وسط حالة من النمو، ودون أن نعرف إلى أي حد نقارن —).

الزيادة الاصطناعية للقوة: سواء بواسطة مواد كيماوية مهيجة، أو بواسطة أخطاء مهيجة («رؤى» — «أوهام»).

كفكرة اليقين مثلما نجدها لدى المسيحي؛ إن له شعورا قويا بحقه في أن يكون واثقا، أن يكون صبورا وخاضعا: وهو مدين بهاته القوة المصطنعة لِوَهْم كونه محميا من طرف الرب.

كالشعور بالتفوق : مثلا حين لا تُقدّم لخليفة المغرب إلا خرائط الكرة الأرضية التي تحتل فيها مملكاته الثلاث مجتمعة أربعة أخماس المساحة.

كالشعور بالتفرد : مثلا حين يتخيل الأوربي أن أوربا و حدها هي التي تعرف الحضارة، أو يرى نفسه وكأنه عالم مصغّر؛ أو حين يجعل المسيحي الوجود كله يتمحور حول «خلاص الإنسانية».

مهم جدا أن نعرف مكمن الشعور بالضغط، بالإكراه: فبحسب تمظهرهما يتولد، من جهة أخرى، شعور بزيادة القوة. فالفيلسوف، مثلا، يشعر كالسمكة في الماء وهو يمارس رياضة التجريد الهادئة والسامية جدا: وعلى العكس من ذلك فإن الألوان والأصوات تضايقه؛ حتى لا نتكلم بتاتا عن الشهوات الغامضة، — عما يسميه الآخرون «المثل الأعلى».

402

إنها محاولة قمت بها لأفهم الشيء المعقول قطعا في الأحكام والتقييمات الاجتماعية: وهي بالطبع محاولة لم أكن أرمي من ورائها إلى الخروج بنتائج أخلاقية.

قدر الزيف النفسي واللانفاذية، لتقديس الأهواء الضرورية للحفاظ على القوة وللزيادة فيها (لتخلق هاته الأهواء لنفسها ضميرا مرتاحا).

قدرا لحماقة، حتى تظل قاعدة وتقييم مشتركان ممكنين (لبلوغ هذا: التربية، مراقبة عناصر الثقافة، الترويض).

قدر البحث، والريبة والتعصب، حتى يمكن معاملة الممتازين كالمجرمين والقضاء عليهم، — بل لجعلهم يشعرون بتبكيت الضمير، بحيث أن تميُّزَهُمْ يُصَيِّرهُمْ مرضى.

403

محاربة العظماء تبررها أسباب اقتصادية. فالعظماء يشكلون خطرا، لقد أوجدتهم الصدفة، وهم استثناءات وعواصف؛ قوتهم الكبيرة تمكنهم من أن يضعوا موضع سؤال كل ما تم بناؤه وتشييد صرحه على مدى طويل. يجب ليس فقط إفراغ المتفجرات بطريقة آمنة، بل الحيلولة، ما أمكن ذلك، دون الإفراغ: غريزة أساسية عند كل مجتمع متحضر.

404

مالا أقبله هو أن يقوم نوع استثنائي بمحاربة القاعدة، — عوض أن يدركوا أن استمرار القاعدة شرط من شروط قيمة الاستثناء. كالنساء المتحررات اللواتي يردن، عوض الشعور بالشيء المتميز في حاجياتهن غير العادية، أن يغيرن وضعية المرأة بشكل عام...

405

لا يليق بالفيلسوف أن يبغضن الضعف : فذلك يكاد يضع «حقه في الفلسفة» موضع سوال. فكونه استثنائيا هو بالتحديد ما يوجب عليه حماية القاعدة، والحفاظ لكل منتم إلى الطبقة المتوسطة على شجاعته ومرحه بنفسه.

406

أحاول تبرير الفضيلة تبريرا اقتصاديا. — المشكلة هي جعل الإنسان صالحا للاستعمال ما أمكن وجعله، ما أمكن ذلك، أقرب مايكون من الآلة التي لا تخطئ:

من أجل هذا يجب تسليحه بفضائل الآلة (— عليه أن يتعلم النظر إلى ظروف عمله بشكل آلي ونافع على أنها ظروف ثمينة جدا: ولتحقيق هذا يجب أن نجعله يشمئز، ما أمكن ذلك، من الظروف الأخرى، ونقدمها له على أنها خطيرة وحقيرة).

أول حجر عثرة يقف في طريقنا هنا هو الملل، هو التشابه الذي يصاحب كل نشاط آلي. وقد كانت مهمة التكوين العالي حتى الآن هي تعليم الإنسان تحمل الملل — وليس تحمله فقط، — ورؤيته محاطا بسحر رفيع. ومهمة علم التربية وعمله اللذين لا يقدران بثمن هي أن يعلمانا شيئا لا يعنينا إطلاقا ونشعر بأن ال — «واجب» يقتضي هذا النشاط «الموضوعي» بالتحديد؛ أن يعلمانا كيف نقيم اللذة منفصلة عن الواجب. هذا هو ما جعل فقيه اللغة هو المربي بامتياز إلى حد الآن: فنشاطه نفسه مثال على الرتابة التي تسمو حتى تصير عظيمة؛ فتحت رعايته يتعلم الشاب أن يحطب: وهو الشرط الأول ليتم فيما بعد القيام بالواجب الآلي بإتقان (كموظف دولة، كزوج صالح، كديواني، كقارئ للجريدة، كجندي). ربما يكون هذا الوجود في أمس الحاجة إلى تبرير وتمجيد فلسفيين: يجب وضع مشاعر السرور في مرتبة أدنى، باسم حجة فرعية لا تخطئ؛ نتطلب الـ «واجب في ذاته»، وربما مظهر الإجلال لكل ما هو غير سار.

- وليس لهذا التطلب أية فائدة، ليس فيه ترفيه، أو فرصة تنتهز، بشكل قطعي. الشكل الآلي للوجود المعتبر هو الشكل الأسمى والأكثر نبلا يعشق نفسه (— نموذج ذلك هو كانط، باعتباره متعصبا للفكرة الشكلية «يجب عليك»).

407

تقسيم عمل الأهواء في المجتمع: بحيث ينتج الأفراد والطبقات أصنافا من النفوس غير الكاملة، ولكنها بذلك تكون أكثر نفعا. كيف أصبحت، لدى كل شخص من أفراد المجتمع، بعض الأهواء شبه بدائية (بغرض تطوير هوى آخر ليصير أقوى).

لتبرير الأخلاق:

التبرير الاقتصادي (نية استخدام القوة الفردية، ما أمكن، ضد تبذير كل ما هو استثنائي)؛

التبرير الجمالي (تطوير نماذج ثابتة، وكذلك اللذة التي يمنحها النموذج الخالص؛

التبرير السياسي (فن تحمل التوتر الشديد في علاقة مختلف درجات القوة ببعضها)؛

التبرير الفسلجي (استفادة المغبونين أو الذين حصلوا على نصيب ضئيل من هيمنة وهمية في التقدير، — من أجل الحفاظ على الضعفاء).

408

التقييم الاقتصادي للمثل الأعلى الذي ساد حتى الآن، — أي اختيار بعض الأهواء والظروف التي تم اختيارها وتطويرها على حساب أخرى. يختار المشرع (أو غريزة المجتمع) عددا معينا من الأهواء والظروف التي يضمن نشاطها الحصول على إنتاج منتظم (آلية في الإنتاج، كنتيجة للحاجيات المنتظمة عند هاته الأهواء والظروف).

إذا سلمنا بكون هاته الظروف والأهواء تتضمن عناصر مؤلمة، فيجب العثور على وسيلة لتجاوز هذا العنصر المؤلم بواسطة تقييم يعتبر الكدر شيئا ثمينا، أي كباعث أعلى للفرح. نُعَبِّر عن ذلك بالصيغة التالية : «كيف يصير الشيء غير السار باعثا للسرور؟» مثلا حين تكون طاعتنا وخضوعنا للقانون، ونحن نتمتع بالقوة، والبأس، والانتصار على الذات، تشريفا لنا. وكذلك حسنا المشترك، ومحبتنا للقريب وللوطن، و«أَنْسَنَتُ» نا، و«إيثار» نا، «بطولةُ» نا.

لنقم بالأشياء المزعجة عن طيب خاطر ... مقصد المثل الأعلى.

409

لقد أعلنت الحرب على المثل الأعلى المسيحي الضعيف و(كذلك على ما يمت إليه بصلة حميمة) ليس بنية القضاء عليه. بل فقط لأضع حدا لطغيانه، ولأهيء الساحة لا ستقبال مثل أعلى جديد، مثل أقوى... يعد استمرار المثل الأعلى في الوجود واحدا من تلك الأشياء المرغوبة أكثر: وإن لم يكن ذلك سوى بسبب المثل

الأعلى الذي يريد إبراز قيمته بجانبه، وربما فوقه، — إذ يجب أن يكون له خصوم، خصوم أشداء، لكي يصبح قويا. — هكذا نستخدم الأخلاق نحن اللاأخلاقيون : فغريزة البقاء لدينا ترغب في أن يحتفظ خصومنا بقواهم، — إنها تريد فقط أن تصبح سيدة هؤلاء الخصوم. —

III

ماوراء الخير والشر

410

لماذا تنفير الضعفاء من ضعفهم ! ترون أنني، من جهتي، أفعل العكس : فكل خطوة تبعدهم عنه — هذا ما أعَلمه أنا — تقودهم إلى اللاأخلاقية.

411

يحب المضي قدما في تقليص وحصر ميدان الأخلاقة : يجب تسليط الضوء على الأسماء الحقيقية للغرائز العاملة في هذا الميدان، ورد الاعتبار لها بعد ما ظلت لمدة طويلة مخفية وراء أسماء فضيلة منافقة. بدافع الحياء من «ولاء» المرء الذي يتحدث دائما بصوت ملحاح، يجب عليه أن ينسى الحياء الذي يريد إنكار الغرائز الطبيعية. يمكن تقييم مقدار القوة حسب درجة قدرتنا على التخلص من الفضيلة ؛ ويمكننا تخيل علو تكون فيه فكرة الـ «فضيلة» غير محسوسة بحيث تصبح لها نبرات الـ «شهامة»، نبرات فضيلة عصر النهضة، فضيلة مورالين الحرة. ولكننا الآن أبعد ما نكون عن هذا المثل الأعلى !

يعد التقليص من ميدان الأخلاق دليلا على تقدم الأخلاق. فقد كانت الأخلاق حتى الآن هي التي تقود الفكر في كل مكان لا تقوده فيه السببية.

412

يعتبر عدم تحمل المرء للأخلاق دليل ضعف لديه : إنه يخشى « لاأخلاقيتـ »هـ، عليه أن يتنكر لأقوى غرائزه، لأنه لايعرف بعد كيف يستخدمها... هكذا تظل أخصب الأراضي مواتا أمدا طويلا من الدهر : — تنقص القوة التي قد تصبح هي السيد هنا...

413

ما أقصده هو إظهار الانسجام التام في كل مايحدث، وأن لا أعطي للتفاضل الأخلاقي إلا قيمة المنظور : إظهار أن كل مايتم الثناء عليه لكونه أخلاقيا هو شيء مطابق، من حيث الجوهر، لكل ما هو لاأخلاقي ولم يصبح ممكنا، ككل توسيع للأخلاق، إلابوسائل لا أخلاقية ولأغراض لاأخلاقية؛ ومقابل ذلك إظهار أن كل ما يتم ذَمُّه باعتباره لاأخلاقيا هو، من الناحية الاقتصادية، أساسي وأعلى مقاما؛ وكيف أن للتطور نحو حياة أكثر غنى شرطا ضروريا هو تطور اللاأخلاقية... الـ « حقيقة» هي درجة الفهم التي نضيفها لهذا الأمر...

414

نحن، سواء كنا قليلي أو كثيري العدد، نحن الذين نجرؤ على العيش في عالم مجرد من الأخلاق، نحن الوثنيون حسب الدين : قد نكون كذلك نحن أول من يدرك معنى الدين الوثني : — نُرْغَمُ على تخيل كائنات تفوق الإنسان، ونضعها ماوراء الخير والشر؛ نُرْغَمُ كذلك على اعتبار كل تفوق شيئا لاأخلاقيا.

415

الانشغالات الأخلاقية تضع العقل الذي ينشغل بها في مرتبة أدنى : وهو بذلك يبرهن على عدم توفره على غريزة الانفصال، على كونه لايعرف أن له حقوقا خاصة، أن التناجي والإحساس بالحرية لدى الأخلاقيين، لدى «أبناء الرب» (أو الشيطان) تنقصه. والأمر سيان عنده أن يبشر بالأخلاق السائدة أو أن يكون مثله الأعلى هو انتقاد هاته الأخلاق : وهو بذلك ينتمي إلى القطيع — ولو كأسمى حيلة يلجأ إليها القطيع : أعني الـ «راعي».

416

هناك من يسعون لمعرفة ما يجعل من شيء ما شيئا لاأخلاقيا.. فإذا أدركوا أن شيئا ما غير عادل تخيلوا أنه عليهم القضاء عليه أو تغييره. وعكسهم فإني لا أتوانى عن توضيح الجانب اللاأخلاقي في الشيء. لما تنبهت لذلك عاد لي توازني.

417

الذي يستسهل الفضيلة يَحْلُو له أن يلهو بها. لايمكن أن نظل جديين في الفضيلة: فنحن نبلغ الفضيلة ثم نقفز عليها — إلى أين ؟ إلى الشيطنة.

وفي ما بينهما كم أصبحت ميولنا ذكية ! كم يعذبها الفضول العلمي ! ما أكثرها بدايات للمعرفة !

418

الـ «موضوعية» لدى الفيلسوف : لامبالاته بنفسه، ولامبالاته بالعواقب المحمودة أو الوخيمة. عدم التردد في استخدام الوسائل الخطيرة؛ اعتبار فساد الطبع وتعقُّده امتيازا واستغلالهما.

لامبالاتي الكبيرة بنفسي : لاأريد الاستفادة من أبحاث المعرفة، ولا الإفلات من الأضرار التي تُلحقها بي. — من بينها نجد ما قد نسميه تغير الطبع؛ أفكر بكل هدوء في مايلي : أستخدم طبعي، ولكنني لاأسعى لفهمه ولتغييره، — الحساب الشخصي للفضيلة لم يخامر ذهني ولو لحظة. يبدو أن الإنسان يغلق أبواب المعرفة دونه بمجرد ما يهتم بحالته الخاصة — بل بـ «خلاص روحه» !... عليه ألا يولي أهمية كبيرة لأخلاقه وألا يقبل بأن يُحرم من حقه في فعل عكس ذلك...

ربما يجب هنا أن نفترض نوعا من الأخلاقية الناتجة عن ثروة وراثية : إذ يستشعر المرء أنه يستطيع تبذيرها والإلقاء بها من النافذة دون أن يصبح فقيرا من جراء ذلك. يجب ألا يستسلم لإغراء النظر بإعجاب إلى «النفوس الرفيعة»؛ عليه أن يعلم دائما أنه في مرتبة أعلى منها. المشي في مقدمة الذين لافضيلة لهم والصخب يملأ دواخله؛ إنقاد البراءة فضيلتها، — تلك متعة خفية.

الالتفاف حول الذات ؛ عدم رغبته في أن يصبح «أفضل»، أو حتى «مختلفا». إبداء اهتمام كبير حتى لا يلقي نحو الأشياء بمجسات الأخلاقية أو بشباكها.

419

يكون تأمل الأمور العامة دائما نكوصيا : فأخر « الطموحات» التي تضني الإنسانية، مثلا، لم يعتبرها الفلاسفة مشكلة أبدا. إنهم ينظرون بكل بساطة إلى «الرقي» بالإنسانية « نحو الكمال» وكأننا، بحدس ما، قد تجاوزنا المشكلة التي هي التساؤل عن السبب الذي يوجب علينا «الرقي نحو الكمال». إلى أي حد تصل الرغبة في أن يصبح الإنسان فاضلا أكثر، أو حكيما أكثر، أو سعيدا أكثر ؟ إذا سلمنا بأننا قد عرفنا السبب الذي يملكه الإنسان فستصير كل هذه الرغبات بلا معنى؛ وإذا أردنا شيئا، فمن يدري ! ربما لن يكون لنا آنذاك الحق في أن نريد شيئا آخر ؟ هل يتناسب ازدياد الفضيلة مع ازدياد الحكمة والتجربة ؟ أشك في ذلك؛ سأبرهن على ذلك في مناسبات كثيرة. ألم تكن الفضيلة حتى الآن، باعتبارها هدفا، مناقضة بشكل دقيق للرغبة في السعادة ؟ ألم تستخدم التعاسة والحرمان وتعذيب الجسد كوسائل طبيعية ؟ ولو كانت التجربة الكبيرة هي الهدف ألن يتم في نهاية المطاف رفض الزيادة في السعادة ؟ واختيار الخطر، والمغامرة، والحذر، والغواية كطرق تؤدي إلى التجربة ؟... وإن نحن أردنا السعادة، ألن يجب علينا الانضمام إلى «فقراء العقل» ؟

420

لقد فسر شوبنهاور العقلانية العليا بكونها انفصالا عن الإرادة؛ لم يرد أن يرى التحرر من الأحكام الأخلاقية المسبقة، الذي هو شيء خاص بالعقل الكبير الذي يتخلص من القيود، هو لاأخلاقية العبقري النموذجية؛ لقد حدد بطريقة متكلّفة ما كان يبجله، أعني قيمة «الزهد» الأخلاقية، باعتبارها هي وحدها شرط النشاط العقلي، وشرط الرؤى «الموضوعية». حتى في الفن تظهر الـ «حقيقة» بعد القضاء على الإرادة...

عبر كل الخاصيات الأخلاقية أرى تقييما مخالفا تماما : لاأعرف هذا الفصل السخيف بين العبقري وعالم الإرادة الأخلاقية واللاأخلاقية. الإنسان الأخلاقي ينتمي إلى نوع أدنى من الإنسان اللاأخلاقي، إلى نوع أضعف منه ؛ إنه يشكل نموذجا

حسب الأخلاق، ولكن ليس نموذجه هو؛ فما هو إلا نسخة، نسخة جيدة على أكثر تقدير، — وقيمته تكمن خارجه. أقدر الإنسان حسب كمية قوتة وتمام إرادته : وليس حسب إضعافه لإرادته أو قضائه عليها؛ أعتبر الفلسفة التي تعلم الناس نفي الإرادة عقيدة تحط من قدر الإنسان وتفتري عليه.... أقدر قوة الإرادة حسب درجة المقاومة، والألم، والعذاب الذين تتحملهم لتحولهم لصالحها؛ لا ألوم الحياة على طبعها الشرير والمؤلم، بل أتمنى أن يصبح هذا الطبع يوما أكثر شرا وإيلاما....

قمة العقل التي كان شوبنهاور يتخيلها هي التوصل إلى معرفة أن كل شيء مجرد من المعنى، باختصار، الاعتراف بما يقوم به الإنسان الصالح بشكل فطري... لقد أنكر أن تكون هناك أصناف لها عقل أرقى، — لقد اعتبر تجربته هي أقصى مايمكن أن يبلغه الإنسان... أريد أن أخص بالذكر كانط إلى جانب شوبنهاور (حديث غوته عن الشر الجذري)؛ إنه لايملك أية خاصية إغريقية، إنه مضاد للتاريخ (حديثه عن الثورة الفرنسية)، ومتعصب للأخلاق. حتى هو نجد لديه، في الخلفية، القداسة... أحتاج إلى نقد القديس...

421

يريد منا شوبنهاور أن نُخْصي الغنجين ونحبس الفتيات في الدير. من أية ناحية قد يكون هذا مرغوبا ؟ فالغنج الصريح يمتاز على كثير من الناس بكونه ليس ضعيفا؛ ويمتاز الأبله علينا بكونه لايعاني من مظهر ضعفه... إنه لشيء مرغوب فيه أن تزداد الهوة اتساعا، أي أن يزداد الغُنْجُ والبلاهة... وبذلك سيتسع الطبع الإنساني... ولكن هذا الأمر، في نهاية المطاف، هو أمر حتمي يحدث دون أن ينتظر قولنا بأنه شيء مرغوب أو غير مرغوب. البلاهة والخداع يزدادان، هذا جزء من الـ «تقدم».

422

فلسفة البقال لدى السيد سبنسر. — عدم وجود مثل أعلى غير مثل الإنسان الضعيف. الغريزة الأساسية لدى كل الفلاسفة والمؤرخين وعلماء النفس : يجب أن نبرهن على أن كل ماله قيمة في الإنسان ، أو الفن، أو التاريخ، أو العلم، أو الدين،

أو التّفانة، تكون له قيمة أخلاقية، ويكون مشروطا أخلاقيا بهدفه، بوسائله وبنتائجه. إرادة تفسير كل شيء حسب القيمة العليا : كسؤال روسو مثلا فيما يتعلق بالحضارة: « هل تجعل الحضارة الإنسان أفضل ؟» — إنه سؤال مضحك، بما أن العكس شديد البداهة وبما أنه هو الذي يدافع عن الحضارة. لقد تم هنا وضع العقلانية في مرتبة أدنى من الصلاح؛ وستحصل على قيمتها العليا (في صورة فن مثلا) لو أنها نصحت بعودة الأخلاق وهيأت لذلك السبيل : هيمنة القيم الأخلاقية هيمنة تامة...

423

ما لا أقبله. — اعتبار ذلك الضعف الهادئ، توازن النفس التي لاتعرف الإندفاعات الكبيرة التي لاتنجم عن التراكمات الكبيرة للقوة، اعتبار ذلك شيئا راقيا، بل هو معيار الإنسان.. يقول بيكون دوڤيرولام[25]. بالنسبة للعوام فإن أصغر فضيلة تجلب المديح، وللمتوسطين تكون مثار إعجاب ، وللراقين لاتعني شيئا. والحالة أن المسيحية، كدين، تخص العامة ولاتعني شيئا بالنسبة للصنف الراقي من الفضيلة.

424

تقدير قيمة إنسان ما من خلال كونه نافعا، أو باهض الثمن، أو ضارا بالإنسانية، يعني تماما نفس ما يعنيه تقييم عمل فني من خلال الأثر الذي يكون له. ولكننا بهذا لانلامس قيمة رجل ما بالمقارنة مع باقي الرجال. يقوم «التقييم الأخلاقي»، لكونه تقييما اجتماعيا، بتقييم الإنسان من خلال تأثيره على أمثاله. والإنسان الذي يملك ذوقا خاصا به، الذي تَلُفُّه وحدته وتخفيه عنكم، الذي لايستطيع التعبير عن نفسه ولا التواصل مع الآخرين، — إنسان غير محدد، أي إنسان من نوع راق، وهو على كل حال إنسان من صنف غير صنفكم : كيف تريدون تقييمه وأنتم لاتستطيعون معرفته أو مقارنته بالآخرين ؟

لقد كانت نتيجة التقييم الأخلاقي هي إضعاف الحكم بشكل كبير : لايتم تقدير قيمة إنسان ما كما ينبغي، إذ يكاد يطالها الإهمال والإنكار. إن الحكم على قيمة إنسان ما فقط من خلال مقارنته بالآخرين لهو بقية من بقايا الغائية.

الإباحيون والساقطون : تأثيرهم الموهن على قيمة الرغبة. إن همجية الآداب الفظيعة في القرون الوسطى هي التي كانت تدفع الناس إلى تشكيل «عصبة الفضيلة» ــ وكذلك إلى مبالغات فظيعة هي الأخرى بخصوص مايشكل قيمة الإنسان. تحتاج الـ «حضارة» لمقاومة (الترويض) إلى كل أشكال الأغلال والتعذيب لتصمد في وجه طبيعة الحيوان الأشقر وطبعه الفظيع.

قد يكون من الطبيعي أن يحدث هنا خلط، وإن كان تأثيره سيكون وخيما. فما يمكن لرجال القوة والإرادة أن يتطلبوه من أنفسهم يعبر كذلك عن عدد الحقوق التي يمكنهم تمتيع أنفسهم بها. ويشكل هؤلاء نقيض الفجار والشبقيين : وإن كانوا تحت وطأة بعض الظروف يأتون أمورا لو أتاها أحد غيرهم لجزم بأن في ذلك فجور وشبق.

فكرة «مساواة الناس أمام الرب» هي هنا مثار للشبهة ؛ لقد تم تحريم أعمال الاعتقادات الراسخة، في حد ذاتها، التي هي من مميزات الرجال الأقوياء الأسوياء، كما لو كانت تلك الأعمال والاعتقادات الراسخة لاتليق بالإنسان. لقد تم تحقير ميول الرجال الأقوياء كلها، ورفع الذين يحافظون على الرجال الضعفاء (الضعفاء حتى بالنسبة لهم هم) إلى مقام معايير القيمة.

يذهب الخلط أبعد من ذلك بحيث يتم وصم البارعين في الحياة بالعار (وهم الذين يكون لديهم الإمساك بزمام النفس نقيضا قويا لكل ما هو فاجر وشبق)، وذلك بإطلاق أسماء مشينة عليهم.. لازالوا حتى اليوم يظنون أنه من واجبهم نقد سيزار بورجيا[26]، إنه لأمر مضحك. لقد لعنت الكنيسة أباطرة ألمانا بسبب رذائلهم : وكأن الراهب أو القسيس يملك الحق في إبداء رأيه في مايمكن لفردريك الثاني أن يتطلبه من نفسه، يتم إرسال دون جوان إلى الجحيم : إنها قمة السذاجة. هل انتبهوا إلى كون كل الرجال المهمين لا وجود لهم في الجنة ؟ إنها إشارة تدل النساء الصغيرات على أفضل مكان يجدن فيه خلاصهن. لو فكرنا، بعقل موضوعي شيئا ما، وبعمق في ما تعنيه كلمة « رجل»، لأيقنا أنه على الكنيسة إرسال كل العظماء إلى الجحيم ـ فهي تحارب «عظمة» الإنسان كيفما كانت.

426

أولا، أيها السادة الأفاضل، أقول لكم بأنكم لستم متقدمين علينا : نريد أن نجعلكم تعتنون بالتواضع عناية خاصة : إن ما يدفعكم للتحلي بالفضيلة هي مصلحتكم الشخصية وبراعة مثيرة للشفقة. ولو كان لكم قدر أكبر من القوة والشجاعة لما انحدرتم بهذا الشكل لتصبحوا أفاضل عديمي الأهلية. إنكم تصنعون بأنفسكم ما فعله : إما تفعلون ما يجب فعله – ماتجبركم على فعله الظروف —— وإما تفعلون ما يعجبكم ويبدو لكم نافعا. وإن لم تفعلوا مايطابق ميولكم أو ما تتطلبه الضرورة منكم، فإنه لن يكون لكم الحق في مدح أنفسكم، ولا في قبول مدح الآخرين لكم !... إن كان المرء فاضلا وحسب فإنه ينتمي إلى نوع حقير من الرجال : كونوا على يقين تام من هذا. فالرجال الذين كانوا يحظون بالاعتبار، مهما يكن ذلك الاعتبار، لم يكونوا أبدا حمير الفضيلة : فغريزتهم الباطنية، تلك التي تتحكم في كمية قوتهم، لاتجد فيها أي نفع : أما الحد الأدنى من قوتكم فلا شيء يبدو له أكثر حكمة من الفضيلة. ولكنكم تشكلون الأغلبية : وبما أنكم بدأتم تطغون فإننا سنحاربكم...

427

يعج المجتمع اليوم بمجموعة من الاعتبارات، والمجاملات التي تجب مراعاتها، والتحفظات اللطيفة بخصوص قوانين أجنبية أو حتى بخصوص مطالب أجنبية ؛ نهتم كثيرا بنوع من التقدير المهذَّب والمُراعي للقيمة الإنسانية الذي يظهر في الثقة والاعتبار بكل أشكاله؛ قد يكون تقديرنا للناس —— وليس فقط للناس الأفاضل —— هو العنصر الذي يميزنا بوضوح عن التقدير المسيحي. إننا نحتفظ في ذواتنا بقدر من السخرية حين نسمع الدعوة إلى الأخلاق اليوم أيضا؛ إن الذي يدعو إلى الأخلاق ينحط في نظرنا ويصبح طريفا.

يعتبر هذا الكرم الأخلاقي من أفضل العلامات الدالة على عصرنا. وإذا وجدنا حالة ينعدم فيها هذا الكرم اعتقدنا أننا أمام حالة مرضية (حالة كارلايل في انجلترا، وإبسن في النرويج، وحالة تشاؤم شوبنهاور في كل أرجاء أوربا)[27]. وإن كان هناك مايجعلنا في وفاق وتصالح مع عصرنا فهو ذلك القدر الكبير من اللاأخلاقية الذي

يسمح به لنفسه، دون أن يجعله ذلك يظن بنفسه سوء. بل على العكس ! بأي شيء تتفوق الثقافة على الغمارة ؟ وعصر النهضة مثلا على العصر الوسيط ؟ — بشيء واحد فقط : بالقدر الكبير من اللاأخلاقية التي يمنحانها. وينتج عن ذلك حتما أن تظهر كل قمم التطور الإنساني، في عيني الأخلاقي المتعصب، هي منتهى الفساد (— يكفي أن نفكر في حكم سافونارول على فلورنسا، وحكم أفلاطون على أثينا بيريكليس، وحكم لوثر على روما، وحكم روسو على مجتمع فولتير، وحكم الألمان على غوته) [28].

428

تبسيط الإنسان في القرن التاسع عشر. (كان القرن الثامن عشر هو قرن الرقة، والأناقة والمشاعر النبيلة). — لم يكن عودة إلى الطبيعة، ذلك أنه لم تكن هناك أبدا إنسانية طبيعية.. فالفلسفة الكلامية التي تتناول القيم، تلك الفلسفة الخارجة عن الطبيعة والمخالفة لها، هي القاعدة، هي الأصل؛ يصل الإنسان إلى الطبيعة بعد صراع مرير، — إنه لايقوم بالـ «دعوة» أبدا... الطبيعة : هي أن يجرؤ الإنسان على أن يكون لا أخلاقيا مثل الطبيعة.

إننا أفظاظ وصرحاء بخصوص المشاعر النبيلة، ونسخر منها بقوة، حتى حين نستسلم لها.

فمجتمعنا أكثر طبيعية، وهو مجتمع النخبة، مجتمع الأثرياء والعاطلين : فنحن في تنافس لاينقطع، والحب الجنسي لدينا نوع من الرياضة، وفيه يكون الزواج في ذات الوقت عائقا وإغراء ؛ نتجاذب أطراف الحديث ونعيش من أجل اللذة؛ نقدر المزايا الشخصية في المقام الأول، ونحن فضوليون ومقدامون.

طبيعي أكثر هو موقفنا من المعرفة : فنحن وبكل براءة، إباحيو الفكر، نمقت الكيفيات المخرفة والكهنوتية، ونستمتع بالأمور الشديدة التحريم، ولانكاد نرى في المعرفة أية فائدة إن كنا سنشعر بالملل ونحن في الطريق إليها.

طبيعي أكثر هو موقفنا من الأخلاق. لقد أصبحت المبادىء مثيرة للسخرية ؛ فلم يعد أحد يتحدث عن « الواجب» دون أن تخالط السخرية حديثه. ولكن مشاعر

المساعدة والمراعاة تحظى بالتقدير (يتم حجب الأخلاق في الغريزة ويتم ازدراء الباقي. وهناك علاوة على ذلك بعض مفاهيم النخوة).

طبيعي أكثر هو موقفنا السياسي : نرى مشاكل القوة، فقدر من القوة يعارض قدرا آخر. إننا لانؤمن بحق لايرتكز على القدرة على فرض الاحترام : نعتبر كل الحقوق فتوحات.

طبيعي أكثر تقديرنا للعظماء وللأمور العظيمة : نعتبر الهوى امتيازا، ولا يبدو لنا أي شيء عظيما إذا لم يتضمن جريمة كبيرة إننا نعتبر كل عظمة تنحية للأخلاق.

طبيعي أكثر موقفنا من الطبيعة : فنحن لم نعد نحبها لأجل «براءت»ها، أو «عقل» ها، أو «جمال»ها، فقد صيرناها بكل لطف «مشيطنة» و«مخبولة». ولكن عوض أن نحتقرها بسبب هذا فقد أصبحنا نشعر بأننا أقرب منها وأكثر ارتياحا. إنها لاتطمح إلى الفضيلة، لذلك نكن لها التقدير.

طبيعي أكثر هو موقفنا من الفن : إننا لانطلب منه كذب المظاهر الجميل، إلخ؛ فسلطة الوضعية الفظة هي التي تشاهد دون أن تتأثر.

كخلاصة نقول أن هناك إشارات تدل على أن أوربيي القرن التاسع عشر أقل خجلا من غرائزه ؛ لقد تقدم خطوة كبيرة إلى الأمام في اتجاه البوح لنفسه، دون شعور بالمرارة، بحالته الطبيعية للغاية، أي بلا أخلاقية؛ بل إنه يشعر بأن لديه من القوة مايجعله لايتحمل إلا هذا المنظر فقط.

قد يريد بعض الأشخاص أن يعنوا بهذا كون الفساد قد حقق تطورا : ومن المؤكد أن الإنسان لم يقترب من «الطبيعة» التي يتحدث عنها روسو، بل تقدم خطوة أخرى نحو الحضارة التي يمقتها. لقد تَقَوَّيْنَا : لقد اقتربنا مرة أخرى من القرن السابع عشر، وخاصة من الذوق الذي كان سائدا إبان انحطاطه (دانكور، لوساج، رينيار).

429

نحن « الموضوعيون». ــــ ليست «شفقت» نا هي التي تفتح لنا أبواب أساليب العيش والثقافات البعيدة عنا والأجنبية؛ بل سهولة علاقتنا وعدم اتخاذنا الاحتياطات

اللذان لا«يشفقان»، بل على العكس يستمتعان بمختلف الأشياء التي كان الناس يعانون منها فيما مضى (فقد كانوا إما ساخطين أو مندهشين، وينظرون بعدوانية ومرودة). — لقد أصبحت المعاناة، بمختلف أشكالها، مهمة بالنسبة لنا الآن : ولكن هذا لايجعلنا شفوقين أكثر، حتى وإن زعزعنا مظهر الألم بشدة إلى حد البكاء : — فذلك لن يثير فينا مشاعر الإعانة.

بهذا التأمل الطوعي لكل أشكال البؤس والإثم أصبحنا أكثر إقداما وقوة من القرن الثامن عشر؛ وازدياد قوتنا يعتبر دليلا (اقتربنا من القرنين السابع عشر واسادس عشر). وإنه لاحتقار كبير أن يتم اعتبار «رومانسية»نا دليلا على كون روحنا قد «تَجَمَّلَتْ». نريد مشاعر قوية، ككل العصور وكل الطبقات الشعبية البدائية. (يجب الفصل بين هذا وبين الحاجيات التي يبديها المنهكون عصبيا والمنحطون : فلدى هؤلاء نجد الرغبة في البهار، بل في القسوة.)

نحن كلنا نبحث عن أوضاع لم تعد فيها الكلمة للأخلاق البورجوازية، ولا حتى للأخلاق الكنيسة — (كل الكتب التي نجد فيها بقية من جو القس وعالم اللاهوت تترك لدينا انطباعا بغباوة مثيرة للشفقة وفقر مدقع). «المجتمع الصالح» هو ذلك المجتمع الذي لاشيء فيه يهم غير ذلك الذي يعتبر محرما في المجتمع البرجوازي وسيء السمعة: نفس الشيء يقال عن الكتب والموسيقى والسياسة والتقدير الذي تحظى به المرأة.

430

قلب القيم — ماذا يعني ؟ لاشك أن كل المحرضات النفسية التلقائية موجودة فعلا، المحرضات الجديدة والقوية، التي ستخدمنا في المستقبل: ولكننا نعرفها بأسماء مزيفة وتقديرات خاطئة، وهي لا تعي نفسها بعد.

وعي شجاع، موافقة شجاعة على ما تم بلوغه، — انفصال عن رتابة التقديرات القديمة، تلك الرتابة التي تشيننا في أفضل وأقوى ما أنجزناه.

431

يجب أن نحمي الفضيلة من دعاة الفضيلة، فهم ألد أعدائها. ذلك أنهم يُعلمون الفضيلة كمثل أعلى لكل الناس: يجردونها من سحر النُدرة والتفرد، ومن كونها استثنائية خارج نطاق الطبقة المتوسطة، من سحرها الأرستقراطي. كما يجب الوقوف في وجه المثاليين المتصلبين، الذين ينقرون باستمرار على الأواني الفخارية ويشعرون بالرضا إذ يدركون أنه يصدر عنها صوت ...: يالها من سذاجة أن يتم تطلب أمور عظيمة ونادرة وتسجيل عدم وجودها مع الغضب على الناس واحتقارهم! —— من البداهة بمكان، مثلا، أن تكون قيمة الزواج هي تماما قيمة الذين عقدوه، بمعنى أنه سيكون، في مجمله، مثيرا للشفقة وغير لائق: فلا الكاهن ولا رئيس البلدية يستطيعان أن يجعلا منه خلاف ذلك. تقف ضد الفضيلة كل غرائز الإنسان المتوسط: فالفضيلة ضارة ومخالفة للصواب، وتعزل المرء؛ إنها من نفس طراز الهوى وقليلا ما يدرك العقل كنهها؛ إنها تفسد الطبع والدماغ والحس، —— وذلك دائما حسب معايير الإنسان المتوسطة؛ إنها تثير العداوة ضد النظام، ضد الكذب الذي تخفيه كل قاعدة وكل مؤسسة وكل واقع، —— إنها أسوأ رذيلة، إذا قبلنا الحكم عليها من خلال الضرر الذي قد تلحقه بالآخرين.

أعرف الفضيلة بما يلي: 1) أنها لاتفرض نفسها، 2) لاتفترض وجود الفضيلة في كل مكان، بل وجود شيء آخر، 3) لاتعاني من غياب الفضيلة، بل تعتبر هذا الغياب مسافة بفضلها يوجد شيء مبجل في الفضيلة (لاتنتقل)، 4) لاتقوم بالدعاية .... 5) لاتسمح لأي كان بأن يتخذ من نفسه حَكَماً، لأنها تكون دائما فضيلة من أجل نفسها، 6) تفعل بالضبط ذلك الشيء الذي يكون في الغالب محرما (الفضيلة مثلما أفهمها هي ذلك الشيء المحرم حقا في تشريع القطيع)، 7) باختصار، كونها فضيلة، بمفهوم عصر النهضة، فضيلة لاأخلاق فيها.

432

إحساس اسمه «المثالية» ولايريد السماح للضعف بأن يكون ضعفا ولا للمرأة بأن تكون امرأة. عدم جعل الناس متشابهين! أن نتنبه إلى كم هي الفضيلة باهضة الثمن،

وكذلك إلى كونها ليست مرغوبة لدى الطبقة المتوسطة، ولكنها جنون نبيل، استثناء جميل، صحبة امتياز امتلاك نبرات قوية ...

433

مهما يكن المثل الأعلى الغريب الذي يتبناه المرء (باعتباره «مسيحيا» مثلا، أو «مفكرا حرا»؛ أو «لا أخلاقيا»، أو «ألمانيا في الإمبراطورية»، — فلا يجب عليه أن يطلب أن يكون مثله هذا هو المثل الأعلى بامتياز: لأنه بذلك سيجرده من امتيازه ومن ميزته. يجب أن يكون للمرء مثل أعلى ليتميز به لا ليتساوى به مع الآخرين.

فكيف يحدث رغم كل هذا، أن يقوم كل المثاليين بالدعاية لمثلهم الأعلى، وكأنه لن يكون لهم في ذلك المثل الأعلى حق لو أن كل الناس لم يعترفوا به ؟ هذا ما تفعله مثلا كل تلك النساء الشجاعات اللواتي يسمحن لأنفسهن بتعلم اللاتينية والرياضيات ... فما الذي يدفعهن لذلك ؟ أخشى أن يكون الدافع هو غريزة القطيع، هو الخوف من القطيع: إنهن يناضلن من أجل «تحرر المرأة» لأنهن ينجحن من خلال هذا العمل النبيل، و من خلال رفعهن راية التضحية «من أجل الآخرين»، ينجحن أفضل ما يكون النجاح في تمرير انفصاليتهن ...

براعة المثاليين الذين يريدون أن يكونوا مجرد مبشرين بمثل أعلى و «ممثلين» له: إنهم يغيرون هيأتهم في نظر الذين يؤمنون بالترفع وبالبطولة. ولكن البطولة الحقيقية لاتقتضي النضال تحت راية التضحية، والتنسك، والترفع، بل عدم النضال بتاتا ... «أنا هكذا، وأريد أن أكون هكذا — لتذهبوا إلى الجحيم!»

434

ماذا أدركت في نهاية المطاف ؟ لانخفين عن أنفسنا هاته النتيجة الفريدة: لقد أضفيت على الفضيلة سحرا جديدا، — فهي تفعل فعلها وكأنها شيء محرم. إن وفاءنا يقف في وجهها، إننا نقوم بتمليحها بحبيبات ملح الندم العلمي؛ لقد أصبحت شيئا قديما عفى عليه الزمن إلى درجة أنها في نهاية الأمر تجذب مرهفي الحس وتثير فضولهم؛

— خلاصة القول، إن تأثيرها هو نفس تأثير الرذيلة. إننا لم نحصل مرة أخرى على الترخيص باللجوء إلى هذا الخطأ، أجمل الأخطاء على الإطلاق، الذي هو الفضيلة، إلا بعد إدراكنا أن كل شيء كذبٌ ومظهر. لم تعد هناك سلطة تستطيع تحريمها علينا: ففقط من خلال برهنتنا على كونها شكلا من أشكال اللاأخلاقية توصلنا إلى تبريرها مرة أخرى، — لقد وُضعت في مكانها وتم ترتيبها، وبالمقارنة مع دلالتها الأساسية فإنها تشارك في اللاأخلاقية الجوهرية لكل ما هو موجود، — كمظهر للترف من الطراز الأول، وشكل هو الأكثر عجرفة ونفاسة وندرة من بين أشكال الرذيلة. لقد أدخلنا عليها السرور وجردناها من رداء الكهنوت، وخلصناها من مضايقة جمهور العوام لها، كما خلصناها من صلابتها البلهاء، من نظرتها الفارغة، من هيأتها المتكلّفة، ومن جهازها العضلي الكهنوتي.

435

لم تعد للفضيلة اليوم مصداقية، لقد زالت عنها قوة الإجتذاب؛ اللهم إلا إذا عرف أحد كيف يعيدها إلى السوق كشكل نادر من المغامرة ومن الفجور. إنها تقتضي من المؤمنين بها كثيرا من الغرابة والبلادة حتى لايعارضها الوعي. صحيح أن هذا قد يكون إغراء جديدا بالنسبة للرجال الذين لاوعي لهم ولايترددون: — إنها الآن خلاف ما كانت عليه حتى الآن، إنها رذيلة.

436

هل أكون بهذا قد أسأت للفضيلة ؟ ... قليلا تماما كإساءة الفوضويين للأمراء: فما ازداد جلوسهم على العرش قوة إلا بعد ما بدأوا يُرمون ... لأن الأمر كان دائما هكذا، وسيظل كذلك: لا يمكننا أن نخدم قضية ما غاية الخدمة إلا من خلال شن الحملات عليها وإثارة المتكالبين عليها ... وهذا ما فعلته.

437

لقد كان على أمراء أوربا أن يفكروا في ذلك قبل أن يستغنوا عن دعمنا. فنحن اللاأخلاقيون، نحن هم القوة الوحيدة التي لا تحتاج اليوم إلى حلفاء لتحقق النصر:

وبهذا فنحن هم الأقوى من بين الأقوياء. لسنا في حاجة إلى الكذب: وأية قوة غيرنا تستطيع الإستغناء عنه ؟ هناك إغراء كبير يحارب إلى جانبنا، وربما يكون أكبر إغراء كبير يحارب إلى جانبنا، وربما يكون أكبر إغراء على الإطلاق —— إنه إغراء الحقيقة... —— الحقيقة ؟ من الذي أجرى هذه الكلمة على لساني ؟ ولكن هذا آنذا ألفظها من فمي، إني أحتقرهاته الكلمة المتعجرفة: لا، لسنا في حاجة إليها هي الأخرى، فحتى بدون الحقيقة سنحقق النصر ونال السلطان. السحر الذي يحارب بجانبنا، عين ڤينوس التي تسحر حتى خصومنا وتعمي أبصارهم، هو سحر الأقاصي، الإغراء الذي تمارسه كل الأشياء القصوى : نحن اللاأخلاقيون هم الأقاصي ...

IV

المثل الأعلى الأرستقراطي

438

نموذج. — إصلاح الحق، النبل، سمو النفس النابع من الوفرة: الذين لايُعْطون لكي يأخذوا، — الذين لايريدون أن ينتعشوا بالخير الذي يفعلونه به؛ السخاء كنموذج للصلاح الحق، وغنى الشخصية كشرط أولي.

439

لايمكن أن يكون تطهير الذوق إلا نتيجة لتقوية النوع. وما يفعله مجتمعنا اليوم هو تمثيل الثقافة لا غير؛ أما الإنسان المثقف فهو غائب عنه. ينقصنا ذلك الإنسان التركيبي العظيم، الذي يجمع القوى المتنافرة تحت نفس النير ليروم هدفا وحيدا، ما نملكه اليوم هو الإنسان المتعدد، قد يكون أهم سديم وُجد على الإطلاق؛ ولكنه ليس ذلك السديم الذي يسبق خلق العالم، إنه السديم الذي يلي الخلق: الإنسان الضعيف والمتعدد. — غوته هو أفضل من يجسد هذا النموذج — (إنه ليس أولمبيا البتة).

440

أود أن نبدأ باحترام أنفسنا: فهذا هو منبع كل الأشياء الأخرى. صحيح أن هذا يجعل وجودنا ينتفي بالنسبة للآخرين: لأن هذا هو آخر شيء يغفرونه لنا. «كيف ؟ إنسان يحترم نفسه ؟»

إنه شيء مخالف تماما للميل الأعمى إلى حب الذات: فالأمر الأكثر شيوعا في حب الجنسين، كما في الثنائي المسمى «أنا»، هو احتقار ذاك الذي نحبه: — القدرية في الحب ...

441

هامش على غباوة إنجليزية. — «لا تعامل الآخرين بما لا تريدهم أن يعاملوك به.» هذه هي الحكمة، هذا هو العقل، هو أصل الأخلاق، — هو «القاعدة الذهبية». جون ستيورات ميل يؤمن بهذا! (وأي أنجليزي آخر لن يؤمن به ؟)... ولكن هذا التعليم لا يصمد أمام أدنى مناقشة. فالحساب: «لا تعامل الآخرين بما لا تريدهم أن يعاملوك به»، يحرم بعض الأعمال بسبب عواقبها الضارة؛ الذي يتحكم في المرء هنا هي الفكرة المبَّطنة القائلة بأن لكل عمل جزاء. وماذا لو قال أحدهم وهذا التعليم في يده: «هذه الأعمال بالضبط هي التي يجب القيام بها، وذلك حتى لا يسبق إليها أحد، — لنفوت على الآخرين فرصة معاملتنا بها ؟» — لنتفكر، من جهة أخرى، في الكورسيكي الذي يفرض عليه شرفه الأخذ بالثأر. هو أيضا لا يرغب أن تصيبه رصاصة بندقية، ولكن إمكانية فشله في إصابة الهدف، واحتمال إصابته هو برصاصة، لايمنعانه من تلبية نداء شرفه ... ألا نكون ونحن نقوم بأعمالنا اللائقة، وعن قصد، لامبالين بما قد تجره علينا ؟ فتفادي القيام بعمل قد تكون عواقبه مضرة بنا معناه الامتناع عن القيام بكل الأعمال اللائقة ...

ومع ذلك فهذا التعليم ذو قيمة كبيرة لأنه يجعلنا نخمن أن هناك نوعا إنسانيا: غريزة القطيع هي التي تتشكل من خلاله، — نحن متساوون، ونعامل بعضنا كمتساوين: أعاملك بمثل ما تعاملني به. إذا فهم يؤمنون هنا حقا بمساواة الأعمال التي لاتظهر في العلاقات الواقعية. من المستحيل الرد على كل معاملة بمثلها: فما بين «أفراد» حقيقين لا وجود لأعمال متماثلة، وبالتالي ليست هناك «مجازاة بالمثل» ... إنني لا أفكر بتاتا، حين أقوم بعمل ما، بأن رجلا آخر يستطيع القيام بنفس العمل: فما أقوم به يخصني أنا وحدي ... ولن يعاملني أحد بمثله أبدا، بل سيقوم في حقي بعمل «آخر».

442

ضد جون ستيوارت ميل. — أكره تلك العبارة السوقية القائلة: «ما يعجب البعض يناسب الآخرين»؛ «لا تعامل الآخرين بما لا تريدهم، إلخ»؛ التي تريد تأسيس العلاقات الإنسانية كلها على تبادلية الخدمات المؤداة، بحيث يبدو كل عمل كنوع من الأداء مقابل عمل نافع تمت الإستفادة منه. ها هنا تخلو الشروط الأولية من النبل، بالمعنى الدقيق للنبل؛ هنا نقضي بكون قيمة الأعمال الصادرة عنا متساوية؛ هنا يتم بكل بساطة إلغاء القيمة الشخصية لعمل ما (وهي قيمة لا يمكن تعويضها ولا تُوفِيَتُها). — «المعاملة بالمثل» شيء سوقي في جوهره؛ إن حالة كون العمل الذي أقوم به لا يمكن أن يقوم به غيري ولا يجب عليه ذلك هي التي تنفي وجود المساواة (ما عدا في محيط «المتساوين» المختار، بين الأنداد)، — وتجعلنا، بمعنى أكثر عمقا، لا نرد أي شيء، لأننا نحن أنفسنا لا نَحْدُثُ إلا مرة واحدة ولا نقوم بنفس الفعل إلا مرة واحدة، — هذا اليقين الأساسي هو الذي يكمن فيه سبب انعزال الأرستقراطية بعيدا عن العوام، لأن العوام يؤمنون بال «مساواة»، وبالتالي يؤمنون بالتعويض وال «معاملة بالمثل».

443

«اتباع الإحساس» — يستسلم المرء لشعور نبيل مخاطرا بحياته إثر اندفاع عاطفي ينتابه لحظة؛ ولكن هذا الأمر ذو قيمة ضئيلة ولا يمثل عملا نابعا من طبع المرء... والناس كلهم متساوون في قدرتهم على التصرف بهاته الطريقة، — أما في ما يتعلق بالقرار الضروري، فإن المجرم وقاطع الطريق والكورسيكي يتفوقون ولاشك على الإنسان الشريف.

سيبلغ المرء الدرجة الأعلى إن هو أمسك بزمام نفسه عند ذلك الاندفاع، وذلك حتى لا يقوم بالفعل البطولي إثر اندفاع عاطفي، — بل بكل هدوء، وبطريقة معقولة، دون أن تصاحب ذلك عاصفة من الإحساس باللذة ... نفس الشيء يقال عن الشفقة: يجب الاعتياد على غربلتها أولا بغربال العقل؛ وإلا فستكون خطيرة مثل باقي الأحاسيس الأخرى ...

الخضوع الأعمى لهوى ما، لايهم إن كان نبيلا وشفوقا أم عدوانيا، يكون دائما هو سبب الكوارث الكبرى.

وعظمة الطبع لا تقضي بعدم توفر المرء على هاته الأهواء، — يجب على العكس أن يتوفر عليها في أغلب درجاتها: بل أن يمسك بزمامها، ولكن دون أن يثير ذلك الإكراه لديه فرحة خاصة، بل فقط ...

444

محاربة ذلك المفهوم الذي تم تأنيثه، مفهوم «النبل»! إننا لا نستطيع الإستغناء عن قدر إضافي من الشراسة، ولا عن محاذاة الجريمة نوعا ما. لا يجب أن نبحث كذلك في النبل عن «الرضا عن النفس»؛ يجب أن نكون مغامرين، حتى مع أنفسنا، وجريئين، وهدامين. — لاشيء من الثرثرة التي تستعذبها النفوس المرهفة. — أريد أن أفسح المجال لمثل أعلى أكثر صلابة.

445

أريد كذلك أن أجعل الزهد طبيعيا أكثر: وأن يحل قصد التقوية بدل قصد النفي؛ رياضة للإرادة؛ إشاعة الصوم وحرمان النفس كيفما كانا، حتى في الميدان الروحي؛ ذِمامة الفعل بالنسبة للرأي الذي نكونه عن قوانا؛ تجربة المغامرت والأخطار التي نقبل عليها طوعا. (لم تكن العشاءات لدى مانيي تجمع سوى ذواقين فكريين نُكِبوا بِمَعِدات رديئة.) — علينا كذلك ابتكار اختبار لقوة الكلمة الموهوبة.

446

لا أرى كيف يمكن لشخص ما أن يعوض ما فقده إذا هو لم يصحب الأكفاء في الوقت المناسب. هذا إنسان لا يعرف نفسه؛ يعبر الحياة وهو لم يتعلم كيف يمشي؛ نخمن تراخي عضلاته عند كل خطوة. قد تكون الحياة شفوقة أحيانا بحيث تسمح للمرء من خلال المصاعب، باستدراك الزمن الذي فاته: قد يكون ذلك مرضا عضالا

سيتطلب، طيلة عدة سنوات، قوة إرادة كبيرة، مع الرضا بالنزر اليسير من الأوقات المرحة؛ أوفقرا مفاجئا يعرض للخطر الزوج، والزوجة والأبناء، ويجبره على ممارسة عمل يعيد الطاقة إلى الأعصاب المرتخية ويعيد إلى إرادة الحياة عنادها ... ويظل الإنضباط الصارم أفضل شيء يمكن أن يرغب فيه المرء، انضباط يأتي في الوقت المناسب، أي في السن التي يفخر فيها الإنسان إذ يرى أن ما يطلبه من نفسه كثير. لأن هذا هو ما يميز مدرسة المصاعب، باعتبارها مُرافَقَةً للأكفاء، عن كل ما سواها؛ يجب المطالبة بالكثير؛ يجب المطالبة بصرامة؛ القيمة، والإتقان، حتى في القيمة، مطلوبان كشيئين طبيعيين ؛ يجب أن يكون الثناء نادرا وينعدم التساهل ؛ يجب أن يكون التوبيخ صارما، مقتصرا على الواقعة، غير مراع للموهبة أو للأصل. مثل هذه المدرسة ضرورية بكل الإعتبارات: للجسد كما للعقل ؛ سيكون الفصل بينهما هنا وخيم العواقب نفس الانضباط يجعل العسكري والعالم بارعين، ولو تمعنا في الأمر لوجدنا أن كل عالم جيد يملك غرائز جندي جيد ... معرفة تولي القيادة، وكذلك معرفة الطاعة بإباء؛ الوقوف في مكانه وعند مرتبته، القدرة، في كل لحظة، على تولي القيادة؛ تفضيل الخطر على الرفاهية ؛ عدم تحديد ما هو مباح أو ممنوع بميزان البقال ؛ معاداة كل حقير، ومحتال، وطفيلي، أكثر من معاداة ما هو شر ... — ما الذي نتعلمه في مدرسة المصاعب؟ القيادة والطاعة.

447

للرجال الذين يخصونني أتمنى المعاناة، وتخلي الآخرين عنهم، والمرض، والعلاجات غير الناجعة، والهوان، — أتمنى أن يعرفوا الازدراء الكبير للنفس، وعذابات الشك في ذواتهم، وبؤس المهزوم: إني لا أشفق عليهم، فأنا أتمنى لهم ذلك الشيء الوحيد الذي يكشف اليوم ما إن كانت لشخص ما قيمة أم لا، —أعني : الصمود....

448

أحب البؤساء الذين يخجلون من بؤسهم، الذين لا يفرغون في الأزقة أوعيتهم المليئة بؤسا ؛ الذين يحتفظون في قلوبهم وعلى ألسنتهم بما يكفي من الذوق السليم ليقولوا لأنفسهم: « يجب الحفاظ على بؤسنا بشرف، يجب إخفاؤه»...

449

الوسائل التي يحافظ بها نوع قوي على نفسه:

الإستئثار بالحق في القيام بأعمال متميزة ؛ كمحاولات الانتصار على الذات والتحرر.

الدخول في أوضاع لا يسمح له فيها ألا يكون همجيا.

استخدام كل أشكال الزهد لتحقيق هيمنة وبلوغ يقين يناسبان قوة إرادته.

عدم التواصل مع الآخرين ؛ التزام الصمت؛ أخذ الحيطة من الطاقة.

تعلم الطاعة بحيث تصبح الطاعة دليلا على سيادة الفرد. الدفع بذِمامة النخوة إلى أقصى ذروة لها.

عدم استنتاج ما يلي أبدا : «ما يعجب البعض يناسب الآخرين»، — بل العكس !

اعتبار حق المعاملة بالمثل امتيازا، والتخلي عنه واعتبار ذلك تميزا خاصا.

عدم التوق إلى فضائل الآخرين.

450

ما هو الشيء النبيل ؟ — أن تجعل من تمثيل نفسك واجبا. أن تبحث باستمرار عن أوضاع تكون فيها في حاجة إلى اتخاذ مواقف. أن تترك السعادة للعامة، أقصد السعادة باعتبارها راحة للنفس، وفضيلة، ورفاهية، ودكان بِقالة أنجليزي — ملائكي على طريقة سبنسر. أن تبحث لك غريزيا عن مسؤوليات جسام. أن تسعى ليكون لك أعداء في كل مكان، حتى من نفسك. أن تواجه العوام، ليس بالأقوال، بل بالأفعال.

451

النخوة : مرتكزة على الإيمان ب «المجتمع الصالح»، ذي المزايا الإبائية بالأساس، والذي يفرض على المرء أن يمثل نفسه باستمرار. من الضروري ألا نعير أية أهمية لحياتنا الخاصة ؛ علينا أن نتمسك بآداب الاحترام التي نجدها لدى كل من تربطنا بهم

صلة مباشرة)على الأقل لدى أولئك الذين ليسوا جزءا منا نحن») ؛ على المرء منا ألا يكون ألوفا، ولا صافي النية، ولا فرحا، ولامتواضعا، ما عدا مع أنداده ؛ عليه دائما أن يمثل نفسه ...

452

ما العفة لدى الرجل ؟ أن يظل ذوقه الجنسي نبيلا ؛ أن لا يحب، جنسيا، لا الوحشية، ولا اللطف المتكلّف، ولا المكر.

453

المحارب والمسالمون . — هل لك غرائز المحارب ؟ وإن كنت كذلك تبقى أمامنا الإجابة على سؤال ثان : هل أنت، بالفطرة، محارب يهاجم، أم محارب يدافع ؟ وباقي الناس كلهم، كل من ليسوا محاربين، يريدون السلام، والوئام، والـ «حرية» ، «الحقوق المتساوية»: — فما هذه إلا كلمات تعني نفس الشيء ودرجات منه، — هؤلاء الناس يستاؤون من أنفسهم حين يجبرون على المقاومة : إنهم يريدون خلق أوضاع لن تعرف أي شكل من أشكال الحرب. بل يفضلون الخضوع، والطاعة، والتبعية بدل القيام بالحرب، — هذا ما تنصح به الغريزة المسيحية، على سبيل المثال. — لدى المحاربين بالفطرة نجد ما يشبه السلاح في الطبع، في اختيار الأوضاع، في تكوين كل المزايا : ال«سلاح» هو الأكثر تطورا لدى النوع الأول، والدفاع لدى النوع الثاني.

454

لو سألنا طفلا شجاعا وقويا : «هل تريد أن تكون فاضلا ؟ » لنظر إلينا بسخرية — ولو سألناه، «أتريد أن تصبح أقوى من زملائك ؟» لنظر إلينا بعينين واسعتين.

* * *

كيف نصبح أقوياء ؟ — أن نعزم بتأن ثم نعض بالنواجذ على ما عزمنا عليه. وكل ما تبقى يأتي بعد هذا.

الطباع الفجائية والطباع المتغيرة: صنفان لدى الضعفاء. يجب ألا نختلط بهم ؛ يجب أن نشعر بالمسافة — في الوقت المناسب !

احذروا السذج ! فمعاشرتهم تورثكم ضعفا. تكون المعاشرة طيبة حين نشحذ فيها الأسلحة الغريزية لدينا. المهارة تقتضي منا اختبار قوة الإرادة لدينا . . . فذلك هو ما يميزنا، وليست المعرفة أو الرقة أو العقل...

يجب أن نتعلم القيادة في الوقت المناسب، وكذلك الطاعة. يجب أن نتعلم التواضع، وفي الرقة في التواضع : أي أن نميز ونبجل الموضع الذي نكون فيه متواضعين : ويجب أن نميز ونبجل بثقة في النفس ...

* * *

مَّ يعاني المرء معاناة شديدة ؟ من تواضعه ؛ من عدم إنصاته لحاجته الخاصة ؛ من اختلاطه مع الآخرين ؛ من استصغاره لنفسه ؛ من غياب الدقة اللازمة لاتباع ما تنصح به الغريزة. — يعاني من عدم تبجيله لنفسه بمختلف الأضرار: الصحة، ورغد العيس، والأنفة، والرصانة، والحرية، والحزم، والشجاعة، ولاحقا لا يغفر لنفسه أبدا انعدام تلك الأنانية الحقيقية لديه : يستخدمها كحجة، ويشك في أناه الحقيقية...

455

ليست هناك أعمال «نزيهة» على الإطلاق. فالأعمال التي يكون الفرد فيها غير وفي لغرائزه ويقوم باختيار لا يكون في صالحه، هي أعمال تؤشر على الإنحطاط (لقد تم إقناع عدد كبير من أولئك الذي نسميهم «قديسيين»، وهم مشهورون جدا، بأن يكونوا منحطين، وذلك بسبب انعدام «الأنانية» لديهم —).

أفعال الحب والبطولة فيها «موضوعية» قليلة جدا، وهو ما يجعل منها دليلا على «أنا» قوية وغنية : ولا يجدر بالفقراء أن يتخلوا... كما أنهم عاجزون عن تلك الجرأة الكبيرة والفرحة المغامرة اللتين تشكلان جزءا من «البطولة». ليس الهدف هو «التضحية بالنفس»، بل تحقيق مشاريع لا ينشغل بعواقبها لا اندفاعكم ولا ثقتكم، وبالتالي لا تبالون بها ...

456

الأشكال النموذجية للأنا : أو الأسئلة الأساسية الثمانية. معرفة:

1- ما إن كنت تريد أن تكون متعددا أو بسيطا.

2- ما إن كنت تريد أن تصبح سعيدا أكثر أم لامباليا بالسعادة وبالتعاسة.

3- ما إن كنت تريد أن تصبح أكثر رضا عن نفسك أم أكثر تطلبا وأكثر قسوة.

4 - ما إن كنت تريد الشروع في الاستسلام، في أن تصبح إنسانيا أكثر، أم «لاإنسانيا» أكثر.

5 - ما إن كنت تريد أن تصبح أكثر حكمة أم كثر صرامة.

6 - ما إن كنت تريد تحقيق هدف واحد أم تفادي كل الأهداف (مثلما يفعل الفيلسوف الذي يشم في كل هدف حدا، وعزلة، وسجنا، وحماقة ...).

7 - ما إن كنت تريد أن تكون محترما أكثر، أم مُهاباً أكثر، أم محتقرا أكثر.

8 - ما إن كنت تريد أن تصير طاغية، أم مُغْوِياً، أم راعيا أم حيوانا في القطيع.

457

وجهات نظر قيمي أنا : هل الوفرة هي التي تقوم بالفعل أم الرغبة ؟ ... هل يظل المرء متفرجا، أم ينجز العمل بنفسه — هل ينظر إلى موضع آخر، أم يبتعد ؟ ... هل القوة المراكمة هي التي تقوم بالفعل، «تلقائيا»، أم فقط كرد فعل ، استجابة لتحريض ما ؟ هل تُسخِّر القوة لخدمتها، حين تكون في حاجة إلى ذلك، عناصر عديدة، بسبب افتقارها إلى العناصر، أم بسبب سيطرتها التامة على تلك العناصر العديدة ؟ ... هل المرء في حد ذاته مشكلة أم حل ؟ ... هل يبلغ الكمال حين تكون المهمة صغيرة، أم يشوبه النقص أمام الشيء ... هدف ما ؟ ... هل هو حقيقي، أم مجرد ممثل هزلي، هل هو حقيقي باعتباره ممثلا هزليا، أم هو مجرد مقلد لذلك الممثل، هل هو «ممثِّل» أم هو ممثَّل — ؟ هل هو شخصية أم موعد لأشخاص ... هل هو مريض بمرض ما، أم مريض بفرط الصحة ؟ هل يسير في المقدمة كراع أم ك «استثناء» (والنوع

الثالث سيكون نوع الجبان الذي يفر) ؟ هل هو في حاجة إلى الكرامة، أم عليه اعتبار نفسه مهرجا، وهل يسعى إلى المقاومة أم يتجنبها ؟ هل يعود كونه ناقصا إلى مجيئه «قبل الأوان« أم «بعد فوات الأوان» هل هو مُثْبِتٌ بطبعه أم نافٍ، أم هو ريش طاووس مزركش ؟ هل له من الأنفة ما لا يجعله يخجل ، حتى من غروره؟ هل لا يزال قادرا على تبكيت الضمير (— لقد بدأ هذا النوع يصبح نادرا: فيما مضى كانت هناك أشياء كثيرة يعضُّها الضمير : أما الآن فيبدو أنه لم تعد له أسنان كافية لفعل ذلك)؟ هل لا يزال قادرا على القيام بال«واجب» (— هناك من سيملون الحياة كلها لو حرمناهم من واجبهم، — خاصة جنس النساء، الذي خلق ليكون خادما ...)

458

أسئلة خاصة بالقوة فقط : كيف يستطيع المرء فرض شخصيته في تعارض مع ما يحافظ على يالمجتمع وعلى أحكامه االمسبقة ؟ — إلى أي حد يجب على المرء أن يطلق من عقاله مزاياه الرهيبة التي تبيد العامة ؟ — إلى أي حد يجب استقبال الحقيقة والاعتناء بالإشكالي فيها عناية خاصة؟ — إلى أي حد يجب استقبال المعاناة، واحتقار الذات، والشفقة، والمرض، والرذيلة، بالشك في قدرتنا على التغلب عليهم ؟ (— ما لا يقتلنا يقوينا ...) — وأخيرا : إلى أي حد يمكن إضفاء الصواب في ذاته على القاعدة، على الشيء الشائع، والحقير، والنزيه، والإنسان المتوسط، دون أن نصير بذلك من العامة ؟ ... أكبر دليل على قوة الطبع هو عدم ترك المرء إغراءات الخير تدمره. الخير باعتباره ترفا، وظرفا، ورذيلة ...

V

ديونيزوس

459

الارتقاء إلى ذروة، إلى منظور يجعلك تدرك أن كل شيء يتم تماما كما ينبغي له أن يتم : وكيف أن «النقص» بكل أشكاله والمعاناة التي يتسبب فيها يشكلان جزءا ممّا هو مرغوب للغاية ...

460

حوالي سنة 1876 ذعرت لرؤية ما كنت أريده قد صار في مهب الريح. وذلك حين أدركت قصد ڤاغنر : وقد ارتبطت معه ارتباطا وثيقا قوامه وحدة كبيرة في الرؤية، والاعتراف بالجميل، واستحالة تعويضه، والفقر المدقع الذي كنت أشاهده أمامي.

في نفس المرحلة تقريبا شعرت وكأنني قد حُبِسْتُ إلى الأبد في سجن فقه اللغة والأستاذية — الصدفة والسبيل الوحيد المتبقيين أمامي. — لم أعد أعرف كيف أتخلص من ذلك السجن، فقد كنت متعبا ومنهَكا.

آنذاك أدركت أن غريزتي تريد بلوغ عكس ما أراده شوبنهاور : تبرير الحياة، حتى في أفظع جوانبها، وأكثرها التباسا وكذبا : — ولبلوغ ذلك كانت لدي صيغة (ديونيسي».

لقد كان «الشيء في ذاته» لدى شوبنهاور يعارض كون «ذاتية الأشياء» طيبة، وربانية، وحقيقية، وواحدة بالضرورة، يعارضها بإثبات يجعلنا نخطو خطوة إلى الأمام. ولكن شوبنهاور لم يعرف كيف يؤله هذه الإرادة : فقد ظل مرتبطا بالمثل الأعلى الأخلاقي

والمسيحي. لقد كان تأثير القيم المسيحية عليه كبيرا إلى حد أنه حين لم يعد «الشيء في ذاته» يبدو له كـ «إله» أصبحت رؤيته منحرفة، أصبحت رؤية بليدة ومذمومة. ومالم يدركه هو أن هناك ما لا يُحصى من الطرق ليصير المرء مختلفا، بل ليصير إلها.

461

تشاؤم. — في البنية الداخلية للنفس، لدى الإنسان البدائي، تسود خشية الشر. فأي شيء هو الشر ؟ ثلاثة أشياء: الصدفة، واللايقين، والفجأة. كيف يحارب الإنسان البدائي الشر ؟ — يتصوره كعقل، أو قوة أوحتى كشخص. وبذلك يتوصل إلى إمكانية عقد نوع من الإتفاقية معه بل والتحرك قبله، — أعني التوقع.

— هناك وسيلة أخرى ، هي الزعم بأن الطبع الشرير والضار ما هو إلا ظاهر. يتم تفسير آثار الصدفة واللايقين والفُجأة بكونها مقصودة، بكونها تعج بالأدلة.

— الوسيلة الثالثة هي تفسير الشر الذي يصيبنا بكونه، قبل كل شيء، «مستحقا»، يتم تبرير الشر باعتباره عقابا ...

مجمل القول، يتم الاستسلام له. — ليس التفسير الأخلاقي والديني للشر إلا نوع من الإستسلام له. — فالاعتقاد أن هناك في الشر رُشْدا خفيا هو عدول عن محاربة الشر.

والحالة أن تاريخ الحضارة كله يمثل تناقصا في الخوف من الصدفة، من اللايقين ومما يحدث فجأة. معنى الحضارة الدقيق هو تعلم الحساب، والبحث عن الأسباب، والتوقع، و الإيمان بالحتمية.

وكلما تقدمت الحضارة صار بمقدور الإنسان أن يستغني عن هذا الشكل البدائي من الاستسلام للشر (الذي يسمى الأخلاق أو الدين)، عن هذا «التبرير للشر». ها هو الآن يحارب «الشر» — يقضي عليه. بل أصبحت ممكنة حالة اليقين، حالة الإيمان بالقوانين وبقالبية الأشياء للتقييم، قابلية لن تعود مثيرة للملل فقط — حالة تنبثق عنها كتحريض تلك اللذة التي تكون سبب الصدفة واللايقين والفجأة.

لنتوقف لحظة عند عرض الثقافة الراقية هذا، — أسميه تشاؤم القوة. لم يعد الإنسان الآن في حاجة إلى «تبرير الشر»، بل إنه يدين «التبرير» : إنه يستمتع بالشر خالصا وخاما، إنه يجد الشر الذي لا سبب له هو الأهم. إذا كان فيما مضى قد احتاج

إلى وجود إله فإنه اليوم مبتهج بفوضى عالمية لا رب يحكمها، بعالم الصدفة، الذي يشكل فيه المرعب والغامض والمغري جزءا من الجوهر نفسه ...

في هذه الحالة يكون الخير هو الذي يحتاج إلى «تبرير»، أي يجب أن تكون له خلفية شريرة وخطيرة، أو ينطوي على حماقة كبيرة : وحينها يستمر في إثارة الإعجاب. لم تعد الحيوانية تثير الرعب ؛ والاندفاع الروحي والموفّق الذي يؤيد الحيوان في الإنسان، في مثل هذه العصور، هو شكل الروحانية الظافر. لقد أصبح للإنسان من القوة الآن ما يجعله يخجل من الإيمان بالرب — وبمقدوره الآن أن يتظاهر بالدفاع عن الشيطان. وإن طالب عمليا بالحفاظ على الفضيلة فسيكون ذلك لأسباب تجعلنا نرى في الفضيلة حدة الذهن، والمكر، ونوعا من الجشع إلى الربح وإلى السلطة.

وتشاؤم القوة هذا يتحول في نهاية المطاف إلى علم الإلهيات، إلى إثبات مطلق للحياة — غير أنه سيتم الدفاع عن الحياة بنفس الحجج التي استخدمت ضدها في الماضي — ، وبالتالي إلى تصور هذا العالم على أنه أسمى مثل أعلى ممكن تم بالفعل تحقيقه.

462

لنتجنب إلصاق الرأفة البالغة بفكرة الرب — فهي غير جديرة بالرب. ولنتجنب وصفه بالحكمة السامية — فهي غرور الفلاسفة الذين تعذب ضميرهم حماقة بحر الحكمة الذي هو الرب: فهم يزعمون أنه يشبههم إلى حد كبير... !الرب هو القوة الأكبر — هذا يكفي! وعن هذا ينتج كل ما ينتج — «العالم»!

463

« لاءات» ي الخمسة

1- محاربتي للشعور بالذنب ولإدخال فكرة العقاب إلى العالم المادي والغيبي، وكذلك في علم النفس وفي تفسير التاريخ. يقيني أن كل الفلسفات والتقييمات قد تم حتى الان تلطيخها بالأخلاق.

2 - تحققي من المثل الأعلى الذي يحذو حذوه المثل الأعلى المسيحي وبحثي عنه، حتى هناك حيث تم محو آثار الشكل الوثوقي من المسيحية. يكمن خطر المثل الأعلى المسيحي في أحاسيس القيمة فيه، في كونه يستطيع الاستغناء عن التعابير الملموسة: محاربتي للمسيحية الخفية (الكامنة في الموسيقى مثلا، أو في الاشتراكية).

3- محاربتي للقرن الثامن عشر الذي هو قرن روسو، محاربتي «طبيعته»، و«إنسانه الصالح»، وإيمانه بهيمنة الإحساس، ـــ محاربتي لإضعاف الإنسان وتخليقه: ذلك المثل الأعلى الذي تولد عن بغض الثقافة الأرستقراطية والذي يعتبر، عمليا، هو هيمنة الحقد الهائج، الذي تم ابتكاره كراية حرب (ـــ أخلاقية الشعور بالذنب لدى المسيحي، أخلاقية الحقد، هي موقف الرعاع).

4- محاربتي للرومانسية والتي يلتقي فيها مثل المسيحية الأعلى مع مثل روسو الأعلى، ولكن مع الشعور، في ذات الوقت، بالحنين إلى العصور القديمة، إلى الثقافة الكهنوتية والأرستقراطية، إلى الـ « فضيلة»، إلى «الإنسان القوي»، ـــ إنه لشيء هجين للغاية؛ شكل مزيَّف ومزور من الإنسانية الأقوى التي تحترم، بشكل عام، الظروف القصوى وترى فيها علامة القوة («تقديس الهوى»؛ تقليد للأشكال الأكثر تعبيرية، التي أصلها هو الفقر وليس الإمتلاء).

ـــ (ومع ذلك فإننا نجد، في القرن التاسع عشر، أشياء نجمت عن امتلاء نسبي، عن إرادة مطلقة: الموسيقى الهادئة، إلخ.؛ من بين الشعراء نجد على سبيل المثال ستيفتر وغوتفريد كيلر[29] اللذين يرسلان إشارات دالة على قوة ورفاهية كبيرتين. ـــ الازدهار الكبير الذي عرفته العلوم والاختراعات العلمية، والعلوم الطبيعية، والدراسات التاريخية (؟)، ناتج، نسبيا، عن قوة القرن التاسع عشر وثقته في نفسه.)

5- محاربتي لهيمنة غرائز القطيع، وذلك بعد أن شاركها العلم مصالحها؛ ضد البغض الشديد الذي تقابل به كل أشكال التراتبية والفوارق.

464

قوة القرن التاسع عشر. ـــ نحن أكثر قروسطية من القرن الثامن عشر ولسنا فقط أكثر فضولا وحساسية نحو كل ماهو غريب ونادر. لقد ثرنا على الثورة...لقد تحررنا

من خشية العقل، العدو اللدود للقرن الثامن عشر: إننا نجرؤ من جديد على أن نكون غير معقولين، وطفوليين، وغنائيين، — باختصار، نحن «موسيقيون». إننا لا نخشى السخافة والعبث. يعتبر الشيطان تسامح الله شيئا يخدمه هو: بل من مصلحته أن يكون هو ذلك الذي افترى عليه ولم يقدًّر حق قدره منذ الأزل، — نحن هم من يحافظ على شرف الشيطان.

إننا لم نعد نفصل الشيء العظيم عن المرعب. ونجمع بين الأشياء الحسنة، في تعقدها، والأشياء القبيحة: لقد تجاوزنا «الأماني» غير المعقولة التي كانت لدينا فيما مضى (التي كانت تريد أن يزداد الخير دون أن يزداد الشر —). لقد تقلص جبننا أمام المثل الأعلى لعصر النهضة، — بل أصبحنا نجرؤ على التطلع إلى أخلاق ذلك العصر. كما أن عدم التسامح مع الرهبان ومع الكنيسة قد عرف نهايته في ذلك الوقت نفسه: «إنه لشيء لا أخلاقي أن نؤمن بالرب»، — ولكن هذا بالنسبة لنا هو الصيغة الفضلى لتبرير هذا الإيمان.

لقد منحنا لكل هذا حقوق المواطنة عندنا. إننا لا نخشى الوجه السيء لـ« الأشياء الحسنة» (— نبحث عنه، ونملك من الشجاعة والفضول ما يكفي لذلك)، ففي عقل اليونان، مثلا، وفي الأخلاق، وفي العقل، وفي الذوق السليم (— نتأكد من الضرر الذي قد نلحقه بأنفسنا من خلال هذه الأشياء الثمينة: نصبح شبه فقراء —). كما لا نخفي عن أنفسنا الوجه السيء للأشياء القبيحة...

465

مايشرفنا. — إن كان هناك شيء يشرفنا فهو كوننا أضفينا الجدية على كل شيء: فنحن نولي أهمية لكل الأشياء الحقيرة، التي تم احتقارها عبر كل العصور وتهميشها، — ومقابل ذلك نمنح «المشاعر الجميلة» مقابل ثمن زهيد.

هل هناك ضلال أخطر من احتقار الجسد؟ وكأن العقلانية لم يُحكم عليها، بفعل هذا الضلال، بأن تصير مريضة، لم يُحكم عليها بأبخرة «المثالية»!

كل ما تخيله المسيحيون والمثاليون لا أول له ولا آخر: نحن أشد فعالية منهم. لقد اكتشفنا «العالم الأصغر» الذي يحسم أمر كل شيء وفي كل مكان...

رصيف الأزقة، والهواء النقي في الغرفة، والغذاء المقدَّر حسب قيمته؛ لقد أخذنا مأخذ الجد كل ضروريات الحياة ونحتقر كل مواقف «المدّعين» كنوع من «الحماقة» و«الطيش». لقد أصبح كل ما كان محتقرا حتى الآن يحتل المقدمة من حيث الاعتبار.

466

عوض « الإنسان ابن الطبيعة» الذي قال به روسو اكتشف القرن التاسع عشر صورة حقيقية للإنسان، — لقد كانت له الجرأة على القيام بذلك الاكتشاف... مجمل القول أنه قد تمت بهذا العودة إلى الفكرة المسيحية عن «الإنسان». الشيء الذي لم يجرؤ عليه القرن التاسع عشر هو قبول هذا «الإنسان بامتياز» واعتباره ضمانة لمستقبل الإنسان. كما أنه لم يجرؤ على فهم ازدياد الطبع المخيف لدى الإنسان كظاهرة تصاحب نمو الثقافة؛ وهو في هذا خاضع للمثل الأعلى المسيحي، وينحاز إلى جانبه ضد الوثنيه، وكذلك ضد الفضيلة، كما يراها عصر النهضة. ولكننا لن نعثر على مفتاح الثقافة بهاته الطريقة، وعمليا نظل عند تزييف التاريخ لصالح «الإنسان الصالح» (وكأنه هو وحده من يمثل تقدم الإنسانية) ولصالح المثل الأعلى الاشتراكي، أي لصالح بقية المسيحية وروسو في عالم لم يعد مسيحيا.

محاربة القرن الثامن عشر: لقد تلقى شر هزيمة على يد غوته ونابليون. حتى شوبنهاور يحارب القرن الثامن عسر؛ ولكنه يعود إلى القرن السابع عشر عن غير قصد، — إنه باسكال معاصر، يحمل تقييمات باسكالية، ولكن مجردة من المسيحية.

فشوبنهاور لم يكن لديه من القوة ما يكفي ليقوم بإثبات جديد. نابليون: الرباط الحميم والضروري بين الإنسان الراقي والإنسان المخيف. الـ«إنسان» وقد أعيد إلى أصله؛ ضريبة الاحتقار والخوف المستحقة وقد أعيدت للمرأة، الـ«كلية»، باعتبارها صحة ونشاطا ساميا؛ الخط اليميني والأسلوب الرفيع في القيام بالفعل وقد تم اكتشافهما من جديد؛ الغريزة الأقوى التي تثبت الحياة نفسها، غريزة السيادة.

467

أهم أصناف التشاؤم

تشاؤم الحساسية (التهيجية مع هيمنة أحاسيس الكدر)؛

تشاؤم «الإرادة العبدة» (وبعبارة أخرى ضعف قوة توقيف المنبهات)؛

تشاؤم الشك (الخوف من كل ماهو ثابت، من كل مايجب الإمساك به أو لمسه).

يمكننا أن نلاحظ في مستشفيات المجانين تلك الحالات النفسية التي تصاحب هذه الأصناف، وإن كانت تتسم بنوع من المبالغة. وكذلك الـ «عدمية» (الشعور بالـ«عدم» الذي يخالج الأعماق).

ولكن أين يجب أن نضع التشاؤم الأخلاقي عند باسكال؟[30] والتشاؤم الميتافزيقي في فلسفة ڤيدانتا؟[31] والتشاؤم الاجتماعي عند الفوضوي (أو عند شيلي)؟ وتشاؤم الشفقة (مثلما هو عند تولستوي أو ألفريد دو ڤينيي)؟

أليست هذه كذلك ظواهر للانحلال والمرض؟... والأهمية القصوى التي تعطى للقيم الإجتماعية، لأوهام الماوراء، للكوارث الإجتماعية، وللمعاناة بشكل عام، وكل مبالغة من هذا النوع فيما يتعلق بوجهة نظر خاصة تعتبر علامة على المرض. وكذلك هيمنة النفي على الإثبات.

ما لا يجب تأويله هنا تأويلا خاطئا هي تلك الفرحة التي نجدها في قول لا، في التصرف بما يفيد لا، حين يكون ما يقودنا هو قوة رائعة، هو ذلك التوتر الكبير الذي هو توتر الإثبات، — ويعتبر هذا من مميزات الرجال الأقوياء والعصور القوية. إن ما يقف في وجه المرعب هو الترف نوعا ما،وكذلك شكل من أشكال الشجاعة؛ الجانب الديونيسي في الإرادة والعقل والذوق هو الإنجذاب نحو المرعب والإشكالي، لكون المنجذب نفسه. صحبة أشياء أخرى كثيرة، مرعبا وإشكاليا.

468

عن الضغط الذي يولده الامتلاء، وعن توتر القوى التي تتنامى فينا باستمرار، ولم نعرف بعد كيف نستخدمها، تتولد حالة أشبه ما تكون بالحالة التي تسبق العاصفة:

وتصبح الطبيعة التي هي نحن معتمة. وهذا أيضا تشاؤم... والعقيدة التي تضع حدا لهذه الحالة بإصدار تعليم ما: قلب القيم الذي من خلاله ندل القوى المراكمة على سبيل ، على وجهة، بحيث تبدأ في التشظي والتحول إلى بروق وأعمال، — هذه النظرية لاتحتاج لأن تكون نظرية للسعادة: فهي بتحريرها لجزء من تلك القوة التي تمت مراكمتها والسمو بها إلى حد المعاناة تجلب السعادة.

469

ما تريده منا مهمة الثقافة هو أن نجعل كل ما يثير الرهبة في خدمتنا، جزءا فجزءا، وخطوة فخطوة ومن خلال التجربة؛ وإلى أن تصير هذه الثقافة قوية بما فيه الكفاية فإنه يجب عليها أن تحارب المخيف، وتلطفه، وتلبسه قناعا، بل وتلعنه...

إذا ما أخذت الثقافة الشر بعين الإعتبار، حيثما كانت، فإنها تعبر عن خوفها منه، وبالتالي عن ضعفها...

قضية: كل ما نعتبره خيرا هو شر كان فيما مضى فاستعبدناه الآن. إجراء: كلما كانت كبيرة ومخيفة تلك الأهواء التي يمكن لعصرما، أو شعب، أو فرد، أن يجيزها لنفسه لكونه يستطيع استخدامها كوسائل، كلما كانت له ثقافة من طراز رفيع. — وكلما كان الإنسان ضعيفا، وحقيرا وجبانا، كلما عانى من الشر: فمملكة الشر لديه هي أكثر الممالك اتساعا. الإنسان الأكثر دناءة يرى مملكة الشر في كل مكان (أي مملكة ما هو محرم عليه ومُعَادٍ له).

470

الإنسان هو المِسخ والفَوْحيوان؛الإنسان الراقي هو المِسْح الإنساني، هو الفوإنسان: ويجب أن يكون الأمر كذلك. عند حصول أي نمو في الإنسان يزيد من عظمته ورفعته، فإنه يزيد هو كذلك من عمقه ومن طبعه المخيف: لا يجب أن نريد شيئا دون الآخر، أو بالأحرى: كلما كان طموحنا كليا لبلوغ أحدهما، كلما كان تحقيقنا للآخر كليا.

471

مرحلة يبعث فيه الرياء والتصنع الأخلاقي على الاشمئزاز؛ يتم فيها البحث عن الطبيعة مجردة من كل القشور؛ يتم فيها اعتبار كميات القوى حاسمة (محددة للمرتبة الاجتماعية)؛ ويعود فيها الأسلوب الرفيع للظهور كنتيجة للعشق الكبير.

472

لا أريد الحط من قيمة الفضائل المحبوبة، ولكن سمو النفس لا ينسجم معها. في الفنون يستبعد الأسلوب الرفيع حتى الشيء الممتع.

473

يشكل الطبع المخيف جزءا من العظمة: لذا يجب ألا ننخدع به.

474

كخلاصة أقول بأنه يجب أن نسيطر على أهوائنا لا أن نضعفها أو نستأصلها! — فكلما كان تحكمنا في الإرادة كبيرا كلما صار بمقدورنا أن نمنح الأهواء حرية أكبر.

يكون «العظيم» عظيما باللعب الذي يترك رغباته تمارسه وبالقوة الكبيرة جدا التي تعرف تلك الوحوش الرائعة التي هي رغباته كيف تستخدمها.

«الرجل الصالح»، في كل مستويات الحضارة، حليم ونافع: نوع من الحد الوسط؛ يقول عنه الوعي العامي بأنه إنسان لانحتاج إلى الخوف منه ولا يجب علينا مع ذلك احتقاره...

التربية هي بالأساس تلك الوسيلة التي ندمر بها الاستثناء لصالح القاعدة. والحضارة هي بالأساس تلك الوسيلة التي نوجِد بها الذوق ليكون ضد الاستثناء، لصالح الطبقة المتوسطة.

فقط حين يكون في خدمة الثقافة فائض من القوة يصير بإمكانها أن تصبح دفيئة لديانة الترف، والاستثناء، والمحاولة، والخطر، والفرق الضئيل: — وكل ثقافة أرستقراطية ترمي إلى هذا.

475

التراتبية. ما هو مكمن الضعف لدى الإنسان — النموذج؟ — هو عدم إدراكه أن الوجه السيء للأشياء ضروري، ومحاربته سلبيا وكأنه بالإمكان الاستغناء عنها؛

عدم إرادته قبول الشيء مع الشيء الآخر؛ إرادته محو الطابع المميز لشيء ما، لوضع ما، لمرحلة ما، لشخص ما، بقبوله فقط جزءا من مزاياهم وإرادته إلغاء المزايا الأخرى. « أماني » الضعفاء هو ما نحاربه نحن: المثل الأعلى منظورا إليه كشيء نجرده من جانبه الضار، والخبيث، والخطير، والإشكالي، والهام. لدينا اليقين المضاد: كلما صار الإنسان عظيما، كلما كبر الجانب الآخر من مزاياه ولاشك، بحيث أن الإنسان الأسمى، إذا سلمنا بكون هذا التصور مقبولا، سيكون هو من يمثل، وبشكل كبير، طابع المعارضة في الوجود، نظرا لكونه هو مجدْ الحياة وتبريرها الوحيد... وليس للناس العاديين الحق في تمثيل سوى جزء ضئيل من طابع الطبيعة هذا: إنهم يهلكون بمجرد ما تتزايد تعددية العناصر ويصير توتر المعارضات شديدة الحد، وإن كان هذا هو ما يشكل الشرط الأساسي لعظمة الإنسان. يجب على الإنسان أن يصير أفضل وأكثر شرا، هذه صياغتي لهذا الشيء الذي لا مفر منه.

كل الناس تقريبا يتصورون الإنسان مكونا من أجزاء ومن قطع؛ وبجمع هاته القطع المختلفة نحصل على الإنسان. وبهذا المعنى يكون في عصور بأكملها، وفي شعوب برمتها، شيء مجزأ؛ ربما يكون من خصوصيات الاقتصاد، في التطور الإنساني، أن يتطور الإنسان جزءا فجزءا. ولكن هذا لا يبرر نسيان أن الأمر يتعلق، رغم ذلك، بتكوين الإنسان القادر على التركيب؛ أن الناس الأدنون، أي الأغلبية الساحقة، ماهم إلا تمرين ومقدمة يتمكن انسجامهما، هنا وهناك، من تشكيل الإنسان الكامل، الانسان الذي يشير كاللوحة الكيلومترية إلى التقدم الذي حققته الإنسانية حتى اليوم. لا يتم تقدم الإنسانية دفعة واحدة؛ وغالبا ما يتم من جديد ضياع ذلك النموذج الذي تم بلوغه -(فرغم المجهودات التي بذلناها طيلة ثلاثة قرون لم نتمكن من تحقيق إنسان عصر النهضة مرة أخرى، كما أن إنسان عصر النهضة ظل متأخرا عن إنسان العصور القديمة).

476

سبيلي الجديدة المؤدية إلى «نعم». — الفلسفة، مثلما عشتها وعرفتها حتى الآن، هي البحث طواعية عن الجوانب المكروهة والدنيئة، ومن خلال التجربة الطويلة

التي اكتسبتها من التجوال عبر الأراضي الجليدية والصحراء تعلمت أن أنظر بطريقة مخالفة إلى الذين تفلسفوا حتى الآن: — وقد ساعدني على ذلك تاريخ الفلسفة ونفسية الأسماء الكبيرة التي أطلقت عليه. «كم من حقيقة تتحمل عقلا، وكم من حقيقة تجرؤ عليه؟» — الجواب على هذا السؤال أعطاني الوزن الحقيقي للقيمة. الخطأ جبن... والبحث عن المعرفة يصدر عن الشجاعة، عن قسوة المرء على نفسه... وهذه الفلسفة التجريبية، مثلما عشتها أنا، تستبق، من خلال المحاولة، حتى إمكانيات العدمية من حيث المبدأ: دون أن يعني ذلك أنه بإمكانها التوقف عند النفي، أو الرفض، أو إرادة النفي. بل إنها تريد النفاذ إلى العكس — إلى إثبات ديونيسي للعالم، مثلما هو، دون حذف أو استثناء أو اختيار ـ إنها تريد الحركة الدائرية الأزلية: نفس الأشياء، ونفس لا معقولية التسلسل. أسمى حالة يمكن أن تبلغها فلسفة ما: أن تكون ديونيسية في وجه الحياة. وأصوغ هذا في الحب القدري.

لهذا يجب اعتبار جانب الوجود الذي ظل منفياحتى الآن ليس كشيء ضروري فقط، بل كشيء مرغوب: وليس فقط مرغوبا بالنسبة إلى جانب تم إثباته حتى الآن (تقريبا كمكمّل وكشرطه الأساسي)، بل بسببه هو، نظرا لكونه هو الأقوى، والمهاب أكثر، والحقيقي أكثر في الوجود، هو الجانب الذي تتجلى فيه إرادةالحياة بدقة.

يجب كذلك أن نقيم جانب الحياة الذي تم إثباته وحيدا حتى الآن: وفهم مصدر هذا التقييم وقلة دعوته إلى تقدير ديونيسي للوجود: لقد أبرزت هنا وفهمت ذلك الشيء الذي يثبت بشكل عام (غريزة المعانين من جهة، وغريزة القطيع من جهة أخرى، وغريزة ثالثة، غريزة الجمهور ضد الإستثناءات —).

وهكذا خمنت كيف سيكون على نوع أقوى من الرجال أن يتخيلوا، بالضرورة، السمو بالإنسان والرقي به في اتجاه آخر؛ تخيل كائنات راقية تتواجد ما و راء الخير والشر، ماوراء القيم التي لا تستطيع إنكار أصولها؛ دائرة المعاناة ودائرة القطيع والجمهور، ـولقد بحثت عن معطيات هذا التشكيل للمثل الأعلى بالعودة إلى الوراء عبر التاريخ (الصفات «وثني» و«كلاسيكي» و«نبيل» وقد اكتُشفت من جديد وسلطت عليها الأضواء —).

477

لقد جُبْتُ دائرة النفس الحديثة وتوقفت عند كل زاوية من زواياها، ـ ذلك هو فخري، وعذابي وسعادتي.

ولقد تجاوزت التشاؤم حقا؛ والنتيجة كانت نظرة غوتية مفعمةً بالحب وبحسن النية.

478

ليس السؤال الأول هو أن نعرف ما إن كنا راضين عن أنفسنا، بل ما إن كان هناك شيء نرضى عنه. إذا قلنا «نعم» لحظة واحدة فإننا نكون قد قلنا «نعم» ليس لأنفسنا فقط، بل للوجود كله. لأنه ليس هناك شيء معزول، لافينا، ولا في الأشياء: ولئن اهتزت نفسنا من فرط السعادة و تردد صداها كأوتار القيثارة، ولو مرة واحدة، فقد تطلب الأمر كل الآباد لتثير ذلك الحدث الوحيد، وفي هاته اللحظة الواحدة من إثباتنا تم قبول الآباد كلها وتحريرها وتبريرها وإثباتها.

479

الأهواء التي تقول «نعم». ـ الأنفة، الفرحة، الصحة، حب الجنسين، العداوة والحرب، التبجيل، المواقف الحسنة، السلوك الحسن، الإرادة القوية، انضباط العقلانية الراقية، إرادة القوة، الاعتراف بالجميل للأرض وللحياة ـ كلك ما هو غني ويريد العطاء، ومكافأةالحياة، وطلاءها بالذهب، وتخليدها وتأليهها، ـ قوة الفضائل التي تغير- كل ما يقبل، ويثبت ويتصرف بدافع الإثبات.

480

وكم من آلهة جدية لا تزال ممكنة !... حتى أنا الذي تتحرك في الغريزة الدينية، أي الخالقة للإله، أحيانا بشكل لاراهني، كم تجلى في الرباني بطريقة مختلفة في كل مرة ! ـ هناك الكثيرمن الأشياء الغريبة التي مرت أمامي فيما مضى، في تلك

اللحظات الواقعة خارج الزمن والتي تقع على الحياة وكأنها آتية من القمر، والتي لا ندرك فيها مدى شيخوختنا ولا مدى قدرتنا على أن نظل شبابا... إنني لا أثير الشك حول وجود أصناف كثيرة من الآلهة... ولا تنقصنا تلك الآلهة التي لا نستطيع تخيلها دون نوع من الألسيونية والطيش... وربما تكون الأرجل الخفيفة هي نفسها من صميمم فكرة الـ «إله»... هل من الضروري أن نفسر كون الإله يفضل أن يضل بعيدا عن طيبة القلب وعن كل ما يوافق العقل؟ وبعيدا كذلك، نقول هذا في ما بيننا، عن الخير والشر؟ إنه حر في أن يبصر ما يريد - حتى نتكلم لغة غوته. - ولنستند إلى زرادشت الذي لا نستطيع أن نقدره عاليا في هاته ا لحالة: فهو يذهب إلى حد قوله في حق نفسه بإثبات: «إنني لن أستطيع الإيمان إلا بإله يعرف كذلك كيف يرقص...».

مرة أخرى أقول: كم من آلهة جديدة لا تزال ممكنة! صحيح أن زرادشت ما هو إلا ملحد عجوز لا يؤمن بالآلهة القديمة ولا بالآلهة الجديدة. يقول زرادشت أنه سيفعل... ولكن زرادشت لن يفعل ... يكفي أن نفهمه جيدا.

481

وكم من مثل أعلى جديد لا يزال ممكنا! - إليكم مثلا أعلى صغيرا أدركه مرة كل خمسة أسابيع، أثناء نزهة أقوم بها وحيدا في طبيعة بكر، أثناء لحظة سعادة تجديفية. أن يقضي الإنسان حياته وسط الأشياء الناعمة وغير المعقولة؛ غريبا عن الواقع؛ نصفه فنان، ونصفه طائر وميتافزيقي؛ دون أن يقول للواقع نعم أولا، اللهم إلا إذا كان ذلك من أجل أن يتعرف عليه من حين لآخر، على طريقة الراقصين الجيدين على رؤوس الأصابع؛ يدغدغه دائماشعاع شمس السعادة ؛ تشجعه المصيبة و تثير فيه الحيوية - لأن المصيبة تحافظ على الإنسان السعيد - ؛ ملْصِقاً في مؤخرة أقدس ما هنالك ذيلا مضحكا : - بديهي أن هذا المثل الأعلى هو مثل عقل ثقيل، عقل يزن قنطارا، مثل الثّقَل[32].

من المفهوم أن الرجال النادرين والمتفوقين هم وحدهم من يبلغ الأفراح الإنسانية السامية والشامخة، بينما الوجود يحتفل بتغيره: وذلك بعد أن عاش أسلافهم حياة

طويلة ممهدة لذلك الهدف الذي كانوا يجهلونه. وهكذا تجتمع في إنسان واحد ثروة فياضة من القوى المتعددة، بكل مودة، وأخف قوة من قوى «الإرادة الحرة» والاعتبار المطلق؛ فيشعر العقل حينها بالراحة وبأن الحواس بيته، تماما كما تشعر الحواس بالراحة وبكون العقل بيتها؛ وكل ما يجري فيه يجب أن يسري فيها، في إطار لعبة دقيقة ورائعة. وأن يحدث العكس كذلك ! ـ لنتفكر في هذا العكس الذي نجده في أعمال حافظ؛[33] وحتى غوته يعطينا فكرة عن هذه الظاهرة، وإن كان ذلك بطريقة مخفّفة. من المحتمل، لدى مثل هؤلاء الرجال الكاملين والناجحين، أن تقوم بتجميل الألعاب الأكثر شبقية نشوة الرموز التي هي من خاصيات العقلانية الرفيعة؛ إنهم يشعرون بنوع من تأليه الجسد، وهم أشد ما يكونون بعدا عن الفلسفة الزهدية القائلة بأن «الله عقل»: وهو ما ينتج عنه بوضوح كون الزاهد إنسانا «فاشلا» لايقبل إلا جزءا من نفسه، وتحديدا ذلك الجزء الذي يصدر الحكم ويدين والذي يسميه «الإله». من أعلى قمة الفرح هذه، التي يشعر فيها الإنسان بذاته كإنسان، شعورا كاملا، مثل شكل مؤله ومثل تبريرر للطبيعة، إلى فرحة الفلاح المتمتع بصحة جيدة، هذا المخلوق المعافى الذي نصفه إنسان ونصفه حيوان: سلم السعادة هذا، هذه الدفقة من النور واللون، أطلق عليها الإغريقي، وهو تعتريه قشعريرة العرفان التي تعتري من تم إطلاعه على سر، ومتخذا احتياطا كبيرا وملتزما صمت الأتقياء ـ أطلق عليها ذلك الإسم الرباني الذي هو ديونيزوس. ـ فما يعرف رجال العصور الحديثة، أبناء مرحلة هشة، ومتعددة ومريضة وغريبة، ماذا عساهم أن يعرفوا عن مدى السعادة لدى الإغريق !أين سيبحث عبيد «الأفكار الحديثة» لأنفسهم عن الحق في الأعياد الديونيسية!

أثناء «ازدهار» الجسد والروح الإغريقيين، ليس من خلال حالات التحميس والجنون المرضي، ظهر هذا الرمز الغامض الذي هو رمز إثبات العالم وتجميل الوجود، وهو أرفع رمز تم بلوغه حتى الآن. هذا مقياس سيجعل كل ما يكبر منذ ظهوره يعد بالمقارنة معه شديد القصر والفقر والضيق. يكفي النطق باسم «ديونيزوس» أمام أفضل الأسماء والأشياء الحديثة، أمام غوته مثلا، أو بتهوفن، أو شكسبير، أورافائيل، لندرك توا أن أفضل ما لدينا قد صدر عليه الحكم. ديونيزوس قاض! —— هل فهمتموني؟

ــــ مما لا ريب فيه أن الإغريق قد حاولوا توظيف تجاربهم الديونيسية في تفسير آخر ألغاز «مصائر الروح»، وكلّ ما كانو يعرفونه عن التربية وعن تطهير الإنسان، وقبل كل ذلك الترابية المطلقة وعدم تساوي قيمة الناس. كل ما هو إغريقي هنا هو العمق الكبير، هو الصمت الكبير، ــــ إننا لا نعرف الإغريق ما دام هذا المَنْفَذُ الخفي مسدودا. وعيون العلماء المتطفلة لن ترى أبدا أي شيء في مثل هذه المسائل، مهما يكن مقدار العلم الذي عليهم توظيفه في تلك التنقيبات. إن في ا لحماس النبيل لأصدقاء العصور القديمة، مثل وينكلمان وغوته، شيء مستهجن وبذيء. علينا بالانتظار والاستعداد ؛ انتظار انبثاق ينابيع جديدة؛ والاستعداد في الوحدة لرؤى وأصوات غريبة ؛ والاستمرار في تطهير النفس من غبار وضجيج معرض هذا العصر؛ وتجاوز كل ما هو مسيحي بكل ما هو فَوْمَسِيحي، وليس الاكتفاء بالتخلص منه، لأن العقيدة المسيحية جاءت نقيضا للعقيدة الديونيسية ـ ؛ إعادة اكتشاف الجنوب، ومد سماء الجنوب الصافية، البراقة والغامضة، فوقنا، الفوز من جديد بالصحة الجنوبية وبقوة الروح الخفية؛ توسيع مدى أفقنا أكثر فأكثر، أن يصبح المرء منا متجاوز للقومية، أوربيا، متجاوزا لأوربيته، شرقيا، إغريقيا في نهاية المطاف ــــ لأن العنصر الإغريقي كان هو الرابط الأول، هو أول تركيبة لكل ما هو شرقي، ومن ثمة كان هو بداية الروح الأوربية، واكتشاف «العالم ا لجديد» الذي هو عالمنا. ــــ والذي يحيا خاضعا لمثل هاته الأوامر، من يدري ماسيلقاه يوما ؟ ربما يكون ماسيلقاه بالتحديد ــــ يوما جديدا !

483

النموذجان : ديونيزوس والمصلوب. ــــ تحديد ما إن كان الإنسان المتدين النموذجي شكلا من أشكال الانحطاط (فكل المجددين الكبار مرضى ومرضى بالصرع). ــــ ولكن لا ننسين أحد نماذج الانسان المتدين، النموذج الوثني ؟ أليس النموذج الوثني عرفانا للحياة وإثباتا لها ؟ ألا ينبغي لأسمى نموذج وثني أن يقدم تبريرا للحياة ويؤلهها؟ نموذج عقل ناجح ومفعم بالنشوة ! نموذج عقل يستقبل تناقضات الحياة ومشاكلها ويحلها ! في هذا المقام أضع ديونيزوس الإغريق : الإثبات

الديني للحياة كاملة، غير منبوذة ولا مجزأة — (إنه لشيء مميز أن يثير الجماعي أفكارا حول العمق وا لغموض والاحترام).

ديونيزوس ضد الـ «مصلوب»: هذا هو التعارض. ليس هناك فرق في ما يتعلق بالذي يتم تعذيبه — غير أن المعذّب يصير له معنى آخر. فالحياة نفسها، بطابعها المخيف على الدوام وعودتها الأبدية، تستلزم القلق، والهدم، وإرادة الهدم... وفي الحالة الأخرى، تكون المعاناة، يكون «المصلوب البريء» حجة ضد هذه الحياة، يكون صيغة إدانة لها. نخمن ذلك : المشكلة هي في الدلالة التي سنعطيها للمعاناة: هل نعطيها معنى مسيحيا أم تراجيديا... في الحالة الأولى يجب أن تكون المعاناة هي تلك السبيل المؤدية إلى حياة مقدّسة، وفي الحالة الأخرى تبدو الحياة نفسها مقدّسة بما يكفي لتبرير وحش المعاناة. يقول الإنسان التراجيدي «نعم»حتى في وجه المعاناة الشديدة : يؤهله لذلك قوته الكبيرة وغناه الوافر وتأليهه للحياة؛ والإنسان المسيحي يقول «لا» حتى في وجه أسعد قدر على وجه الأرض : فضعفه وفقره وحرمانه يجعلونه يعاني من الحياة بكل أشكالها... الرب المصلوب لعنة للحياة، وإشارة إلى التخلص منها. وديونيزوس الممزق إربا هو مأثرة الحياة، إنه سيعود إلى الحياة باستمرار وينبعث من الدمار.

هوامش الكتاب

1 - الطهريون (Puritains) طائفة دينية بروتستانية تأسست في أنجلترا في عهد إليزابيث الأولى وبداية حكم عائلة ستيوارت، وتتميز بالتقشف والإلتزام الصارم بالأخلاق، كما حاولت إلغاء التراتبية داخل الكنيسة. ونتيجة للاضطهاد هاجر عدد من أتباعها إلى أمريكا الشمالية هروبا بعقيدتهم.

2 - agnosticisme : اللاأدرية عقيدة ترى أنه لا جدوى من الميتافزيقا وأنه من المستحيل معرفة العقل الإنساني لجوهر الأشياء.

3 - Port Royal : اسم لدير خاص بالنساء، تأسس سنة 1204. وبدءا من 1635 كان معلمهن الروحي هو القديس سيران، صاحب جانسينيوس، وبذلك أصبحن طرفا في المعارك الجنسينية التي لعب فيها دورا مهما نساك مثل أرنو، نيكولا، لانسلو، هامون، إلخ. وبعد 1637 أنشأن عدة مدارس صغيرة في الدير، وراسين واحد من تلاميذهن، كما كان لهذا الدير تأثير كبير على باسكال. وفي 1656 بدأ اضطهاد السلطات السياسية لهذا الدير إلى أن تم إغلاقه ثم تدميره سنة 1710.

4 - الفييري (1749 - 1803) (Alfieri) شاعر مسرحي إيطالي تغنى بالحرية في مسرحياته المستوحاة من العصر الإغريقي: أنتيجونة (1779)، أكاميمنون (1783).

5 - المركنتيلية (mercantilisme)، مذهب اقتصادي شاع في أوربا في القرنين 16و 17بعد تفسخ الإقطاع، وهو يقوم على كون المعادن الثمينة هي أفضل ما يجب أن تتكون منه ثروة الدولة. والمركنتيلي أصله mercante التي تعني التاجر في اللغة الإيطالية. ومنذ القرن الثامن عشر صار لهاته ا لكلمة معنى : جشع ومولع بالربح.

6 - القصيدة الغزلية الرعوية (Idylle) تتميز بالسرد والوصف. والكلمة معناها في اللاتينية صورة صغيرة، وقد ارتبطت بالشاعر الإغريقي ثيوقريط (ق 3 ق. م) الذي نظم قصائد حول

الحياة الريفية البسيطة في صقلية. وتطلق كذلك على القصائد الطويلة من هذا النوع، بل حتى على القطعة النثرية التي لها مزايا البساطة الريفية.

7 - الطب التجانسي (Homéopathie) هو علاج الأمراض بكميات ضئيلة جدا من المواد التي إن أعطيت للأصحاء بمقدار أكبر فإنها تثير نفس أعراض المرض المراد علاجه، ويعود العلاج بهاته الطريقة إلى أبقراط.

8 - Phénominalisme : الظواهرية، مذهب فلسفي يقول بأن الظواهر وحدها هي التي يمكن معرفتها، ويعود ظهور الكلمة إلى 1836. وكلمة Phénominalité طابع الظاهرة.

9 - الصناعية (indutrialisme) هي إعطاء الصناعة أهمية اجتماعية بالغة. ظهر هذا المصطلح في العشرينات من القرن 19.

10 - الرواية الطبيعية. الطبيعية (natutalisme) هي ذلك المذهب الفلسفي القائل بأن الطبيعة هي الحقيقة الوحيدة الموجودة، وينكر العالم الماورائي. والرواية الطبيعية هي التي تهدف إلى تصوير الواقع بموضوعية كبيرة، وهي أقل انتقائية من الرواية الواقعية، ولا تسمح للكاتب بتأويل هذا الواقع أو تفسيره. ويعتبر إميل زوالا هو منظّر الطبيعية الأدبية.

11- Walhall: مقر إقامة أودان (Odin) ، إله الحكمة والشعر والحرب في الميثولوجيا الإسكندنافية، حيث تجاوره في خلوده هناك أرواح الأبطال الذين ماتوا في الحرب، والتي تأخذها إليه رسولاته المسميات والكيريWalkyries.

12- التأسلية : (atavisme) ردة وراثية، بحيث تظهر إحدى صفات الأسلاف في أحد المنحدرين منهم بعد كمون قد يدوم عدة أجيال.

13- طانهاوزر Tannhauser (حوالي1205 - حوالي 1268) شاعر ألماني نظم قصائد غنائية وأغاني للرقص. قد أصبح أسطورة، بحيث خلده ڤاغنر في أحد أعماليه الموسيقية. وقد تاب أواخر حياته وذهب إلى روما للحصول على الغفران من البابا.

إيشنباخ (حوالي 1170- حوالي 1220) شاعر ألماني نظم عدة ملاحم غزلية، منها بارسيفال التي استوحى منها ڤاغنر أوبراه الغنائية التي تحمل نفس الإسم.

14- ألسيوني، نسبة إلى الألسيونية التي تعني عند نيتشه الروح المتوسطية المرحة مقابل روح الشماليين الباردة والثقيلة.

15. مذهب المتعة (hédonisme)، مذهب فلسفي يرى أصحابه أن البحث عن المتعة هو أساس الأخلاق، ومنهم أريستيب، تلميذ سقراط، الذي أسس المدرسة السيرينية التي ترى أن الانطباع الذاتي الناتج عن المتعة هو الخير الأسمى.

16. بيرون (Pyrrhon) فيلسوف إغريقي عاش في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، وهو أول من علم الشكوكية. فهو يرى أنه من المستحيل إدراك الحقيقة، فآراء الإنسان دائما يخالطها الخطأ، لذا من الأفضل عدم إصدار أي حكم. وبذلك يبلغ الإنسان الحكمة، التي تؤدي إلى طمأنينة النفس...

17. المدرسة الميغارية مدرسة فلسفية إغريقية أسسها أوقليدس في مدينة ميغار عند نهاية القرن الخامس ق.م، ومذهبها يستلهم مذهب زينون الإيلي وسقراط.

18. كلوبسطوك (1724 - 1803) شاعر ألماني من أعماله قصائد حول آلام المسيح على الصليب. هِردر (1744 - 1803) herder عالم لاهوت ألماني وفيلسوف وشاعر وناقد، من أعماله أغاني كل الشعوب. كان له تأثير كبير في الساحة الأدبية، إذ ساهم في حركة Sturm und Drang(العاصفة والاندفاع). وهي حركة أدبية وسياسية جاءت قبل الرومانسية، ظهرت حوالي 1770 ومارست تأثيرها في ألمانيا إلى حدود 1790 تقريبا، آخذة مكان Aufklarung (عصر الأنوار، عصر التجديد الفلسفي في ق. 18) ومشكلة ردة فعل ضد العقلانية. وأهم من تأثرت بهما هذه الحركة هما روسو وشكسبير. وقد ساهم فيها إلى جانب هردر، غوته، وشيلر، وڤاغنر. إلخ.

19. المركزية البشرية (anthropocentrisme) مذهب يجعل من الإنسان مركز الكون وغايته. ويعود ظهور الكلمة إلى سنة 1876.

20. الإلهيات (Théodicée) في الفلسفة هي تبرير العناية الإلهية الذي يرتكز على دحض الحجج المستمدة من وجود الشر. أما مثلما كانت تدرس في فرنسا، ما بين 1840 و 1880، كجزء من الفلسفة إلى جانب علم النفس والمنطق والأخلاق، فقد كانت تتناول وجود الله وصفاته وعلاقته بالبشر.

21. جون ستيوارت ميل(1806 - 1873) فيلسوف تجريبي وعالم اقتصاد أنجليزي، عرف بمنهج الاستقراء والاستدلال، ومنهج الأخلاق النفعية. كما كانت له انشغالات بالمسائل الاجتماعية، حيث كان يتعاطف مع الاشتراكيين ومع الحركة النسائية.

شومفور (Chamfort) ، (1740 - 1794) ، كاتب مسرحي فرنسي كتب كذلك في

الأخلاق. كان عضوا في الأكاديمية الفرنسية. اعتقل خلال مرحلة الرعب، وهي مرحلة دموية من الثورة الفرنسية ممتدة من شتنبر 1793 إلى يوليوز 1794 ، فانتحر.
لاروشفوكور (1613 - 1680) كاتب فرنسي، بعد عدة مغامرات في عالم السياسة، اختار الانضمام إلى جانب الملك (1653) ، وانقطع للحياة في أراضيه وشرع في كتابة مذكراته (1662). بعدها عاشر نساء كاتبات مثل لافاييط وسابلي وسيڤينيي. وفي سنة 1664 نشر كتابه الشهير «حِكَمٌ أخلاقية» باسم مستعار، لينسبه إلى نفسه صراحة في الطبعات اللاحقة. وقد ضمن له هذا الكتاب شهرة كبيرة كأخلاقي صارم يقارب تشاؤمه تشاؤم باسكال. وهو يرى أن حب الذات هو الدافع الأساسي لكل سلوكات الناس. وقد رفعه أسلوبه المتميز بالوضوح والإيجاز - الكتابة الشذرية - إلى مقام كبار الكتاب الكلاسيكيين الفرنسيين. ونيتشه معجب به كثيرا، وقد أشاد به في مواضع عدة من كتبه.

22 . Fantasmagorie : عرض يتم خلاله استخدام تقنية بصرية توهم المشاهد بأنه يشاهد أشباحا، وقد كثر الإقبال عليها في القرن التاسع عشر. والعلاقة هنا واضحة، إذ يمارس الكاهن نفس الإيهام ونفس التدليس ليحول الأوهام إلى حقائق.

23 . الستير (satyre) نصف إله من بطانة ديونيزوس مكلف بأعمال الأرض، له قرنان، وأذنان حادتان، وساقا تيس. وفي الاستعمال المجازي تطلق على الإنسان الشهواني الذي تستهويه الفتيات الصغيرات خصوصا.

24 . ألفريد فويي Fouillée ، (1838 - 1919) فيلسوف فرنسي ارتكز في مزجه التركيبي بين الوضعية والروحانية على نظرية الأفكار - القُوى. فهو يرى أن الأفكار تحمل في داخلها قوة تحقيقها.

25 - فرنسيس بيكون، أو اللورد ڤيرولام، عالم وكاتب أنجليزي (1561 - 1626)، كان رجل سياسة عديم الذمة. أبدي معارضته للفلسفة الكلامية وأيد المنهج التجريبي في العلوم. وضع نظرية الاستقراء ورتب العلوم ترتيبا جديدا. ومن المرجح أن تكون كتب العرب قد وصلته عبر الأندلس فاستفاد منها دون أن يشير إليها كمراجع.

26 - سيزاربورجيا (1475 - 1507)، من عائلة هاجرت من إسبانيا إلى إيطاليا فكان لها شأن عظيم. أبوه هو البابا ألكسندر السادس، الذي عرف بتقريب أفراد أسرته والمتاجرة في الأمور الروحية والمراتب الكهنوتية. وقد كان سيزار هذا كاردينالا لاأخلاقيا، وأميرا عديم الذمة، وقد اتخذه ماكيافيل نموذجا له في كتابه المعروف «الأمير».

27 . طوماس كارلايل (1795 - 1881) ، كاتب أنجليزي استخدم كتابة التاريخ وسيلة لإبلاغ آرائه وتعاليمه إلى معاصريه، نستشف لديه صوفية خفية لا تثق في العقل، فقد كان طهريا في شبابه، وتعارض مادية النفعيين. وهو يعتبر الفرد هو مركز الحياة الذي عليه تجاوز شكوكه وتردده وإثبات نفسه في الإيمان وفي العمل. ولكنه بدا في أواخر حياته حزينا ورجعيا، معارضا للتقدم باعتباره شيئا خاطئا، وللديمقراطية باعتبارها شيئا سطحيا.

إبسن Ibsen (1828 - 1906) كاتب مسرحي نرويجي تتميز مسرحياته التي تدور حول فكرة – قضية، أو أطروحة إن شئتم القول، بصدق شخصياتها وشغفها. كتب أعمالا متنوعة، منها المسرحيات التاريخية ذات الطابع الرومانسي، والفلسفية، والواقعية والأخلاقية، والرمزية في نهاية المطاف. وقد كان له تأثير كبير على برناردشو الذي كتب هو الآخر مسرحيات الفكرة.

28 . سافونارول Savonarole (1452 - 1498) ، اشتهر بفضل مواعظه في ساحة سان مارك، حيث كانت له نبوءات صادقة، وهاجم الفساد الأخلاقي في فلورنسا واستبداد عائلة ميديسيس. وبعد فرار هاته العائلة أثناء الاحتلال الفرنسي لهاته المدينة سنة 1494 خلا له المجال ليصبح سيدها فعدل الدستور ليصبح أكثر ديمقراطية. غير أن حرمان البابا ألكسندر السادس بورجيا لهاته المدينة حطم حياته. فبعد تكفيره سنة 1497 سُجن وعُذب قبل أن يتم شنقه ثم حرقه.

بيريكليس (حوالي 495 - 429 ق.م) قائد أثينا الشهير وخطيبها الذي عرف بفصاحته. حكمها حكما ديمقراطيا وحقق لها ازدهارا اقتصاديا ومجدا عظيما، حتى أن الحضارة الإغريقية عرفت في عصره باسم «قرن بيريكليس». ولكن الحرب التي دشنها مع اسبارطة قادت المدينة، واليونان كلها، إلى الكارثة. وقد توفي بالطاعون وقد بدأت حظوته تزول شيئا فشيئا.

29 . وجبت الإشارة إلى أن هذين الكاتبين ليسا شاعرين. فكيلر Keller (1819 - 1890) روائي وقصاص سويسري يكتب باللغة الألمانية، وستيفتر Stifter (1805 - 1868) روائي وقاص نمساوي.

30 . باسكال (1623 - 1662) عالم وفيلسوف وكاتب فرنسي. اشتغل بالعلوم في شبابه المبكر وابتكر آلة للحساب سنة 1642. كما وضع أسس علم الاحتمالات. ابتداء من سنة 1646 سيدخل في علاقة مع الأوساط الجنسينية في بور روايال، غير أنه استمر يحيا

حياته بشكل عادي إلى حدود سنة 1654 حيث اكتست حياته صبغة دينية صرفة، وذلك تحت تأثير أخته التي كانت من راهبات بورروايال. وقد دافع بحمية عن الجنسينيين ضد خصومهم اليسوعيين. حوالي سنة 1656 شرع في تأليف كتاب هدفه إقناع الكفار باعتناق المسيحية، وفيه ينفي وجود أي يقين منطقي مطلق، ويتساءل حول طبيعة الإنسان ومصيره، ليخلص إلى أن الدين وحده هو الذي بمقدوره مساعدة الإنسان. فالعقل لن يفيده، وعليه الإيمان لأن مصلحته تقتضي ذلك، ويكفيه النظر إلى معجزات المسيح والإنصات لحدس القلب في انتظار نعمة الرب.

31 . انبثقت فلسفة ڤيدانتا (Vedanta) عن الكتب الدينية الهندوسية الأربعة التي تسمى الڤيدا، هذه الكتب تتحدث عن كيفية انتقال المعرفة من جيل إلى جيل. وهذه الڤيدانتا هي نظام الفلسفة البراهمانية المبنية على نصوص فسرها الحكيم سنكارا في نهاية القرن 8 وبداية القرن 9 للميلاد.

32 . الثقل فزيائيا هو القوة التي بها تسقط الأشياء، وله علاقة بالجاذبية. أما هنا فهو مجرد مصطلح فلسفي يطلقه نيتشه على كل ما يثقل الإنسان ويمنعه من التحليق عاليا في سماء الفكر والتحرر للوصول إلى الإنسان الراقي في نهاية المطاف.

33 . حافظ (Hafis)، واسمه محمد شمس الدين (1327 - 1390) شاعر فارسي معروف، وهو من علماء الدين، وقد نظم مع ذلك قصائد في الحب والخمر جمعها في ديوان. أثنى عليه غوته لجمعه بين الورع والشبقية، وذلك بعد أن قرأ ديوانه مترجما إلى الألمانية. وقد تحدث عنهما نيتشه في الشذرة 371 من الكتاب الخامس من العلم المرح، وكذلك في جنيالوجيا الأخلاق.

حياة نيتشه وأهم الأحداث المزامنة لها.

1844 : ميلاد فردريك ڤلهلم نيتشه في بلدة روكن بمقاطعة ساكس مابين ڤيمار وليبزك. وقد كان أبوه كاهنا، وكذلك جده لأبيه وجده لأمه.

1846 : ميلاد أخته إليزابيث، وهي التي ستتكلف بنشر كتابه الهام والكبير «إرادة القوة» بعد موته.

1848 : إعلان الجمهورية في فرنسا مرة أخرى بعد إسقاط الملكية التي كانت تدافع عن مصالح الأغنياء فقط.

1849 : وفاة أبيه المعتل الصحة يوم 30 يوليوز. وبعده توفي الأخ الأصغر لنيتشه وعمره عام واحد. وهكذا انتقلت العائلة إلى نورمبرغ ليعيش فديريك في جو ديني صارم مع أمه وأخته. تابع دراسته الأولية في مدرسة البلدة. كانت طفولته مغلفة بضباب الوحدة، وهي وحدة سترافقه إلى آخر العمر. وقد بدأ اهتمامه مبكرا بمسائل كبيرة، كمسألة سبب وجوده في هذا العالم، وهي أمور لن تجيبه عنها المسيحية.

1853 : في أكتوبر من هذه السنة يدخل إعدادية PFORTA التي قضى فيها ست سنوات.

1857 : كتب أول سيرة ذاتية له. وهنا يظهر أنه منشغل بمسألة الشر والأمراض والموت، هل يكون الله مسؤولا عن هذا ؟

1858 : حصلت له أمه على منحة ليدخل ثانوية Schul Pforta القريبة من نورمبرغ، وهي ثانوية بروتستانية ولكن كثيرا من الأساتذة فيها يعتنقون «فلسفة الأنوار».

1861 : كتب أولى قصائده : إلى الإله المجهول. وهو إله لا علاقة له البتة بالرب المسيحي، إنه إله يخلق العوالم ثم يدعها تواجه مصيرها.

1862 : بحث في الثانوية من طرف الإدراة عن أسباب ضعف الإيمان المنتشر في صفوف التلاميذ. بسمارك يصبح مستشارا لبروسيا.

1864 : حصل على الباكالوريا، وأنجز عملا كبيرا حول الشاعر اليوناني ثيوغنيس. تسجل في جامعة بون شعبة فقه اللغة. تم تأسيس الأممية الإشتراكية في لندن بزعامة كارل ماركس.. لويس الثاني يمنح المساعدة لفاغز.

1865 : يتابع دروس فقه اللغة التي يعطيها ريتشل، ودروس التاريخ للأستاذ سيبيل. وقد تعلق ريتشل كثيرا بنيتشه، الطالب النابغ، كما وجد فيه نيتشه بغيته فلحق به في جامعة ليبزك، بعد انتقاله إليها بحثا عن جمهور أكبر، ليتابع دروسه وهناك اكتشف شوبنهاور من خلال كتابه : «العالم كإرادة وتمثل».

1866 : لقاء مع إيرڤين رود.. اشتغال آخر على قصائد أخرى لثيوغنيس. أصبح نيتشه يحظى برعاية خاصة من ريتشل. بروسيا تسحق النمسا في صادوا.. بوادر حدوث حرب ألمانية فرنسية. ڤاغز يغادر ميونيخ ليقيم في سويسرا قرب لوسرن، في بلدة تريبشن، على نفقة لويس الثاني.

1867 : ظهور الكتاب الأول من «رأس المال» لكارل ماركس في هامبورغ. نيتشه يقضي سنة من الخدمة العسكرية في نورمبرغ ضمن فرقة المدفعية.

1868 : تم تعيينه، بتوصية من ريتشل، أستاذا لفقه اللغة في جامعة بال وهو لم يناقش أطروحته بعد. في 28 ماي ألقى محاضرته الأولى عن هوميروس وفقه اللغة فأدهش الكل بعمق التناول. إنشاء الحزب العمالي الإجتماعي في ألمانيا. إضرابات في فرنسا وانجلترا وألمانيا. المؤتمر الرابع للأممية الإشتراكية ينعقد في بال بسويسرا.

1870 : ترقية إلى مرتبة أستاذ كرسي. إلقاء محاضرة حول المأساة (التراجيديا) الإغريقية. اندلاع الحرب بين ألمانيا وفرنسا، وقد شارك فيها نيتشه كممرض فقط بسبب صحته المعتلة. انهزام فرنسا، وبذلك انهارت الإمبراطورية وتم إعلان الجمهورية الثالثة. أوڤربك يحل ببال.

1871 : استأنف تدريسه بجامعة بال وأطلع ڤاغز على كتابه المخطوط حول «أصل التراجيديا». إعلان الكومونه في باريز، لكن الثورة أخمدت بالحديد والنار. قيام الإتحاد الألماني تحت قيادة الإمبراطور ولهلم الأول.

1872 : صدور كتاب «ميلاد التراجيديا» في ليبزك، وهو مايمثل تحولا مهما في اتجاه فكر نيتشه. إلقاء محاضرة حول «مستقبل التعليم» هاجم فيها التعليم الجامعي نفسه واعتبره قديما ومتحجرا. إضرابات في كل المراكز الصناعية الكبرى . وضع حجر الأساس لمسرح بايروث.

1873 : صدور «اعتبارات لاراهنة»، الكتاب الأول منها دافيدشتراوس، والثاني حول«منافع التاريخ ومساوئه للحياة». وهو كتاب يهاجم فيه الثقافة والتاريخ. مهاجمة فيلا موفيتز لهذين الكتابين مثلما هاجم «ميلاد التراجيديا» من قبل. وبدأت القطيعة بين نيتشه وأصدقائه القدامى. حرب أهلية في اسبانيا.

1874 : إصداره ثالث كتاب من الإعتبارات اللاراهنة حول شوبنهاور، وذلك بعد فشله في إتمام كتاب حول ڤاغنز. أول معرض للإنطباعيين في باريس.

1875 : احتمال نشوب الحرب بين ألمانيا وفرنسا. العرض الأول في بايروث. نيتشه يعتذر عن الحضور بسبب المرض. اتحاد الإشتراكيين الألمان. ثورة الشعوب السلافية في البلقان (البوسنة والهرسك) ضد تركيا.

1876 : الإفتتاح الرسمي لمهرجان بايروث. نيتشه ينجح في إتمام الإعتبارات اللاراهنة الرابعة حول ڤاغنر. اندلاع الفتن في بلغاريا والحرب في صربيا والجبل الأسود ضد الأتراك الذين سرعان ما أعادوا الأمور إلى نصابها. نجاح باهر لڤاغز، ولكنه واجه صعوبات مالية. خيبة أمل كبيرة لنيتشه الذي رأى حلمه في بعث الفن المأساتي الجرماني يذهب أدراج الرياح. فقد انخرط ڤاغنز في النضال من أجل توحيد الجرمان، وبسبب المرض يطلب نيتشه عطلة ويذهب صحبة بول ري إلى سورنت في إيطاليا عند مالڤيداڤون مايزنبرغ، وهناك سيلتقي ڤاغز لآخر مرة. اختراع التيليفون من طرف غراهام بيل.

1877 : إعلان روسيا الحرب على تركيا ودخول الأسطول البريطاني البحر المتوسط. تظاهر الإشتراكيين ضد الحرب في أوربا. طرد وهرينغ من جامعة برلين. عودة نيتشه إلى التدريس بعد العطلة المرضية.

1878 : صدور «إنسان مفرط في إنسانيته». محاولة اغتيال الإمبراطور مرتين. اجتماع القوى الكبرى في برلين قصد الحفاظ على السلم العالمي. اعتبار ماركس هو العدو الأول في ألمانيا وإصدار قانون استثنائي في حق الإشتراكيين.

تقديم عريضة ضد خطر استيلاء اليهود على السلطة. البابا ليون الثالث عشر على رأس الكنيسة. اختراع اديسون للمصباح الكهربائي.

1879 : بعد أن أجهده المرض وهجره الطلبة قدم استقالته التي تم قبولها بسرعة. إلا أنه ظل يتوصل بمعاش عن طريق أو ڤربك. صدور الجزأين المكونين للكتاب الثاني من «إنسان مفرط في إنسانية» وهما «آراء وحكم مختلطة» و«المسافر وظله». وتبدأ مرحلة

التيه والأسفار بحثا عن أصدقاء متفهمين وعن صحة قوية. إقامة في نورمبرغ وزيارة الأونغادين.

1880 : إقامة في نورمبرغ قبل الإتجاه إلى جنوة الإيطالية. بيتر كاست يصبح صديقه وسكرتيره، وهو أحد طلبته الأوفياء الذي يشاركه العزف على البيان. وهكذا وجد بعض الراحة لدى هذا الصديق وفي جنوة، المدينة المفتوحة على كل الآفاق.

1881 : صدور كتاب «الفجر». اكتشافه لبحيرات سلس ماريا التي سيقوم بزيارتها كل صيف، وهناك سيسمع رسالة زرادشت وتتجلى له فكرة العودة الأبدية. ولادة بيكاسو. وفاة دوستويفسكي. اغتيال قيصر روسيا الكسندر الثاني.

1882 : يقضي فصل الشتاء في جنوة حيث ستعرفه مالفيدافون مايزنبرغ على الشابة اليهودية لوسالومي. لقد كان الغرض من هذا اللقاء هو مصالحة نيتشه المسافر مع نفسه من خلال الحب وإعادة إدماجه من جديد في عالم خاصمه وقاطعه. وقد أزمع العيش معها، وكذلك مع بول ري، إلا أن الرياح لم تكن مواتيه في بحاره، فقد شعرت لو بأن طبعه الجامح يصعب ترويضه، كما نُقلت إليه أخبار كاذبة عن جثوها على ركبتها أمام ڤاغنر في بايروث، وبذلك جاءت القطيعة معها ومع ري، وكذلك مع الماضي كله. صدور كتاب «العلم المرح».

1883 : صدور الجزأين الأول والثاني من «هكذا تكلم زرادشت». بداية المرحلة الثالثة في حياة نيتشه حيث أصبح فكره واضح المعالم ومتميزا عن كل الفلسفات الأخرى، وكذلك تميز أسلوبه وصفاؤه. تنقله بين مدن البحر المتوسط (روما، جنوة) والشمال (سلس ماريا، نورمبرغ، بال) وقضاء فصل الشتاء في مدينة نيس الفرنسية التي تتميز بهدوء السماء وصفائها وبريح المسترال الشبيه يخطى الراقص. وفاة ڤاغز وماركس.

1884 : صدور الجزء الثالث من زرادشت. تنقل بين إيطاليا وسويسرا ثم العودة إلى نيس. دخول ألمانيا ميدان الإستعمار وحصولها على أولى مستعمراتها في أفريقيا.

1885 : لوسالومي وبول ري، اللذين ظن نيتشه أنهما خاناه من قبل، يصدران كتاب «la naissance de la consience» وكتاب «Combat pour Dieu» ونيتشه يصدر الجزء الرابع من زرادشت على نفقته. إقامة في سلس ماريا، البندقية، نورمبرغ، فلورنسا ثم العودة إلى نيس. وفاة ڤكتور هيجو وصدور «جرمنال» لإميل زولا. فرويد يتابع دروس شاركو في باريس، وباستور يكتشف دواء الكلب.

1886 : صدور كتاب «ماوراء الخير والشر». تأليفه الجزء الخامس من « العلم المرح» وكتابته مقدمات جديدة لأغلب مؤلفاته. إعداده لكتاب «إرادة القوة» الذي نشرته أخته بعد وفاته. تنقله بين مدن إيطاليا ثم ألمانيا فسويسرا ثم العودة إلى إيطاليا.

1887 : اكتشافه دوستويفسكي. تأليفه كتاب «جينالوجيا الأخلاق» في سلسل ماريا. عودته إلى نيس عبر البندقية.

1888 : وفاة ولهلم الأول ثم فردريك الثالث واعتلاء ولهلم الثاني عرش ألمانيا بحيث سرق الأضواء من بسمارك رغم قلة تجربته. مرور عشر سنوات على القانون المضاد للإشتراكيين، وهكذا نشروا الأعلام الحمراء فوق كل مدن ألمانيا.

صدور كتب «الحالة ڤاغنز» و«أفول الأصنام» و«المسيح الدجال». إعداده لكتاب « هذا الإنسان». أقام في تورينو ثم سلس ماريا قبل أن يعود إلى تورينو.

1889 : بدأت تلوح بوادر نجاح نيتشه في كسب المريدين، فقد بدأ جورج براندس في الدنمارك، وهيبوليت تين في فرنسا، وسترنبرغ وكارل سبيتلر، يتحدثون عن هذا الذي يريد ارتياد مجاهيل المستقبل. إلا أن القدر كانت له وجة أخرى، فقد انهار نيتشه وهو يعانق حصانا كان صاحبه يضْرِبُه، وبدأ يكتب إلى أصدقائه القدامى رسائل بأسلوب غامض ومبهم. جاء أوڤربك من بال بسويسرا فأخذه إلى المستشفى. كشف الفحص عن وجود مرض الزهري واستحالة العلاج، وهكذا أصيب بالجنون ودخل في غيبوبة تامة.

1890 : الرايشتاغ يلغي القانون المضاد للإشتراكيين. الديمقراطيون الإجتماعيون يحققون فوزا ساحقا في الإنتخابات. نيتشه تأخذه أمه إلى نورمبرغ.

1894 : أخته إليزابيث تؤسس أرشيف نيتشه في نورمبرغ.

1897 : وفاة أمه. أخته تأخذه إلى ڤيمار.

1900 : وفاة نيتشه 25 غشت وقد بلغ المجد وصار له مريدون على طريق الإنسان الراقي.

إرادة القوة

محاولة لقلب كل القيم

يقاس تقدم الأمم بالرقي الفكري الذي تحققه، وليس بالمنجزات المادية على الأرض فقط. ولا يجادل اثنان في كون أمتنا لا تزال تتخبط في ظلمات التخلف، على مستوى العقل والسلوك والفكر. ومما يزيد طينها بلة تسلط التطرف على جسدها ينهشه كالسرطان، والحكومات تتفرج، أو تهرع في أفضل الأحوال إلى الإجراءات الأمنية، مستبعدة مقارعة الفكر بالفكر والحجة بالحجة للحد من هاته الأرضة الخطيرة؛ وتشتت جماهيرها بين فضائيات تنحو هذا المنحى، وأخرى تبث الفكر الخرافي، وثالثة ترى في العري والغناء المبتذل والرقص فنا يهذب النفوس ويسمو بها. إلى أين؟ إلى قمة هاوية ما لها من قرار ولا شك. ما أحوج هاته الأمة المجيد ماضيها إلى قادة عظماء أقوياء، في الفكر والدين والسياسة، يعيدون تصحيح مسارها ويمضون بها نحو ما هي جديرة به، وهو أمر لن يتم بين عشية وضحاها، بل يمتد على مدى عدة أجيال، ويتطلب بالفعل إرادة قوية لا تنثني ولا تلين.

المترجم



Àdám Zoltan, 1990
Les Ateliers de Budapest

ISBN 9981-25-627-7

